

هذه حياتي

منذ الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزي زكي بطرس



عبدالمجيد عبود السحار

مطبعة دار مكتبة مصر

هذه حياتي

عبد الحميد جودة السخار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدق "النهضة"

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السخار وشركاه



هدوء مشوب بقلق يسيطر على المكان وعلى من فيه ، وما كان يعكر ذلك الهدوء إلا وقع أقدام نسوة يذهبن ويبحثن بين الحمام وغرفة النوم . هذه تحمل طستاً فارغاً ، وتلك تحمل إناء به ماء يتصاعد منه البخار ، وأخرى تسير على أطراف أصابعها حتى غرفة النوم فيمس أذنيها أنات أمي المكتومة ، فتعود أدراجها وقد فطنت إلى أنها لا تزال تعاني آلام المخاض .

لم تكن هذه أول مرة تضع فيها أمي

فقد وضعت من قبل أنثى ماتت صغيرة ، ثم وضعت بعدها أربعة ذكور ، سقط آخرهم من الشباك بينما كانت ابنة عمه تحمله وتلاعبه فمات . وقد أثار موته عاصفة من القلق والخوف في الدار وفي دور الأسرة التي كانت قريبة من الدار ؛ كانوا جميعاً يرقبون التحقيق الذي يجريه الشرطة في فرع ، خشية أن توجه أية تهمة إلى الصبية التي كانت تحمله ، أو أن تتهم أمي بالإهمال . فلما حفظ التحقيق عادت الطمأنينة إلى القلوب ، ولم يعد أحد يذكر الطفل الذي اتخذ طريقه إلى بطن الأرض من الشباك . ومزق صوت أمي السكون فراح النسوة يتبادلن نظرات القلق ، ورفعت إحداهن أكف الضراعة إلى السماء وراحت تبتهل في حرارة :

— يارب حقق لها أملها .

فقال النسوة جميعاً من قلوب سليمة :

— يارب .

وعلا في الغرفة بكاء وليد جاء إلى الدنيا رغم أنفه ، يستقبلها بالعويل ليبدأ رحلة الموت .

وخف النسوة إلى غرفة النوم والقلوب تدق خوفا بين الضلوع ، وفي الأعين لهفة .
وما أن رأين إطراق المولدة وما في وجهها من شرود حتى تيقن أن الله لم يحقق أمنية أمي ، فانسلن إلى حيث جئن بعد أن قلن في أصوات خافتة مضطربة :
— حمدا لله على السلامة .

وفطنت أمي إلى ما في نبرات الأصوات من خيبة فسرى في جوفها خوف ،
وأرادت أن تقطع الشك باليقين فراحت تفحص عن الوليد الذي وضع إلى جوارها ،
فاكفهر وجهها وأولته ظهرها في غضب ، فقد كنت ذكرا ولم أكن أنثى كما كانت
تتمنى .

وجاء النسوة على استحياء كأنما كان الخطأ الذي حدث من فعل أيديهن ، فقلن في
اعتذار :

— هذه مشيئة الله .

— من منا يستطيع أن يخلق أصبعا من أصابعه ؟

— الحمد لله على ما أعطانا .

فقالت أمي في صوت خافت :

— الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه .

ولم يكن ما تحرك به اللسان نابعا من القلب ؛ كانت حزينة في أعماقها وقد خطر
لها خاطر فاستجابت له ، فأبت أن تلقمني ثديها حتى أتسرب إلى بطن الأرض كما اتخذ
أخ لي من قبل طريقه إليه سربا .

ومر الوقت وعضني الجوع فبكيت ، فأحاط النسوة بسرير أمي وأخذن يتوسلن
إليها :

— ما ذنبه ؟ هذا حرام .

— أرضعيه وأخزي الشيطان .

— هذا كفر ، هذا عمل لا يرضى الله .

ووضعوني في حجرها وكلمات التوسل تخرج لينة رحيمة من بين الشفاه ،
وتحركت الأمومة في صدر أُمى فراحت تعتصر ثديها بين أصابعها ليتدفق اللبن إلى
فمى ، فتدب الحياة في الكائن الذى بدأ يتشبث بالحياة منذ أن عرف الهواء طريقة إلى
رئتيه .

وجئت إلى الحياة غير راغب فيها ، وغير مرغوب في .

٢

كان أبى ابن خالة أُمى ، وقد سُمى إخوتى بأسماء أخوالى ما عدا أمين الذى سقط من
الشباك . ولا أدري أكان ذلك حبا من أبى لأبناء خالته أم من تأثير أُمى على أبى ؛ ولم
يكن اختيار اسم لى أمرا صعبا فقد سميت عبد الحميد تيمنا باسم خالى الرابع . ومرت
الشهور ولم أر غير من فى البيت ؛ كانت شقتنا الضيقة كل عالمى ، فإذا ما ضاقت أُمى
بى أنزلتنى إلى قدم الخير جارية جدى الأكبر ، وكانت لها غرفة فى فناء الدار المظلم تطل
على الحارة ، فكانت الجارية تداعبنى أمام أُمى ، حتى إذا ما صعدت أُمى إلى شقتنا
ألقتنى الجارية فى ركن من أركان حجرتها ، وراحت ترتق بعض ثيابها أو تخلع جلبابها
الأسود لتستبدله بآخر دون أن تحفل بى .

وبدأت أحبو فخرجت إلى فناء الدار أكتشف ما فيه دون أن أعبا بالظلام الذى يحيم
عليه فى النهار ، وارتطمت بمواجير العجين وبلاليص العسل ، وكانت الفرحة تملؤنى
كلما فتح باب البيت الخارجى ورأيت الشمس تغطى الحارة ، التى أقطعها محمولا إلى
بيت عمتى المواجه لنا والذى كان يبعد عنا أربعة أمتار .

كان حب الاستطلاع يغرينى على أن أحبو إلى الحارة ، أن أكتشف العالم الخارجى
العجيب . فكنت أحبو نحو النور كلما فتح الباب الخشبي الأخضر ، ولكن كانت
محاولاتى تتحطم فى كل مرة ، فما أكاد أصل إلى العتبة حتى تخطفنى يدا أُمى أو قدم الخير
أو أحد إخوتى .

و ذات يوم رأيت الباب مفتوحا على مصراعية ، فغافلت كل من في الدار وانسللت
أحبو إلى الحارة وأنا أستشعر سعادة . كانت الفرحة تغمرني لأننى أصبحت طليقا في
العالم الواسع ، يداعب وجهى النسيم ، ولم تدم فرحتى طويلا فقد صك مسمعى وقع
حوافر حصان جاء يعدو في الحارة ، فسمرت في مكاني وقد استولى على رعب
شديد ، من أين نبع كل هذا الخوف ؟ لا أدري .

وانقض على الحصان كالقدر ، وكما يحدث في أفلام السينما إذا بيدين تتشبلا من
بين قدمي الحصان الأماميتين قبل أن أصاب بسوء . ولا أعرف حتى اليوم من الذى
ارتكب هذه الفعلة الشنعاء وأنقذ حياتى ، فلولاه لما زادت رحلة الموت على سنة ،
ولمت مثلما مات قنصوه الغورى تحت سنابل الخيل في معركة مرج دابق .

ولا أذكر ماذا دار بين أمى وبين قدم الخير من معارك كل ما قيل لى بعد ذلك أن
أمى التى كانت زاهدة في يوم مولدى أشبعت الجارية ضربا ولم ينقذها منها إلا أهل
البيت ، وأنها ضمتنى بعد ذلك إلى صدرها في حنان دافق ، وراحت تسع الدموع
كلما فكرت في أننى كنت سأصبح جثة هامدة في حجرها كما صار أخى أمين قتيلا في
أحضانها بعد أن سقط من الشباك .

ومضى عام على مولدى ولم يحتفل أحد في بيتنا بهذه المناسبة ، ولو احتفل في أسرتنا
بأعياد الميلاد لما مضى يوم دون احتفال في الحارة ، فقد كانت الأسرة جميعها في بيوت
متقاربة ، وكان عددنا وعدد أبناء أعمامنا وعماتنا يزيد على عدد أيام السنة .

وفي الليل استيقظت مفزوعا على عويل وصراخ يزلزل أركان البيت فبكيت ، وسمع
عمى حنفى بكائى وهو يهرول على السلم فعاد وحملى على ذراعه ، وكان يحمل في يده
الأخرى مصباح جاز لينير له الطريق ، واندفع لى إلى الحارة والصوات ينبعث من كل
البيوت ، وانطلق إلى البيت الكبير وبعض النسوة والأطفال في أثره ليكون ، فعمى
قاسم قد مات .

كان عمى قاسم قد خرج على تقاليد الأسرة ؛ فرجال الأسرة كلهم تجار كانوا
يغلقون محالهم إذا أذن المؤذن بالمغرب ثم يعودون إلى بيوتهم لا يغادرونها إلا في صباح
اليوم التالى لينطلقوا إلى عملهم ، فما كانوا يزورون أو يزارون وما كانت لهم

صداقات . أما عمى قاسم فقد كان تاجرا مثلهم ولكنه كان يختلف عنهم في أنه رجل اجتماعى ، يمضى جزءا من الليل فى بيوت الأعيان يتحدث فى شئون الاقتصاد والأدب والسياسة ، فتوطدت بينه وبين كثير من رجال ذلك العصر صداقات ، فإذا ما قامت مشكلة بين رجال السلطة وأحد رجال الأسرة كان عمى قاسم هو حلال المشاكل ، فكان موته خسارة فادحة ، وزاد فى الفجاعة فيه أنه كان فى ريعان الشباب .

ودفعنى عمى حنفى إلى أمى فضاقت أمى لى . إنها تريد أن تلتمس وأن تشق ثوبها حتى لا تكون أقل حزنا على عمى الفقيد من نساء الأسرة ؛ فأظهار الحزن فى أسرتنا دليل الأصالة والوفاء . فدفعتنى أمى إلى قدم الخير جارية جدى الأكبر ، كانت أسود من الفحم وكان قلبها أسود من وجهها ، فكانت تقرصنى كلما حملتنى لأبكى فيخطفنى أى صاحب قلب حنون منها فتستريح من حملى .

وكان وفاء أهلى للموتى عجيبا ، فما يأتى يوم الخميس حتى تأتى عربة كارو لتحمل الفراش إلى المقابر ، وكان حوش القرافة قريبا من بيتنا ، فلا أدرى إن كان ذلك مجرد صدفة ، أو كان تدبيرا من رعوس الأسرة التى تعيش للموت .

وحملت من حارتنا — حارة صلاح — إلى شارع الحسينية ، وما سرنا فيه إلا عشرات الأمتار حتى وصلنا إلى قبو من الحجر ، فخرجنا منه إلى ساحة واسعة بها مراجيح وأراجوز ووابور طحين ، ورحنا نشق طريقنا بين الذين جاءوا للهو والذين جاءوا لزيارة القبور يحملون سلال الرحمة على رعوسهم وفى أيديهم حزم الخوص والورود ، حتى بلغنا بوابة الزلافة ، وهى بوابة حديدية تفصل بين الأحياء والأموات .

ووضع أحدهم فى يد حارسة البوابة « نكلة » ، وكانت فى ذلك الوقت عملة لها قيمتها . إنها مليمان تشتري بهما بيضتين أو رغيف عيش كبير من الدقيق الأبيض الذى كانت أجولته تتدفق من واپور الطحين . ففتحت الحارسة القفل الكبير وسحبت السلسلة الحديدية التى كانت تضم ضلعتى الباب فكان لها صليل عجيب ، صليل يوحى بانفتاح أبواب الرحمة ، ودلفنا من الباب مسرورين إلى القبور .

كان لكل قبر شاهدان ، ولو أننى عشت فترة كبيرة بين هذه الشواهد إلا أننى لا

أدرى حتى اليوم علام يشهدان ؟! وكان لحوشنا شخشيخة مزينة بألواح الزجاج الملون ، فكانت لنا بمثابة المنارة للسفن الآتية في البحار من بعيد ، كنا نسير على هداها نتلوى بين المقابر كالثعبان حتى نبلغ حوشنا الكبير .
وجاء نساء الأسرة يتوشحن بالسواد فارتج المكان بالعويل ، وما غابت الشمس وأضيئت المصابيح حتى مدت الموائد عامرة بالفطير والجبن والزيتون وما لذ وطاب من الفواكه ، والتمهم النسوة الموز في شراهة بحجة أن عمى المرحوم كان يحب الموز .
وفي الليل كنت أخرج مع أبناء عمومتي الذين يكبرونني للعب أمام الحوش . كانوا يقفون على القبور ويقفزون ، وكانوا يلعبون الاستغماية ويختفون خلف الأحواش ، وقد تبلغ الجرأة بأحدهم فيختفي في داخل قبر مهجور ؛ فتعلمت منذ الصغر دون أن يلقنى أحد أن المقابر ملعب كبير ، وأنها نادى النسوة اللاتي لا يغادرن دور أزواجهن لأنه من العيب أن يخرج رجل مع زوجه في الطريق العام . فكانت غرفات أحواش القرافة متنفس النساء حبيسات الدور ، وما كان نصيب الميت من وقتن إلا دقائق معدودات ، ثم يأخذن في أكل لحوم إخوانهن وأخواتهن ، فالغيبة أشهى ما يخرج من بين شفتى أية امرأة في الوجود .

٣

تعلمت المشي وتعلمت كراهية قدم الخير ، فما أن يفتح باب البيت وأنا معها حتى أنسل إلى الحارة ، وقد كان بعدى عنها يريحها فكانت تتعمد أن تترك الباب مفتوحا لأخرج وأبتعد عنها . وقد خرجت ذات يوم فوجدت بيتا بالقرب من منزلنا يبنى ، فوقفت أشاهد العمال وهم يغدون ويروحون ، ثم رحت أتقدم نحوهم خطوة بعد خطوة .

كانت هناك امرأة ترتدى السواد تصدر أوامرها لهذا وذاك ؛ إنها صاحبة البيت ، والتفتت نحوى فوجدتني قد صرت بين أرجل العمال ، فالتفتت ناحية شاب يرتدى جلبابا أبيض مقلما بخطوط زرقاء وفي إحدى يديه مرآة وفي الأخرى ملقاط وقد انهمك

في اصطلياد الشعيرات التي ظهرت في وجهه ، فصاحت فيه :
— يا منيل على عينك يا عباس ، أبعده الولد .

وجاء عباس وحملني ثم وضعني في حجره وراح يستأنف ما كان فيه من التقاط
شعيرات وجهه . وحن وقت الغداء فجلست أم عباس وعباس يأكلان ويمسحان
أيديهما في جلبابى ، وكان هذا وهو كل نصيبى من الطعام .
وعدت إلى البيت ورأت أمى ما فى ثيابى من آثار فاتهمتنى بأننى أكلت معهما ، ولما
كانت الأصول والتقاليد والشهامة تقضى بأن يرد لهما أكثر مما أكلته فقد أرسلت إليهما
أمى فى العشاء ألوانا من الطعام ، فكان أن توطدت الصداقة بينى وبين عباس وأم
عباس ، فكانا يمسحان أيديهما فى ثيابى إذا ما أكلا ، وكانت أمى ترسل إليهما صحافا
مما تطبخه لأبى وإخوتى .

وتوطدت الصداقة بينى وبين أم عباس الصباحية فكانت تنادىنى بزوجها العزيز ،
وكان عباس يحملنى ويدور فى الحى بحثا عن الأموات ، فقد كانت أم عباس الصباحية
ندابة تعيش على مصائب الناس . وكانت أمى تفرح بغياى عن البيت لتفرغ للعجين
والخبيز والطبخ والغسيل ، فكانت تكافى أم عباس بكل ما يخرج من فرننا العتيد أو من
الحلل التى تتبادل أماكنها فوق الكانون من الصباح حتى المساء حين يعود أبى من
دكانه ، فالعشاء هو الأكلة الرئيسية عند التجار .

وذات يوم حملنى عباس على ذراعه وراح يقطع الحى من الشمال إلى الجنوب ومن
الشرق إلى الغرب ، ثم عاد إلى أمه متهلل الأسارير وقال لها بصوت نسوى منغم :
— الخير النهارده يا أمه كثير : ميت فى الصواوى وميت فى درب السماكين وميت
فى الخواص .

ولمعت عينا أم عباس الصباحية سرورا ، ولم تستطع الابتسامة التى انفرجت عن
كهف فيها أن تزيل التجاعيد التى تملأ وجهها ثم قالت :
— الولد ده وشه حلو علينا ، حللى له بقه .

وأعطانى عباس قالبا صغيرا من السكر فقرحت به فرحا شديدا ، وإن كان من
السكر الذى أغرتنى أم عباس بسرقة من عند أمى .

كان صوت أم عباس أجش كأنما لم يخلق إلا للندب ، وكانت دقات الدفوف التى تصاحبها فى أثناء العديد تخلع القلوب ؛ ولكنى كنت أمتلئ نشوة كلما صك صوتها أذننى . كان عندى أعذب من صوت الشيخ يوسف الميلاوى الذى فاز على كاروزو المغنى الإيطالى الأشهر فى معرض باريس ، فلا غرو فقد كانت تنادينى على الدوام بزوجى العزيز ، فكان من الوفاء أن أعجب بكل ما يصدر عنها من أصوات منكرة تعصر الدموع من العيون .

ولم يعد عباس يحملنى فى تجواله فى الحى فقد أصبحت أستطيع السير ، فكنت أمسك بذيل جلبابه وأسير إلى جواره ، وكان هو سعيدا بذلك فقد أصبحت يداه حرتين ليمارس لعبته ، كان يمسك المرأة بيد ويلتقط بالملقط باليد الأخرى الشعيرات التى كانت تغافله وتنمو فى وجهه . ولم أكن أفهم فى ذلك الوقت سبب مطاردته المستميتة للشعر الذى بدأ يظهر فى ذقنه وشاربه ، ولا سبب تأوده فى مشيته وصوته الطرى .

وانطلقنا ذات يوم بعيدا عن الدائرة التى اعتدنا أن نتجول فيها بحثا عن الرزق ، فلم نذهب من الصوائى إلى درب السماكين بل عرجنا إلى جنيحة الكوة ، وسرنا فى طريق بين الأشجار والحقول . ورأيت لأول مرة فى حياتى الساقية فمددت إليها بصرى وأنا نشوان ، فقد كنت أكتشف دنيا جديدة لم أر مثلها من قبل .

كان مكان شارع الجيش اليوم مزروعا خبيزة ، وكان بعض المزارعين يجمعها وفى يده شرشرة يحشها بها ، فاستهوانى العمل فوقفت أرقبه . وسار عباس وهو مشغول عنى بالمرأة والملقط ، ولم يشعر بأننى تركت ذيل جلبابه إلا بعد أن قطع مسافة بعيدة ، فعاد إلّى مهرولا ثم أخذ بيدي وراح ينهرنى بصوته النسوى الطرى .

وبلغنا حى الظاهر وكان كل سكانه من اليهود ، لم يكن المسلمون قد زحفوا فى مراحل رقيهم إلى ذلك الحى . ومن أحد المنازل سمعنا بكاء وذهب عباس يسأل عن الميت فعلم أنه شاب يهودى ، فدخل على أهله يعرض خدماته فاستجاب له الناس ، فخطفنى من الأرض وحملنى على ذراعه وراح يهرول منفعلا ، فقد أتم أعظم صفقة فى حياته .

وحمل إلى أمه البشرى فكادت المرأة تزغرد لذلك التطور الذى طرأ على حياتها ،
فقد أصبحت ندابة أفرنجى ، وذاع فى الحارة الخبر فراح النسوة يتناقلنه من الشبايبك ،
فهو نصر باهر بهم كل جيران أم عباس الصباحية !
والتقم عباس أذن أمه وأخبرها أن ليس فى الدار بن ، فقامت أم عباس إلى تنكة قهوة
بها بقايا تنوة ومدت أصبعها ثم راحت تلوث به فمى وملابسى ، وأشارت إلى ابنها
ليحملنى إلى أمى .
وذهب بى عباس إلى بيتنا ودفعنى إلى أمى ، فلما رأت على فمى آثار القهوة قالت
لى معاتبه :

— كده شربت قهوتهم !

وتظاهر عباس بأنه يتحرك للانصراف ، فقالت له أمى :

— استنى .

وانتظر عباس وغابت أمى قليلا ثم عادت بقرطاس مليء بنا ودفعته إليه ، فقال وهو
يمد يده يأخذ القرطاس :

— مالوش لزمه ، دا برضه ابننا .

وأسرع عباس ليصنع القهوة ويصبها فى الفناجين ، ويدور بها على الذين جاءوا
مهئين أم عباس بأنها أصبحت ندابة أفرنجى .

٤

تسرب إلى قدم الخير أن الحكومة أصدرت أمرا بتحريم تملك العبيد . إنها نشأت فى
بيت جدى الأكبر ثم انتقلت إلى بيتنا مع جدى ، فلا أدرى أخذها جدى بالميراث أم
أن أخاه قد زهد فيها هربا من إيوائها وإطعامها .

وقد نشأت وأنا أرى قدم الخير فى حجرتها على يسار الداخل ، وكانت فى نظرى
من لوازم البيت كمواجير العجين وبلاليص العسل المتناثرة فى فناء الدار المظلم قبالة
حجرتها . وكنت أرتطم أحيانا بالمواجير وأحيانا بقدم الخير ، وكانت المواجير تؤلمنى

وكذلك كانت قدم الخير . إلا أنها كانت تتفوق على المواجير بصراخها في وصياحها لتظهر تيرمها بحياتها ورغبتها في أن يعتقها جدى .

كانت تتحرق شوقا إلى الحرية ، وما كان أحد في بيتنا يرغب في أن يتمسك بها ولكن الإشفاق عليها من الضياع في الدنيا الواسعة بعد أن صارت عجوزا لا قدرة لها على العمل ، هو الذى جعل كل من فى البيت يحتملون حماقاتها .

كانت كلما رأت رجلا من رجال البيت ضحكت ضحكة خليعة لتثير غيرة نساء البيت ، إلا أن النسوة كن يقابلن ضحكتهما الماجنة بابتسامة ساخرة . كن جميعا يعلمن أنها ضبطت ذات ليلة فى أحضان جدى الأكبر وأن الحاجة الكبيرة قد أشبعها ضربا ، كان ذلك من عشرات السنين يوم أن كانت شابة حبشية قد تسيل لعاب من يملكها ، أما اليوم فهي حطام امرأة ، هيكلى عظمى شد عليه جلد أسود .

وصارت قدم الخير لعبتنا المفضلة أنا وإخوتى وأبناء عمومتى ، كنا نقف فى الحارة ونتسلق الحائط حتى نصل إلى شباك غرفتها ثم نصرخ صرخة مدوية ، فكانت تهب من رقدتها مفزوعة ثم يتدفق من فمها السباب ، وما كنا نسمع منه شيئا لأننا نكون دائما غارقين فى الضحك مما فعلنا .

وكانت قدم الخير تقول لى إننى أكثرهم شقاوة وإن لم أخرج بعد من البيضة ! وكانت تحاول أن تمسك بى لتقرصنى إلا أننى كنت أفلت منها ، ولا أكتفى بذلك بل أركبها بسخريتى . وذات يوم أمرتها أمى أن تحمىنى ، فأخذتنى إلى الحمام وكان على يمين الداخل من باب البيت ، وكان به طست نحاس فوق الكانون والبخار يتصاعد منه . وخلعت ملابسى ووقفت مطمئنا ، وإذا بقدم الخير تملأ الكوز بالماء المغلى وتصبه فوق رأسى . وصرخت صرخة مفزوعة دوت رهيبه فى البيت ، فلم تكتف قدم الخير بذلك بل ملأت كوزا آخر وراحت تتعقبنى فى أرجاء الحمام . إنها لو صبت على الماء فستخرج روحى من بين جنبى ؛ إنها ولا شك تريد أن تقتلنى . وتملكنى هلع شديد فأخذت أصرخ والدموع تنهمر من عينى ، وفتح باب الحمام فإذا بأمى تخطفنى وتضمنى إلى صدرها وهى تقول فى خوف :

— فيه إيه ؟ . فيه إيه ؟ . إيه اللى جرى ؟ .

ورأت أُمى البخار الذى يتصاعد من الطست ولحمى الذى صار فى لون الدم ،
فقطنت إلى كل شىء ، فوضعتنى على الأرض وانهاالت على قدم الخير ضربا وهى
تقول :

— لانا لهى فى البيت ده .

وانعقد مجلس الأسرة فى المساء ، أُمى تصر على خروج قدم الخير من البيت وجدى
يقول فى إشفاق :

— بس حتروح فىن ؟

واشتدت المناقشات ، وأخيرا رضى الجميع أن تبقى قدم الخير فى البيت حتى
تموت . ولم ترض قدم الخير بذلك القرار ؛ إنها تريد حريتها ، تريد أن تخرج من بيت
ذها ولكنها ما كانت تدري إلى أين تذهب ، وليس لها أحد فى القاهرة الواسعة .
ومرت الأيام وفكرة الفكاك من العبودية تراود الجارية ، وذات يوم استأذنت فى
الخروج لتبحث لها عن مأوى فأذن لها . وغابت طوال النهار وارتفع صوت بائع اللبن
الزبادى فى الحارة ، إنه الأذان بإقبال الليل ، فقالت جدتى فى إشفاق :

— يا ترى يا قدم الخير انت فىن ؟

وجاءت قدم الخير بعد أن عاد جدى وعمى وأنى من دكاكينهم ، فأسرع الجميع
يسألونها أين كانت ؟ فقالت : إنها كانت فى شبرا ، وقد وجدت هناك غرفة ستتقل
إليها .

وفى الصباح جاءت عربة كارو ووقفت أمام البيت ، وحملت قدم الخير صندوقها
وبعض أثاث حجرتها ووضعت كل ما تملك فوق العربة الكارو ، وقبل أن تركب ألقت
نظرة على بيتنا وانهمرت الدموع من عينيها ، ونظر النسوة من الشبايك ييكن .
وأخذت أنظر إلى قدم الخير وهى تبكى وإلى النسوة من أهلى اللاتى ييكن وأنا فى
حيرة من أمرى . لم أكن فى ذلك الوقت أفهم شيئا مما يجرى أمام بصرى ، كنت قد
تعلمت فى الثلاث السنوات التى عشتها أن البكاء من التوافد لا يكون إلا على الميت ،
ولم يدر بخلدى أن ما كانت قدم الخير مقدمة عليه أقسى من الموت ، فالميت يموت مرة
واحده يوارى بعدها فى التراب ، أما هى فقد تموت كل صباح وكل مساء إذا ما نفذ

ما معها من مال ولم يوافها الأجل . إنها وحيدة بلا عائل في بحر الدنيا المتلاطم ، وحيدة أنهكتها السنون حتى أصبحت غير قادرة على أن تكسب ما تمسك به الرمق . لماذا تركت المجنونة بيتنا ؟! هل كانت حريتها تساوى كل هذا العنت ؟! إننى غير قادر على تقديم حقيقة الدوافع التى دفعتها إلى هذه المخاطرة الرهيبة ، ولن أستطيع معرفة حقيقة مشاعرها إلا إذا فقدت حرיתי وقدرتي على العمل .

٥

كانت حارتنا أشبه بثعبان يصل ما بين شارع الصواوى وشارع الحسينية ، وكان شارع الحسينية فى ذلك الوقت هو الشارع الرئيسى فى القاهرة ، فالجيش يمر فيه إذا خرج من العباسية إلى القلعة أو إذا عاد من القلعة إلى العباسية ، واحتفال المحمل ينساب فيه من أرض مولد النبى ومكانها الآن كلية الهندسة بجامعة عين شمس ، إلى وكالة الكسوة الشريفة بالجمالية .

وكانت الحرب العالمية الأولى ناشبة فكانت القاهرة غاصة بجنود الإنجليز ، وجنود مستعمرات الإمبراطورية البريطانية التى لا تغيب عنها الشمس ، وكان شارع الحسينية هو الطريق الذى يتبخر فيه جنود الحلفاء على ظهور جيادهم .

وفى ذات يوم بينما كنت ألعب أمام المسمط المواجه لبيت أم عباس الصباحية ، فى ذلك الانتفاخ غير الطبيعى فى جسم ثعبان حارتنا ، إذا بجنود حمر الوجوه على ظهور جيادهم يدخلون حارتنا وأعينهم مصوبة إلى الشبايك . جاءوا ولا شك ليشاهدوا جمال نساء القاهرة وليسعدوا بالعيون الساحرة . كان مجرد ظهور امرأة خلف شيش الشباك يحرك الخيال ويوقظ المشاعر الكامنة .

ودنا حصان منى والتفت راكمه إلى الشىء الصغير الواقف على الأرض الذى هو أنا ، فابتسم ثم ترجل وحملنى وقبلنى وأعادنى إلى الأرض مرة ثانية .

كانت أم عباس الصباحية جالسة فى الشمس أمام بيتها وقد رأت ما فعل العسكرى الإنجليزى . إنه قبلنى ثم وضعنى على الأرض واعتلى ظهر جواده ، كان كل شىء يسير

سيره الطبيعى ، وما كان ذلك ليرضى ندابة حتى ولو كانت ندابة أفرنجى فصاحت
متصنعة الفرع :

— عباس ! واد يا عباس .. الحق الولد .

وخرج عباس يهرول وفي يده المرأة وفي الأخرى الملقط ، واندفع نحوى ثم خطفنى
كأنما ينتزعنى من براثن الأسد البريطانى ، وعاد إلى حيث كانت تجلس أمه على حصيرة
وهم بأن يجلسنى إلى جوارها ، ولكن ذلك ما كان ليرضى الندابة فقالت لابنها :

— وديه لامه وقول لها إن الإنجليز كانوا ح يخطفوه لولا اننا خلصناه من أيديهم .
كنت فى ذلك الوقت لا أفهم الدافع لها على اختراع هذه الكذبة . إن شيئاً مما تقول
لم يحدث ولم يخطر على بالى أن أعترض ، فكيف أكذب من تنادىنى دائماً بزواجى
العزير ؟. وإنها كانت تحرضنى على أن أسرق لها السكر من عند أمى ، فكنت أفعل
وأخفى السكر فى جيوب جلبابى ثم أنسل هابطاً إليها لأضع السكر فى راحتها ، وكانت
تحرضنى على أن آتيها بالبن أو بما فى بيتنا من خيرات ، فما كنت أتردد فى تنفيذ رغبات
زوجتى العزيزة !.

وأخذنى عباس من يدى وذهب إلى بيتنا ، ثم قال لأمى بصوته النسوى الممدود :
— احمدى ربنا ، لولا أمى كانوا الإنجليز يخطفوه .

هذا الكتاب

فقالت أمى فى هدوء :

ملك الأستاذ الدكتور

— وكانوا ح يعلموا بيه إيه ؟.

— كانوا رموه هنا واللا هنا ، واللا كانوا **وهموه نقي مذبح الإنجليز برس**

كانت هذه أول مرة أسمع فيها أن أناسا يذبحون أناسا بلا سبب . كان أقصى ما يمكن
أن أتصوره أن يذبح إنسان دجاجة ليأكلها أو خروفا فى العيد أو عجلا تحت خشبة
ميت ، أما أن يذبح إنسان إنسانا آخر بلا سبب فذلك يفوق تصورى . ولو كانت
مداركى قد اتسعت فى ذلك الوقت لعرفت أن فى الحرب الدائرة بين الألمان والإنجليز
رجالا يقتلون رجالا بلا سبب ، بل ودون سابق معرفة بينهم . لقد كنت أنقى من أن
أفهم ما يدور فى الدنيا من عبث ، وإن كنت قد مارست سرقة السكر والبن والحلوى
إرضاء للمرأة التى تحقق لى حرية الانطلاق من سجن بيتنا .

وفي الليل عاد الرجال من أعمالهم إلى بيوتهم وبدأت ثروة النسوة فراحت كل امرأة تقص على زوجها نبأ دخول الإنجليز إلى حارتنا ، فثارت مخاوف الرجال وتحركت غيرتهم فراح كل رجل يلقي زوجته ما تفعله لو اقتحم عليها إنجليزى الدار .

وفي الصباح كانت المزاليج الضخمة تتركب فى الأبواب ، بل حصنت الشبايك بأسياخ الحديد ، وزودت البيوت بهراوات وسكاكين ، وكانت هذه هى كل الأسلحة التى يستطيع الأهالى أن يدافعوا بها عن أعراضهم .

ولم تستطع أمى أن تحبسنى فى البيت طويلا فأنا دائما الحركة لا أستطيع أن أمكث فى مكان واحد لدقائق معدودة ، فتركتنى أنزل إلى الحارة لأنطلق إلى أم عباس .

واستقبلتنى أم عباس بالأحضان ، ثم أجلستنى إلى جوارها على الحصيرة فى الشمس وقد جلست ترقب بعض الكتاكيت وهى تجرى أمامها هنا وهناك ، واستهوانى جرى الكتاكيت فقامت لأقف بينها أسعد بقرىها ، فإذا بأم عباس الصباحية تنادى :

— واد يا عباس ، تعال دخل الكتاكيت ليتحسدوا ، كفاية امبارح ثلاثة اتشندلوا .

وبدأت أربط فى ذهنى بين الحسد والموت ، وإن عجبت كيف مات لأم عباس ثلاثة كتاكيت دون أن تندبها ؟! ، وجاء عباس ووضع المرأة والملقط إلى جوار أمه وراح يهش الكتاكيت بطرف جلبابه ، وهو يقول بصوته الطرى المنغم :

— هـش .. هـش بقى .

وجلست على الحصيرة ونظرت أمامى فإذا بالمسمط المواجه لبيت أم عباس مغلق لا حركة ولا جلبة ، عربات الكارو التى كانت تزدحم تحت شبايك بيت عمى قد اختفت ، وأصوات ارتطام المغارف بقزانات المرق قد ماتت ، حتى الأصوات تموت ، فالمكان الذى كان ينبض بالحياة صار صامتا كقبر .

والتفت إلى أم عباس وقلت لها :

— المسمط مقفول ليه ؟ .

— قفلته الحكومة .

— ليه ؟ .

وكان عباس قد انتهى من إخفاء الكناكيت في جوف البيت المظلم خشية عليها من عين الحسود وجاء يجلس إلى جوارنا . فقالت أم عباس وهي تتلفت :
— دبحوا فيه الشبيخة صالحة .

ولم أسأل لماذا ذبحوها فقد تملكني شعور بالخوف ، ولم يترك عباس ولا أمه لي فرصة الاستفسار فقد راحوا يتحدثون وأنا أصغى والانفعالات القاسية تمور في جوفي الصغير ؛ قالت أم عباس :

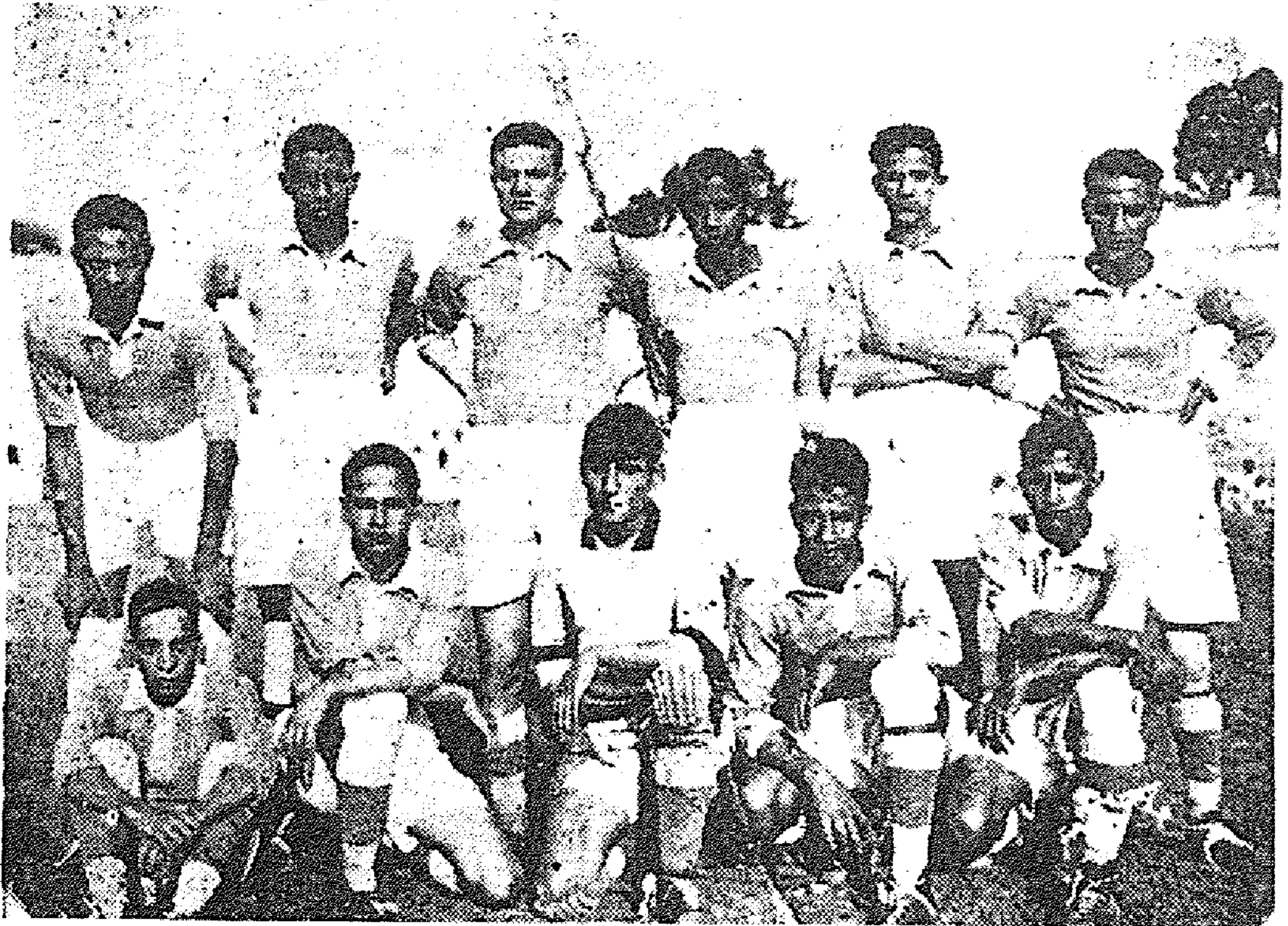
— من ساعة ما دبحوها واحنا مش قادرين نفتح باب البيت في الليل ، عفريتها طول الليل بييجرى في الحارة .
وقال عباس :

— امبارح طلعت لي عفريتها .. خرجت بعد العشا أشتري عيش ، وانا راجع حسيت باللي بينفخ في وشي ، حطيت ديلي في اسناني وقلت يا فكيك .. جريت وجري عفريتها ورايا لغاية ما دخلت وقفلت الباب .. كنت ح اسقط من طولي .
ماذا يفعل عفريت امرأة بعباس الذي يتأود في مشيته تأود الخيزران ؟! لم يخطر ذلك على ذهني في ذلك الوقت بل كان الخوف يستولي علي ، إنها أول مرة أسمع فيها عن عفريت يجري وراء الناس . ماذا يريد بهم ؟ وهل يريد العفريت بالناس إلا الشر ؟ وعلى الرغم من أنني كنت بين أم عباس وابنها وفي وضوح النهار إلا أن قشعريرة سرت في جسمي ، فقممت أسير إلى جوار الحائط وأنا أتلفت حتى دخلت بيتنا .

كان فتاء البيت مظلماً وكان السلم أكثر ظلاماً ، وكنت أسير في ذلك الظلام دون أن ينتابني خوف . أما في ذلك اليوم فقد سرت بين المواجهير وبلايص العسل وأنا أرتجف ، كان يخيل إلي أن كل ماجور عجيب عفريت يقدهح الشرر من عينيه ، وصور لي وهي أن المكان قد ملأ أشباحاً ، فأردت أن أصرخ فلم أجد صوتي ، وتحاملت على نفسي حتى صعدت إلى شقتنا .

وجاء الليل فنمت بين أخوي أحمد وسعيد وفكرة العفاريت تجثم على رأسي ، وما كدت أغمض عيني حتى ارتفع صوت ديك رومي من منزل من منازل الحي . إنني سمعت ذلك الصوت مراراً من قبل ولكنه كان صوتاً له دلالة خاصة في تلك الليلة ، إنه (هذه حياتي)

صوت عفريت من العفاريت التي تمرح في الظلام .
وانكملت وغطيت وجهي باللعاف وأنا اضطرب حتى أخذني النوم ، ولم أتم
نوما هادئا بل كنت أرى في نومي خرافا تخرج من الحائط وتندفع نحوي لتتطحني ،
فأصرخ فلا يتجاوز صوتي مسمعى .
وتسللت الشمس إلى حجرتنا فقامت فوجدت نفسي وحدي ، فأخوأي أحمد
وسعيد قد ذهبا إلى المدرسة ، فأسرعت إلى حيث كانت أمي لأجد الأمن بجوارها .
فكرت في أن أمكث في البيت لأبرحه ، ولكني لم أطق أن أحبس نفسي بإرادتي ،
فأخذت من أمي نكلة لأشتري بها حلوى ونزلت إلى الحارة ، ثم سرت إلى شارع
الحسينية ، فلما دنوت من المسط المغلق جريت حتى تجاوزته دون أن أتلفت خلفي .
وبلغت شارع الحسينية فإذا بعربات الحنطور وعربات الكارو ورجال على ظهور
حمير مطهمة يغدون ويروحون . كانت الحياة تتدفق في الشارع فاطمأنت نفسي
وانسبت في هدوء أتلفت ، حتى إذا ما بلغت دكان خراط خشب يخرط في مهارة قطع
الأبواب والشبابيك العربية وقفت أرقبه في إعجاب ، وسرعان ما داعبتني فكرة أن آتي
إليه يوما لأخرط عنده نخلة ألعب بها كما فعل أخى سعيد من قبل .



وفكرت في أن أحتفظ بالنكلة وأن أدخر ما يصل إلى يدي حتى يصبح عندي قرش صاغ أحقق به حلمي ، ولكن الملبس الذي كان يملأ البرطمانات في إغراء في دكان خليل ابن عم أبي أطار فكرة الادخار من رأسي ، فاشتريت بالنكلة ملابس في لون الورد ، وضعت إحداها في فمي وأخذت أستحلبها في لذة .

وسرت الهوينا أشاهد في أحد الحوانيت الصناع وهم يشكلون الصفيح أكوازا ويلحمون بالقصدير جنوبها وقعورها ، وأشاهد في حانوت آخر بعض الرجال وهم يصنعون الحصير ، كانت السرعة الفائقة التي يمررون بها القش من خلال الخيوط الطويلة التي تملأ النول تستهويني ، فقد كانت صناعة الحصير ، والثور الذي يدور في السرجة لعصر السمسم ، ووابور الطحين في الزلاقة أهم معالم حيننا ، وكنت لا أمل الوقوف عندها متمنيا أن تتاح لي فرصة ممارسة عمل من هذه الأعمال الجسام ! .

وبلغت أول حارتنا فإذا بكل المتعة التي استشعرت بها تتبخر فجأة ويشتد وجيب قلبي ، تذكرت أنني سأمر على المسط المغلق وأن عفريت الشيخة صالحة قد يظهر لي .

كانت الشمس تفرش الحارة والطريق يتألق بالنور ولكنه كان مقفرا ليس به أحد ، فسرت وحدي مرعوبا حتى دنوت من مكان الجريمة ، المسط العتيد الذي ذبحت فيه الشيخة التي استولت على كل حواسي دون أن أعرفها أو أراها . وفجأة قرع أذني وقع حوافر على الأرض ، كان الصوت آتيا من خلفي ، فشعرت كأن قلبي يكاد أن يفر من صدرى . ودنا مني الصوت فخليل إلى أن عفريت الشيخة قد ظهر على هيئة جدى وأنه في أثرى لينطحنى .

وهمت بالجري ولكن قدمي تسمرت في الأرض ، وسرت في جسدي رعدة ، وخفق قلبي في شدة ، وأصابني دوار وكدت أموت من الخوف . وقبل أن أنهار أفلتت مني التفاتة مرعوبة فرأيت بعينين زائغتين حمارا مقبلا وصاحبه يجذ في أثره ليلحق به ، فرحت أسكن روعى إلا أن دقائق قلبي ظلت تدوى بين جنبى كالطبل ، وتلقت ولم أتجاوز الثالثة من عمرى أن الخوف قد يفضى إلى الموت .

فترت العلاقات التي كانت بيني وبين أم عباس الصباحية فلم تعد تستقبلني بذراعين مفتوحتين ولم تعد تناديني بيا زوجي العزيز ، فقد أعطتني كلبا صغيرا وطلبت مني أن أرد لها هديتها من خيرات بيتنا ، فوضعت الكلب فوق السطح في الشمس وهبطت إلى شقتنا ورحت أملاً جيوبى بالسكر ، وفيما أنا منهمك في عملي إذ بصوت أمي الغاضب ينزل علي في قسوة السوط :

— بتعمل إيه عندك ؟

وارتبكت ثم قلت في خوف :

— أم عباس ادتنى كلب وقالت لي هات لي سكر .

— قالت لك اسرقه ؟!

واعتراني خجل شديد ، وزاد في ألمي أن أمي أمسكتني بيديها وراحت تهزني في عنف والدموع تكاد أن تطفر من مآقيها وتقول :

— والله عال . ح تطلع حرامى .. حرامى .

وحفرت هذه الحادثة في أعماقي . وظلت صورة أمي وهي تهزني في انفعال شديد تستولي علي ، وما كنت أتذكرها حتى يسيل عرق خجلي فأطرق وتتقاصر نفسي لكأنما الدنيا كلها تسخر مني . وقد أثر ذلك اليوم في حياتي فما عدت أمد يدي إلى فاكهة وضعت على البوفيه لنا جميعا حتى يؤذن لي ، وظل ذلك السلوك يلازمي حتى بعد أن تزوجت وأصبحت رجل بيتي ، فإذا نسيت زوجتي أن تقدم إلي مما أشتريه فغالبا ما ينفد الصنف دون أن أذوق منه شيئا .

وأرسلت أمي إلى أم عباس تلومها على تحريضي على السرقة ، ونفت أم عباس في شدة أنها طلبت مني أن آتيها بشيء . وزاد إنكار أم عباس في تعذبي ، فما أقدمت عليه شيء قبيح يستنكره الجميع حتى المحرضين على ارتكابه .

وقابلتنى أم عباس بعد ذلك بوجه عابس ، لا لأننى افتريت عليها بل لأننى بحت
بالسر الذى بيننا ، وعبرت عن مشاعرها بقولها :

— فتان . لا انت جوزى ولا عايزه اعرفك .

وفى كبرياء أعرضت عنها . لم أكن مستعدا لمعاودة التجربة القاسية التى مرت بى ،
لا إكراما لأم عباس ولا لغيرها ولو صرت وحيدا منبوذا من أحبائى ، وكان يضايقنى
حقا أن عباس صار يخرج وحده بجوس خلال الحى بحثا عن الموتى ، ولكنى قررت فى
نفسى أن أحتمل هذا الضيق فهو أخف على من الآلام المبرحة التى أقاسيها عقب
السرقه . وتعلمت منذ نعومة أظفارى كيف أجمع رغباتى .

و ذات صباح نزلت إلى الحارة وقد عزمتم أن أسير فيها فى عكس اتجاه بيت أم عباس
إلى حيث تقع المدرسة التى فيها أخواى أحمد وسعيد ، وإذا بصوت أم عباس ينادينى ،
فدرت على عقبى وانطلقت إليها ، وإذا بها تستقبلنى بالأحضان وتنادينى بزوجه
العزیز ، وانقشع ما فى صدرى من عتاب وأقبلت عليها سليم القلب فقالت لى :
— روح شوف عم خليل ازيه النهارده .

كان خليل ابن عم أبى وهو فى نفس الوقت أخو زوج عمتى وزوج ابنة عمى ،
فأسرتنا كانت ولا تزال إلى حد ما لا تعرف إلا زواج الأقارب كأنما تخاف على دمائها
الزكية أن تهدر ، وكانت عمتى عزيزة تردد : « أوحش بناتنا أحلى بنات الناس » .
وبالإيجاء صدق شباب الأسرة هذه الفرية فما فكر أحد فى أن يثور على هذه التقاليد .
وكان خليل يسكن فى البيت الذى فيه عمتى عزيزة وكان قد سقط فريسة
للمرض ، فأثار ذلك اهتمام أم عباس الندابة فرأت أن تبعثنى رسولا لآتيها بالخبر .
ودخلت بيت عمتى وصعدت إلى حيث كان خليل يرقد ، فإذا بأم خليل وزوجته
وعمتى وبعض نسوة الأسرة يكيين فى صمت ، فانسلفت من البيت وذهبت إلى أم
عباس وقلت لها :

— كلهم قاعدين بيعيطوا .

وارتسمت ابتسامة على الفم الأدرد ولمعت عين ولم تلمع الأخرى ، كانت
ممسوحة . ونادت الندابة بصوت فيه انشراح قالت :

— واد يا عباس ، حلّى بق الواد .

و لم أنتظر حتى يخرج عباس بل دخلت إلى القاعة المظلمة حيث كان يبحث عن شيء يقدمه إلى ، فلم يجد إلا خياراً قسمها بيني وبينه ، أما قوالب السكر فقد أصبح وجودها عندهم نادراً بعد أن عرفت أن السرقة حرام ، وأن السارق سيدخله الله النار .

ومرت أيام وأم عباس تسأل عن صحة خليل في الصباح بحكم الجوار ، وتبعثني رسولاً أكثر من مرة في النهار لآتيها بخبره . ولم يهدأ لنا بال حتى ضج بيت عمى بالعويل والصوات ، فخطفت أم عباس ملائمتها السوداء وخفت تهوول متظاهرة بالحزن والأسى وإن كان عقلها يحسب في ذلك الوقت ما سيعود عليها من خيرات . وجاء الفراش ينصب الصوان ويشد الخيام ، فوقفت أنظر إليه وهو فوق السلم ، ثم سرعان ما يديره بين رجليه ليتقدم به دون معاونة أحد فيملؤني العجب . كانت حركات الفراش فوق السلم الطويل هي أول حركات بهلوانية رأيته في حياتي ، فما كنت قد عرفت السيرك بعد .

وجاء الحانوتي بمنضدة الغسل لتغسيل الزبون ، وجاء في أثره اثنان يحملان خشبة الميت تسبق أحدهما كرش ضخمة لكأنما كان يدفن الموتى فيها . وراح النسوة يلتدمن على نغمات أم عباس الصباحية . كان صوتها بشعاً أجش وكانت دقات الدفوف رهيبة تخلع القلوب . وفجأة ساد صمت ، إنه وقت غسل الميت ، وقت نزول ملائكة الرحمة ، فلا يجوز استقبالها بما يغضبها ويغضب خالقها .

وشق السكون مرة أخرى أصوات النحيب والعويل والصوات ، فراح الجزار يجذب العجل الذي سيذبحه تحت خشبة الميت ، ووقف كل من في الصوان بعد أن لاحظ لهم الخشبة مقبلة على أكتاف الرجال .

وذبح العجل وسال الدم وسارت الجنازة وقد شغلت عنها بالجزار الذي بدأ في سلخ العجل . وبدأت تداعبني فكرة .. إن ذبح عجل معناه أننا سنأكل كفتة في الغداء والعشاء إلى جوار قطع اللحم المتناثرة فوق تناجر الفت ، فذهبت إلى حيث ذهب الجزار فوجدته يخفي جزءاً من الكبد في جيبه ويعطى لمساعدته بعض قطع اللحم فينسل

بها إلى خارج الدار .

وبدأ الطباخ في طهو الطعام على أفران الفحم ، فلما عاد الناس من دفن خليل مدت الموائد ، وانشغل النسوة عن المأثم بتسريب اللحوم والكفتة إلى دورهن ، ودارت أحاديث هامة بين الرجال حول الموائد وراح كل رجل من رجال الأسرة يبحث عن أولاده ليطعمهم . وجاءت أم عباس الصباحية إلى الطباخ وأخذت ما أخذت ، ثم ذهبت إلى الفراش وأخذت نصيبها من الغنائم ، وحمل عباس السكر والبن إلى قاعة بيتهم المظلمة .

وانتهى الطباخ من إطعام من في المأثم وتظاهر بالأمانة ، فأرسل إلى أهل الميت ما بقى من لحم مطبوخ وقليلًا من الكفتة ، أما ما بقى من صفيحة السمن فقد صبه فوق رماد الفحم ، وأخذ الرماد وخرج ، وما أسهل فصل السمن عن الشوائب بعد ذلك . ولم ينكب بموت خليل إلا العجل الذى ذبح تحت خشبته ، ولم يحزن عليه إلا كفته !

٧

أصوات العجيين تتجاوب في دور الأسرة المتقاربة في الحارة ، فقد كنا في الأيام الأخيرة من شهر رمضان ، وانتشرت في أفنية الدور المواجير وألواح العجيين وصاجات الكعك ، فقد كنا نستقبل العيد بأقراص الفطير والكعك والغريبة . وجاء الليل والنسوة جميعا مشغولات بتقطيع الفطير ، والصبية منهمكون في نقش الكعك . وارتفعت أصوات الأولاد في الحارة ينشدون : وحوى يا وحوى ، فتملكتنى رغبة في أن أنطلق لأحتفى معهم بالشهر الذى يسمح فيه الآباء لأبنائهم بأن يجوبوا بالفوانيس في الليل في حارات الحى . وقد كان عندى فانوس به شمعة كاملة لم تستعمل بعد ، ولكنى بت أرتجف من عفريت الشیخة صالحة ، وإن كنت قد سمعت أن العفاریت تسجن في رمضان .

وجاء آخر أيام الشهر المبارك فوقفت العربة الكارو أمام بيتنا لتتنقل الفرش إلى

القرافة ، فالأسرة كلها تمضى ليلة العيد مع الأموات وفاء منها للأعزة الذين خرجوا من الحياة . وأردت أن أذهب مع الداهيين فأبت أمي لأن أبى لا يحب ذلك الذى يفعله أهله ، فبكيت فوعدتنى بأننا سنبيت فى القرافة أول أيام العيد .
وفى الفجر قام أبى يتوضأ فاستيقظت أنا وإخوتى لناخذ العيدية . وفرحنا بما وضع فى أيدينا ، ثم لبسنا الملابس الجديدة وخرجنا إلى شارع الحسينية حيث كانت عربات الكارو تغدو وتروح ، وقد صفت فوقها نسوة وفتيات يقرع بعضهن الطبول ويغنين ، وترقص الصغيرات على الأنغام التى تهز الأعطاف ، وينبعث من عربات أخرى أصوات نسوة يرددن فى نبرات بها شجن :

يا عزيز عيسى وانا بدى اروح بلدى

بلدى يا بلدى والسلطة خدت ولدى

وأقبلت عربية عليها رجال أشداء يزأرون فى وجه الإنجليز الذين كانوا يقطعون الشارع متسكعين ، أو الذين كانوا فى الحراسة وفى أيديهم بنادقهم ، ويقولون :

يا عزيز يا عزيز كبة تاخذ الانجليز

وكان جنود الحلفاء يسيرون بين الناس الذين خرجوا يحتفلون بالعيد ، فدنا أخى أحمد من جندى هندى ، وقال له :

— أنت مسلمان ؟

فقال الرجل واللحية السوداء التى تزين وجهه تتحرك ، لانفراج فمه بابتسامة

مطمئنة :

— الحمد لله .

ودنا أخى سعيد من آخر وقال له :

— أنت مسلمان ؟

— الحمد لله .

وأعجبتنى اللعبة فدنوت من جندى ثالث وقلت له :

— أنت أم سليمان ؟

— الحمد لله .

وقال أحمد وسعيد في فرح :

— دول مسلمين .

ولم أفهم العلاقة بين أم سليمان خالة أمى الموجودة الآن في حوش القرافة ، وبين كون الجنود الهنود من المسلمين ، وكيف ربط أخوإى بين أم سليمان والإسلام ؟ وهممت أن أسأل أخوإى عن الفراسة التى جعلتهما يفطنان إلى أن الجنود الهنود من المسلمين ، ولكن لم أشأ أن أفصح عن جهلى فأثرت الصمت العميق .

وبلغنا القبر الذى يقود إلى الرحبة الواسعة أمام وابور الطحين وبوابة الزلاقة . كان الأراجوز وخيال الظل والمراجيح على يسار الداخل ، فالتفت إلى أخوإى وقلت لهما : — عايز اتفرج ع الأراجوز .

وكانت رغبتهما تطابق رغبتى ، فدفع كل منا قرش تعريفه ودخلنا نحتل الدكك الأولى . ولما امتلأ المكان بالصبية ذكورا وإناثا بدأ العرض ، فإذا بالأراجوز يدخل فى حوار مع زوجته ينتهى بضررها بالنبوت على رأسها ضربا يثير حماسنا فهلل له فى إعجاب . ثم نشاهد المشهد الثانى وكان صلحا بين الأراجوز وامرأته ينتهى بأن يباشرها أمام أعيننا المفتوحة ، وكان ذلك المشهد أول مشهد جنسى فاضح أشاهده قبل أن أشاهد المناظر الجنسية المكشوفة فى مهرجان كان بأكثر من خمسين سنة ! .

وركبنا المراجيح ، بدأنا بالصناديق وهى لعبة أشبه بالساقية ، ركبت أنا وسعيد فى صندوقين متجاورين ملتصقين ، وركب أحمد فى صندوق تحت صندوقنا . وراحت الصناديق تدور دورتها فكان قلبى ينخطف كلما بلغنا أعلى ما يصل إليه الصندوق ، وما يكاد يطمئن عندما نصل إلى الأرض حتى يعود ليغوص فى قدمى إذا ما ارتفعنا مرة أخرى إلى القمة . إن الارتفاع صعب ، وما أيسر الهبوط .

وانتهينا من ركوب كل أنواع المراجيح فاشتريت زمارة بها مثانة على شكل باذنجانة ، ورحت أنفخها ثم أكف عن النفخ فينبعث من الزمارة صوت يجرح الأذن ، ولكنى كنت سعيدا به فالأطفال يسعدون بتحطيم الأطباق واللعب والرعوس .

وذهبنا إلى باب الزلاقة الحديدى فإذا به مفتوح على مصراعيه ، فدلغنا منه وأنا سعيد ، فهذه أول مرة أمر فيها من البوابة دون أن يدفع أحد ثمن المرور . وسرنا بين

المقابر حتى بلغنا حوش القرافة فإذا به غاص بالرجال والنساء ، الرجال في الغرفة الخارجية والنساء في الغرفة الداخلية ، وصواني الطعام تنتقل من غرفة النساء إلى غرفة الرجال في أسطوانة من الخشب تدور على محور بين الغرفتين .

وراح أولاد الأسرة يلعبون خارج الحوش ، وخطر لأحدنا فكرة أن ندور على الأحواش نسأل من فيها أن يعطونا مما معهم من خيرات ، فذهبنا إلى الأحواش القريبة ووقفنا ببابها نقول :

— بالرحمة .. بالرحمة يا ست .

وجمعنا في حجورنا البلح وأقراص الفطير والبرتقال ، وخفت أن أعود بما أحمل إلى حيث كانت أمي ، فلو رأتنى على ما كنت عليه فلن أنجو من أذاها فهي تضربني على أية هفوة تصدر مني ، فأعطيت كل ما معي إلى مقرئ كان يتجول بين المقابر ، وقد كنت حقا سعيدا بما حصلت عليه من التسول .

وعدنا إلى حوش القرافة مع الظهر . كان معظم الرجال قد انصرفوا ولم يبق إلا النسوة اللاتي كن يتأهبن لإعداد طعام الغداء ، فوضعت طواجن السمك البكالالة والكبيبة المصرية والجبن والزيتون على أسطح الغرف التي يرقد فيها أعزائنا الأموات ، وتحلقنا الطعام الشهى وبدأنا في التهام ما أمامنا وقد نسينا الراقدين تحت التراب ، فقد شغل كل منا بملء بطنه .

وكانت قدم الخير بين النسوة ، جاءت من شبرا التشار كنا أحزانتنا . فلما جاء العصر أظهرت رغبتها في الانصراف فقامت أمي تصر لها أقراص الفطير والبلح وما بقي من السمك ، فدنت قدم الخير من أمي في ذلة وقالت في صوت هامس :

— أنا تعبت ، إن كنتم ترضوا اني أرجع تاني أرجع .

فقالت لها أمي في بساطة :

— يا ريت ! بس أودتك مش فاضية .. حطينا فيها قمح .

وانسلت قدم الخير تحمل الصرة في يدها وأعباء السنين على ظهرها الذي تقوس ، وقد لاح في وجهها الأسى كأنما كانت ترى المستقبل المظلم الذي كان ينتظر من كان مثلها بلا أهل ولا أصدقاء ولا مورد رزق يمسك الرمق .

اشترى جدى منزلا بشارع جنينة الكوة بالظاهر ، فذهبت أنا وأخوای أحمد وسعيد لنشاهد البيت الجديد . وكان بيتا صغيرا تزينه شرفات من الخشب شبائيكها من الزجاج الملون ، وقد طلى من الخارج بأشرطة صفراء وحمراء فكان أشبه بمساجد ذلك الحين .

وكان أمام البيت فضاء واسع . إننا نرى من منزلنا جامع الظاهر ببيرس الذى تحول إلى مذبح للإنجليز . أين هذا البيت من بيتنا الذى فى الحارة التى كانت أشبه بثعبان يصل بين الصوایى وشارع الحسينية العتيد ؟ .

ورحت أسأل فى ابتهاج متى ننتقل إلى هذا البيت ، فقليل لى إن جدتى زهرة تعارض فى انتقالنا لأنها لا تريد أن تبتعد عن القرافة ، فقلبها لا يطاوعها على أن تسكن بعيدا عن الأحبة الراقدین فى القبور .

كانت جدتى قد دفنت عمى عبد الغنى ومن بعده بقليل عمى قاسم هناك فى مدافن الأسرة التى لا يفصل بیننا وبينها إلا شارع الحسينية وبوابة الزلاقة التى يمكن أن تفتح بلملمين اثنين ، فكيف يطلب منها أن تبتعد عنى فلذتى كبدها أكثر من هذا ؟

وظلت جدتى فى معارضتها فى أن ننتقل إلى البيت الجديد ، ولكن عمى حنفى كان يريد أن يتزوج وليس له شقة فى بيتنا القديم ، ولما كان الحى أفضل من الميت فقد قبلت جدتى أن ننتقل إلى شارع جنينة الكوة ليتزوج عمى ونبدأ حياتنا الجديدة فى البيت الجديد .

ووافى ميعاد ترك الحارة فذهبت لأودع أم عباس الصباحية فشعرت بأسى ولوعة . كان ذلك أول وداع فى حياتى لأناس أحبهم ، فلن أذهب مع عباس كل صباح أجوس خلال الحى بحثا عن الوفيات ، ولن أجلس مع أم عباس على حصيرتها أمام بيتها لأنعم بالشمس فى الشتاء وبالنسيم الرطب فى الصيف ، ولن أدخل إلى قاعتها لأطعم

الكتاكيت . إنه وداع قاس ثقيل على قلبى ، وما كان يخفف من لوعة الفراق إلا الأمل فى أن أجد حياة أفضل فى حيننا الجديد .

وبكت جدتى زهرة أم عبد الغنى بكاء مرا ، فقد كتب عليها أن تفارق الحى الذى شهدت فيه أحلى أيام حياتها وأمرها ؛ إنه أصبح قطعة منها . وشهقت شهقة كأنما تستنشق عبير الماضى بأفراحه وأتراحه ، شهقة احتوت ذكريات سنين طويلة . وانطلقت جدتى وأمى إلى دار عمتى المواجه لدارنا لتوديع من فيه ، فكان بكاء ونحيب كأنما كنا سننتقل إلى الدار الآخرة .

ووقفت أم عباس تودعنا ، وجاء عباس وفى يده المرآة والملقط وراح يقول فى كلمات طرية ممدودة :

— والله الحارة ح تضلم من بعدىكو .. دانتو جيران الهنا ، مش ح تتعوضوا أبدا . وخرجنا من الحارة فى اتجاه عكس الاتجاه الذى تخرج منه خشبات أمواتنا ، فما كنا منطلقين إلى المقابر بل كنا ذاهبين إلى حى جديد ، إلى حياة جديدة .

حياة جديدة ؟! أية حياة جديدة وجدتى ترتدى السواد وأمى متشحة بالسواد ، وقلوب أهل البيت تهفو إلى الأحزان كأنما الحياة مقبرة كبيرة تقود إلى مقبرة صغيرة خلف بوابة الزلاقة .

ولم أكن قد بلغت السادسة من عمرى بعد ولكنى تعلمت أن الجسد ليس إلا ثوبا خلقا إذا ما غادرته الروح ، وأن الروح إذا ما غادرت الجسد تذهب إلى السماء لتخلد مع الأرواح عند خالقها ، وأن الروح تهيم فى الفضاء ، وأنها تعرف ما سيحدث للأحبة قبل أن تقع الأحداث للأحباب ، وأنها تزور من تحب ، فكنت أعتقد أن الفراشات التى تدخل بيتنا وقد يمت نحو مصابيح الجاز إن هبى إلا أرواح الأعزة الذين غادرونا إلى العالم الآخر جاءت إلينا لتطفئ نار الشوق إلى الأحباب ، فكنت لا أعترض سيلها ولا أحاول أن أمسك بها وإن فقتنى ألوانها !

وانتقلنا إلى الطبقة الرابعة فى منزلنا الجديد . إنها آخر طبقة ، ولم تكن الشقة واسعة ولكن بدت لأعيننا أنها فسيحة ، وقد سررنا بشرفاتها وبلكوناتها التى تطل على أسطح الجيران . أين هذا المنظر الرائع من الحارة الضيقة التى كنا فيها . إننا هنا نرى المزارع

التي ترتطم بها أعيننا ، ولا نشم إلا رائحة نفاية السمك التي تلقى في الطريق .
وانتقلت من المدارس الخاصة التي كنت أذهب إليها لأبتعد عن البيت إلى مدرسة سليمان جاويش الأولية بالدشطوني ، وكان على بعد خطوات منها صحة باب الشعرية ، فكنت أسمع أحيانا وأنا في الفصل صوت بعض النسوة اللاتي جئن إلى الصحة خلف مريض أو جريح وهن يولولن ، فكنت أتذكر أم عباس الندابة وأشرح خلف ذكريات أيامها فكنت لا أسمع من الدرس شيئا . وإذا ما فطن المدرس إلى شرودي يسألني عما كان يشرح فأقف صامتا كالبعول ، فينهال عليّ ضربا بخيزرانة في يده ولا يكف عن ضربني إلا عندما يرتفع صوتي بالبكاء .

وكان مدرس الدين يحاول أن يحفظنا السور الطوال عن ظهر قلب ، وكان يطلب من كل واحد منا أن يسمع ما حفظ ، فكنت أعتمد في الحفظ على ما أسمع من زملائي في الفصل . وكانت حافظتي تخونني دائما إذا ما نهضت للتسميع ، فكان يطلب مني أن أترك مقعدي وأقف عند الحائط انتظارا لإخواني الخائبين الذين لم يحفظوا السور ، فإذا ما انتهى من فرز الذين لا يحفظون انهال عليهم ضربا بالمؤشر الذي في يده ، وقد كسر المؤشر ذات يوم وهو يضربني فطلب مني أن أدفع ثمنه !

وسألني ذات يوم لما يؤس مني :

— عندك مصحف ؟ .

— لأ ..

— أmaal ح تحفظ إزاي ؟ م الهوا ؟

وحسبت أن مفتاح مشكلتي في اقتناء المصحف ، فسألت من أين أشتري

مصحفا ؟ فقبل لي من الفجالة ؟ .

وذهبت لأول مرة في حياتي إلى مكتبات الفجالة واشتريت مصحفا وأنا أكاد أطيّر

من الفرخ ، ولكن ما إن فتحت حتى غاض سروري ودق قلبي خوفا ، فما عرفت

كيف أقرأ فيه . وحاولت أن أحفظ السورة المقررة علينا فلم أنجح ، وعدت إلى مدرس

الدين ليضربني كل حصّة بالمؤشر الذي اشتراه بنقودي التي حصلت عليها من أبي

بدموعي .

وفي الإجازة الصيفية جاء إلى أبى ليزف إلى بشرى ترك مدرسة سليمان جاويش والالتحاق بمدرسة الجمالية الابتدائية مع أخوى أحمد وسعيد ، فهزنى الفرح لأننى سأنتخلص أخيراً من ضرب مدرس الدين الذى كان مقرراً علىّ فى كل حصّة دين ، ولكن أخوى أحمد وسعيد جاءا إلى يخوفانى حافظ أفندى مدرس اللغة الإنجليزية . إنه جبار يضع القلم الرصاص بين الأصابع ثم يضرب بسن المسطرة الأصابع التى يتخللها القلم ، فيكون الضرب أوجع يطيش بالعقول .

ولم أخف فى أول الأمر ، فهل تختلف اللغة الإنجليزية عن اللغة العربية إلا فى الحروف ؟ كان فى وهى أن حماراً باللغة الإنجليزية هو هُمار ، والفرق أنه يكتب بحروف لاتينية من الشمال إلى اليمين ، فما كنت أتصور أن هناك أكثر من لغة واحدة لبنى البشر . الناس جميعاً يتكلمون لغة واحدة وأنهم يختلفون فى الكتابة ، فاللغة العربية تكتب من اليمين إلى الشمال بأحرف عربية ، أما اللغات الأخرى فهى نفس اللغة العربية إلا أنها تكتب بأحرف أجنبية من الشمال إلى اليمين !

وذهبت إلى مدرسة الجمالية مشياً على الأقدام فما كانت هناك موصلات تربط بين حى الظاهر وحى الجمالية ، وأقبلت على المدرسة منشرح الصدر ، وما انقضى أول يوم حتى فتر حماسى . جاء حافظ أفندى فى كارثة وصعد فى الدرجات التى تقود إلى فناء المدرسة قفزا ، وما إن رآه التلاميذ حتى لزموا الصمت حتى دخل حجرة المدرسين . كان قصيراً فى وجهه صرامة ، وقد قيل إنه يأتى إلى المدرسة وهو سكران ، ولكنى لم أتأكد من ذلك طوال حياتى ، فكيف أستطيع أن أشم فم عزرائيل ؟!

دخل حافظ أفندى فصلنا وراح يلقننا مبادئ الإنجليزية ، فعرفت أن الإنجليزية لغة أخرى غير العربية ولا صلة بين اللغتين ، فحمار ليست هماراً بالإنجليزية بل (Donky) ، فما أكثر ما قالها لنا طوال الحصّة . وضربنا حافظ أفندى فى أول الحصّة ، ثم راح فى سبات عميق . وضربنا مدرس الحساب ، وضربنا مدرس العربى ، لكأنما قد جئنا إلى المدرسة لتلقى اللطومات والصفعات والشلاليت .

وكرهت المدرسة ولكن أين المفر ؟ وقيل لى إن أردت أن تتحاشى الضرب فعليك أن تذاكر دروسك . كانت نصيحة خالصة من أبى وأمى وإخوتى ولكنى لم أفعل فقد

وقر في ذهني أن نهاية هذه الحياة الموت ، فالموت لا مفر منه ، فلماذا أجهد نفسي إذا كنت قد ولدت لأموت ؟ الحياة عبث ، كل ما فيها عبث . وقد استولت على هذه الفكرة في تلك الأيام لطول عشريني لأم عباس الندابة ولكثرة من ماتوا من أسرتي ، ولأن مدرستي كانت في الطريق بين مسجد الحسين ومقابر باب النصر ، فما كان يمر يوم دون أن أرى الجنازات ومن كانوا في المدارس مثلي محمولين على الأعناق .

كنت أدخل فراشي في الليل وأنا على يقين أن النهار لن يطلع إلا وأنا ميت ، فإذا ما فتحت عيني في الصباح ورأيت النور كنت أستشعر خيبة أمل ويتملكني حزن لأنني لم أمت ولم استرح من عبث الحياة ، فالكل باطل لا يستحق ما نبذله من جهد ، فلماذا أجهد نفسي إذا كنت سأموت .

كنت أستعجل الموت لأستريح من حافظ أفندي ومدرس الحساب ومدرس اللغة العربية ومدرس الرسم ، ولأصبح فراشة طليقة تأتي لزيارة الأحبة وهي تعلم ما لا يعلمون . كنت أشتهي أن أفر من سجن جسدي الذي يتلقى الضربات طوال النهار وطرفا من الليل إذا لم يعجب تصرف من تصرفاتي أمي التي كانت متحفزة على الدوام لضربي ، ولكن الموت أشاح بوجهه عني وتركني فريسة لقسوة المدرسين وجهل المربين وآلام استذكار الدروس . حتى الموت كان يضطهدني ، فقد أوى على أن أتحوّل إلى روح رفاة هفهاة وأن أترك جلدي ولحمي للتراب ، كما تخرج الفراشة من شرقة دودة القز تاركة الشرقة لعبث العابثين .

٩

كنت لا أفقه من أمر السياسة شيئا ، ولكنني كنت إذا ما لعبت مع الأطفال ممن كانوا في مثل سني أغني معهم :

— الله حي ، عباس جي ، يضرب بمبه وهو جاي .

وما كنت أدري من هو عباس هذا الذي سيجيء ، ولكنني سمعت بعد ذلك من أبي أن الخديوي عباس حلمي سافر إلى تركيا وفي أثناء وجوده هناك قامت الحرب بين ألمانيا

وتركيا من جهة وبين الإنجليز وحلفائهم من جهة أخرى ، وأن الإنجليز قد عزلوا عباس الثانى وفرضوا الحماية على مصر وعينوا السلطان حسين كامل .

كان أبى ولا ريب يتمنى انتصار تركيا ، فقد كانت صور سلاطين آل عثمان تزين بيتنا : السلطان عبد المجيد والسلطان عبد الحميد والسلطان رشاد . كان أبى متشيعا ولا ريب للخلافة ، فهو رجل متدين يسوؤه أن تنقضى السيادة التركية على مصر لتحل مكانها حماية الكفار .

والظاهر أن ذلك لم يكن رأى أبى وحده ، فقد كان الكبار يشاركوننا فى دعائنا إذا ما هتفنا أثناء لعبنا :

— الله حى ، عباس جى ، يضرب بمبه وهو جاي .

ومات السلطان حسين كامل قبل أن تنتهى الحرب العالمية الأولى ، فلا أذكر إلا أنها كانت فرصة طيبة لنا لناخذ إجازة من مدارسنا ، فما كنا نعرف النفاق فى تلك السن المبكرة ، فما تظاهرنّا بالحزن عل موت السلطان ولا تباكينّا ، بل صحنّا فى فرح :

— بكرة أجازة .. بكرة أجازة .. الله يخلّى السلطان !

وتمنينا من قلوبنا الصغيرة لو يموت كل يوم سلطان لنفر من قسوة أساتذتنا الذين كانوا يتفتنون فى ضربنا ، كأنما كانت لذتهم الكبرى أن يرونا ونحن نتلوى من الألم والدموع تطفر من مآقينا . وعرفت أن موت العظماء واحات فى صحراء حياتنا تنفياً ظلالها من وهج المساطر والمؤشرات والخيزرانات التى تنهال على أجسادنا التى كاد يعصف بها القلق .

وسرعان ما عطلت المدارس يوماً آخر لأن السلطان فؤاد اعتلى عرش مصر ، وكان سرورنا عظيماً بالإجازة وبتنا ننتظر يوم موته لنحصل على إجازة أخرى ، فالإجازات كانت أقصى أمانينا لنبتعد عن شبح المدارس الرهيب .

كنت أمقت المدارس فى أول عهدي بالتعليم ، وكنت أتمنى الموت كل يوم ، فما كنت أدري أكان طلب الموت لأننى لا أذاكر ، أم كان هو السبب فى عدم إقبالى على استذكار دروسى ؛ فما فائدة التعب إذا كان الفناء نهاية كل كد فى الحياة !

وقامت فى طول البلاد وعرضها ثورة ١٩١٩ تطالب باستقلال مصر . كانت

إنجلترا قد خرجت من الحرب منتصرة فكان عزيزا عليها أن ينهض شعب صغير أعزل ويلقى في وجهها قفاز التحدى ، فراح عساكر الإنجليز يجوسون خلال البلاد يحاولون بالبطش إخماد أنفاس المطالبين بحقوقهم الشرعى . وقام الشعب يحفر الخنادق في الطرقات لمنع عربات الإنجليز من الانطلاق في حرية في شوارع القاهرة لقمع المظاهرات التى انتشرت في كل مكان .

ووقفت أشاهد الخندق الكبير الذى قام الرجال بحفره عند باب الفتوح وأنا أستشعر زهوا وسعادة بالحماسة التى ملأت صدرى الصغير ، فأنا أشارك إخوانى بكل الإحساسات الطيبة التى شاعت في وجدانى .

وفي أثناء عودتى إلى البيت رأيت الرجال يسدون الطريق بالحجارة ، فأسرعت أحمل ما أستطيع حمله من حجارة وأساهم مع الرجال في إقامة سد في الطريق الذى يفضى إلى مذبح الإنجليز .

وسمعت أن الثائرين يقلبون الترام في ميدان الظاهر فأسرعت مع أخوى وأطفال الحى إلى الميدان لنشاهد الترام وقد رقد على جنبه في صفوف ، وقد كنا سعداء بما نفعل ونرى ، وما كان يكدر هذه السعادة إلا الإنجليز الذين كانوا يدخلون مسجد الظاهر على ظهور جيادهم ، فقد أحالوه إلى مذبح تذبح فيه الخنازير . وقد أظهرنا استياءنا بأقوال مزجرة ، وزاد في غضبنا أن أحدها قال إنهم لم يكتفوا بتدنيس حرمة جامع الظاهر ، بل إنهم دخلوا بأحذيتهم الأزهر الشريف .

الأزهر الشريف ؟! يا للذكريات العزيرة التى يزخر بها رأسى ، إننى كنت كل يوم أجوس خلال أروقته في أثناء فسحة الغداء الطويلة ، فالمسافة بين مدرستنا والأزهر قصيرة ، فكنت أمضى وقت الفسحة في الأزهر وأشاهد المجاورين وأتمنى لو أجاور يوما مثلهم .

وسمعت أن مدافع الإنجليز قد نصبت عند الأزهر وأن الرصاص قد أطلق على بعض المتظاهرين ، وأن شهداء قد سقطوا صرعى ذلك الرصاص الغادر ، فاستشعرت خوفا أنا الذى كنت أتمنى الموت في كل لحظة ، ولم أستشعر بأية رغبة في أن أكون شهيدا وإن لقنت من البيت أن أبواب الجنة تفتح للشهداء .

(هذه حياتى)

ما هذا الخوف الذى سرى فى وجدانى ؟ أهو خوف من الموت وإن كان فيه راحة من متاعبنا وقسوة مدرسينا ، أو خوف من المجهول الذى سنقدم عليه ، أو غريزة فينا ؟

وأصبحت أنطلق إلى الأزهر مع أخوى أحمد وسعيد وأنا أضطرب خشية أن يحصدنا رصاص الإنجليز كما حصد إخواننا لنا من قبل .

وهاج الناس وماجوا ، وجاء أى ذات ليلة يحمل سكيننا كبيرة . إنها سلاحنا الوحيد الذى سندافع به عن أنفسنا إذا ما فكر أحد من الإنجليز أو من المشاغبين أن يقتحم علينا دارنا . وذهبنا إلى العلم الأحمر ذى الهلال الأبيض والنجمة البيضاء ، علم الدولة العثمانية وبسطناه ثم عدنا وطويناه ، ننتظر اللحظة التى تنتصر فيها الثورة لرفع ذلك العلم على شرفة دارنا ، فقد كان معنى الاستقلال فى مفهوم أهل دارنا عودة إلى الخلافة وإلى سيادة الخليفة .

وكان أى من أنصار الخلافة وإن كان يريد لها خلافة رشيدة كخلافة عمر بن الخطاب . إنه يرى أن الدعوات التى كان يفترها الاستعمار ، كشعارات مصر للمصريين وسوريا للسوريين وفلسطين للفلسطينيين والحجاز للحجازيين إن هى إلا دعوات يراد بها تفتيت وحدة الأمة العربية ، وإن ألبسوها ثياب الوطنية .

الخلافة ضعيفة ، هذا حق ، فليبحث عن خلافة قوية تضمن وحدة الأمة العربية والوحدة الإسلامية من المحيط إلى المحيط . وكان أى وأصدقائه على جانب يسير من العلم ولكنهم كانوا يمتازون بفطرة سليمة لم يفسدها التفرنج وترديد الشعارات التى يلقيها الغرب للزعماء المتفرنجين ، فيرددونها دون تعمق أو فحص كالبيغاوات .

وأخذ أخى أحمد السكين الكبيرة وراح يطوح بها فى الهواء كما يفعل رعاة البقر فى السينما ، ويقص علينا فى مبالغة الأطفال كيف أنه سيطيح بها رءوس كل من تسول لهم أنفسهم اقتحام حرمة دارنا . وذهب سعيد إليه وأخذ منه السكين وراح يقلد آرت أكورد بطلنا الأمريكى المحبوب فى ذلك الوقت . ولم أشأ أن أقف مكتوف اليدين دون مساهمة فى المعركة الوهمية التى نخوضها فذهبت إلى حيث كانت الهراوات مخفية وأحضرت هراوة أطول منى وأخذت أضرب بها أعداء أتصور أنهم اقتحموا دارنا

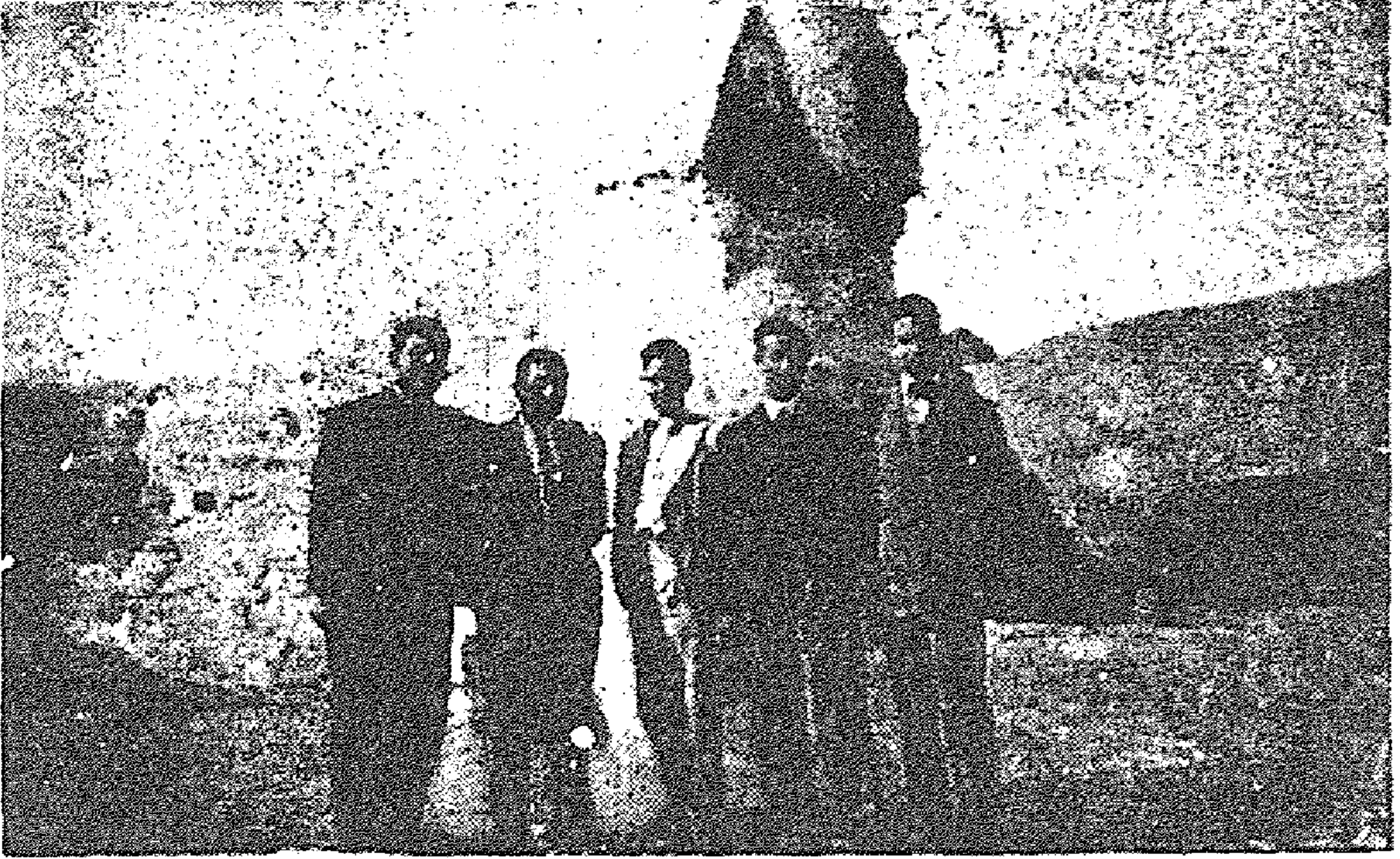
وارتفعت أصواتنا وكل منا يحاول أن يستولى على السلاح الذى يلعب به أخوه . وفجأة أقبلت أمنا تصرخ فينا أن نكف عن الصياح ، فساد المكان صمت أشبه بذلك الصمت الذى يعقب المعارك الطاحنة .

١٠

كانت الأحاديث فى كل مكان تدور حول سعد زغلول باشا وعن الوفد المصرى الذى يزعم أن يسافر إلى باريس وأن يطرح القضية المصرية — قضية الاستقلال وإنهاء الحماية البريطانية على مصر — على مؤتمر السلام ، وأن يطالب بتطبيق حق تقرير المصير على مصر والسودان . وقاضت الأحاديث عن رشدى باشا وعدلى باشا يكن ، وتشعبت إلى الحديث عن الحزب الوطنى ومصطفى كامل باشا ومحمد بك فريد . وسألت أخوى عمى يكون مصطفى كامل باشا فقالوا لى : إن تمثالا له موجود فى مدرسته القريبة من مدرستنا . فألحفت أن أرى التمثال ، فانطلقنا من مدرستنا بشارع الجمالية ، ثم عرجنا إلى شارع الدرب الأصفر وهو شارع ضيق مبلط ببلاطات صغيرة بارزة ، وسرنا فيه حتى صبينا فى شارع النحاسين ، وما سرنا فيه خطوات فى اتجاه باب الفتوح حتى وجدنا عن يسارنا قبوا فخما ما إن دخلنا منه حتى كان فى مواجهتنا مدرسة أوده باشا ، إنها مدرسة متواضعة ، كان بابها من الصاج الذى يستعمل لفتح الحوانيت الحديثة وإغلاقها ، وكانت إلى جوار تلك المدرسة مدرسة مصطفى كامل باشا .

ودخلنا إلى المدرسة فوجدنا فى بهوها تمثال الزعيم الراحل . وراح أخواى يقصان على ما سمعاه عن مصطفى كامل باشا ومحمد فريد وعن الحزب الوطنى ، وكنت مشغولا عن حديثهما بالتمثال الملقى فى زوايا النسيان ، وسألت فى سذاجة الأطفال : — ولماذا لا يوضع التمثال فى ميدان من ميادين القاهرة ؟

ولم يجر أخواى جوابا فما كانا نعرفان فى ذلك الوقت أن زعماء كل جيل يحقدون على زعماء الجيل الذى سبقهم ويحاولون طمس أمجادهم خوفا من أن تبهر



أعجاد الآباء أعجاد الأبناء ! أنانية تضر الآباء والأبناء والشعوب الحائرة بين الحقائق والافتراءات وتزوير تاريخ البلاد . ما الذى يضر زعيما إذا كان زعيم غيره قد خدم بلاده بكل ما فى ظروف عصره ؟ أينقص ذلك من عظمة الزعيم أو القائد الذى جاء بعده ؟ إن تاريخ كل أمة سلسلة من تاريخ عظمائها ، ومتانة السلسلة تقاس بأضعف حلقاتها . إننا بمحاولة التشكيك فى وطنية زعيم أو قائد إنما نشكك فى صلابة تاريخنا . آه لو برى زعمائنا من الاتجار بالشعارات ومن تشويه وجه كل من سبقوهم لأصبحنا أمة ، وما تتكون الأمم إلا بأعجاد بنينا .

لم تكن كرة القدم قد انتشرت فى ذلك الوقت فلم يكن التعصب لأندية بعينها ، بل كان التعصب لأحزاب وزعماء ، وإن لم تكن هناك خلافاً جذرية فى المبادئ وآراء الزعماء . كان الجميع يريدون الاستقلال لمصر والسودان وكان عدوهم واحداً : الاستعمار ، فكانوا جميعاً صادقين فى التخلص من ذلك الكابوس ، وإن اختلفت الوسائل فما اختلفت الغايات .

كانت المظاهرات مستمرة ، وفى ذات يوم خرج الأزهر فى مظاهرة ضخمة تهتف : الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، واقتحمت المظاهرة مدرستنا فخرجنا من

فصولنا نهتف في حماسة : الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، وإن كنت لا أدري ما هو الموت الزؤام . وانضمت مدرستنا بعد أن حملنا علمها إلى المظاهرة ، وإذا بصوت يهتف :

— إلى المدرسة الإيرانية .

كانت الإيرانية قرية منا ، إنها في شارع الضبية . وأحسست نشوة فبدر ابن عمى بها . إنه أحسن تلميذ ينفخ في النفير في مدرسته ، وإنها لفرصة طيبة أن ينضم إلينا بدر في مظاهرتنا . وانطلقت المظاهرة تهدر كالسيل الجارف ، الهتافات تشق عنان السماء ، والنوافذ تفتح على جانبي طريقنا ، والنسوة يطلقن الزغاريد من هنا وهناك . وهجمنا على المدرسة الإيرانية وأسرعت إلى الفصل الذي فيه بدر وطلبت من ابن عمى أن ينفخ في نفيره لتخرج مدرسته على صوت النفير كما نرى في أفلام السينما . ولكن بدرا أحجم خوفا بعد أن هم بأن يقف على تحتته وأخرج النفير لينفخ فيه .

وخرجت المظاهرة إلى شارع الضبية تهتف بسقوط الاستعمار وبالأستقلال التام أو الموت الزؤام ، وانسابت كتل بشرية تسد الطريق ، وإذا بلورى يحمل عساكر بلوك الخفر يعترض المظاهرة فارتفعت أصوات تهتف :

— الثبات .. الثبات .

وهبط عساكر بلوك الخفر وفي أيديهم الهراوات وانهالوا بها على المتظاهرين ، وبدأت المظاهرة تتفرق وأصوات تردد :

— الثبات .. الثبات .

وأصيب بعض الطلبة وسالت بعض الدماء ، وسرعان ما أطلق المتظاهرون سيقانهم للريح في كل اتجاه ، وتسمرت في مكاني من الخوف وإذا بعسكري يحملنى إلى اللورى . وتلفت فوجدت أنى الأسير الوحيد فبكيت وارتفع صوتى بالنشيج ، فإذا بعسكري يلطمنى لكمة قوية ثم ينزلنى من اللورى وهو يقول لى :

— على املك ، ما تمشيش في مظاهرة تانى .

كانت لكمة آلتنى ولكن فى اليوم التالى خرجت فى مظاهرة كانت منطلقة إلى مدرسة باب الشعرية ، كان فى هذه المدرسة أصدقاء طفولتى : فريدون وأخوه عباس

زين العابدين ، فكنيت متحمسا لأن تشارك مدرستهما في المظاهرة ، فسرنا في شارع أمير الجيوش حتى إذا بلغنا مدرسة باب الشعرية كسرنا بابها المغلق وانتشرنا كالجراد في كل فصولها .

واقترحت الفصل الذي كان فيه عباس فألفيته منهمكا في الإجابة عن أسئلة امتحان آخر السنة ، فقد كان اليوم يوم امتحان ، فخطفت منه ورقة الامتحان ومزقتها وإذا به يقول في فزع :

— ورقة الامتحان .. ورقة الامتحان .

— ما فيش امتحانات . يا للا معانا .

وأسرع بعض التلاميذ بتمزيق أوراق امتحانهم ، وخرجت المدرسة معنا وانضمت إلى المظاهرة الضخمة التي انطلقت في حي باب الشعرية تهتف بسقوط الاستعمار وبالاستقلال التام وبحياة زعيم الأمة سعد زغلول .

وعدنا إلى منازلنا وسمعنا أن البوليس المصرى يضرب تلاميذ المدرسة الإعدادية ، وكانت المدرسة عند بداية شارع العباسية أمام مذبح الإنجليز ، فانطلقنا إلى هناك فسمعنا أن حيدر وشاهين كانا يربطان التلاميذ من شعورهم ثم يشدانهم إلى ذيل الحصان ثم ينطلقان بجواديهما في الطريق يسحبان التلاميذ خلفهما ، وفي اليوم التالى كانت القاهرة كلها تردد :

.... وشاهين مامات ، خلف بنات ، خلفهم تسعة ، قاعدين ع القصعة ، ودى جاتهم لسعة .

١١

ساد بيتنا وجوم ، فعمتى زينب تتلوى من الألم في بيتها . وانهقد مجلس الأسرة من جدى وأبى وعمى وجدتى وراحوا يتشاورون فى الأمر ، فوجدوا أن خير ما يفعلون أن يحملوها إلى بيتنا .

وحملت عمتى إلى دارنا وهى تصرخ من الألم ، وجدتى لا تملك إلا أن تذرف

دموعها ، ولم يفكر أحد في استدعاء طبيب فما كان الطبيب يدخل دارنا إلا لكتابة شهادة الوفاة .

وكانت جدتي زهرة قد دفنت من قبل عمى عبد الغنى وعمى قاسم وذاقت لوعة الشلل ، وإنها لترتجف من أن تفقد زينب ، ولكنها لم تفعل أكثر من البكاء . وقال قائل :

— هاتوا لها دكتور .

وارتسم الفرع على وجوه الجميع ، فما كان المغص يستدعى استدعاء طبيب ، لقد سقوها كل ما جاء في تذكرة داود وكل ما أشار به العطارون ومدعو الطب ، وما أكثرهم بين أصدقاء التجار .

وازداد ألم عمى وكانت لا تحتمل ألما ، فرن صوتها في البيت فانخلعت القلوب ، وأصبح جدى بين أمرين أن يدع ابنته تموت أو يستدعى الطبيب . فاختر أن يطلب طبيا وإن كان في قرارة نفسه يؤمن أن طريق الأطباء لا يقود إلا إلى القبر .

وجاء الطبيب وفي يده حقيبة ، فراح النسوة يتطلعن إليه من خلف الأبواب ، وانطلق الطبيب إلى حيث ترقد عمى فساد المكان سكون قلق ، كان الجميع يرقبون في خوف قراره الخطير .

ووقف جدى وأبى وعمى خارج غرفة المريضة ، وأبت جدتي أن تدخل مع الطبيب ، وكانت أمى أكثر الموجودات شجاعة فقبلت أن تقف مع الطبيب في أثناء فحصه عن عمى كأنما قد قبلت أن تقوم بعمل فدائى .

وراح الطبيب يحس بأصابه موضع الألم فازداد صراخ عمى ، فقال الطبيب : — مصران أعور حاد ، لازم تروح المستشفى حالا .

وانتقل الخبر في أرجاء شقة جدى كالبرق ، فلما سمعت جدتي أن ابنتها لا بد أن تنقل إلى الاسبتالية سقطت مغشيا عليها ، فرشوا على وجهها الماء وقربوا من أنفها بصلة وراحوا يربتون على خديها .

وراح جدى يتوسل إلى الطبيب أن يعالج ابنته في البيت ، فأخذ الطبيب يحاول أن يقنعه أن أجراء عملية مثل هذه لا يمكن اجراؤها في البيت ، إنها تستدعى فتح البطن ،

وراح كل من فى البيت يردد فى خوف :

— فتح بطن ! فتح بطن ! ومين يعيش بعد ما يفتحوا بطنه ؟!

وأصر الطبيب على أن يحملها فورا إلى المستشفى ، فالمصران على وشك الانفجار ، فإذا لم تجر العملية فورا فهو غير مسئول عن حياة المريضة .

وحملت عمى إلى المستشفى القبطى بين نحيب كل من فى الدار . ولولا بقية من إيمان لشيعت عمى بالصوات . وذهبت أمى معها إلى المستشفى لتكون إلى جوارها إذا ما ماتت أو قدر لها أن تخرج من غرفة العمليات وهى على قيد الحياة . وسار جدى بين أبى وعمى حنفى وهو يسح الدموع ، وسارت جدتى خلفها وهى محمولة على أذرع كل من فى الدار ، فقد كانت عمى سميئة ينوء بحملها رجلا . وظلت جدتى تولول حتى إذا ما غابت عن عينها لم تحتمل قسوة الفراق فسقطت على الأرض غائبة عن الوجود .

و لم يغمض لأحد جفن تلك الليلة ، كان الحديث كله حول المصران الأعور ومن نجا بعد إجراء هذه العملية الخطيرة التى تستدعى شق البطن ! وكانت جدتى مرهفة الحس ، فما إن تسمع أية حركة على السلم حتى تهول إلى باب الشقة وتفتحه ثم تنظر وتعود لتقول فى يأس :

— دى القطعة .

وبعد منتصف الليل جاء جدى وأبى وعمى من المستشفى وقالوا فى فرح :

— الحمد لله ، العملية خلصت .

فصاحت جدتى فى لهفة :

— طب أروح اشوفها .

فقال عمى حنفى دون وعى :

— بس لسه ما فاقتش من البنج .

بنج ؟! إن جدتى لا تفهم مما يقال أمامها شيئا ، كل ما تدريه بحواسها أن ابنتها لا

تزال فى خطر ، إنها تثق فى أبى فذهبت إليه وقالت :

— ازيبها دلوقت يا جودة ؟

كان أبى رقيق القلب يذرف الدموع لأوهى سبب يمس وترا فى فؤاده ، فقال لها وعبراته تترقق فى عينيه :

— بخير . بخير والله .

وراحت جدتى ترقب الصباح ، وقبل أن تشرق الشمس كانت قد ارتدت حبرتها السوداء وراحت تحت جدى على أن يصحبها إلى الاستتالية .

وطلبت من أبى أن أذهب معه لزيارة عمتى . كان حب الاستطلاع يدفعنى إلى التثبت بهذه الزيارة فما كنت قد رأيت مستشفى من قبل ، وكنت فى قرارة نفسى أشتى أن أرى أمى فى موقفها البطولى وهى إلى جوار سرير عمتى ، فقد كنت معجبا بأبى وإن لم يمر على يوم دون أن ألقى منها اللكمات والصفعات واللطومات وضرب المقشة والقبقاب .

وصعدت فى درج المستشفى وأنا أتلفت حتى لا يفوتنى شىء . كان منظر المرضات الأجانب والراهبات فى ثيابهن البيضاء المنشأة يهرنى وقد كن يسرن على أطراف أصابعهن حتى لا يحدث وقع أقدامهن صوتا يزعج المرضى ، فألفت نفسى بلا شعور أخفف الوطأ لكأنا انتقلت إلى عدوى الهدوء . وسرت فى ممر طويل إلى جوار أبى نسترق الخطى ، فإذا بأبى تستقبلنا مستنيرة وتقول لأبى فى فرح :

— الحمد لله ، فافت من البنج .

وتلقى أبى الخبر بسرور شديد ، ووسعنا الخطى ودخلنا إلى حيث كانت عمتى فألفينا جدى يكاد يرقص من الفرحة . وقد عبر عن فرحه بأن مديده فى عبه وأخرج محفظته وراح ينثر النقود على المرضى والمرضات ، فإذا بالرفة تمتلئ بأصحاب الثياب البيضاء فالمرور العذب كثير الزحام .

وتركت المستشفى فى رفقة أبى فإذا بالمظاهرات تسير فى شارع عباس تهتف بسقوط تصريح ٢٨ فبراير ، وما كدنا نبتعد عن المظاهرة حتى ألفت بعض الصبية يهتفون :

— يا عيش خمسة بقرش .. يا عيش خمسة بقرش .

لم يكونوا يحملون خبزا فعجبت لهفاتهم ، إنهم يسرون فى شبه مظاهرة فسألت

أبى عما يفعلون فقال لى :

— لما بنحب نضحك على الأولاد الصغيرين بنديهم جنيه شيكولاتة وبنقول لهم :
خدوا جنيه . أهم الانجليز عملوا معانا كده ، ادونا استقلال فالصو وقالوا لنا اننا
خلاص بقينا أحرار ، وعينوا السلطان فؤاد ملك على مصر عشان يوهموننا اننا خلاص
بقينا مستقلين وبقى لنا ملك . اللعبة دى ما دخلتش على الناس الوطنيين . فيه ناس كل
همهم انهم يقبضوا ، ما يهمهمش يقبضوا من مين . الحكومة جمعت الناس دول فى
عابدين عشان يهتفوا للملك . الناس والوطنيين مش عاجبهم الحال ده ، عايزين يقولوا
إن اللى بيهتفوا فى عابدين واخذين فلوس ، ما يقدروش يقولوا بصراحة ان اللى بيهتفوا
فى عابدين « يعيش الملك » قبضوا ثمن هتافهم ، قاموا اجتمعوا فى المظاهرات اللى شفتها
وهتفوا « يا عيش خمسة بقرش » يعنى كل ما يهتفوا « يعيش الملك فؤاد » خمس مرات
ياخدوا قرش .

ونظر أبى إلتى فى حب و لم يهتم كثيرا بما إذا كنت قد فهمت ما يقصده أو لم أفهمه ،
فإن كنت صغيرا فى ذلك الوقت لا أفهم فى السياسة شيئا فالأيام كفيلة بأن تفتح عيني
على ما كان يقصده .

١٢

استيقظ بيتنا لاستقبال يوم حافل ؛ كان الجميع يغدون ويروحون فى فرح غامر ،
وكانت جدتى أم عبد الغنى أكثر الموجودين بشرا ، فعمتى زينب ستخرج اليوم من
المستشفى بعد أن نجحت عملية المصران الأعور ، وكانت فى ذلك الوقت من أخطر
العمليات التى يجريها الأطباء المصريون .

كانت عمتى أول عضو فى أسرتنا تعرف طريقها إلى المستشفى ، فكان يوم
خروجها من بيتنا إلى المستشفى القبطى أقسى من يوم أن خرج أعمامى فى نعوشهم إلى
مقرهم الأخير ، فالموت ولا انتظاره . كادت روح جدتى أن تفر من جسدها جزعا
على عمتى التى حملت بين الموت والحياة ، أما اليوم فجدتى كانت فى بهجة العروس التى

تأهب لليلة الزفاف ، فقد كانت تعتقد في قرارة نفسها أن داخل المستشفى مفقود والخارج منه مولود ، وأن عمتي بخروجها من المستشفى قد كتب لها عمر جديد . وأرادت جدتي أن تعبر عن شكرها لله تعبيرا عمليا ، فراحت تعطى فقراء الأسرة ما تملك من نقود وتوزع عليهم ما في صوانها من ملابس ، والحق أن جدتي لا تبخل بمالها ولا بملابسها ، ولكنها في ذلك اليوم كانت أكثر سماحة وجودا .

وهتف من في الدار في فرح بأن عمتي قد وصلت وأنها تهبط من التاكسي وتسير متكئة على جدي وأبي ، فإذا بجدتي تلتمس منهم أن يصمتوا وأن يلتمسوا الهدوء حتى لا تصل أصواتهم إلى الجيران ، فقد كان الخوف من المجهول يلفها ، فإن كانت ابنتها قد نجت من مشرط الطبيب فهي تخشى عليها أن تصاب بعين توردها موارد الهلاك .

وهبطت جدتي في الدرج لاستقبال عمتي في فرح ، ولم تملك إحدى قريباتنا زمام نفسها فانطلقت زغردة تدوى في البيت ، فعلا الوجوه وجوم فأسرتنا تحسن استقبال الموت ولا تحسن استقبال الأفراح ، فإننا في المناسبات السعيدة نجلب الأحران بتذكر الذين ماتوا ونذرف عليهم الدموع ، لكأنما طبائعنا قد كونت من الشجن :

وأسرعت أمي صاعدة خلف عمتي فما غادرتها يوما مذ دخلت المستشفى ، وقد كانت فرحتي غامرة بعودة أمي ، كانت أول مرة تغيب فيها عنا وقد أحسنا لغيابها وحشة ، وإن استرحت في المدة التي مكثت فيها في المستشفى مع عمتي مما كانت تخصصني به من ضرب كل يوم لشقاوتي وعفرتتي .

وانشغل من في البيت عنا ، فهبطت أنا وأخي أحمد وأخي سعيد لنلعب الكرة في حارة ضيقة يطل عليها بيتنا ، لم يكن للحارة اسم فأطلقنا عليها اسم حارة بحر ، نسبة إلى بواب بيت يطل على الحارة من الجانب المواجه لبيتنا .

كان العم بحر هذا نوبيا حاد القسمات قاسي الطبع ، وكان يثور ثورة عارمة إذا ما مارست القطط أو الكلاب الجنس على مشهد منه ، وكان كثيرا ما يحاول أن يطردنا من الحارة وكانت محاولاته تذهب أدراج الرياح .

كنا على الرغم من ضيق الحارة وقصرها نلعب فيها ونجري ويتصبب العرق من أجسامنا . وكان فؤاد الشامي هو الوحيد الذي يستطيع أن يضرب الكرة بقدمه من

أول الحارة حتى نهايتها ، وكنا نرمقه في إعجاب فقد كان مفتول العضلات ممتلئاً صحة .

وكان قواد محدثاً لبقاً ، كان يقص علينا مغامراته ونحن نصغي إليه ساعات طويلة دون ملل . وفي ذات يوم رأى سودانيا في يده كرباج فأخذه منه وهزه في الهواء ، ثم قال إنه يستطيع أن يغتصبه من يد أى إنسان قبل أن يهوى به عليه ، فقلت مقلداً قواد إننى أستطيع أن أهجم على أى إنسان في يده كرباج وأن أنتزعه منه ، فقال قواد في بساطة :

— ح نشوف .

وقال حسين صديقى الصغير في فرح :

— أنا آخذ الكرباج .

وأخذ حسين الكرباج ووقف متحفزاً ينتظر في تنمر هجومى عليه وأنا أعزل من كل شيء ، وجمعت أطراف شجاعتي وهجمت عليه فراح يجلدني بالكرباج وهو يتقهقر أمام هجومى ، كان وقع الكرباج على أشد من لسع النار . إن دموى تريد أن تنهر لتنفس عن الآلام المبرحة التى كنت أتلوى منها ، ولكننى خجلت أن أبكى على مشهد من كل أطفال الحى ، وتجلدت وهجمت على حسين وانتزعت منه الكرباج ، فقال لى قواد :

— والله بطل .. بطل صحيح .

وقال حسين في زهو :

— بس كل علقه سخنه .

ولم أثبس بكلمة بل انسحبت في صمت ، حتى إذا ما بلغت مدخل بيتنا أخذت أطلق العنان لعبراتي ، لعل دموى تخفف من نار الألم التى تشوى جسدى وتكاد ترهق روحى .

وكانت كلمات قواد ترن في أعماق فكانت تخفف عني بعض آلام نفسى ، فأنا بطل وللبطولة ثمن ، وقد كان الثمن تمزيق جلدى . وجففت دموى وعدت أتحامل على نفسى إلى حيث كان قواد وأطفال الحى لأسمع بعض عبارات الثناء لعلها تعوضنى

عما قاسيت من آلام ، فإذا بالأطفال يخوضون في حديث آخر ، وإذا بالكرباج قد اختفى مع صاحبه السودانى ، وإذا بى وحدى أتجرع غصص الآلام دون أن أحظى ولو بكلمة إشفاق من أحد . لم يعد أحد يذكر بطولتى وكان عزائى أننى وحدى الذى قدر هذه البطولة وأعطاهما ما تستحقه من تبجيل ، لم يضع مجتمعنا الصغير وسام الشجاعة على صدرى ولكنى فى قرارة نفسى أكبرت فى نفسى شجاعتى وإن كلفتنى الآلام مبرحة لن تلبث أن تزول ، إن كل ألم جسمانى لا بد أن ينقضى حتى آلام الموت .

١٣

مس أذنى صوت صراخ وأنين من بعيد ، فأسرعت إلى الشرفة أنظر فرأيت فؤاد الشامى وأخاه مختارا قد ربطا إلى الشجرة الكبيرة التى تواجه بيتنا وأباهما ينهال عليهما ضربا بخيزرانة فى يده وقد نم الضرب عن انفعاله الشديد . كان فؤاد ومختار يصرخان من شدة الضرب وأباهما يرغى ويزيد وقد ملأه الغيظ والضيق .

كان أبوهما تاجر سجاد فى خان الخليلى وقلما كنا نراه فى الحى ، ومن الغريب أننى لم أكن أعرف لفؤاد بيتا . كان يظهر بيننا كأبطال الأساطير ويختفى دون أن نحس كيف اختفى ولا إلى أين ذهب ، وما كنا نرى أباه إلا وهو يضربه أو وهو يعدو خلفه ليلحق به .

ولا أذكر أننى رأيت فؤاد يذهب إلى المدرسة كما كنا نفعل ، كنا نعود من مدارسنا إلى بيوتنا فنجد فؤاد فى انتظارنا ليقص علينا مغامراته ، وكانت كلها مستقاة من حادثة رية وسكينة ، السفاحتين اللتين ظهرتتا فى الإسكندرية وكانتا تقتلان ضحايهما من الفتيات والنساء ويدفنانهن فى فناء دارهما وقد شغلت جرائمهما الرأى العام كله فى ذلك الوقت .

تعب الأب من ضرب ولديه لتأديبهما ، وما كاد يفك وثاقهما حتى أطلقا سيقانهما للريح وأخذتا يسبانه بأقذع السباب ، فما يملك إلا أن يعدو خلفهما كالجنون . وطرده الأب ابنه مختار من البيت الذى ما كنت أعرف له موقعا لأن مختار هو الأخ

الأكبر ، لعل ذلك الطرد يعيد الولدين إلى عقليهما ، فراح مختار يهيم على وجهه في طرقات الحى وقد ارتدى جلبابا على لحمه في الشتاء القارس ، حتى إذا ما عضه الجوع خطف رغيف عيش من دكان أى بقال يقابله وراح يلتهمه في شراهة والبقال ينظر في صمت وقد أحس عطفاً أو غيظاً ، فهو يعلم أنه لو احتج أو بدرت منه بادرة استياء فسيصبح الدكان أثراً بعد عين .

ولم يأبه فؤاد كثيراً لطرده أخيه من البيت ، وما أحسب أن ذلك قد شغل تفكيره ، فإنه كان يقف في حارة بحر يروى لنا طرفاً من مغامراته التى ما كانت تتجاوز خياله وأمانيه ، أو يحضر قفازات ملاكمة ، ولا أدرى من أين كان يحصل عليها ثم يختار من بيننا اثنين ليتلا كما تحت إشرافه ويوجه إليهما ما يشاء من ملاحظات ، وكانت ملاحظاته كلها تخضع لأهوائه فما كان يدرى شيئاً عن الملائكة وقوانينها .

اختارنى أنا وصديقى حسين لنتبارى ويكون هو الحكم بيننا . ولبست لأول مرة قفازات الملائكة وكنت سعيداً بها ، فقد شاهدت فى سينا أولمبيا مباراة ديمسى وكربنتيه على بطولة العالم ، وكنت أتخيل نفسى فى ذلك الوقت أحد أبطال هذه الرياضة العنيفة .

وقال لنا فؤاد إن الجولة خمس دقائق ، ولا أدرى من أين جاء بهذا التشريع فجولة الملاكمين المحترفين لا تزيد على ثلاث دقائق ، فما بالك بأطفال مثلنا لم نكن قد بلغنا العاشرة أو الحادية عشرة على أكثر تقدير .

وبدأت المباراة بينى وبين حسين ، وعقدت العزم فى قرارة نفسى على أن أثار لتلك العلة الساخنة التى لعب فيها الكرباج السودانى الدور الرئيسى المؤلم ، فهجمت على حسين ورحت أكيل له اللكمات ، وما أسرع ما أحسست أن ذراعى قد خذلانى . راحت الأرض تدور بى والأشخاص تتراقص أمام عيني وصوت فؤاد الشامى يصل إلى أذنى كأنما يصل إلى من بئر عميقة . وأردت أن أنهار على الأرض ولكن كيف أنهار لأصبح أضحوكة إخوان الحى ؟ إن الوقت يمر بطيئاً بطيئاً لكأنما الخمس دقائق قد أصبحت خمسة قرون ، ورأيت حسين يترنخ أمامى . إن فؤاد يرانا نرقص كحيوانات ذبيحة ولكنه لا يرحمنا بل يحرضنا على الاستمرار فى الملائكة ، لكأنما كنا ديكين

يتشاجران وهو يتسلى بمشاهدتهما .

وكان حسين أكثر شجاعة منى فقد توقف عن اللعب ، وقال إنه لا يريد أن يستمر في اللعب حتى يموت ، والحقيقة أننى كنت قد بدأت أحس أن الموت قد بدأ يتسرب إلى جسمى المنهوك .

وقال فؤاد مؤنبا إننا لا نصلح أن نكون ملاكمين ، فلم نلعب إلا دقيقتين فقط وأمامنا ثلاث دقائق آخر . ولم يحفل حسين لقوله وراح يعترض على طول الوقت ولم أنبس بكلمة لا لأننى كنت موافقا على أن يستمر اللعب خمس دقائق ، بل لأننى كنت عاجزا تماما عن الكلام .

ونمت فى تلك الليلة نوما عميقا واستيقظت مبكرا ، فانسللت إلى الشارع لأرى إعلان سينما إيديال شوقا لمعرفة الفيلم الذى سيعرض فى ذلك الأسبوع ، فقد كان اليوم يوم الاثنين موعد تغيير البرنامج .

وخرجت من شارعنا شارع جنيّة الكوة إلى شارع سكة الظاهر ، فرأيت مختار قادما يتلفت وهو يرتدى جلبابه وقد ظهر صدره العارى ، ولاح عليه الهزال ، إنه يكاد يموت من الجوع . وثارت فى جوانحى شفقة عليه لم أستطع أن أقف مكتوف اليدين ، فعدت إلى دارنا وطلبت من أمى مصروفى اليومى ، وكان قرشا صاغا ، وكان من الممكن فى ذلك الوقت أن تشتري به أشياء كثيرة .

وهبطت فى الدرج قفزا ورحت أعدو إلى أقرب بقال فى الحى ، واشتريت بالقرش عيش فينو وجبنة رومى ، وكنت أرصد مختار فى قلق وهو يذرع الشارع دون هدف كحيوان عضه الجوع يبحث عن طعام فى أى مكان .

ووقفت فى مكانى برهة ، لم أجد فى نفسى الشجاعة أن أقدم « السندويتش » إلى مختار فقد تقاصرت نفسى واعترانى خجل شديد ، فإننى أضعف دائما أمام جرح إحساسات أى إنسان .

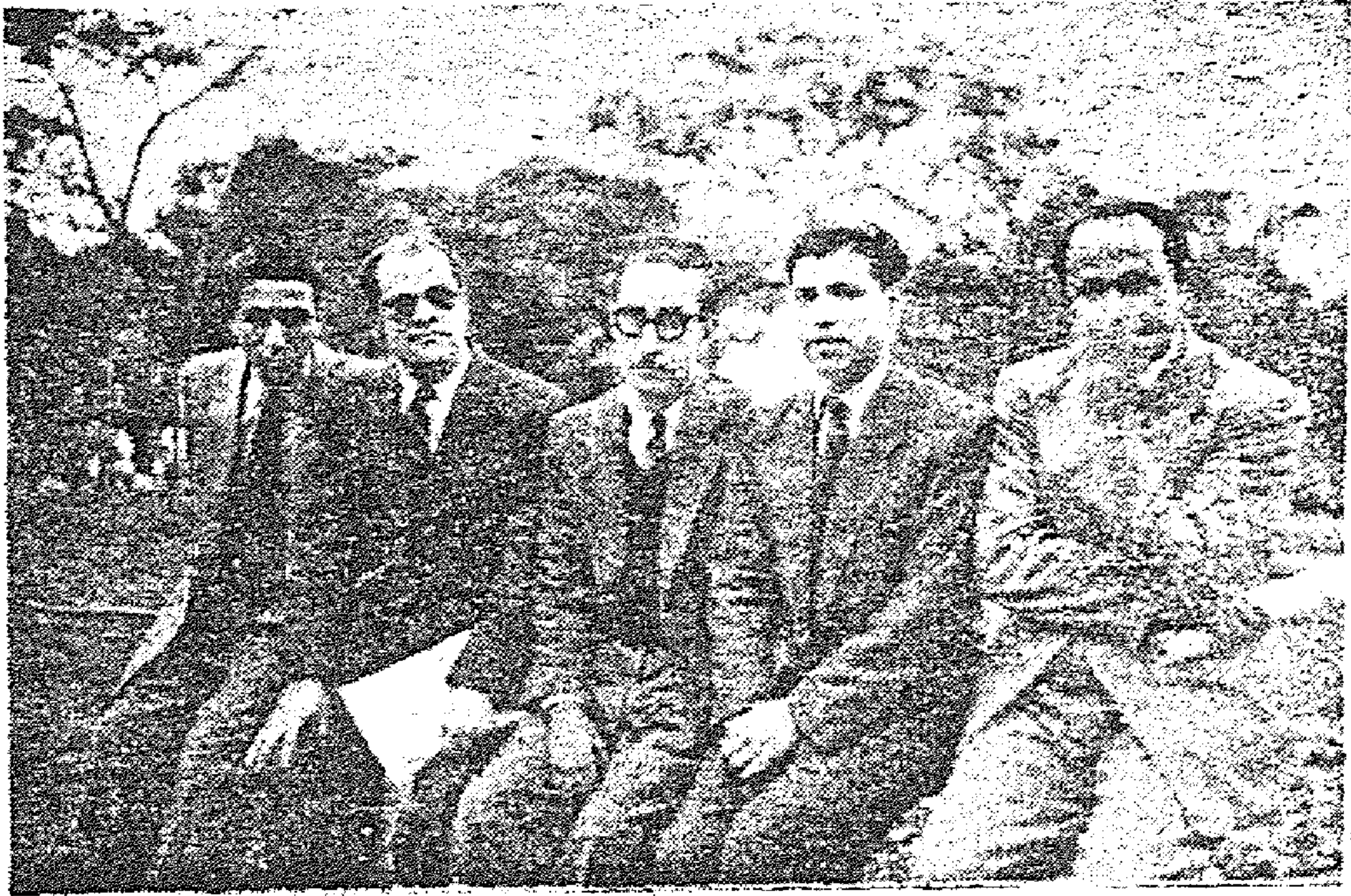
إننى مريض بمرض الكرامة ، إن أى تصرف تافه يجرح كرامتى يصيبنى بحرق ويولد فى ثورة طاغية ، لذلك أتحاشى ما وسعنى الجهد أن أجرح كرامة الناس ، فماذا أفعل حتى لا أجرح كرامة مختار ؟!

سرت في الاتجاه العكسي الذي يسير فيه مختار وأنا أرفع « السندويتش » في يدي كأنما كنت أحمل شمعة تنير لي طريقى ، فلما التقيت بمختار في عرض الطريق رأى مختار ما أحمل في يدي فانقض على وخطف السندويتش وراح يلتهمه في شراهة وأنا أرقبه في فرح ، فقد وفر على حرج تقديم السندويتش إليه .

وصارت عادتي في كل صباح أن أحمل السندويتش في يدي وأن يخطفه مختار مني ، حتى عاد مختار إلى بيت أهله ولا أدري متى عاد وكيف عاد ، فقد حرمني من مصروفي اليومي فترة الشتاء ، وكان أقسى ما كابدته من حرمان أنني طوال تلك المدة لم أذهب إلى السينما ، وكان عزائي أنني أنقذ إنسانا من أن يموت جوعا ، فما أقسى أن يموت من الجوع ، والمحال على جانبي الطريق مليئة بالخيرات .

١٤

كان أولاد عمي فاسم الذين كانوا في مثل سننا يمضون النهار في اللعب معنا وكثيرا ما كانوا يبيتون عند جدى ، فكنا ننام معهم على مراتب تطرح لنا على الأرض ، فما كان في البيت كله سرائر تكفى عددنا الكبير . كنا ننام على مرتبتين كالسردين في علبة الصفيح ، وكان جدى يطعم أبناء عمي بيده ، وكانت جدتي لا تبخل عليهم بالفلوس التي كانت تضعها في طاسة هندية صغيرة وتوزعها على من يدخل عليها من أحفادها وما أكثرهم من بنين وبنات ، وكان أبى يمسح رءوسهم بيده في عطف ، وكان كل من في البيت يبالغ في إكرامهم لأنهم أيتام ، وما كنت على الرغم من صغر سنى أستريح لذلك العطف المبالغ فيه فقد كنت أستشعر أنه يجرح شعور الأطفال ويظهرهم يتنا بمظهر الضعفاء .



كنا وأولاد عمى نلعب فى الفضاء الفسيح أمام بيتنا ، نتسلق الشجرة الضخمة القائمة فى وسط الفضاء ، أو يجرى بعضنا فى أثر بعض كالشياطين . وانسحب النهار ولم ندر أن الليل قد أقبل إلا بعد أن صك صوت بائع اللبن الزبادى آذاننا ، فاتجهنا إلى البيت فقد آن أوان العشاء ، وتناولت طعامى مع أبى وأمى وإخوتى ثم هبطت إلى شقة جدى لأبيت مع أبناء عمى .

وهبط أبى وعمى حنفى إلى شقة جدى ودار حديث عن التجارة بين جدى وولديه ، وقامت جدتى وأحضرت بطيخة كبيرة وقطعتها وراحت توزع علينا شقق البطيخ ، حتى إذا ما امتلأت بطوننا أخذنا فى طلب أشياء لا ضرورة لها حتى كدنا نفسد جلسة الكبار ، فطلبت منا جدتى أن نقوم لننام .

ودخلت أنا وإخوتى وأولاد عمى إلى حيث طرحت المرتبتان ، وأخذنا نتدحرج فوقهما ونحن نضحك وقد ارتفعت أصواتنا ، وإذا بأصوات نسوة تعلو على أصواتنا فانجفلنا مفزوعين ، وقبل أن نذهب لنرى ماذا حدث إذا بأمى تدخل تولول وتقول إن جدنا قد مات . مات ؟ إنه كان يأكل معنا البطيخ من لحظات ، وفى مثل لمح البصر (هذه حياتى)

مر بخاطري كل المحرمات التي ستفرض علينا ، الذهاب إلى السينا سيصبح عيبا ، أكل السمك سيحرم ، لن تدخل الكنافة ولا البسبوسة ولا أى صنف من الحلوى بيتنا قبل مرور أربعين يوما ، ومن يدري فقد تقرر أُمى أن جدى يستحق أن نحزن عليه سنة ، وعلينا أن ندخل صامتين مطرقين لا تنفرج شفاهنا عن بسمة وإلا اتهمتنا أننا بموات الشعور والإحساس . وطلب منا أن نترك الشقة وأن نهبط إلى الشقة في الدور الأرضي التي كانت معدة للعبنا .

وقبل أن نتحرك كان نبأ موت جدى قد انتشر في الأسرة وفي الأحياء المجاورة ، فإذا بالرجال والنساء يتقاطرون على دارنا يسبقهم الصوات . ومر الليل بطيئا مملا ولم يغمض لأحد في حيننا عين ، فصوات النسوة يدوى موحشا بغیضا يخلع القلوب ويطير النوم من الأجفان .

وجاءت عربة الفراش وشمّر الرجال عن ساعد الجد ليقیموا سرادقا كبيرا في الفضاء المواجه للبيت . وانقضى ليل طويل .. طويل ، وجاء النهار فجاءت أم عباس الصباحية لتندب جدى ، لكأنما كانت الجنازة في حاجة لمن يشعل نارها .

ووقعت عيناى على أم عباس بعد مدة طويلة لم أرها فيها ، كانت قبيحة الشكل لا يمكن أن يحتمل الإنسان النظر إليها . إن من تقع عليها عيناه لا يحتاج إلى فحاسة ليكتشف أنها نذير فناء ، ترى هل عملت ندابة لأن شكلها يؤهلها لذلك أو أن سحتها قد اكتسبت كل ذلك القبح من عملها ندابة ؟ وعجبت في نفسى كيف انجذبت في طفولتى إلى هذه المرأة ، وكيف كنت أفرح كلما نادتنى بزوجها العزيز !

ومزقت دقوف أم عباس سكون الحى ، وحطم صوتها القبيح الأجش أعصاب الجيران . وتقاطر التجار على السرادق ، وإذا بحركة غير عادية تجري أمام باب البيت ، كان بعض الرجال يسحبون عجلا والتعليمات تصدر لهم من هذا وذاك ، وقد وقف جزار متأهبا وفي يده السكين . وارتفعت أصوات النسوة متشنجة متتابعة ، فقام الرجال في الصوان لكأنما كانت تلك الأصوات إيذانا بأن جثمان جدى قد خرج من شقته ليوضع في الخشبة .

وخرجت الخشبة محمولة على الأكتاف ورجال من حولها يكون ، وحدثت جلبة

وضوضاء ، كان بعض الرجال يحاولون أن يطرحوا العجل تحت الخشبة ليدبحه الجزار . ووقفت أنظر لا أفهم سر ذبح العجل تحت جثمان جدى . كل ما استطعت أن أفهمه أن بعد ساعات سيكون ذلك العجل كفتة ، وسألتهم لحمه أنا وكل من فى الدار وكل من سيأتى لتعزيتنا من الأهل والجيران . مسكين ذلك العجل لكأنما كان أجله مربوطا إلى أجل جدى .

وخرجت الجنازة رهيبة لتمر على دكاكين الأسرة — ودكان جدى فى البهاوى — قبل أن تصل إلى ضريح الحسين ، فقد كانت عادة أسرنا الصلاة على الميت فى مسجد الحسين ، ولو مات أحد أفراد أسرنا فى طنطا لسارت جنازته على الأقدام من طنطا إلى الحسين .

وما غابت جنازة جدى عن أعيننا حتى راح النسوة ينسلن من المحزنة إلى دورهن ، فصعدت إلى الشقة التى اجتمعت فيها نساء الأسرة فألفت كل منهن تسترق الخطى إلى المطبخ أو إلى مكان بعيد عن الأنظار لتلتهن قطعة خبز وقطعة جبن وبعض بيضات وهى تتلفت خشية أن يراها أحد ، فقد كان الأكل فى المآتم عندهن عيبا لا يغتفر .

وعاد الرجال من دفن جدى فجمع أبى أطفال الأسرة ليأكلوا ، فتحلقنا صينية كبيرة عليها إناء كبير ملىء فته وبعض صحاف الكفتة ، فرحنا نأكل فى شراهة ونتصايح ، وقد نسينا تماما أن جدنا العزيز قد مات .

ورحنا بعد الغداء نجرى ونلعب حول السرادق الكبير ، ونتسلق الشجرة الكبيرة المواجهة لبيتنا ، حتى إذا ما رأينا الكلوباتى قد جاء بالكلوبات أسرنا إليه نرقبه وهو ينفخ بمنفاخ صغير كل كلوب قبل أن ينيره . ووقفت مشدوها لا أفهم الصلة بين نفخ الكلوب وإنارته ، إن الجاز يشتعل ، أما حكمة الهواء فقد غابت عني وأتعبت رأسى دون أن أهتمدى إليها .

وتقاطر الرجال إلى السرادق الكبير ، وراح صوت الشيخ على محمود القوى يتردد فى الحى دون ميكروفون . وبجوار السرادق أوقدت نارا فإذا ببعض الرجال يخرجون إلى ويصرخون فى وجهى ويتهموننى بأننى أريد أن أحرق السرادق بمن فيه . وتضايقت وإن انكشيت فى ملابسى ، فلم يخطر على قلبى أن أحرق السرادق ،

كان هدفي أن ألعب وان أسلى الأطفال الذين يلعبون معي .
وانسللت إلى البيت ، كان النسوة قد نمن من التعب ، وقد حمل الطباخ أدواته
وانصرف . وعلى الرغم من نور الكلوب الذي وضع في بير السلم كان كل شيء
هادئا ، فدخلت الشقة التي كانت معدة للعبنا وكان الطباخ قد استولى عليها ، فرأيت
أحد أبناء أعمامي وما أكثرهم يقبل فناة قد هبطت لحمل ما بقي من طعام إلى الشقق
العلوية . إنه ارتبك لما رآني ، وظننت في ذلك الوقت أنه عابث ولكن بعد أن كبرت
وقرأت قصص القصاصين الكبار تيقنت أنه كان حزينا لموت جدي وأنه كان ينفس عن
حزنه ، فسومرت موم كتب أقصوصة عن أم فقدت وحيدها فخرجت تهيم على
وجهها من لوعة الأسى ، ولم تستشعر راحة نفسية إلا بعد أن ارتمت في أحضان شاب
وأطفأت لهيب النار التي كانت تشوى كبدها ، فالحزن يثير الغرائز الجنسية ، فإذا ما
أطفئت تلك الغرائز كان في ذلك تنفيس عن حرقة الأحزان .

١٥

لم يعد لعب الكرة في حارة بحر الضيقة يرضى نهمي إلى لعب الكرة وتطلعت إلى
ميدان أوسع ، فذهبت إلى البكرية أمارس هوايتي أمام بيت شفيق منصور المحامي ،
كنا في ذلك الوقت أطفالا ولكن الأمة كلها كانت تتبع أخبار زعمائها . عرفنا من
أحاديثنا في أثناء اللعب وبعد اللعب أن شفيق منصور كان متفيا في مالطة مع سعد باشا
زغلول زعيم الأمة ، وأنه قد عاد من منفاه وأنه كان مرشحا ليدخل وزارة سعد باشا
التي ألفها .

كان بيت شفيق منصور أشبه بالبيوت التي نقرأ عنها في الروايات ، فما كنا نرى منه
إلا السور الخارجي والباب الحديدي ، وما كان يدخله إلا بعض الشباب بين وقت
 وآخر ، ولا أذكر أنني رأيت ظل امرأة تطل منه ، أو أنني تدخل إليه أو تخرج لقضاء
حاجة .

و كنت كل يوم أذهب إلى البكرية لألعب الكرة مع الفريق الذي كونه هناك ، وما

كنا نكتفى بأن نلعب مع أنفسنا بل كنا ندعو فرق الأحياء المجاورة لتلاعبنا في الطريق ،
فقلما كانت تمر به عربة حانطور ، فالسيارات كانت نادرة في شوارع القاهرة .

و ذات يوم بينما كنا نلعب إذا بصوت بائع الجرائد يصيح :

— قتل السير لى ستاك ، قتل السردار .

وتلفت بعضنا إلى بعض وكان مع أحدنا خمسة مليمات ، فاشترينا الصحيفة
والتفطنا نقرأ قصة اغتيال سردار الجيش المصرى فى السودان .

وتتابعت الأحداث سريعا ، فطلبت الحكومة الإنجليزية نصف مليون جنيه

تعويضا ، ونزول الجيش المصرى من السودان لىبقى هناك الجيش الإنجليزى وحده .

وكانت مطالب قاسية لم يقبلها سعد باشا زغلول فاستقال ، وجاءت حكومة زيور

باشا لتنفيذ كل ما طلبه الإنجليز . وراح الناس يتحدثون عن جماعة اليد السوداء التى

اغتالت السردار ، وانقسمنا نحن الأطفال بين مؤيدين لسياسة الاغتيال ومستنكرين

لها ، وفى الحقيقة كنا ننقل الآراء التى نسمعها فى دورنا ونعتنقها ونتحمس لها .

إن اغتيال رجل أية كانت مكانته حرمانا من نصف مليون جنيه ، وكان الجنيه

المصرى أمتن من الإنجليزى فى ذلك الوقت ، وطردها طردا من السودان . كان هذا

رأى ، وكان رأى الآخر أن الاغتيال سوف يحطم عجرة الإنجليز ، وسوف يلقيهم

أن فى مصر رجالا لن يستسلموا للاحتلال .

وفاضت الصحف بأبناء الحادث ، وقيل إن الهلباوى قد أرشد إلى القتلة وأنه

سيصبح شاهد ملك . وبينما كنا نلعب كعادتنا إذا برجال الشرطة ومعهم بعض رجال

البوليس من الإنجليز يأتون إلى بيت شفيق منصور ويقتحمونه ، فوقفنا بعيدا ننظر ،

وسرعان ما عادوا وشفيق منصور مقبوضا عليه .

وراحت الأمة تتبع فى اهتمام أنباء التحقيق ، ثم أنباء المحاكمة التى كان يرأسها قاض

إنجليزى هو المستر كير شو . وتسربت أنباء عن المقابلة العاصفة التى كانت بين اللورد

ألنبنى المندوب السامى البريطانى وبين سعد زغلول رئيس الوزراء عندما قدم اللورد

مطالب الحكومة البريطانية إلى سعد زغلول . وقيل إن سعد زغلول أظهر شجاعة

نادرة المثال ، وقيل إن الشيشينى وأحمد ماهر والنقراشى قد وجهت إليهم تهمة

الاشتراك في اغتيال السردار إخراجا لسعد باشا . وقد علمت عندما كبرت وعرفت كيف أقرأ الإنجليزية أن أغلب الشائعات التي تسرى بين الجماهير لها أساس من الصحة ، فقد وصف إميل لودفيج المقابلة التي تمت بين اللورد ألباني وسعد زغلول وصفا يثلج صدر المصريين المحبين لبلادهم ، قال إن الشيخ كان شجاعا شجاعة نادرة ، معترابوطنه ، لم يقبل أن يفرض في حق من حقوقه ، وقد أثر الاستقالة على تلبية طلبات المستعمرين .

وأصبح من المؤلف أن نرى الناس في الطرقات وأمام الحوانيت يقرعون في اهتمام كل ما يجري في المحكمة في الصباح ، وقد ظهر من الجماهير عطف كبير على الأخوين عبد الحميد عنایت وعبد الفتاح عنایت ، فقد كان عبد الفتاح ما يزال طالبا بالحقوق ، والنفوس تشفق على الشباب الغض وتخاف أن تكون النهاية حبل المشنقة .

وشغلت القضية كل البيوت ، وكانت الأمانى تبرىء ماهر والنقراشى والشيشينى لأن في تبرئتهم تبرئة للوفد الذى كان أغلب المصريين يرون فيه الأمل في تخلص مصر من نير الاستعباد .

وحدثت مفاجآت في القضية ، قيل إن هناك خلافات بين القاضى كيرشو وهيئة المحكمة ، وأشيع أن القاضى لا يقبل أى ضغط عليه وإن كان الضغط آتيا من حكومة الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس . واستبشر الناس خيرا حتى إن بعضهم كان يرى أن المحكمة ستراعى ظروف عبد الفتاح عنایت .

وصدر الحكم بإعدام شفيق منصور ومحمود إسماعيل وعبد الحميد وعبد الفتاح عنایت ومن اشترك معهم من عمال العنابر ، وبرىء أحمد ماهر والنقراشى والشيخ أحمد جاد والشيشينى ، وحنق الناس للحكم بالإعدام على أخوين في قضية واحدة ، وبلغ غضب الناس السلطات الحاكمة فاستبدل حكم الإعدام بالأشغال الشاقة المؤبدة .

وكانت الأغنيات الشعبية في ذلك الوقت تعبر أصدق تعبير عن مشاعر الناس ، فإذا بمجموعات من الشبان يسيرون في طرقات القاهرة يغنون :

ماهر والنقراشى	والشيخ أحمد جاد
والشيشينى معاهم	والناس الأجداد

وتطلب الأغنية من الشعب أن « يبل الشربات » لأن رجال الوفد قد برئوا من تهمة الاشتراك في اغتيال السردار .

ونشرت المجلات صور المتهمين وهم في طريقهم إلى المشنقة ، وكتبت الصحف عن الإجراءات التي تتخذ قبل الشنق ، وذكرت بعض الصحف أن بعض المتهمين كانوا يهتفون لمصر قبل أن يقدموا رءوسهم لعشماوى .

وفي ذلك اليوم لم نلعب الكرة أمام بيت شفيق منصور احتراماً لشعور أهل الدار ، ومشاركة منا نحن أطفال الحى فى الحداد . ووقفت أنظر إلى بيت الفقيد من بعيد ، كأنما أنظر إلى بيت ملء بالأسرار ، وما دار فى خلدى فى ذلك الوقت أننى كنت سأفقد عمرى فيه فى مستقبل أيامى لولا لطف الله .

١٦

أصبح كل شىء فى بيتنا أسود بعد موت جدى ، بياضات المقاعد صبغت باللون الأسود ، والمرايا الكبيرة فى غرفة الاستقبال غطيت بقماش أسود ، ونساء البيت تسربلن بالسواد ، حتى جلايب الخادومات صبغت بالسواد ، وحرم علينا أكل السمك والفواكه والحلويات . وكنا نطبق كل المحرمات ولا نضيق إلا بحظر الذهاب إلى السينما ، فقد كانت أمى تعتبر الذهاب إلى السينما من الكبائر فى الأيام العادية ، فما بالك بالذهاب إليها فى مدة الحداد ، وأقصر مدة حداد عند أمى إذا مات لنا قريب بعيد كانت سنة . ترى كم ستطول مدة حدادها على جدى العزيز ؟

كنا قد أدمنا الذهاب إلى السينما ، وما كنا نكتفى بأن نذهب مرة واحدة فى الأسبوع إلى سينما قريبة من حينا ، بل كنا نطوف على كل السينمات فى حفلة الساعة الثالثة ، فقد كان علينا أن نكون فى البيت قبل أن تغرب الشمس ، وإلا تعرضنا لضرب المقشّات والصفعات واللطمات من أمى التى كانت تجد لذة عجيبة فى ضربى .

كانت كلما ضاقت بى تقول :

— والله ما حيتلف أملك غير السيمى .

لكأنما كانت تقرأ مستقبلي !

كنا بعد عودتنا من المدرسة نذهب إلى ميدان الظاهر حيث ينتهى الترام الذى يصل بين الظاهر والسيدة زينب مخترقا شارع الخليج المصرى (شارع بور سعيد الآن) ، وكنا نتنافس فى جمع تذاكر الترام التى لم يمزقها المفتش ، لأننا كنا نستطيع أن ندخل سينما الشعب إذا دفعنا خمسة مليمات وتذكرة ترام سليمة .

كانت سينما الشعب تقع خلف عمارات الخديوى بشارع عماد الدين ، وكانت تعرض روايات مسلسلة تستولى على ألبابنا ، وكنا نخصص لها يوم الاثنين من كل أسبوع . ولم تكن سينما الشعب وحدها هى التى تتعامل بتذاكر أو كوبونات ، فقد كانت سينما الكلوب المصرى القريبة من المشهد الحسينى تخفض قرشا من ثمن التذكرة لمن يقدم كوبون سجائر ماتوسيان ، وكان ثمن التذكرة فى الصالة التى تهبط إليها فى بضع درجات قرشا ونصف قرش ، أما تذكرة البلكون فكانت بقرشين كاملين . وكانت سينما الكوزمجراف الأمريكانى تتعامل بكوبون يوزع مع نوع من أردأ أنواع الشيكولاته ، وما كنا نشترى السجائر ولا الشيكولاته بل كنا نشترى الكوبونات من باعة متخصصين يقفون عند مدخل السينما .

كان يوم الأحد مخصصا لسينما الكوزمجراف ويوم الخميس لسينما إيديال ويوم الإثنين لسينما الشعب ويوم الجمعة لسينما الكلوب المصرى ، وكنا كال دراويش الذين يخصصون كل يوم من أيام الأسبوع لزيارة ضريح من أضرحة أولياء الله الصالحين . وكنت وأخوإى أحمد وسعيد من أنصار سينما إيديال ، وكان فؤاد الشامى من فريقنا فقد انقسمت الشلة إلى مؤيدين لسينما إيديال ومؤيدين لسينما أولمبيا ، وتحمس كل فريق للنجوم الذين يمثلون فى الدار التى يحبها .

لم يكن التعصب للأهلى أو للزمالك قد ظهر بعد ، فما كان أحد ليهتم بمباراة الكرة ، ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش دون أن يتعصب لشيء فقد كان تعصبنا لسينما إيديال يكاد أن يكون جزءا من حياتنا . كانت كل دار من الدارين تعرض إنتاج أفلام شركة معينة من شركات الإنتاج ، فلم يحدث أن نجما من نجوم سينما إيديال عرضت له أفلام فى سينما أولمبيا إلا مرة واحدة ، فقد عرضت سينما أولمبيا فلما لنجم محبوب من

نجومنا فاعتبرناه نجما خائنا وقاطعنا أفلامه .

ومن حسن حظنا أو من أسباب تعصبنا أن سينما إيديال كانت تعرض أفلام أشهر نجوم السينما في ذلك الوقت : توم ميكس ودوجلاس فيربانكس ومارى بيكفورد ولارى سيمون (زيجوتو) وآرت أكورد وشارلى شابلى وإيلين سيدجويك . وكانت إيلين تقوم بدور البطلة في روايات المغامرات وكانت تنصهر على الرجال ، وكان ذلك يزيد في زهونا ويمدنا بحجة قوية على أصدقائنا مؤيدى سينما أولمبيا ، فما كان عندهم (شجاعة) مثل إيلين .

كانت الأمور تسير طبيعية قبل موت جدى ، فقد كنا ننسل من دورنا ونذهب إلى السينما دون أن يفطن إلى غيابنا أحد ، أو دون أن تثير أُمى الدنيا . أما فى زمن الحداد فقد تعقدت الأمور ، فغائبنا عن البيت معناه الذهاب إلى السينما وارتكاب إحدى الكبائر التى لا تغتفر .

كانت سينما إيديال تعرض رواية سلسلة لأحب نجم إلى قلوبنا ، رواية لآرت أكورد . إن مشاهدة آرت أكورد تستحق المغامرة ، فسرنا إلى باب الشعرية ومنها إلى درب مصطفى ثم الواسعة وكان هذا الحى للبغايا ، فلم نلتفت إلى الساقطات الجالسات على جانبى الطريق بل أخذنا نوسع الخطا حتى نصل قبل أن يبدأ العرض الذى كان يستولى على كل تفكيرنا .

كان فؤاد الشامى يروى علينا مغامراته وكانت لا تزال حتى ذلك الوقت من وحي خياله ، فكنا لا نشعر بطول الطريق الذى نقطعه ، بلغنا العتبة الخضراء وما كانت العتبة مزدحمة كما هو الحال الآن . كان بها موقف للسوارس وسيلة المواصلات بين العتبة والحسين ، وموقف للحمير والحمار ، فرحنا نقطع الميدان مهرولين لا خوفا من السيارات فقد كانت السيارات فى القاهرة فى ذلك الوقت تعد على الأصابع ، بل لأن ميعاد بدء العرض قد أوف .

وعرج أنصار سينما أولمبيا على دارهم المفضلة ، ووسعنا خطانا لنصل إلى عابدين . ومن بعيد رأينا الزحام حول شباك التذاكر ، فأخذ فؤاد منا قروشنا واندفع فى خضم الزحام يدفع هذا وذاك ، وسرعان ما عاد إلينا مزهوا فقد استطاع أن يحصل على

التذاكر بفضل قوة عضلاته المفتولة .

ودخلنا من باب الترسو وجلسنا على الدكك الخشبية نتطلع في شوق عظيم إلى الشاشة ، كانت تلك اللحظات من أمتع لحظات عمري ، ولا أذكر أنني فرحت بشيء نلته في حياتي بمثل ذلك الفرح الذي كان يغمرني كلما مددت بصري إلى شاشة سينما إيديال !

إنني شاهدت أروع استعراضات الليدو في باريس ، وكان لي حظ مشاهدة أعظم الأعمال الفنية في كل عواصم أوروبا ، وللحقيقة أقرر أن جلستى على دكك سينما إيديال في الدرجة الثالثة كانت أمتع من جلستى في المقاعد الوثيرة في ملاهى روما وباريس وأثينا وكوبنهاجن وبودابست وموسكو .

وبدأ العرض فرحنا نصفق تصفيقا مدويا لما لاح لأعيننا بطلنا المحبوب آرت أكورد على صهوة جواده . كنا نحبه حبا طاغيا وكان يخيل إلينا من فرط إعجابنا به أنه يبادلنا حبا بحب . ومرت ساعتان مترعتان بالنشوة ، وانتهى العرض فخرجنا مسرعين لنقص على أصدقائنا رواد سينما أوليمبيا ما فعله آرت أكورد بأفراد العصابة التي كان يطاردها من أفاعيل . قال أخى سعيد وهو مبهور :

— آرت أكورد نزل من على حصانه وهجم على واحد من الحرامية وخطفه من رجليه ، بقت رجليه لفوق ودماعه لتحت ، وفضل يدق دماغه فى الأرض لغاية ما داخ.

فقال أحد أنصار سينما أوليمبيا ساخرا :

— نشه .

وقال آخر :

— ودا معقول ؟ دا كلام برضه يدخل العقل ؟

وثارت مناقشة حامية بين أنصار إيديال وأنصار أوليمبيا ، فأراد فؤاد الشامى أن ينهى

تلك المناقشات فقال فى تحد :

— أنا اقدر أعمل اللى عمله آرت أكورد .

وتحداه الصغار أنصار أوليمبيا ، وقبل فؤاد التحدى ، وفيما كنا نسير فى الشوارع

الضيقة التى تقود إلى الواسعة إذا بفتى يدفع عربة يد محملة بأعواد القصب ، فجذب فؤاد عودا من أعواد القصب فاتجه إليه الفتى يعاتبه ، فما كان من فؤاد إلا أن لكم الفتى لكمة قوية فى وجهه فسقط الفتى على الأرض .

ومرت لحظات قلقة ، وانتظرنا ماذا سيفعل الفتى بعد تلك اللكمة ، فإذا به يقوم فى صمت وقد تقاصرت نفسه ، وراح يدفع عربته دون أن يلتفت أو يحتج . أثر السلامة ورضى بالمهانة التى لحقت به .

وعرف فؤاد أنه قوى وأن جرأته تنزل الرهبة فى القلوب ، فمشى بيننا منفوشا كديك رومى ، وكانت بداية فؤاد الشامى .

١٧

أصبحت حارة بحر لا تتسع للعبنا ، ولم يعد شارع البكرية يصلح لإقامة المباريات بيننا وبين الأحياء المجاورة ، لذلك زحفنا إلى أرض المثلث خلف شركات البترول بغمرة . كنت طوال صباى أسمع عن ترعة غمرة وكانت تراودنى فكرة الانطلاق إلى الترعة لاكتشاف عالم جديد لم تقع عليه عيناى بعد ، فكنت أجتاز شارع عباس (شارع رمسيس الآن) ، ثم أتقدم خافق القلب حتى أطل على كوبرى باغوص ، ثم لا أجد فى نفسى الشجاعة على اقتحام الكوبرى أو السير تحته فقد كنت أتصور أن الترعة تمر تحت الكوبرى وأن مياه الترعة تغمر المكان ، وأن عرائس البحر ترصد المارة لتخطف منهم من يحلو فى عينيها ليعيش معها فى عالمها السحري العجيب الذى سمعت عنه أغرب القصص .

كنت فى شوق إلى أن أعيش فى قاع البحر مع عرائسه ، وأن أحيى الحياة الأسطورية المذهلة التى تروى عن الأبطال الذين تزوجوا الجنية ، ولكن الخوف من المجهول كان يستبد بى فعشت موزعا بين الرغبة والرهبة ، وقد راح خيالى يمدنى بأعذب الرؤى والأحلام .

انطلقنا فى الطرقات يمرر كل منا الكرة إلى زميله حتى بلغنا شارع عباس ونحن

منهمكون فى الجرى وراء الكرة ، ولم يفكر أحدنا فى أن يلتقطها حتى نجتاز الشارع بل اخترقنا الشارع والكرة تتناقل بين أرجلنا ، فما كانت هناك سيارات تنطلق فى تتابع كالسهام بين المحطة والعباسية .

وهبطنا إلى الطريق الذى يمر تحت الكوبرى ، فأخذت أتقدم فى حرص وقد أرهفت حواسى ، فعما قليل سأكتشف ذلك المجهول الذى كنت أتصوره شيئا عجيبا لا شبه بينه وبين ما رأيت فى القاهرة . رأيت تحت الكوبرى رجالا بسطاء قد افترشوا الأرض وقد انهمك بعض الحلاقين فى حلق رءوسهم ، وعربات الكارو تغدو وتروح كما تغدو وتروح فى باب الشعرية وأمير الجيوش وكل الشوارع التى تربط بين بيتنا ومدرسة الجمالية . واجتزنا الكوبرى وقد تبددت الخيالات ، وعرجنا يمينا ورحنا نصعد فى طريق ازدحم بعربات الجاز الذاهبة إلى شركات البترول أو المقبلة منها . وسرنا مسافة قبل أن تظهر لنا التربة ، كانت تربة الإسماعيلية تنتهى عند غمرة فى ذلك المكان المزدحم بعربات السكك الحديدية .

ورأينا قطارا يسير الهوينى فقال فؤاد الشامى :

— فاكرين الخدعة الكبرى لما كان بيعجرى م الحرامية والقطر جرى من قدامه ،

ولقى إن الحرامية ح يلحقوه راح فايت من بين عجل القطر ؟

— فاكرين .

كان شارلس هتشنسون بطل رواية سلسلة اسمها الخدعة الكبرى ، وكان مز الصعب على رواد سينما إيديال أن ينطقوا اسم البطل أو يحفظوه ، فأطلقوا عليه اسم الخدعة الكبرى وفتحوا الخاء ، وكان فؤاد الشامى من المعجبين بذلك البطل لذلك أراد أن يقلده فقال :

— مين يقدر يفوت زيه من بين عجل القطر ؟

فقال أخى سعيد :

— أنا .

وكأنما ضايق صديقنا فريدون أن ينفرد سعيد بالبطولة فقال :

— وأنا .

و لم ينتظرا إشارة فؤاد ، بل انحنى سعيد وفريدون وراحا يتحيانان الفرصة ليندفعا مسرعين بين عجلتين متحركتين من عجلات القطار ، كان القطار يسير بطيئا فاندفع سعيد وفريدون بين عجلتين وأصبحا تحت عربة القطار و لم يخرجوا من الناحية الأخرى فقد اتابهما رعب شديد ، فاستلقيا على وجهيهما حتى مرت جميع العربات ثم نهضا لا يجدان لسانيهما من الرعب . ومرت لحظات كانا يقاومان فيها الفزع ثم تحركت الشفاه فأخذا يمجدان شجاعتهما وفؤاد الشامى ينفخ في غرورهما .

وبلغنا أرض المثلث فوجدنا فريقا من الأزهر يتدرب هناك ، فعرضنا عليهم أن نلاعبهم فقبلوا ، فإذا بأصواتهم تملأ أرض الملعب :

— القهقرى يا شيخ عبد المقصود القهقرى .. أصب المرمى يا أستاذ .

وراح فؤاد الشامى يلعب ألعابا خشنة فكان الشيوخ يتحاشون الهجوم عليه . واشتهر أمر فؤاد الشامى في أرض المثلث ، كنا إذا ما لعبنا ضد فريق وجرى فؤاد صوب من معه الكرة من الخصوم صاح المتفرجون :

— حاسب ! فؤاد الشامى وراك .

فكان اللاعب يقفز في الهواء ويترك الكرة فيأخذها فؤاد في يسر ، وبذلك أصبح

فؤاد قلب دفاعنا المرعب .

وبعد كل مباراة كنا نسير على حافة ترعة غمرة ، وكان يجذب نظرى الصيادون الذين يصطادون السمك هناك ، وذات صباح ملأتنى رغبة أن أنطلق لأصطاد في الترعة ، فعرضت الأمر على صديقى فوزى وكان أهله من البهائيين فأطلقوا عليه اسم عباس تيمنا باسم عباس البهاء رسول البهائية .

كنت أنا وعباس زميلين في مدرسة كان أهلنا يعيشون بنا إليها في الصيف ليستريحوا من عفرتنا ، وأذكر أن مدرسة الفصل كانت تقبلنى كلما دخلت علينا . وفي ذات يوم قبلت عباس فتملكتنى غيرة شديدة فهجمت على عباس أنشب في وجهه أظافرى . كنت منذ أيام أم عباس الندابة قد تعلمت أن الزواج حيازة وأن ليس هناك معنى لقولهم إن أم عباس زوجتى إلا أنها ملكى ، فكيف سمحت مدرستى لنفسها أن تقبل غبرى ، لم أكن قادرا على أن أضربها فضربت صديقى الصغير تعبيرا عن استيائى .

وانطلقنا إلى ترعة غمرة وأنا نشوان . كانت أول مرة أذهب فيها لأصطاد ولم يكن معي غابة ولا شخص ، فقد رأيت الأولاد ينزلون إلى الترعة ويصطادون بزجاجة كسر طرفها فعزمت على أن أفعل مثلهم .

خلعت حذائي على الشاطئ ونزلت إلى الماء حتى وصل إلى ركبتى ، ونزل عباس معي ورحنا نحاول أن نصطاد بالزجاجات التى أمسكناها بكلتا يدينا . وبعد محاولات دخلت سمكة صغيرة إلى الزجاجاة فكدت أطير من الفرح ؛ إنها أول سمكة أصطادها فى حياتى وإنها للذة كبرى أن يجنى المرء ثمار جهده .

وانتهت مغامرتنا بأن اصطدنا بضع سمكات واستولت على تفكيرى فكرة ، كان معي قرش تعريفة وإننا نستطيع أن نشترى به رغيفين وأن نتناول غداءنا من عرق الجبين .

وعرضت الفكرة على عباس فرحب بها ، وجمعنا بعض الأوراق والأعشاب وسألنا أحد المارة أن يعطينا عود ثقاب فأعطانا أحدهم عود ثقاب أحمر ، فحككته بقطعة



حجر فاشتعل ، وأوقدنا نارا أخذنا نشوى عليها السمك .
وعاد عباس برغيفين كبيرين ساخين فرحنا نأكل بشهوة ، وقد كانت تلك الأكلة
من ألد الأكلات التى تناولتها . وبعد أن شبعنا أخذنا نتشاور ، لماذا نعود إلى بيوتنا وقد
أكلنا ؟ من الأفضل والأعقل أن نتظر إلى جوار الترعة نرقب الصيادين حتى يحين
موعد لعب الكرة ، فنطلق إلى أرض فاكوم أرض المثلث ونوفر الذهاب والإياب
وتعب أرجلنا .

وبدأ اللعب فنسينا البيت ومتاعبه ، بل نسينا أنفسنا ، حتى إذا ما غابت الشمس
فى الأفق الغربى قفلنا عائدين إلى بيوتنا فى هدوء ، فما خطر على قلبى أن هناك من
انشغلوا بغيابنا وأنا فعلنا شيئا منكرا .

وأسرع إلى أحمد وسعيد عندما لمحائى مقبلا وقالالى فى استنكار :

— كنت فىن ؟

— كنت فى أرض المثلث .

— وما جتشى ع الغدا ليه ؟

— اتغديت .

— طب اطلع بقى شوف إيه الى مستنيك .

وسقط قلبى فى حذائى ، وأراد عباس أن يرى نفسه من تهمة الغياب عن البيت

طوال النهار فقال وهو ينظر إالى :

— كان ح يغرق فى الترعة لولا أنا نجيته .

ولم يكن هناك وقت لأكذبه فقد انتشرت الفرية فى سرعة عجيبة ، حتى إنها بلغت

أمى قبل أن أصعد لأتلقى وعدى .

وصعدت إلى الطبقة الرابعة من منزلنا حيث كنا نسكن وأنا أكاد أموت من

الخوف ، لماذا ستضربنى أمى ؟ لأننى وجدت طعاما فأكلت فلم يعد هناك ضرورة

ملحة تدفعنى إلى العودة ؟ كنت لا أرى البيت أكثر من مكان آكل فيه وأنام فيه ، ولم

أعرف بعد ذلك القلق المدمر الذى يتتاب الوالدين إذا ما غاب ابنهم عن موعد عودته .

ومن أين لى أن أعرف مثل تلك المشاعر التى ما كنت قد أحسست بها بعد ، كنت ابنا

ولم أكن أبا ، كنت أنشد التحرر و كنت أضيق بالمشاعر الأبوية ، و كنت أقرر في أعماقي أنني لن أكبل أولادى إذا ما قدر لى أن يكون لى أولاد فى مستقبل حياتى بمثل ما كبلى أبواى بمشاعرهم ، ولكن هيهات !

وما إن رأتنى أُمى صاعدا فى الدرج منكس الرأس حتى خفت إلى قفزا و جذبتنى من يدى إلى الغرفة الداخلية لتضربنى ولا يصل صوت استغاثاتى إلى جدتى التى كانت تحتج دائما على ضربى .

وبدا الصفع والركل ، وأسرع عمى حنفى وإخوتى محمد وأحمد وسعيد ليخلصونى من يدى أُمى دون جدوى ، بل أخذت تضربنى فى عصبية وهى تقول : — إذا كان لازم تموت .. تموت قدام عينى أحسن .

ولم أفهم الفرق بين أن أموت بعيدا عنها أو أموت فى يديها ، واشتد الضرب حتى لم أعد أحتمله فانفلت من يديها وانطلقت إلى البلكونة لأقفز من الطبقة الثالثة فرارا من الآلام التى كنت أقاسيها .

وجرى خلفى عمى وإخوتى وجذبونى إلى الخلف قبل أن أقفز من البلكونة ، ووضعونى فى وسط الحجرة وانهالوا على جميعا يضربوننى دون رحمة .

وحملت إلى سريرى ودموعى تغسل وجهى وصدرى يهبط ويصعد فى تتابع سريع . وجاء أبى يمشى على أطراف أصابعه ونظر فى وجهى ليطمئن أننى لا أزال على قيد الحياة ، وذهب إلى الشباك يحكم إغلاقه حتى لا أعاود القفز منه ، ولم أتم تلك الليلة ولم تغمض لأبى عين ، فقد مضى طوال الليل يغدو ويروح بين حجرته وحجرتى ، وقد خفف من آلامى حنان أبى الفياض وإن لم تتحرك شفتاه بكلمة . ترى ماذا سيكون حالى لو عاملتنى أُمى بنفس الحنان الذى كان يغمرنى به أبى ؟ . لا شك أنني كنت سأكون رجلا آخر ، رجلا يلاطم الحياة وتلاطمه بعد أن تلفظه جميع المدارس ، فقد كنت فى تلك السن أمقت المدرسة أشد المقت حتى إذا ما نهضت من نومى ورأيت سطوع الشمس ، شعرت بضيق شديد لأننى لم أمت فى أثناء النوم . إنها أُمى التى كانت ترغمنى على الذهاب إلى المدرسة ، حتى حصلت على الشهادة الابتدائية بعد سبع سنوات أذرع فيها شارع سكة الظاهر فباب الشعرية فأمر الجيوش فالتحاسين

فالدرب الأصفر ، فمدرستي التي كان لا ينقطع سبل الجنازات عنها ، فهي في الطريق بين المشهد الحسيني والمقابر ، فما كان يمر يوم إلا وأنا أذكر الموت ، ولا شك أن النعوش التي كانت تلازمني كظلي كان لها أثر عميق في نفسي . بل إنها صارت إحدى مكوناتي : فقد عشت منذ نعومة أظفاري أفكر في الموت وأعتقد أنه الحقيقة الوحيدة في هذا الكون ، وأشرد طويلا مفكرا فيما بعد الموت ، وما أكثر الصور الحسية التي أمدني بها خيالي في ذلك الوقت للحساب ووضع الموازين والصراط والجنة والنار ، وما أمتع الحوار الذي كان يدور في وجداني بيني وبين أقاربي الذين تجرعوا كتوس الموت . كنت أسألهم عما رأوا في الآخرة وكنت أجيب عن الأسئلة بالسنتهم إجابات أستمدّها مما اختزن في ضميري من معلومات ساذجة سمعتها من جدتي أو أمي أو بعض أصدقائي من الأطفال . كان الموضوع أكبر من تصورات غلام لا يزال في المدارس الابتدائية ، ولكنني كنت شغوفا باستطلاع كنه الحياة الثانية ، وكنت ألقى سمعي وكل حواسي إلى مدرس الجغرافيا المتدين الذي كان يحلو له أن يحدثنا عن الدين وعن الموت وما بعد الموت ، وكان حديثه أمتع من حديث مدرس الدين وأحب إلى قلبي .

١٨

عدنا والشمس تميل للغروب من مدارسنا فألقينا حقائب كتبنا وأسرعنا إلى حيث كان فؤاد الشامي ينتظرنا في حارة بحر ، وما كنت أفكر أين يمضي فؤاد سحابة يومه ومن أين يأتي ولا إلى أين يذهب ، كان يخيل إلي أنه قد زرع في الحارة وأنه أحد معالمها .

واجتمعنا حول فؤاد فراح يحدثنا عن مغامراته وعن التدريبات الرياضية التي يقوم بها كل يوم . إنه يدعي أنه يحمل الأثقال وأنه دخل ذات يوم السجن ولم يقل لنا لماذا بل قال إنه لم يدع تدريباته اليومية في محبسه ، إنه كان يرفع السجنان بين يديه عدة مرات كما يفعل بالأثقال .

وحدثنا عن الحرب التي دارت بين الأتراك واليونان ، وراح يصف في مبالغة (هذه حياتي)

ما يفعله الجندي التركي باليوناني ، إنه يغرس السونكي في عدوه ثم يرفعه في الهواء ويلقيه خلف ظهره ويأخذ ما معه من طعام ويلتهمه . ولم يكن فؤاد يكتفى بالرد بل كان يمثل الحادثة بوجهه ويديه وصوته فيقول كما يقول الجندي التركي الذي يتخيله :
— قو .. قا .

ثم يمثل كيف يلتهم الجندي التركي طعام اليوناني القليل :
— همهم .. قوقا .. همهمهم .

ويستمر في الطعن والأكل لكأنما الجندي التركي لا يشبع وكأنما الجندي اليوناني قد وقف صامتا كالبلغل لا يفعل شيئا ولا يحرك ساكنا حتى يطعنه التركي ويلقيه خلف ظهره ويلتهم طعامه وهو يصيح :
— قو .. قا .. همهمهم .

كان فؤاد الشامي واسع الخيال ، ولو استمر في المدارس لكان من كبار كتاب المغامرات .

وجرنا الحديث إلى ذكر المصارعة فقال فريدون ، وكان على الرغم من صغر سنه وصغر حجمه يجب أن يكون منافسا لفؤاد في القوة وفي سرد المغامرات :
— إبراهيم كامل فاز ببطولة مصر في وزن الريشة .

وما كنت بعد أعرف ما تعنيه الكلمة ، ولكن فؤاد أخذ يشرح لنا الأوزان ويعرفنا الفرق بين وزن الريشة ووزن خفيف الثقيل ، وأسهب في شرح أصول المصارعة فقال أحدنا :

— انت لعبت مصارعة يا فؤاد ؟

فراح فؤاد يتحدث عن انتصاراته في المصارعة ، ثم ختم حديثه بقوله :

— أنا ح اتحدى إبراهيم كامل على اللقب .

وأحضرنا ورقة وقلمًا وراح فؤاد يكتب تحديه لإبراهيم كامل على لقب بطولة مصر ، وختم الرسالة بتوقيع فؤاد السوري . وسألناه عن السبب فراح يخبرنا أنه أصلا من سورية وأن الشام تضم سورية ولبنان والأردن وفلسطين . وفي صباحا اليوم التالي اشترينا صحيفة الأهرام ، ولم تكن صحف الإثارة قد عرفت بعد في مصر ولم تكن

مهاترات السينما والكرة قد استولت على الصحافة الجادة ، بل كان كبار الكتاب والأدباء يسطرون ذوب نفوسهم لخدمة قضايا الوطن ولبناء الإنسان المصرى الجديد ، فقلبنا صفحات الأهرام ووقفنا عند عمود الرياضة ، فقرأنا فى نشوة نبأ تحدى فؤاد السورى لإبراهيم كامل .

ورد إبراهيم كامل بقبول التحدى ، فوجدنا مادة للحدث حتى يحين الموعد الذى تحدد للمباراة .

وغاب فؤاد الشامى عنا بعض الوقت ثم عاد يقول إنه كان يتدرب للقاء الكبير وإنه يدعونا لنشاهده كيف سيصرع بطل مصر . وراح يشرح لنا كيف سيبدأ المباراة وكيف سينتصر بالكتف ، وما كنت قد رأيت مصارعة إلا فى السينما فاشتقت إلى الذهاب مع رفاق الحى إلى النادى لأرى شابا أعرفه يلعب لنيل لقب بطل مصر . ولكن أمى أبت أن توافق على ذهابى فانكمش أخواى أحمد وسعيد ولم يذهبا ، كانا يطلقانى لطلب الإذن أو الشىء من أمى ويرقبان النتيجة من بعيد ، فإن كان فى الأمر ضرب أو زجر كان ذلك من نصيبى ، وإن حظيت بموافقة على فعل شىء أو أخذ شىء انسحبت الموافقة عليهما ، فكان على الغرم وحدى وكان الغنم شركة بيننا .

ورحت أتخيل صورة فؤاد الشامى منشورة فى صحيفة الرياضة بالأهرام وقد كتب تحتها بطل مصر فى وزن الريشة .

ولم أستطع فى ذلك اليوم أن أدخل فراشى لأنام ، كنت متلهفا على سماع النبأ العظيم ، فما إن سمعت أصوات الرفاق وهم عائدون من المباراة حتى هبطت فى الدرج عدوا دون أن أستاذن أمى وليكن ما يكون .

وأسرعت إلى فريدون أسأل عما حدث ، فقال لى فريدون إن المباراة انتهت بعد ثانية واحدة من إعطاء الحكم إشارة البدء . تقدم فؤاد ليصافح إبراهيم كامل ، فخطف إبراهيم يد فؤاد بعد المصافحة ورفع فى الهواء وألقاه أرضا ، وصفر الحكم وأعلن الحكم انتصار إبراهيم كامل على خصمه بالكتف القانونية .

واستأنت لما سمعت ذلك من فريدون ولم أصدق ، وعللت ذلك بحقه على فؤاد ، ولكن الرفاق جميعا أكدوا لى ما رواه فريدون .

وفي اليوم التالي جاء فؤاد ولم يخفف من غلوائه ، بل قال مبررا هزيمته :
— خدني على خوانة .

كان فؤاد يستشعر في قرارة نفسه مهانة ، وقد فطن إلى أن مكانته قد اهتزت بيننا ، فكان لا بد من أن يقوم بمخاطرة يسترد بها مكانته ، فجاء إلينا وهو يركب بسكليتته وراح يتمايل بها يمينا وشمالا حتى كاد في كل مرة يلمس الأرض ، ثم قفز من فوقها في رشاقة ووقف أمامنا وقال :
— أنا ح أهزأ الترمواي .

ونظرنا إليه في دهشة . إننا نعرف التهزيء في الكرة ، إنه مراوغة الخصم والمرور منه ، فكيف يتأتى لفؤاد أن يهزيء الترام . وقبل أن نفيق من دهشتنا ، قال :
— مين يبجي معايا .

فقلت دون تفكير :

— أنا .

وركبت أمام فؤاد الشامي على البسكليت ، وذهبنا إلى شارع الخليج المصري وهو شارع بور سعيد الآن ، وكان شارع الخليج ضيقا جدا حتى إن الواقف على سلم الترام كان يشيح بكتفه في بعض المناطق حتى لا يرتطم بجدران المنازل .
وخرجنا من شارع الزعفراني إلى شارع الخليج ورفاق الحى يسرون خلفنا ليروا المغامرة الجديدة ، وأصبحت أنا وفؤاد في شارع الخليج ، وإذا بفؤاد يندفع بالبسكليت بين قضبان الترام في سرعة حتى أصبحنا أمام ترام مقبل مسرعا ، ولم يبق بيننا وبينه إلا بضعة أمتار .

وسقط قلبي في حداثي وانتابني خوف شديد ، وزاد اضطرابي لما رأيت سائق الترام يفرمل في حالة هستيرية وأصوات الركاب الجالسين خلفه تنطلق مفزوعة مدوية ، ولم أر ماذا اعتري رفاقي الصغار ، وفي مثل لمح البصر انحرف فؤاد يمينا ومرق كالسهم بين ترامين ، الترام الذي هزأه وترام آخر كان مقبلا من الاتجاه الآخر ، وفي لحظة كأنها دهر تعطلت كل حواسي وإن كدت أموت من الخوف .

ونخرجنا من بين الترامين فأحسست كأنما خرجت من القبر ، وشعرت بالهواء

منعشا يصفح وجهى . وعدنا إلى مكاننا المختار نجلس على شبابيك البدرومات أروى قصة شجاعتى ويروى فؤاد الشامى كيف هزأ الترام ، وكيف أن سائقه كاد يموت من الرعب ، وكيف أن بعض الركاب قد أصيب من جراء الفرملة المفاجئة ، وكيف أن السائق أطلق الشبكة لتلتقطنا إذا ما صدمنا ، وكيف وكيف . وما أخصب خيال فؤاد ، كانت له قدرة عجيبة على كساء حادثة بسيطة بلحم من المبالغات . وكانت حادثة تهزىء الترام خطوة أخرى فى الطريق الذى اختاره لنفسه : طريق المغامرات .

١٩

كان دكان أبى فى شارع سوق الجراية ، وكثيرا ما كنت أفكر من أين جاء هذا الاسم ، وكنت أسأل من هم أكبر منى سنا فقيل لى إن الحكومة كانت تصرف للمجاورين بالأزهر جراية ، أى أنها تجرى الأرزاق على طلاب العلم بالأزهر ، فكان الطلاب يحملون إلى ذلك الشارع الخبز ويبيعونه هناك ، فعرف المكان بسوق الجراية . وكان يرقد فى حوض دكان أبى دكان العم سيد الشامى ، وكان العم سيد ضئيل الجسم يرتدى جلبابا بنيا من الصوف ويضع الطربوش على رأسه ، وكان يبيع التبناك . كان طوال النهار يقص التبناك أو يلصق بالنشا أطراف الأكياس التى يعدها لوضع التبناك فيها ، وكثيرا ما كان أبى يطلب منا أنا وإخوتى أن نذهب إلى العم سيد لنعاوننه فى لصق الأكياس ، فكنت أجد لذة فى هذا العمل فى أول الأمر ، وسرعان ما يتسرب إلى الملل واستشعر آلاما فى كتفى فأنسل من مكانى فى صمت لأعود إلى الجلوس بجوار الخزانة الكبيرة التى كانت فى ظهر دكان العم سيد . وكان ذلك المكان فى دكاننا لجلوس أبى وجلوس الخواجات الذين يأتون لبيع الزيت أو الشاى أو ورق اللحم أو لتسلم قيمة فاتورة حل أجلها ، وكان أصدقاء أبى المقربون يشربون القهوة أو يدخنون السجاير هناك .

وكان العم سيد من المحبين إلى أبى . إنه طيب الحى ، فما من حالة تعرض عليه إلا

يجد لها دواء في تذكرة داود ، وكانت ثقة أهل الحى في كفاءته تفوق ثقتهم في أعظم طبيب عرفته مصر في ذلك الوقت .

جاءه أبى ذات يوم يشكو إليه أن سحابة بدأت تخيم على عين أخى فتوح ، وأخى فتوح كان قد ولد بعدى ، ووضعت أمى بعده بنتين ، جعلتا حياتها أكثر إشراقا ، فقد تحقق لها ما كانت تمنى من إنجاب بنت ، وراح العم سيد يفحص عن عيني أخى في اهتمام ثم رفع رأسه وقال :

— الحمد لله . السحابة ما وصلت لننى العين .

وعكف العم سيد يقرأ في تذكرة داود ، وكنت في ذلك الوقت أعتقد أنها من تأليف سيدنا داود نبى الله فما كنت أعرف شيئا بعد عن داود الأنطاكى ، ثم طلب من أبى إحضار تفاحة ، فلما جاءه بها حفرها ووضع فيها سكر نبات ، ثم طلب من أبى أن يضعها في فرن العم أحمد شكشوك حتى تنضج .

كان العم أحمد شكشوك فطاطرى أمام دكان العم سيد ، فذهب إليه أبى وطلب منه أن ينضج التفاحة ، فوضعها في الفرن بالقرب من النار ثم راح ينظر إلى العم سيد فالفاه منهمكا في قص التباك ، فالتفت إلى أبى يسأله عن سر التفاحة ، فراح أبى يروى له القصة والرجل يسمع وقطع العجين تنداح بين يديه على الرخام الذى أمامه ثم تطبق في مهارة عجيبة لتصبح فطيرة باللحم والبيض أو فطيرة بالسكر ، وما كان في دكان العم أحمد شكشوك صنبور ماء ، فكان الآكلون في داخل دكانه يمسحون أيديهم بعد أن يأكلوا هنيئا مريئا بالردة الموضوعة في قفف صغيرة بأركان المكان .

ونضجت التفاحة فأخذها أبى إلى العم سيد ، فراح يفحص عنها في اهتمام ثم قال لأبى :

— بكره الصبح ح اجيب لك القطرة .

وفي صبيحة اليوم التالى كان العم سيد يقدم إلى أبى زجاجة القطرة ويصف له عدد النقط وعدد المرات التى تستعمل فيها قطرة التفاح ، وكم كانت دهشتى لما رأيت السحابة قد انقشعت عن عين أخى ، فازددت إعجابا بالعم سيد وأصبحت أراه رجل الأسرار عندما يحدثنى عن حجر الفلاسفة ، وأنه يحاول أن يحيل في معمله الصغير في

بيته النحاس إلى ذهب .

وكان أمام دكان أبي الشيخ مصطفى بائع النشوق والعم إبراهيم تاجر الفحم ، وكان الشيخ مصطفى وإبراهيم نقيضين ، كان الشيخ مصطفى يرتدى الجبة والقفطان والعمامة ، يعتنى بمظهره ويطلق الضحكات المجلجلة في الشارع ، بينما العم إبراهيم يرتدى على الدوام جلبابا أزرق وقد ترك الفحم بصماته على وجهه ويديه ، وكان لا يغادر دكانه أبدا . كان يتناول طعامه فيه ويقضى نهاره صامتا ويمضى ليله نائما بين قفف الفحم وجوالاته . وكان الناس يتهايمسون أن العم إبراهيم لا يغادر الدكان لأنه يدفن فيها صفائح الذهب والفضة ، وما كنت أصدق ما يتناقله الناس عنه فقد كنت أراه يتناول طعاما واحدا وأن له صبرا عجيبا على الفول والطعمية .

وذات يوم انتشر في الشارع أن الشيخ مصطفى عزم أبو النور على الغداء وأنهما سيذهبان إلى بيت الشيخ مصطفى في زرع النوى للغداء . وانتشر الهمس بين الرجال وكان الهمس ينتهى بابتسامات ، وبلغ الأمر أن اثنين من أصدقاء أبي قد تراهنا على شيء لم أدر ما هو . وفي اليوم التالي تكشف كل شيء ، ذهب الرجلان إلى البيت ووضع الشيخ مصطفى كيلو الفسيخ أمام الضيف وبدأ الضيف في الأكل فالتهم الخبز الذى فى شقة الشيخ ، وأراد الشيخ أن يلبي طلب الضيف من الخبز فأرسل إلى امرأته يطلب منها مشنة العيش ، وكان الناس يخبزون الخبز فى البيت ليكفيهم عدة أيام ، وأتى أبو النور على مشنة العيش وعلى الفسيخ وعلى السردين الذى أتى به الشيخ مصطفى لأهل البيت . ولم يشبع أبو النور وراح الشيخ مصطفى يرسل أولاده إلى السوق ليشتروا خبزا ، واستمر أبو النور فى الأكل دون أن يشبع . وأخيرا ذهب الشيخ مصطفى إلى أبو النور وقال له متوسلا :

— أرجوك . ما تفضحنيش .

وفى صبيحة ذلك اليوم كان كل تجار شارع سوق الجراية يتفكهون بما كان بين الشيخ مصطفى وأبو النور . واتضح لى أمر ذلك الرهان الذى كان بين صديقى أبى ، تراهن أحدهما على أن الشيخ مصطفى لن يستطيع أن يشبع أبو النور وكسب الرهان ، وقال وهو يضحك :

— مش قلت لك ده صاروخ .

وعرفت منذ ذلك اليوم أن « صاروخ » معناها أن الرجل يستطيع أن يأكل دون أن يشبع ، وقد رأيت الفراشين في بعض أفراح الحى يقبضون على بعض الرجال ويشبعونه ضربا وهم يجذبونه بعيدا عن الموائد ويقولون :

— صاروخ ، ده صاروخ .

حاولت في ذلك الوقت أن أجد من يشرح لى تلك الظاهرة ، ولكننى لم أقتنع بكل ما قيل لى لأن ما كان يقال شىء لا يصدقه عقل .

وضحك كل الحى مما كان بين الشيخ مصطفى وبين أبو النور إلا العم أحمد الجزار الذى كانت دكانه ملاصقة لدكان الشيخ مصطفى ، فهو عابس دائما ، وقد لفت ذلك العبوس كل زبائنه حتى قيل إن فى حياته سرا ، وتوسع الناس فى سوء ظنهم فأكدوا أن السر يتعلق بحياته الزوجية ، وكان سبب ذلك الاستنتاج أن أحدا لم ير زوجته أبدا ، ولم يُر شباك من شبائك شفته مفتوحا ، فأطلق الناس الأعنة لأخيلتهم ليتصوروا ما شاء لهم التصور ما يمكن أن يجرى بين رجل عبوس وأهل بيته خلف أبواب وشبابيك مغلقة . ولما كانت أغلب القلوب مريضة ، ولما كانت قالة السوء أسرع انتشارا من الكلمة الطيبة ، فقد أصبحت الأوهام حقيقة والخيالات أمرا لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأصبحت للرجل صورة واضحة فى الأذهان وإن كانت بعيدة عن حقيقة جوهره وعن لب الحقيقة .

٢٠

عاد فريدون من مدرسته وهو فى قمة السعادة ، فقد أتيحت له فرصة رسم سعد زغلول . كان يجيد الرسم وقد انضم إلى فرقة الكشفة بمدرسة باب الشعرية ، وجمعت الظروف الحسنة بين الفرقة وبين زعيم الأمة ، فقدم المشرف على الفرقة التلميذ الصغير إلى بطل ثورة ١٩١٩ ، وقال للزعيم إن التلميذ يسعده ويشرفه أن يتفضل حبيب الشعب ويسمح لابنه الصغير أن يرسمه .

فابتسم سعد باشا وسمح لفريدون بأن يرسم له صورة بالفحم ، فكان أول ما بدأ به فريدون أن رسم أذن الزعيم ، فسأله سعد مداعبا :

— اشمعنى بديت بودنى ؟

فقال فريدون على الفور :

— لأنى سمعت أن سمع دولتكم قوى .

هذا ما قاله فريدون وهذا ما وعيته مذ سمعته منه ، والله وحده يعلم إن كان ذلك قد وقع فعلا أو أن القصة كلها من نسج الصبى الصغير ، فقد كانت هناك منافسة قوية بين فريدون وبين فؤاد الشامى ، كان كل منهما يطلق لخياله حرية السبح والسرح إذا ما تحدث عن نفسه وعن مغامراته .

وكان التنافس يصل بين الاثنين إلى درجة التحدى ، فكان كثيرا ما نرى فؤاد الشامى وفريدون يلعبان لعبة الذراع الحديدية . كان يركز كل منهما كوعه على قاعدة شباك البدروم الذى يجلس عليه دائما فى حارة بحر ، ويقبض كل منهما بكفه على كف غريمه ثم يحاول كل منهما أن يثنى ذراع الآخر ، حتى يطرحه أرضا ، وكان فؤاد والحق يقال ينتصر على فريدون فى كل مرة ، ولكن فريدون يدعى أن فؤاد كان يميل بكل جسمه وهو يحاول أن يثنى ذراع خصمه ولم يكن ذلك من أصول اللعبة . وكان فؤاد يزعم أنه أقوى من لعب هذه اللعبة وكان يقول متحديا :

— من يلاعبنى برا دى فير ؟ Bras de Fer ؟

وكان فى لسانه لثغة فكان ينطقها نطقا فرنسيا صحيحا ، وذات يوم جاء ليلعب معنا محمد ابن عمى عبد الغنى ، وكان غلاما ساذجا إلا أنه كان قوى البنية ، وسمع فؤاد وهو يتحدانا جميعا ويزعم أن أحدا لم يخلق بعد لهزمه فى لعبة الذراع الحديدية ، وقبل محمد ابن عمى التحدى فى تواضع ، ثم ركز مرفقه على قاعدة الشباك وقبض على كف فؤاد وفى يسر عجيب ثنى ذراع فؤاد ، فصاح فؤاد :

— لا .. لا .. دا مال بكل جسمه .

وقبل محمد عبد الغنى أن يلعب مع فؤاد مرة ثانية وهزمه فى المرة الثانية . وضايق فؤاد أن يهزمه غلام حدث فأتى بكرة حديدية يتصل بها قضيب قصير من الحديد ،

وقبض على قضيب الحديد وراح يرفع الكرة للتدليل على قوة رسغه ونظر إلى محمد عبد الغنى فى تحد ، فمال محمد وقبض على قضيب الحديد ورفع الكرة إلى أعلا وذراعه ممددة ثابتة على قاعدة الشباك ، ثم ترك الكرة وانسل فى صمت وفؤاد يرقبه فى غيظ شديد .

وضايق فريدون فؤادا بتعليقاته فأسرهما فى نفسه ، فلما ذهبنا إلى السينما وعدنا إلى الحى نتناقش كعادتنا كان فريدون واقفا وقد أسند رأسه إلى حديد بلكونة فى الدور الأرضى ، وحمى الحديث بين فؤاد وفريدون فما كان من فؤاد إلا أن لكم فريدون لكمة قوية فى وجهه ، فكانت لكمة قاسية وكان رد فعل حديد البلكونة أقسى . إنه تألم من اللكمة ومن ارتطام مؤخر رأسه بالحديد .

وبدأت مشادة كلامية حادة بينهما ، ثم انطلق فريدون إلى خاله شيرازى يشكو إليه ما أصابه على يد فؤاد ، ووقفنا ننتظر ما سيفعله الخال بفؤاد . كنا نتلهف لرؤية الصدام القادم ، فخال فريدون مصارع مفتول العضلات أو هكذا خيل إلى فى ذلك الوقت ، وهو قادر على أن يضرب فؤاد . وكنا جميعا نتمنى من كل قلوبنا أن يوجد فى الحى من يضرب فؤاد وأن يكسر غروره .

وجاء شيرازى وفريدون وأخوه عباس خلفه وأسرعنا إليهم لنسير فى موكب التحدى ، انضممنا صراحة إلى فريدون وتأهبنا لنشهد معه ، فقد بدأت مضايقات فؤاد لنا توغر صدورنا .

ووقف شيرازى أمام فؤاد وجها لوجه ، ودار بينهما حوار انتهى بالاعتذار والتهديد . ولم ترتع لذلك نفوسنا فقد كنا نشتهى أن تمرغ كبرياء فؤاد فى الأرض . وأردنا أن نتأسى فابتعدنا عنه وأخذنا نضحم أقوال شيرازى وتهديداته ونرقب ما نأتى به الأيام .

وكان فى الحى فريق كرة أكبر من فريقنا ، كان يضم بعض لاعبى الأندية ولاعبى المدارس الثانوية . وأراد فؤاد أن ينضم إلى ذلك الفريق ، ولم تلق إرادته استجابة فحنق على كل من فيه ، ودارت ذات يوم مناقشة بين فؤاد وبين فرغل أحد أفراد الفريق الكبير

. انتهت بأن هم فؤاد بضرب فرغل ، فما كان من فرغل إلا أن وضع يديه في جيبي بنطلونه وراح يضرب فؤاد بكلتا رجلية ، كأنما كان يضرب كرة ضربات مباشرة . وعجز فؤاد عن أن يتقدم ويحقق هدفه بأن يقبض على وسط فرغل ، وكانت علقه علقت بذهني . وبعد أن انصرف فؤاد يلحق هزيمته رحنا نحتفل بتلك الهزيمة التي قد تعيد إلى فؤاد صوابه ، ولكن فؤاد عاد في اليوم التالي كأن لم يضرب بالأمس وراح يضايقنا في لعبنا مستغلا تفوقه الجسماني علينا .

وتشاورنا وقررنا أن نقطعه ، وأن نلفظه من مجتمعنا الصغير ، وكان القرار بالإجماع ، ولكن من ذا الذي يعلق الجرس في عنق القط ؟ وتقدم أخى سعيد وقال : — أنا سأتحداه .

وجاء فؤاد والتفتنا جميعنا إلى سعيد ، ترى هل ينكص على عقبيه ويتقوقع من الخوف ؟

وتقدم سعيد من فؤاد وقال له :

— مش عايزينك تلعب معنا .

— طب ما فيش لعب .

وأتى سعيد بالكرة وقال في تحد :

— لأ . فيه .

ولعب سعيد الكرة إلينا لنبدأ مباراة التحدي ، فهجم فؤاد واغتصب منا الكرة وأخرج من جيبيه مطواة وجعل يطعننا طعنا ثم راح يمزقها قطعاً ، فقال له سعيد وهو يقف على رأسه :

— فالخ . هو ده اللي قدرت عليه ؟

فألقي فؤاد بقطع الجلد إليه وقال وهو يتنصب في تحد :

— أنا مش ح اضربكم انتم . أنا ح اضرب أبوكم هناك في الدكان .

وذهب فؤاد من أمامنا ، والتفت سعيد إلى أشلاء الكرة وقال :

— أهو ده تمن طرده .. مش ح يرجع هنا تاني أبدا .

وفي المساء علمنا أن فؤاد ذهب إلى أبي يعتذر عما بدر منه ، وأن أبي هددته بألا

يقترّب منا . ورحل فؤاد من حيننا ونزل بالبكرية ، بحى قريب آخر قريب من حيننا ، وكانت بداية انحدار فؤاد الشامى .

٢١

لم تذق مصر طعم الراحة منذ أن ولدت ؛ قاست ويلات الحرب العالمية الأولى وما انتهت الحرب حتى فرضت إنجلترا عليها الحماية ، وثارّت مناقشات حول ضم مصر إلى ممتلكات الإمبراطورية البريطانية التى لا تغيب عنها الشمس وفرض الحماية عليها ، وقيل فى ذلك الوقت إن الحماية أخف وأهون من الضم لكأنما كتب على مصر ألا تعرف الاستقرار . وتكون الوفد المصرى وقامت ثورة ١٩ وقبض على سعد باشا ونفى هو وصحبه إلى مالطة ، وعاد سعد من منفاه ثم قبض عليه ثانية ونفى ثم عاد ، وجاءت لجنة ملتر وحدثت مقاطعة اللجنة ، واستمر الكفاح بين المصريين والإنجليز وظلت النار مشبوبة لم يخب لها أوار .



وكانت المشادات السياسية تشب في كل مكان ، وكانت أغلبية الشعب وفدية حتى إن غلاة المتعصبين للوفد كانوا يقولون : الاحتلال على يد سعد ولا الاستقلال على يد عدلى . وأجريت الانتخابات وقد شغلت الانتخابات كل طوائف الشعب ، وأنفق الناحيون أموالا طائلة ، وانتشرت الشائعات حول المبالغ التي بعثرت لاكتساب الأصوات ، فقليل إن سليم عبده مرشح الوفد في دائرة الجمالية أنفق كل ثروته ليفوز في الانتخاب .

وفاز الوفد فوزا ساحقا ، وانطلق النواب الوفديون إلى مجلس الأمة ، واجتمع المجلس اجتماعا صاخبا خرجت أنباؤه إلى الشعب ، قالت الصحف إن المجلس انتخب سعد باشا زغلول رئيسا لمجلس النواب وقالت بعض الأخبار إن عباس محمود العقاد قال في حماس : إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس في البلاد . وفي الحال صدر مرسوم ملكي بحل مجلس النواب قرأه زيور باشا ، وكان أقصر مجلس نواب في عمر الحياة النيابية في مصر ، فقد كانت مدته ساعة واحدة .

وراح الناس يتحدثون في كل شيء ، في سبب العداوة الشديدة بين الملك فؤاد وسعد زغلول ، فقليل إن عرش مصر قد عرض مرتين على سعد باشا في أثناء نفيه ، عرض عليه في جبل طارق وفي عدن ، فعششت العداوة في قلب الملك فؤاد منذ ذلك الوقت . وشغل الناس بمحاكمة العقاد وبالحكم عليه بالسجن . وابتدأت أهتم بقراءة الصحف وبمتابعة ما ينشر في مجلة الكشكول ، ولأول مرة رأيت الكاريكاتور يلعب دورا كبيرا في حياتنا السياسية .

كنت أحقد على الرغم من صغر سنى على سليمان فوزى رئيس تحرير الكشكول لأنه كان يهاجم سعد باشا ، كنت أحب سعد باشا لما أسمعته عنه من أبى وأصحابه ، ولكن ما كان يمر أسبوع دون أن أقرأ الكشكول وأحفظ ما تقوله صوره الكاريكاتيرية .

وفي ذلك الوقت كان أبى قد اشترى قطعة أرض فضاء بشارع سكة الظاهر وكان قد بدأ في بناء بيت فيها لنسكن فيه ، لم يكن البيت الجديد يبعد عن بيتنا أكثر من مائة متر ، ولكن كان فرحى به شديدا لأنه أول بيت يملكه أبى ، فقد اشترى أبى قبل ذلك بيتا كبيرا في شارع محمد على ، واشترى آخر بشارع صبرى بالظاهر وقد كتب في

حجة البيت أنه منزل بضواحي القاهرة ، بل لأن أمام بيتنا الجديد لوحة إعلانات لسينما إيديال ، فلن أهرول صباح كل يوم اثنين من بيتنا الحالى إلى حيث تقع اللوحة لأعرف برنامج السينما . سيكون فى المستقبل أن أفتح الشباك أو أقف فى البلكونة لأقرأ برنامج السينما الحبيبة إلينا .

وراح أصدقاءنا الصغار يحسدوننا على تلك النعمة الكبرى ، نعمة أن يكون أمام بيتنا لوحة إعلانات سينما إيديال . وارتفع البناء وراح النحاتون ينحتون الحجارة التى حول باب الدار ، وقبل أن يقوم أحدهم بنحت حجر سرة عقد الباب ، جاء فريدون وكتب بخطه الجميل ١٩٢٥ ، ووقفنا نرقب النحات وهو ينحت حول ما كتبه فريدون بمهارة ، ثم رفع الحجر ليوضع فى مكانه ونحن ننظر إليه فرحين مستبشرين ، لكأنما كنا نشهد وضع الحجر الأساسى لمشروع ضخيم سيعود على الأمة بالنفع العميم .

وعدنا إلى مكاننا فى حارة بحر نختار اسما للمجلة التى عزمنا على إصدارها وطبعها بالبالوطة ، فقد كان أخى سعيد قد كتب كل موادها ، كتب القصة وكتب المقالات وكتب الأزجال ، وكان سعيد وهو فى تلك السن المبكرة قادرا على أن يحرر وحده مجلة كل أربع وعشرين ساعة . واستقر رأى على أن تحمل المجلة اسم « نهضة الأشبال » وراح فريدون يكتب بالحبر الزفر مواد المجلة ويزينها بالصور التى يرسمها ، ورحلت أعاون على طبع المجلة ، وكان ذلك أول عهدى بالطباعة .

كانت طباعة البالوطة لا تطبع أكثر من عشرين نسخة واضحة ، فلما تم طبع النسخ أخذت بعضا منها ورحلت أوزعها على الأحياء المجاورة وكنت فى قرارة نفسى فخورا بياكورة أعمالنا الأدبية . ومن كثرة ما قرأت موادها على البنائين الذين كانوا يعملون فى بناء بيتنا الجديد وعلى رفاقي الصغار حفظت موادها عن ظهر قلب ، وكنت أفضل القصة الزجلية التى نظمها أخى سعيد ورسم صورها فريدون على قصة سرفاتي المصوراتي وقصة دان ودورا وتلك القصص التى كانت تصدر فى مجلة الأولاد المصورة فى ذلك الوقت .

وجاء فريدون ذات يوم مزهوا وأخبرنا أن حسنى أفندى مدير سينما أولمبيا قد اتفق معه على أن يرسم صورة بالألوان كل أسبوع لبطل الفيلم الأجنبى الذى يعرض فى

الدار ، ولم نصدق الخبر ولكن حدث أن عرجنا يوم الخميس في أثناء سيرنا إلى سينا إيديال على سينا أولمبيا ، فرأينا فوق شباك التذاكر صورة جميلة في إطار وقد ظهر في طرفها الأيمن توقيع فريدون ، فوقفنا مشدوهين نقرظ الصورة تارة ونتقدها تارة أخرى ، فكان ذلك أول عهدى بالفنون والنقد .

كان فريدون من المتعصبين مثلنا لسينا إيديال ، ولكن بعد أن تعاقدت معه سينا أولمبيا على رسم صور أبطالها صار فريدون من رواد سينا أولمبيا ، فالتمس بعضنا له بعض العذر ، ولكننا كرهنا فيه تلك النوازع المادية ، فلولا الجنيهان اللذان كان يدعى أنه يقبضهما ثمنا لكل صورة لما خان مبدأه .

وأصدرت سينا أولمبيا مجلة باسم سينا أولمبيا ، كانت تنشر فيها أخبار الكواكب وقصة مترجمة وبعض الحكم والنوادر الأدبية . وطرأت على أخى سعيد فكرة أن يكتب قصة يستوحى أحداثها من الأفلام التى يشاهدها ، وكتب سعيد قصة تقع أحداثها في محطة سكة جديد وكيف أن « المحولجى » قد أنقذ في اللحظة الأخيرة ابن حبيبته التى قد هجرته وتزوجت غيره وكان يلعب على قضيب القطار ، والقطار قادم بأقصى سرعة ، أنقذه بنفس الطريقة التى تتبع في الأفلام ، ألا وهى تحويل القطار إلى قضيب آخر في الوقت الذى يستسلم فيه الضحية لمصيره المحتوم .

وظهرت القصة في مجلة سينا أولمبيا وكدنا نظير من الفرح ، فها هو ذا عبقرى آخر قد ظهر فينا ، ولم أطمع في ذلك الوقت أن يأتى يوم يكتب فيه اسمى بحروف الطباعة ، كان ذلك فوق كل أحلامى وأبعد كثيرا عما كنت أتمنى .

وكتب سعيد قصة أخرى عن بوليس سرى أطلق عليه اسم بنتون دك ، فما كانت أسماء أحمد ومحمد وفاطمة تصلح في ذلك الوقت لتكون أسماء لأبطال القصص ، فلكى يكون الإنسان بطلا لقصة لا بد أن يكون له اسم أجنبى ، فقد كان ذلك العصر عصر الترجمة ، وما كنا نقرأ إلا قصص فانتوماس وجونسون وابن جونسون وشارلوك هولمز وقصص المغامرات الأجنبية التى كانت تنشرها صحيفة الأهرام .

ونشرت قصص سعيد في مجلة سينا أولمبيا وعلى الرغم من ذلك ظل ولاء سعيد لسينا إيديال ، وكان ذلك درسا في الوفاء أعجبت به وصرت أتأسى به في حياتى المقبلة .

كان أخى أحمد يجلس على أول شباك فى حارة بحر ليس له من عمل إلا أن يصدر إلى الأوامر ، وكان على أن أنفذها وإلا كان نصيبى الضرب ، التفت حوله فوجد أن أصدقاء الحى قد اجتمعوا فقال لى :

— اطلع هات الكورة .

فصعدت إلى الدور الرابع وأحضرت الكرة ، فراح يلعب فى اندماج حتى تفصد منه العرق فقال لى :

— اطلع هات قلة ساقعة .

فصعدت إلى الدور الرابع وأحضرت القلة ، فلما شرب وارتوى ناولنى القلة فأردت أن أتركها على شباكه المفضل فقال لى زاجرا :

— باقول لك طلعتها .

وحملت القلة وصعدت إلى الدور الرابع وأنا ألتقط أنفاسى التقاطا ، ورأتنى أمدى فقالت :

— أهو ح تفضل طالع نازل لغاية لما ينقطع قلبك .

وما إن هبطت حتى صاح أحمد بى :

— اطلع هات إبرة وفتلة .

وصعدت إلى الطبقة الرابعة وأحضرت له ما طلب ، وما كدت أناوله الإبرة حتى أحس أن فائلته قد بللت بالعرق فقال لى فى بساطة :

— اطلع هات لى فائلة .

وضاق صدرى ، لماذا لم يطلب منى أن أحضر له الفائلة عندما طلب إحضار

الإبرة ، فقلت فى تحد :

— مش طالع .

فقام ولطمنى ثم أردف ذلك « بشلوت » وقال فى بساطة :
— والله ما انت فالح .

ولم أدر ما الصلة بين فلاحى وبين صعودى وهبوطى فى الدرج إلى الطبقة الرابعة
عشرات المرات فى اليوم الواحد .

وكان اليوم يوم الجمعة وكان على أن أذهب إلى دكان أبى لأحرسه حتى يؤدى كل
من فيه الصلاة ، فأخذت اثنين من أصدقائى الذين كانوا فى مثل سننى وانطلقت إلى
شارع سوق الجراية ، فوصلت أنا وصديقائى قبل الأذان بدقائق ، فأحكم أبى إغلاق
الخزانة ، وترك لى مفتاح صندوق النقود وانصرف ، فراح صديقائى ينظران إلى فى
عجب ويقولان :

— ساب لك مفتاح الدرج ؟!

— وفيها إيه ؟.

— الفلوس قدامك ومتخدش منها حاجة !

وسخرت من أفكارهما . إن هذه ليست أول مرة يترك فيها أبى مفتاح الصندوق ،
بل إن أبى كان يبعث معى وأنا طفل بمائة جنيه أوصلها إلى جدى ، وكنت أحرس دكان
عمى حنفى أثناء ذهابه للصلاة . وقد حاول عمى أن يعطينى ذات مرة قطعة
شيكولاته ، فأحسست أن ذلك ثمننا لحراستى فشعرت بضيق شديد لأن عمى قد
جرح كرامتى بما فعل ، كنت أحس على الرغم من صغر سننى أن الماديات تشين
العلاقات الإنسانية .

وعدنا أنا وصديقائى بعد أن قضيت الصلاة إلى حارة بحر ، ولم تعد حارة بحر لنا
وحدنا فقد سكن فى البيت الواقع خلف بيتنا فى الطبقة الأرضية أناس يديرون الشقة
للدعارة ، وكانت الشقة مناسبة لذلك كل المناسبة ، فشبايكها الجانبية تطل على حارة
بحر وشبايكها الخلفية تطل على حديقة واسعة والقفز من كل نوافذها ميسور ، فهى
لا ترتفع عن الأرض أكثر من متر .

وكان لهؤلاء الناس ولدان أحدهما فى مثل سن أخى أحمد والآخر فى مثل سننى ،
ابتدأ الولدان فى تعليم أطفال الحى شرب السجائر ، فكان الأولاد يشترون السجائر من

(هذه حياتى)

العم جرجس ، وكانت دكانه تبعد عن بيتنا الذى كان فى مرحلة البناء بضعة أمتار ، وكانوا يشربون السجائر فى نهاية حارة بحر تحت شبابيك الأسرة العتيدة .
وامتنعت أنا وأخى أحمد وأخى سعيد وبعض الصبية عن مجارة الآخرين فى شرب السجائر ، فما كان أحد فى بيتنا يمسك فى يده سيجارة ، كانت بالنسبة لنا شيئا غريبا بل كانت شيئا محرما .

وراح الولدان الجديدان على الحى يجران الأولاد إلى الفساد ، اشتريا خمرار خيصة من العم جرجس وفرشا حصيرة فى نهاية حارة بحر وجلسا عليها وأغريا الأولاد بالجلوس ، فجلس المساكين معهما وراحوا يتناولون الخمر ويضحكون . ووقفنا بعيدا ننظر فى أسى إلى أصدقائنا الصغار الذين شربوا السجائر والخمر ولم ينل أحدهم بعد الشهادة الابتدائية .

وكان أغلب سكان حيننا من اليهود ، فجمع الولد الذى كان فى مثل سننى بعض فتيات اليهود الصغيرات فى بير السلم أمام باب شقته ، ونادانا ليعلمنا كيف نمارس الجنس معهن ، لكأنما كان يحاول أن يربى زبائن لأهل بيته اللاتى كن يقابلن الرجال فى الليل والنهار دون حياء .

واشتهر أمر ذلك البيت الموبوء فى الحى ، وأظهر الرجال استياءهم لوجود هؤلاء الساقطين بين الأشراف . وذات يوم فطنت إلى أن البيت مراقب ، وما كان ذلك ليحتاج إلى فراسة ، فالخبرون كانوا يرتدون الأحذية الميرى ويلبسون جلبابا فوق ملابسهم الرسمية ، وكانت كل حركة من حركاتهم تصيح : أنا مخبر .

أمسينا بعد موت جدى نبيت مع جدتى ، وفى سكون الليل سمعنا ضجة فى البيت الواقع خلف بيتنا ، نسوة يولولن وأصوات تهتك سكون الليل :
— امسك .. امسك .

ورجال يقفزون من شبابيك البيت الذى كان يدار للدعارة ، ووصلت إلى مسامعنا أصوات تقول فى فرح :

— البيت السرى انظبط .. البيت السرى انظبط .

وراحت جدتى أم عبد الغنى تغلق الشبابيك حتى لا يחדش مثل ذلك القول البذىء

آذاننا ، وأخذت تغدو وتروح في الشقة وهي تقول في ابتهاج :
— يارب استر على ولايانا .. يارب استر على ولايا .
وكانت دموع جدتي قرية فسالت دموعها على خديها .
وفي الصباح الباكر كنت أنا وأخوأي وأولاد الحى نجوس خلال الشقة الخالية ،
نبعث عما خلفته فيها النسوة الساقطات ، ورحنا نعلق على بقايا القطن تعليقات من
وحى أخيلتنا الصغيرة التى لم تسعفها التجربة .

٢٣

كانت العداوة مشبوبة بينى وبين الكتب المدرسية ، فلا أذكر أننى فتحت كتابا
طوال مدة دراستى الابتدائية . رسبت في السنة الأولى ، فلما أعدت نفس الدروس —
سنة أولى — انتقلت إلى السنة الثانية ، وفي السنة الثانية رسبت طبعاً ، وامتحنت في
الملحق في الترجمة فرسبت أيضاً ، وجاءت وزارة سعد باشا فأجرت ملحقاً للملحق
بحجة أن السنة قد ضاعت في الإضرابات ، فامتحنت مرة ثالثة في الترجمة ، فكيف
كانوا ينتظرون منى وأنا في السنة الثانية الابتدائية أن أترجم إلى الإنجليزية تلك الجملة
التي حضرت في ذاكرتى منذ ذلك الامتحان الرهيب : « إذا سرت في شوارع القاهرة
رأيت المباني الضخمة العالية » . وراح واضع الاختبار يستعرض عضلاته في اللغة
العربية واللغة الإنجليزية فرسبت في الملحق الثانى ورحت أعيد السنة .
وانتقلت بعد سنتين إلى السنة الثالثة ووقعت المعجزة التى ما كان أحد من أهلى
ينتظرها ، انتقلت من السنة الثالثة إلى السنة الرابعة دون أن أرسب في أية مادة ، وكانت
دهشتى تفوق دهشة كل أهل بيتى ، فقد كان شيئاً لا يصدق أن أنجح دون أن أقرأ في
الكتب التى كانت مقررة علينا .

وما كان عزوفى عن القراءة يرجع إلى كسلى بل ضنا بجهد أنفقه دون ثمرة ، فقد
كانت فكرة الموت تلازمى ، وكنت أقنع نفسى أنه عبث أن أتعب نفسى في المذاكرة
ثم أصبح ميتاً ، وكنت كلما استيقظت في الصباح وفتحت عيني ورأيت النهار قد

تنفس أستشعر هزيمة منكرة لأنى لا أزال على قيد الحياة وأن روحى لم تفارق جسدى فى أثناء نومي .

وتيقنت على مر السنين أن الموت ليس أمرا سهلا وأنه ليس رهن إشارتنا ، فعزمت على أن أغير نظرتى إلى الحياة ، أن أعمل وأن أذاكر وأن أترك الموت يأتى وقتما يشاء . كانت حياتى كلها هوا ، كنت أعيش لأذهب إلى السينما أو لألعب الكرة فى فريق الحى وفى فريق المدرسة وفى فسحة الغداء فى حوارى الدرب الأصفر ، فوطنت نفسى على أن أخصص وقتا للمذاكرة . ولكن من أين ذلك الوقت وأنا ألعب مع فريق المدرسة يوم الخميس ومع فريق الحى يوم الجمعة وأذهب إلى سينا إيديال وسينا الكلوب المصرى بالحسين وسينا الكوزمو جراف الأمريكانى وسينا الشعب ؟ إن الذهاب إلى السينما ولعب الكرة يلتهمان كل وقتى فلا وقت للمذاكرة . كانت نية المذاكرة متوفرة ولكن ما حيلتى وليس لدى وقت لها ؟!

طغت مباريات الكرة على الوقت المخصص للسينما لأننى كنت أذهب إلى دور العروض فى حفلة الساعة الثالثة ، ولما كنت أحسب عمري بعدد الأفلام التى أشاهدها فكان لا بد أن أجد حلا لهذه المشكلة . وكان الحل أن نذهب إلى السينما فى حفلة الساعة السادسة ، ولكن ذلك الحل دونه صعاب فلن توافق أمى على ذهابنا ليلا إلى السينما التى تفسد أخلاقنا وتعلمنا السرقة والانحراف ، وما كنا ندرى من أين جاءت هذه الأفكار إلى أمى ولم تشاهد السينما فى حياتها قط .

ورأينا أن خير ما نفعله أن يضغط رفاق الحى على أمنا لتسمح لنا بالذهاب معهم إلى السينما فى حفلة السادسة .

وجمعنا أصدقاءنا الصغار الذين كانت أمهاتهم يزنن أمى فى اليوم الذى خصصته لاستقبال جاراتها ، كنوع من الإحراج . وصعد الصغار لمقابلة أمى والتوسل إليها لتسمح لنا بالذهاب معهم إلى السينما ، وجريت بعيدا عن البيت حتى لا أكون هدفا لثورتها إذا ما ثارت وحتى أكون بعيدا عن اللطمات والصفعات والركل واللكمات التى كانت تهوى على ظهرى فتكاد تقصمه .

ونزل رفاق الحى من بيتنا تهلل وجوههم بالفرح ، فقد سمحت أمى بعد توسلات

والخاف في الرجاء أن نذهب إلى السينما في حفلة الساعة السادسة ، وكان ذلك بمثابة انقلاب وقع في بيتنا . كيف قبلت أمي أن نذهب إلى السينما مساء وهي التي كانت تحارب ذهابنا إليها نهارا ؟!

ولم نسر على أقدامنا إلى السينما كما هي عادتنا بل ركبنا الترام من الظاهر إلى العتبة الخضراء ، فقد أعطتنا أمي نقودا لتركب . يا الله ! ما كل هذا الرضا ؟ ولأول مرة ذهبت إلى السينما مطمئنا أكاد أطير من الفرح ، فما أعظم النشوة التي نحسها إذا ما فعلنا شيئا وأهلنا عنه راضون . لم يعد هناك دافع للكذب لتبرير غيابنا عن البيت .

وسرت في العتبة الخضراء أتلقت وقد ملأت النشوة جوانحي . كانت العتبة تموج بالناس ، عربات السوارس التي تجرى بين العتبة والحسين في شارع الموسكى قد اصطفت عند نهاية مشوارها ، وإلى جوارها وقف الحمارون إلى جوار حميرهم يغرون بالركوب من هم على عجل من أمرهم ، وعربات الترام تجرى مقبلة مدبرة على قضبانها . كان المشهد في الليل غيره في النهار ، فقد أضفت الأنوار الخافتة المنبعثة من مصابيح الطرق ومن الحوانيت عليه سحرا .

ودخلنا السينما وجلسنا في أماكننا ولم تستقر عليها أجسامنا من النشوة ، وشاهدنا هارولد لويد في فيلمه « اصعد إلى فوق » . كان فيلما كوميديا فراحت الضحكات والقهقهات تهز السينما هزا . ومر الوقت سريعا كما تمر كل اللحظات السعيدة في حياتنا ، وخرجنا من السينما وكل منا يذكر المشهد الذي أضحكه . ونظرت إلى أخى سعيد فالفيتة مندجما في الفيلم يروى في انفعال كيف كانت العقبات التي تعترض صعود هارولد لويد إلى الساعة التي كانت في قمة البناء الذي كان يصعده مثيرة للضحك . ترى ماذا سيكون أثر هذا الفيلم في سعيد ؟ حدث ذات يوم أن شاهدنا فيلما قصيرا لزيجوتو في سينما إيديال بالطبع ، وكان اسم الفيلم زيجوتو والخطر الأصفر . وكان الموضوع يدور حول مطاردة الصينيين لزيجوتو ولا أدري لماذا ؟ فقد كانت تلك الأفلام المضحكة تدور حول المطاردة وما فيها من مضحكات .

وصعد زيجوتو في أثناء هربه إلى سطح عمارة شاهقة وكانت في يده مظلة عادية ، وحدث أن لحق به مطارده واندفع نحو سور السطح والصينيون في أثره . وخوفا من

أن يسقط في إيدى أعدائه نشر المظلة العادية وقفز بها من فوق العمارة الشاهقة ووصل إلى الأرض بسلام .

وعدنا إلى البيت بعد أن شاهدنا ذلك الفيلم وكان سعيد يتحدث طوال الطريق عن مغامرة زيجوتو ، ثم أكد أنه يستطيع أن يفعل ما فعله زيجوتو فلم نحاول أن نشيه عن عزمه بل تحدينا ، وقبل سعيد التحدى . وما إن وصلنا إلى البيت حتى أتى بمظلة أبى ووقف ليقفز بها من بلكونة الطبقة الأولى من بيتنا وكانت على ارتفاع ستة أمتار ، إلا أننا التمسنا منه أن يجرب القفزة من الدور الأرضى وقبل التماسنا وهو كاره .

ووقف على درابزين البلكونة الأرضية والمظلة مفتوحة في يده ورحنا نعد .
واحد .. اثنين .. ثلاثه .

وقفز سعيد وإذا بالهواء يملأ المظلة ويدفعها إلى أعلى فلا تحمل ضغط الهواء وتنشئ أسلاكها إلى فوق ، فتبدو وكأنها قد صارت هراوة ، ودك سعيد في الأرض دكا وارتطمت ذقنه بركبتيه ثم انتصب وقال :
— بسيطة .

وإن كانت الدموع كادت تترقرق في عينيه .

كان ذلك أيام كان تلميذاً معي في مدرسة الجمالية الابتدائية ، أما الآن فهو طالب في مدرسة فؤاد الأول الثانوية وقد نضج تفكيره فلم يعد يحاول أن يقلد ما يراه في السينما ، بل إن السينما أصبحت توحى إليه بأفكار أخرى ، إنه قرأ نقداً لفيلم « اصعد إلى فوق » ولم يعجبه النقد . إنه يريد أن ينقد الأفلام وأن يكتب القصص ، يريد أن يعبر عن ذاته ، عن الأفكار التي تملأ رأسه ، عن المشاعر التي تموج بين جوانحه ، يريد أن تكون له مجلة ينشر فيها على الناس تلك الخواطر التي تتدفق في كيانه ، فأفضى إلى فريدون بأمنيته فحبذ فريدون الفكرة وتحمس لها ، ثم قال :

— خالى يفكر في إصدار مجلة .

واجتمع الشمل ، وراح شيرازى يتحدث عن المجلة التي يحلم بها وسعيد وأحمد وفريدون يخلقون معه في سماء الخيال ، وراحوا يختارون اسماً للمجلة ، فاستقر الرأى على أن يسموها « البهلوان » .

وراح شیرازی یکتب إلى الداخلیة یطلب التصریح له بإصدار المجلة ، و كنت أرقب الأوراق التي تكتب والنماذج التي تملأ فی نشوة عجیبة . ولم تداعب خیالی أية أمنية أن أكتب ذات یوم فی تلك المجلة ، فقد كنت فی المدرسة الابتدائیة وكل الشهادات تنطق بأن لیس هناك صلة طیبة بینی و بین الكتابة . یکفینی فخرا وزهوا أن أقرأ اسمی أخوی أحمد وسعيد مطبوعین بحروف المطبعة .

وراح سعيد یعد موضوعات المجلة ، وعكف أحمد علی كتابة الأزجال ، وأخذ فریدون یرسم الصور ، وما كنا ندری ماذا یعد شیرازی حتی كان عصر یوم لا أنساه ، جاء إلینا متهلل الأساریر یقرأ فی زهو الزجل الذی سیجعله شعارا للمجلة البهلوان :

یا بهلوان الله یعینک ویدیم حیاتک للأوطان

بکره تکید الی یکیدک إن کان عزول والا شیطان

کلام مرصوص ساذج لا عمق فیہ . إن سعيد أو أحمد یکتب کلاما أطعم من ذلك الکلام الهزیل ، ولكن ما كنا بقادرین أن نقول الحقیقة ، و کیف نجبه بالحقیقة المرة وهو سیکون صاحب رخصة المجلة المرتقبة ؟ فرحنا نقرظ الشعار علی مضض وإن كانت أذواقنا ترفضه ، وقطعنا مرغمین أول خطوة فی طریق النفاق وما أطوله من طریق .

٢٤

ذهبت إلى دکان أبی فی شارع سوق الجرایة ، و كان متحفا للنماذج البشریة : علما الشیال یجلس علی الرصیف بالقرب من الدکان . إنه قادم من واحة سیوة ، صامت کالبغل ، لا ینطق طوال النهار أكثر من کلمتین أو ثلاث . إنه یحمل اللحم والخضار والفواکه وما یشتريه أبی من لوازم البیت إلى دارنا ، فإذا ما قبض ما یمسک به رmqه أصبح من المستحیلات أن تغریه علی أن یقوم بأی عمل فقد حصل علی قوت یومه ، أما الغد فله رزقه .

كانت أمي كلما جاء إلى البيت تحاول أن تقدم إليه الطعام فكان يرفضه إلا أن يكون هناك أرز ، فهو يحب الأرز ولا يستطيع أن يقاوم إغراءه . وكان أبي كلما رآه يحاول أن يغريه بالصلاة فكان علا يضع أصابعه في أذنيه ويذهب إلى مكانه على الرصيف يجلس دون أن يفكر في يومه أو غده .

وتناثرت حول علا الأقاصيص ، قيل إن له زوجة وابنة في الواحات وإنه يملك بضع شجيرات من النخيل ، وأنه ما جاء إلى مصر إلا فرارا من زوجته وابنته . وكان بعض الرجال يحاولون أن يجروه إلى الحديث عن ماضيه ولكنه كان يعرض عنهم ويلزم الصمت العميق .

وكان عبد الحميد أفندي كاتب الحسابات في دكان أبي . إنه إنسان فاضل من أسرة طيبة ، كانت له عين زرقاء وأخرى عسلية اللون ، تزوج أبوه امرأة أخرى بعد أن ماتت أمه فلم يطق أن يعيش مع زوجة أبيه في بيت واحد ، فترك مدرسة الصنائع التي كان يتعلم بها وجاء إلى دكان أبي يعمل كاتباً ليعيش بمرتبه الزهيد مستقلاً حراً ، بعيداً عن أبيه وزوجته .

كان معدن عبد الحميد أفندي نفيساً ، فكان يكتسب الصفات الحميدة ويقتبس أجمل ما في الناس من حوله ، فكان يصلي الصلوات في مواقيتها ، وكان راضياً بعيشه ، يحمد الله على ما آتاه . وكانت أحسن صفاته أنه كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله بل كان يفرح لهم أكثر مما يفرح لنفسه .

وكان يأتي إلى الدكان أبو الركب . إنه متين التكوين يرتدى جلباباً أبيض قد اصفر لونه ، وكان الجلباب أو القميص على الأصح يصل إلى ركبتيه ، وكان يتمنطق بجبل ويحمل على كتفه حبلاً ، هو كل ما يملك في الحياة فهو حمال . وكان في بعض الأحيان يدفع أمامه عربة صغيرة يحمل عليها ما يعجز عن حمله على كتفيه .

كان أبو الركب سليط لسانه . إنه يأبى أن يحصل على مال دون عمل ، وكان قفاه عارياً دائماً يغري بالصفع . وكان يتنادى في سلاطته حتى يدفع من يحدته إلى أن يصفعه ، فإذا ما فعل استحق أبو الركب الأجر . وكانت عنده تسعيرة لكل صفقة ، وما من أحد صفعه إلا وقد دفع التسعيرة التي يحددها أبو الركب . ألم أقل لك إنه

لا يستحل أخذ المال دون مقابل !

وكان على بعد خطوات من دكاننا في نفس الصف دكان الشيخ محمود السنّي . إنه رجل نحيل طيب يلبس الطربوش والجلباب وقد أطلق لحيته ، وقد اشتهر في الحي بأنه أبو التوائم ، فخلفته كلها توائم . وكنا نشفق عليه من كثرة العيال ولكنه كان راضيا لا يشكو ولا يتبرم .

وجاء الشيخ محمود ذات يوم ليحدث أباي في أمر من أمور العمل ، وفيما هو واقف يتحدث جاء الشيخ مصطفى بائع النشوق ووقف خلف الشيخ محمود واحتك به ، فاحمر وجه الشيخ وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم راح يسفه الشيخ مصطفى ويحقر دعاياته . ورنّت ضحكات الشيخ مصطفى مجلجلة في الحي ، فنظر العم إبراهيم وهو واقف في دكانه نحو الصوت ولم يفكر في أن يتقدم ليشارك في ذلك الهزر الذي بدأه جاره الشيخ مصطفى . أما العم أحمد الجزار فقد ترك اللحم الذي كان يقطعه وجاء وهو عابس الوجه في يده السكين ، وقال دون أن يضحك أو تنبسط أساريره :
— والله يا شيخ مصطفى أنت تستحق الذبح .

وضحك الشيخ مصطفى ، ونظرت إلى العم أحمد الجزار في دهش ، يا للعجب ! إنه قادر على أن يمزح وإن كانت كل سماته توحى بالصرامة والجد . وخطر لي خاطر : ترى هل يداعب العم أحمد زوجته ؟ وإذا ما داعبها أيداعبها بالساطور والسكين ؟ إنه مشهد يستحق نصف عمرى أن أشاهد العم أحمد الجزار يداعب امرأة . وراح أباي يزجر الشيخ مصطفى ويرجوه أن يحترم وقار العمامة ، أما عبد المجيد أفندي فقد ترك الدكان وذهب إلى الجامع الملاصق لدكان العم سيد الدخاخنى وما كان الوقت وقت صلاة .

ومرض الشيخ مصطفى فجاء أخوه أحمد أفندي مدرس اللغة العربية بالمدارس الأولية ليحل محل أخيه في الدكان ، وراح يذكر وهو يضحك ضحكة هادئة أنه نائب الفاعل يحل محل الفاعل بعد حذفه . كان أحمد أفندي رقيقا مهذبا يتظاهر بالبساطة وإن كان عميقا ، وكان أظهر صفة فيه تلف أعصابه ، إنه يفرع إذا ما رأى أصبعًا مجروحة ، ويشيح بوجهه إذا ما رأى العم أحمد الجزار يهيم بذبح دجاجة أو أرنب .

وفي ذات يوم بينما كان قادمًا من شارع الزعفراني في طريقه إلى دكان أخيه راح يجتاز قضبان الترام الذي يخترق شارع الخليج المصري . كانت هناك محطة وكان الترام واقفا عندها . وفي أثناء سير الناس أمام الترام سقط طفل من فوق كتف أمه أمام الترام فطارت نفس أحمد أفندي شعاعا ووضع يديه فوق طربوشه وراح يصيح :
— آه .. آه .

ولم يتقدم إلى شارع سوق الجراية بل نكص على عقبيه وعاد إلى شارع الزعفراني ، ودلف إلى أول بيت وراح يصعد في الدرج حتى بلغ السطح ، فراح يدور في أرجائه وهو يصيح :
— آه .. آه .. آه .

واستمر يدور في السطح دون هدف ، حتى إذا ما سكن روعه قليلا واستطاع أن يسيطر على أعصابه عاد يهبط في الدرج ، ثم تقدم خائفا إلى شارع الخليج ، وتلفت فلما لم يجد أثرا لأي ترام راح يجتاز الشارع مهرولا . ولم يخطر له أن يسأل عما أصاب الطفل بل وسع من خطوه حتى وصل إلى دكان أخيه ، فجلس يلتقط أنفاسه ويقول متبرما :

— كان مالي أنا ومال بيع النشوق ؟

ثم يمد يده في درج صغير ويأخذ تنشيقه يملأ بها فتحتى أنفه ، ويقدم إلى تنشيقه فأرفضها فقد كنت أومن أن الله خلق الإنسان طاهرا ، وأنه حرام علينا أن ندنس أجسامنا وأجوافنا بدخان السجائر أو بتراب النشوق .

كان أبي لنا قدوة ، وكانت أمي وجدتي تتحدثان دائما عن الحلال والحرام ، فكنت أزن كل تصرفاتي بذلك الميزان الدقيق ، وأعتقد اعتقادا جازما أن الله يراقبني وأن ملائكته لا يتركون كبيرة ولا صغيرة إلا أحصوها ، فكنت أحاذر أن آتى عملا أخجل منه يوم الحساب .

وجاء الناعي إلى سوق الجراية ينعى الشيخ مصطفى ، فانتظرت أن يغلق جيرانه دكاكينهم وأن يهرعوا إلى داره فقد حدث ذلك يوم أن مات جدى . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، ونظرت إلى غيون الرجال فلم أر فيها دمعة تترقرق ، وتطلعت إلى

وجوههم فلم أر أثرا لحزن أو انفعال ، كل ما كان منهم أن قال العم إبراهيم وهو في دكان الفحم دون أن يغادر مكانه :

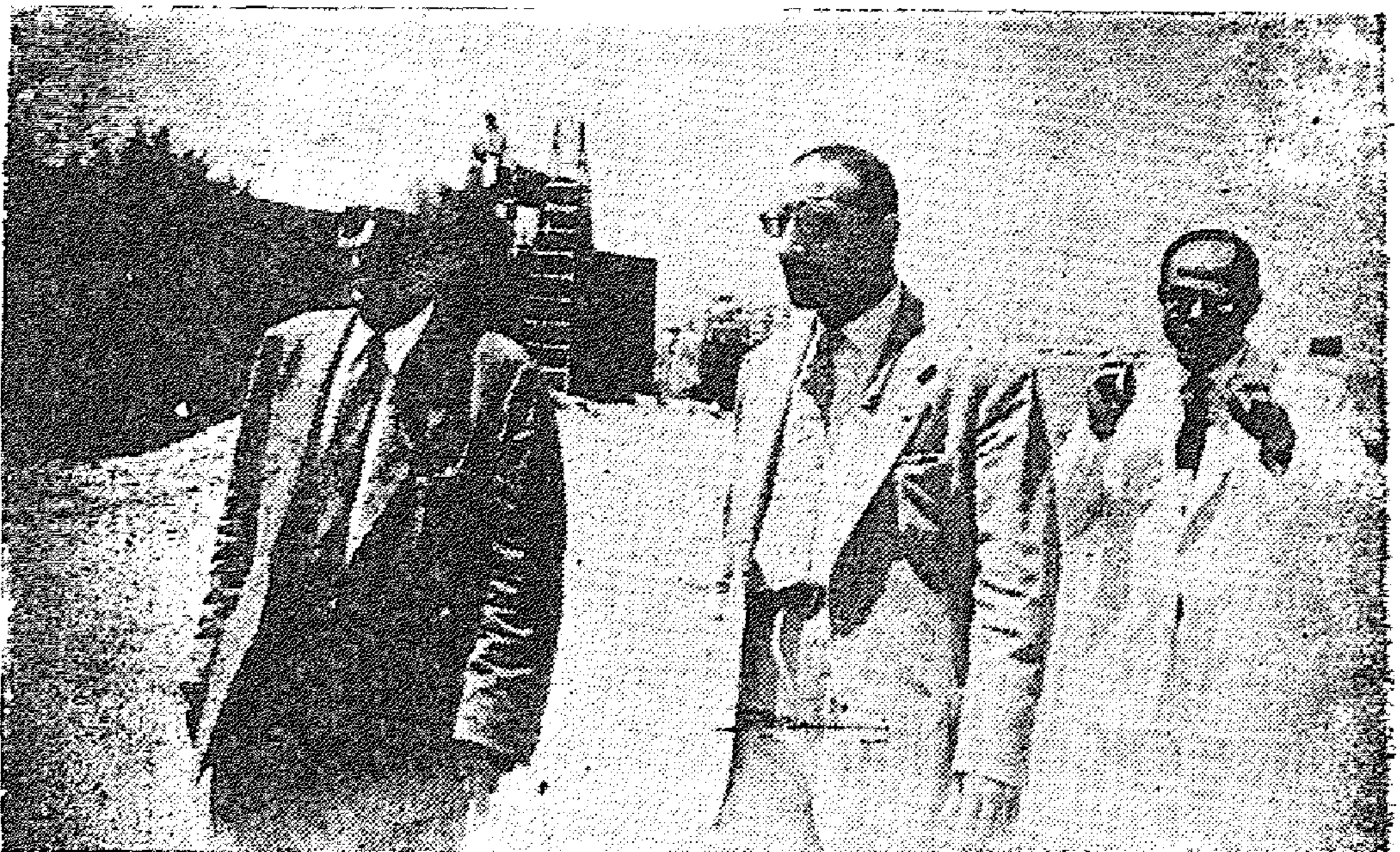
— الله يرحمه .

قالها في بساطة كأن لم يكن بينه وبين المرحوم جيرة سنوات . وقال العم أحمد الجزار :

— أهو دلوقت بقى بين يدي كريم غفور .

ما بال الناس يقابلون خبر موت الرجل دون جزع أو اهتمام ؟! حتى أرى سمع الخبر ولم يعلق عليه لا بخير ولا بشر . لماذا كل هذا ؟ ودفعني حب الاستطلاع إلى أن أنطلق إلى داره في زرع النوى ، كان السكون يخيم على البيت . أين ما أرى الآن مما رأيته يوم مات جدى ؟ إن صوات النسوة في بيتنا كان يزلزل الجبال بينما لا أسمع في بيت الشيخ مصطفى صوت بكاء .

وخرجت جنازة الشيخ متواضعة ، وانطلقوا به إلى مسجد الصوابى أقرب مسجد إلى بيته ولم ينطلقوا به كما نفعل إلى مسجد الحسين . وتعلمت من ذلك أشياء ، تعلمت أن الناس حتى في الموت لا يتساوون ، وأن أمواتنا يزيدون على أموات الناس درجة .



كان العم بحر يعيش في كشك خشبي صغير ، أقيم في الشارع إلى جوار باب حديدى لبنت يتوسط بيتنا وبعض بيوت قليلة مجاورة ؛ فشارعنا ينتهى بسور من غاب يفصل بيننا وبين جنينة زرع النوى .

كان العم بحر نوبيا صارم الملامح مفتول عضلات الذراعين والساقين لم يعرف الشحم طريقه إلى جسمه ، وكان طوال النهار وطرفا من الليل جالسا أمام كشكه يغلى الشاي ، فما كان يرى إلا وفي يده كوب أو وهو يوزع الأكواب على ضيوفه النوبيين . وكان العم بحر يعتقد في قرارة نفسه أنه حامى حمى الأخلاق في المنطقة ، فما كان يسمح لغريب أن يمر في الشارع وفي رفقة سيدة أو فتاة ، فهو يعرف كل سكان الحى وزوارهم . وكان الربيع عدو العم بحر اللدود ففيه يُمارس الحيوان طبيعته على الملأ دون حياء ، وكان ذلك يجرح كبرياء العم بحر ويسخر من رسالته ، رسالة حراسة الأخلاق قبل حراسة الأبواب .

كانت القطط في ذلك الموسم تشغل وقته وتفكيره ؛ فما إن تموء قطعة بنداء الجنس ، وما إن يصلك أذنيه الصوت المميز الذى يهزه من الأعماق ، صوت النداء :
— داوود ... داوود .

حتى يهب منفعلا ويخطف هراوته ويجرى ثائرا صوب الصوت ليطرد القطعة ، قبل أن تقع في مملكته الفعلة الشنعاء .

و ذات يوم مرق سكون الحى في الصباح صوت عواء كلب مفزوع ، واستمر العواء يتجاوب في جنبات شارعنا ، ففتح السكان النوافذ والشرفات ليروا ماذا هناك ، فإذا بكلب كان يمارس الجنس على ملأ من الناس وقد ضبطه العم بحر متلبسا ، فراح يهوى على رأسه بهراوته في قسوة وانفعال لعله يفر قبل أن تقع الأعين على المنظر الذى

ينال من كرامته ويجرح كبريائه .

ووقع ما لم يكن منه بد وكانت الفضيحة التي أراد العم بحر أن يتجنبها ، ورأى الناس الكلب وهو يعوى ويحاول أن يفر من قسوة ضربات الرجل القاسى ، ولكنه لا يستطيع ولا يملك إلا أن يجر الأنثى فى أثناء محاولة فراره جرا .

وارتفعت أصوات من أكثر من نافذة وشرفة تنهر العم بحر وتلومه على ما يفعل ، ولكن العم بحر لم يأبه لتلك الاحتجاجات التى تجذ الكلب الفاسق وتطلب له حرية ارتكاب الفعل الفاضح فى الطريق ، فى مملكة حاول العم بحر أن تظل طاهرة لا يدنسها إنس ولا حيوان .

وكننا على الرغم من حداثة سننا نسخر من تزمت العم بحر ؛ فما أكثر الموبقات التى كانت ترتكب فى مملكته على بعد أمتار من كشكه ، فى أكشاك مثل كشكه تحت سلا لم البيوت التى أمامه وعن يمينه وشماله . إنها موبقات تسيل عرق الخجل على جبين البشرية ، فالطباخون والسباكون والخدم يأتون أولاد اليهود شهوة وهو جالس أمام كشكه يغلى الشاى ويتنمر للقطط والكلاب التى تمارس الجنس دون حياء على الملأ ! كان أغلب سكان حيننا من اليهود ، فحيننا هو أول محطة فى طريق ارتفاع المستوى المعيشى لليهودى بعد حارة اليهود . فإذا ما عرفت النقود طريقها إليه انتقل إلى السكاكينى أو غمرة ، ثم إلى شارع الملك أو مصر الجديدة أو المعادى .

وكانت أغلب المحال الكبرى فى أيديهم ، فكانوا يخرجون كل صباح إلى حيث يعملون فى شيكوريل أو شملا أو عمر أفندى . وكانت البنوك الفرنسية أو الإنجليزية أو الإيطالية أو البلجيكية أو العثمانية تفضل تشغيلهم على تشغيل المصريين ، لكأنما كانت مصالح الحكومة وحدها للمصريين أما ما عدا ذلك من أنشطة فكانت للأجانب وللمصريين من اليهود .

لم تكن سننى فى ذلك الوقت ولا مداركى يسمحان بأن تتمرد مشاعرى على ذلك الوضع ، وكانت أقصى أمانى أن أذهب مع أبى إلى عمر أفندى لأركب المصعد مع الناس عند صعودنا إلى الطبقات العليا ، أو إلى صيدناوى ليقابلنا صاحب المحل عند الباب مرحبا ، أو إلى شيكوريل لأسير فى ممراته كما يسير القروى الذى جاء إلى

محطة مصر لأول مرة . ولم أحلم أو يخطر لي على بال أن سيأتي يوم تكون كل تلك المحال تحت إدارتي .

إن اليهود لا يمارسون أى عمل منذ غروب شمس يوم الجمعة إلى غروب شمس يوم السبت ، لأنهم يعتقدون أن الله خلق الدنيا في ستة أيام واستراح في السابع ، وهو يوم السبت . فكانوا لا يوقدون ناراً أو يمارسون عملاً في ذلك الوقت ، فإذا غربت شمس يوم الجمعة خرجت الفتيات وربات البيوت يتوسلن إلينا أن ندخل لنشعل لهن وابور الفتايل أو لنضىء لهن مصابيح الجاز . وكنا نتقاضى لقاء ذلك حفنة من لب الجرنة وكنا نطلق عليه لب يهودى ، وكان ذلك يضايق العم بحر ، وكان يزجرنا ويحرضنا على عدم تلبية رغباتهن ، وكنا نصم آذاننا عن زجره وتحريضه . آه لو علم أننا لما كبرنا رفعنا أثمان إضاءة مصابيحهن ، وأن الثمن قد صار قبلة على خد الفتاة أو رشفة من فمها . إنه لو دار ذلك بخلده لطاردنا بهراوته كما يطارد قطط الحى وكلابه في موسم الربيع .

٢٦

كانت الأراضي الفضاء أمام منزلنا واسعة ، وكان شارعنا ينتهى عند جنيحة الكوة ، وكانت أعواد من الغاب تفصل بيننا وبين الجنيحة . وكانت الحكومة قد شرعت في شق شارع فاروق ، فجاءت عربات تلقى الحجارة والأتربة في وسط الجنيحة المنخفضة لترفع الطريق الجديد إلى مستوى شارع العباسية الذى سيبدأ من عنده شارع فاروق ، فانقسمت الجنيحة قسمين : قسم انضم إلى حينا ، والقسم الآخر صار مرتعا لغلمان الحسينية والصوالى . وأخذنا ننزع أعواد الغاب في فرح شديد فقد اتسعت مسارح لعبنا وانضمت إلى أراضى نفوذنا أرض خضراء فسيحة ، سرعان ما أصبحت ملعبا للكرة اشتهرت في الحى باسم أرض السحارين .

كنا في الصباح ننصب الفخاخ للعصافير ، وقد كنا نفرع فرعا شديدا إذا ما وقعت في الفخ يمامة لأننا كنا نعتقد أن صيد الحمام حرام ، فهو في هديله يقول :

— اعبدوا ربكوا .. اعبدوا ربكوا .

لم نكن نسمع في دورنا إلا الحرام والحلال فكنا نقيس كل أفعالنا بذلك المقياس ، ولم يكن أهلنا يرددون كلمة الحرام والحلال بأطراف ألسنتهم بل كانوا في أفعالهم يخشون أن يأتوا ما يغضب الله فكانوا لنا قدوة . وقد غرسوا في أنفسنا منذ نعومة أظفارنا القيم الروحية فراح ينمو معنا وجدان أخلاقي يعرف للمجتمع حقه ، فكانت حياتنا متناسقة مع أوامر الدين ونواهيه ، فكان أن أحببنا كل ما حولنا وكل من حولنا ، وكانت المصالحة بيننا وبين ذواتنا .

كنا ننتقل في فضاء حيننا الواسع كفراشات طليقة ، وكنا نبتعد كثيرا عن حيننا ، وكنا نختلط بأطفال في مثل سننا يدخنون بل ويشربون الخمر ويمارسون ألوانا من العبث لدى يرفضه المجتمع ويأباه الدين ، فكنا لا نطلق لأنفسنا زمامها ولا نستسلم لها ، بل نقاوم الإغراء ونستمسك بالطريق السوي ، فإذا حاد أحدنا عن الصراط دون أن يراه أحد هب ضميره الديني يؤنبه ويتوعده بعذاب الله .

لم تخمد نار جهنم في ضمائرنا أبدا ، فكل من نحتك به من أهل البيت لا يفتأ يذكرها . وكان أبى وأمى وجدتى وعمى الذى يسكن معنا فى دار واحدة يذرون بأفعالهم الطيبة بذور الخير فى أعماقنا ، فقامت الجنة والنار فى سرائرنا جنبا إلى جنب ، وعرفنا مذ كانت لنا مدارك أن لكل فعل مثوبة وعقوبة فى الدنيا والآخرة .

وعلى بعد أمتار من بيتنا فى شارع بهاء الدين بن حنا بنى الحمام الهندى ، ولم يكن قد استكمل بعد . بنيت حجراته ومغاطسه ، فضممناه إلى مملكة لعبنا . وكان أغلب لعبنا محاكاة لقصص الأفلام التى نشاهدها على الشاشة الفضية ، وقد وجدنا فى مغاطس الحمام الهندى التى لا تزال غرفا مبنية بالطوب غائصة فى الأرض ميدانا جديدا للقفز وإخفاء كنزنا العزيز الذى كان صرة مملوءة بقطع من الصينى المكسور ؛ فقد كنا نمثل قصة جزيرة الكنز بعد أن شاهدناها فى سينما إيدال . وقد قام فريدون برسم خريطة لحينا حدد فيها مكان الكنز ، ومزق الخريطة نصفين ، وقسمنا إلى فريقين وأعطى كل

فريق نصف الخريطة ، وترك الفريقين ليتنازعا ، لينتزع كل فريق من الفريق الآخر النصف الذى معه ليعرف مكان الكنز ويفوز به !

* * *

وانجبت أمى بعد ولادتي التى لم يرحب بها أحد أخى فتوح ، ثم أختى فلة وزينب . وقد قرت عين أمى بالبنتين فقد كانت أمنيتهما أن تكون لها ابنة تقف على غسلها يوم موتها . ولو أن أباهما كان من الخليل فى فلسطين إلا أنها كانت تقدس الموت تقديس الفراغنة ، وقد أصبحت أكثر رقة معى بعد أن تحققت أحلامها فلم تعد تضربنى لأتفه الأسباب ، وقل استهلاكها للمقشاة التى كانت تنثر عيدانها على ظهري ! وكانت تعمل عندنا سيدة تكبر أمى فى السن وكانت من نبوه . فكانت إذا سافرت إلى بلدها تعود بصفيحة فسيخ هدية ، فكانت أمى تقول لها : — مالهش لازمة يا أم على ، الفسيخ يينحر قلب العيال .

وتأمرها أن تضع صفيحة الفسيخ فى الشقة الأرضية مع خزين البيت من بصل وثوم ، فكانت أم على توسوس لنا أن نعرض عن الطعام وأن نصر على أكل الفسيخ ، لتثبت لأمى أن الفسيخ له طلب ، وأنها لم تكن مخطئة يوم أن جاءت بالفسيخ النبراوى . فكنا نقاد لوسوسات أم على ونهبط معها إلى الشقة الأرضية ونعود بالفسيخ فرحين ، وإن كانت أمى تسبنا وتلعننا ، ويزيد فى ثورتها انتصار أم على على إرادتها . كانت أختى فلة رقيقة كالنسيم شعرها أصفر وعيناها زرقاوان ، أو هكذا كان يخيل لنا فقد كنا جميعا نحيطها بحبنا الصادق ، فهى أول فتاة فى أسرنا التى حرمت الفتيات طويلا . وكنت فى بعض الأحيان أحرم نفسى الذهاب إلى السينما لأشترى لها دمية ، وكانت أمى تفرح بهديتى أكثر من فرح فلة بها .

وفى ذات يوم مرضت فلة فلم يفكر أحد فى استدعاء طبيب ليفحص عنها ويشخص مرضها ، بل راحت أم على تحرق البخور كل يوم لتطرد العين الشريرة التى أصابت فلة الجميلة ، ولم تعترض أمى على علاج ابنتها العزيزة بالبخور والتعاويد .

وذبلت فلة وما خطر على أحد استدعاء الطبيب ، فما كان الطبيب يستدعى إلى بيتنا إلا لاستخراج شهادة الوفاة . ولم يقف مرض فلة عقبة فى سبيل طوافنا على دور السينما ، وكان اليوم يوم جمعة ، وكان ذلك اليوم مخصصا

لسينما الكلوب المصرى بالحى الحسينى . وكنا نذهب قبل الساعة الثالثة لنجتمع بمدير السينما لنختار معه برنامج الأسبوع القادم ، فقد عرف أننا من رواد سينما الكوزمجراف الأمريكانى وإيديال والشعب ، وأن لنا ذوقا خاصا فى اختيار الأفلام .

كانت السينما صامته فى ذلك الوقت فى كل بلاد العالم ، وكان يستعان ببعض جمل تكتب على الفيلم تقطع تسلسله لاستخدام حوار لا بد منه ، وكان الحوار المكتوب باللغة الإنجليزية . ولما كان أغلب جمهور سينما الكلوب المصرى من الذين لا يعرفون الكتابة ولا القراءة ، بله الإنجليزية ، فكان شحاته يقف بجوار شاشة العرض ويعلق على الأحداث الدائرة :

— بصوا .. أهو الشجيع ح يخرج من هنا .. خدوا بالكم م المقلب اللى ح يديه للحرامى .. البنت بتقول له أحبك وهو يقول لها : وأنا باموت فيكى .
وتسلل أحد الأشرار وراء البطل وحاول أن يضربه ، فصاح كل من فى الدار :
— حاسب !

وحدث أن التفت البطل إلى الشرير المتسلل خلفه وخطف من يده المسدس ، فدوت فى القاعة عاصفة من التصفيق ، لا لأن البطل قد نجا من الشرير وقضى عليه ، بل لأنه استجاب لتحذيرنا .

وخرجنا من السينما نتحدث عن الأحداث التى استهوتنا فى سينما الكلوب ، واخترقنا بيت القاضى ثم شارع النحاسين ثم باب الفتوح . وانسبنا فى شارع البهاوى لنعود إلى دارنا وإذا بنا نقابل كل أصدقاء أبى عائدين من باب النصر .

وخفقت قلوبنا فى صدورنا الصغيرة وانتابنا خوف شديد . باب النصر ، إنه طريق المقابر . واقتربنا فى وجل من أصدقاء أبى وسألنا أحدهم :

— انتو جاين مينن ؟

— كنا بندفن فلة .

فلة ماتت ! إنها كارثة . وأحسست إشفاقا على أمى ، وشعرت على الرغم من صغر سنى بكل إحساسات الثكلى . ووصلنا إلى دارنا ، وصعدت فى الدرج إلى جوار الحائط حزينا أمسح الدموع فى صمت ينتابنى شعور بالرغبة ، فقد كنت لا أتصور

(هذه حياتى)

كيف أحتمل أن تلتقى عيناى بعينى أُمى بعد أن ماتت حبيبتنا فلة .
ورأيت أُمى ترتدى السواد وقد جلست بين النسوة كسيرة الفؤاد ، ولا أذكر أننى
رأيت أُمى طوال حياتى فى غير السواد . ووقعت عيناها على وقد وقفت بعيدا مطرق
الرأس دامع العين ، فنهضت إلى وراحت تمرر يدها على شعرى فى حنان دافق ، وقالت
فى صوت خافت حزين :

— عايز حاجة ؟ .

فانفجرت بالبكاء فبكت أُمى ، ورحنا نسفك الدمع على أختى التى ماتت بالدفتر يا
وعولجت بالبخور .

٢٧

كانت المباني الجديدة قد بدأت تكسو الأرض الفضاء الواقعة قبالة بيتنا ، وأصبحت
حارة بحر ضيقة لا تتسع للعبنا ، بعد أن عرفنا الأرض الخضراء الواسعة التى تخلفت من
جنيئة الكوة بعد أن شقتها أكوام الأتربة التى كانت تلقىها السيارات والعربات لتمهد
وتصبح جزءا من شارع فاروق الجديد .

كانت جنيئة الكوة تقف حائلا بين حينا وحى الصواوى والحسينية ، فلما بدىء فى
شق الشارع الجديد لم يعد هناك ما يمنع إغارة غلمان الحسينية علينا ، فكنا فى أثناء
اندماجنا فى مباراة من مباريات الكرة فى أرضنا الجديدة نفاجأ بسيل منهمر من الطوب
والحجارة . فكان يعز علينا أن نفر أو نظهر بمظهر الجبناء ، فكنا نلتقط ما صوب إلينا
من طوب ونطلق على الصبية الواقفين فوق الطريق العالى قذائفنا ، وما كنا نكتفى
بذلك بل كنا نتسلق أكوام التراب ونطارذ الغزاة ونجد فى أثرهم حتى ندخلهم دورهم
فى الصواوى أو الحسينية .

وعلى مر الأيام توطدت صداقة بيننا وبين الصبية المشاغبين ، فكانوا يأتون لمشاهدة
المباريات التى كانت تقام بيننا وبين الأحياء المجاورة وأصبحوا متعصبين لنا . وفى ذات
يوم كنت أسير إلى جوار أبى ، فدنا منى صبى حافى القدمين يرتدى جلبابا ممزقا يبدو

عليه أنه لم يغسل وجهه منذ أيام ، وحياني وقال لى :

— ح تلعبوا النهاردة ؟

— أيوه .. الساعة أربعة .

ونظر إلّى أبى فى استنكار وقال لى :

— صاحبك ؟!

ولم أستطع أن أنكر أو أؤيد ، بل قلت فى صدق :

— بيعجى يتفرح علينا واحنا بنلعب كورة .

وتذكرت وأنا أسير إلى جوار أبى كل ما كان بينى وبين نملة — وكان هذا اسمه . كان

نملة أكثر صبية الأحياء الوطنية التى انفتحت على حيننا مشاكسة . وكان يقف على

الشارع الذى لم يمهد بعد ويلقى علينا وابلا من الحجارة ، ثم يسبنا بأقذع السباب ، ثم

يطلق ساقيه للريح . وقد ضايقنى منه ذلك ، فعزمت على أن أنتظره فوق الشارع فى

نفس الوقت الذى يأتى فيه لأضع حدا لمضايقاته .

وانتظرته فى عصر اليوم التالى الذى وطنت فيه النفس على أن ألقن نملة درسا لا

ينساه . وجاء نملة فى أسماه ولم يفطن إلى وجودى ، وانحنى ليلتقط حجرا وقبل أن

ينتصب عاجلته برفسة فى مؤخرته ، فانبطح على الأرض ، وقام يسب ويلعن .

فانقضضت عليه كما ينقض أبطال السينما على أعدائهم وأخذت أكيل له اللكمات وهو

يسب لا يدري ماذا يفعل ؛ ثم انتهر فرصة توقفى عن ضربه وراح يعدو هاربا .

وكانت هذه العلة بداية عهد جديد ، فقد صار نملة من أكبر المشجعين لنا ، وصار

يصاحبنا إذا ما ذهبنا إلى حى من الأحياء المجاورة لتبارى فى الكرة . فإذا ما حدث

وانهزمنا راح يلقي الحجارة على الفريق الآخر ، ثم يتولى يسابق الريح . فقد كان نملة

نحيفا نحيلا يكاد أن يسقط من دفع الهواء فكان يحب أن ينتصر على ضعفه بالسباب الذى

يتدفق من لسانه تدفق الشلالات ، والحجارة التى يلقيها من بعيد على أعدائه وما

أكثرهم ، فقد وقر فى وجدانه أن الأصل عداوة الناس وأن المحبة لا تأتى إلا بعد عداوة !

ورحنا ننقل أثاث بيتنا إلى بيتنا الجديد وكان فى نفس الحى على بعد أمتار ، إلا أنه

فى الشارع الرئيسى الذى بدأ الأسفلت يغطيه . وإنه لما يثير زهونا ويملؤنا فخارا أن

يكون بيتنا في شارع غطى الأسفلت بثور وجهه ، فلن يتعثر فيه الطوق المعدني الذى طالما تعثر فى الحجارة البارزة فى شوارع حينا القديم ، وإنه ليصلح جيدا للبقايب التى اشتريناها والتى تستعمل للترحلق على الجليد .

كان كل ذلك يدخل السرور على نفسى ، ولكن الشىء الذى جعلنى أتهلل بالفرح أن أمام بيتنا الجديد مباشرة لوحة إعلانات لسينا إيديال ، فلن أحتاج بعد اليوم أن أستيقظ مبكرا فى صبيحة كل يوم اثنين لأنسل مهرولا إليها لأطمئن على برنامج الأسبوع . إننى سأستطيع أن أشاهد لوحة الإعلانات من أى نافذة من نوافذ شقة جدتى ، فقد تقرر أن نبني مع جدتى فى شقة بالطبقة الأولى أمام شقة أبى ، وأن يسكن عمى حنفى فى الشقة بالطبقة الأولى أمام شقة أبى ، وأن يسكن عمى حنفى فى الشقة التى تعلو شقتنا ، أما الشقة الرابعة فقد خصصت لأخى محمد ليتزوج فيها من ابنة عمته .

وكان إلى يمين البيت سلامك تدخل إليه من باب حديدى . إنه منفصل عن البيت أمامه رحبة أو فناء تصب فيه بعض درجات نازلة من شرفة شقة جدتى ، وهى طريق أبى إلى السلامك فى الليل ، أما طريقنا بالنهار فقد كان القفز من الشرفة إلى الفناء أو التسلق من الفناء إلى الشرفة .

كنا نقضى النهار مع أصدقاء الحى فى السلامك نلعب الطاولة أو نلعب الكرة فى الفناء الضيق ، أو يتحدث أخى أحمد وأخى سعيد مع زملائهم عن القصص المترجمة التى قرعوها وأنا أصغى إلى حديثهم فى لهفة ، فقد كنت شغوبا بأنباء تلك القصص ، وأتمنى أن يأتى اليوم الذى أستطيع فيه أن أقرأ مثلما يقرءون وأن أتحدث مثلما يتحدثون .

كان أخواى أحمد وسعيد يعشقان القراءة ، فكانا ينسلان أيام أن كانا معى بمدرسة الجمالية — قبل أن يحصلوا على الشهادة الابتدائية — إلى المكاتب المتواضعة المنتشرة على جانبي الطرق الضيقة الملتوية المؤدية إلى الأزهر ، وكنت أنسل فى إثرهما ، وكان لاهم لهما إلا التنقيب عن القصص القديمة بين أكداس الكتب الدينية الصفراء ، حتى إذا انتهيا من جمع ما يرغبان فيه وضعاه فى الميزان ، ثم يدفعان ثمنه بحساب الأقة ، فما كان

للقصص والروايات سوق في حى الأزهر .

كان كل منهما يحمل جزءاً من « الشروء » ، وكنت أحمل نصيبى بين ذراعى وأنا مغتبط أتمنى من أعماقى أن يأتى ذلك اليوم الذى ألتهم فيه هذه الكتب ؛ بل كل الكتب الصفراء التى رأيتها فى مكتبات الأزهر . إنه لشيء جميل أن يقرأ الإنسان وأن يعيش فيما يقرأ . لماذا لا أقرأ كما يقرءون وأن أحس تلك السعادة التى تنعكس على وجوههم كلما أخذوا يروون روائع ما وقر فى أذهانهم ونفوسهم مما قرءوه ؟ إننى لم أكن أقرأ كتب المدرسة لأننى كنت أبخل بأن أبذل جهداً ضائعاً نهايته الموت ، فقد كنت أدخل فراشى كل يوم وأنا أعتقد اعتقاداً جازماً أن ليلتى تلك هى آخر ليلة فى حياتى . فإذا فتحت عيني ورأيت نور الصباح كنت أعثم لأن الموت لم يأت مع النوم . فإذا كان الموت ليس أمراً سهلاً كما كنت أتخيل ، وما دام قد ازور عني فلماذا لا أسعى فى الحياة كما يسعى الناس ؟ ولماذا لا أذاكر كما يذاكر الأصدقاء ؟ ولماذا لا أقرأ كما يقرأ أخواى وأصدقائنا ؟ واخترت زميلاً يسكن بالقرب منا لنذاكر معا ، فكان صلاح قنصوه ذلك الزميل الذى وقع عليه اختيارى فنقطع معا مشوار الدراسة الطويل . تقابلنا فى الإجازة الصيفية واتفقنا على أن نبدأ الاستذكار منذ أول يوم فى العام الجديد ، وكنت سعيداً لاتخاذ ذلك القرار فقد عازمت على أن أدخل السرور دواما على قلب ألى . إنه لم ينهرنى أبداً لرسوبى المتكرر . كان يدفع لى مصروفات المدرسة فى مواعيدها عن طيب خاطر ، بل كان يعاملنى معاملة فيها شيء من التدليل . أفيكون جزاؤه منى أن أرسب سنة وأن أنجح سنة ، وما ذلك لقصور فى مداركى بل لأننى أنتظر الموت فى كل ليلة . إننى سأبذل قصارى جهدى لأشق طريقى فى الحياة وليأت الموت وقتما يريد .

ودار فى خلدى سؤال حيرنى فى تلك السن الصغيرة . لماذا ينفق علينا أهلنا عن سعة ويحرمون أنفسهم من كثير من متع الحياة ؟ وما كانت تجارى فى ذلك الوقت تسمح لى أن أحس مشاعر الأبوة النبيلة ، فعقدت النية على أن أفطم نفسى عن غير الضرورات ، وأن أتقشف فى بيت يعيش حياة ميسرة ، وألا أرهق أهلى من أمرى عسراً .

كنا نقضى مع رفاق الحى ساعات مريحة فى سلاملك البيت ، وكان من العيب فى

ذلك الوقت أن تشتري البيوتات الخبز من السوق . فكان الفران يخرج من بيتنا بألواح العجين ، فكنا ننتظر عودته في لهفة ، لأن أمى أو جدتى أحياناً كانتا تقطعان العيش الساخن وتبثانه بالسمن وترشانه بالسكر ، وتبعثان بالعيش المبثوث إلى السلامك فلتهمه نحن ورفاق الحى التهاما ، وأصواتنا المرححة التى تنطلق ونحن نتخاطفه تنزل بردا وسلاما على قلوب كل من فى الحرمك .

وكان أبى فى الليل يجتمع ببعض أصدقائه : العم سيد الشامى الدخاخنى من شغل نفسه بالكيمياء وحجر الفلاسفة ، والعم إبراهيم الشرى وكان صاحب ذكريات عن قدامى المطربين والليالى الملاح ، وكان يعمل خادما فى جامع ورث أو ملك — لا أدرى من أين — بعض قراريط فى منزل سيصبح ذات يوم على شارع فاروق مباشرة ، فكان يشغل المجلس أحيانا بالحديث عن مشروعاته فى المستقبل بعد ما يتحقق الحلم الجميل . كان هذان الرجلان هما اللذان يداومان على الحضور كل مساء ، وكان يفد إلى السلامك رجال من كل لون وصنف . رجال لا هم لهم إلا الضحك وإلقاء النكات ، ورجال لا حديث لهم إلا عن أنفسهم وتزكيتها ، ورجال يخوضون فى أحاديث دينية ، فأتاحت لى الظروف أن أعيش مع جيلى وأن ألتصق التصاقا وثيقا بجيل أبى ، وأن تتفتح مداركى على تجارب أكبر من سنى ، وعلى معارف لم أتلقيها فيما تلقيت فى مدرستى . كنا فى بيتنا الجديد سعداء ، فقد تخلصنا من مضايقات العم بحر وأصبحنا نلعب فى الفناء الضيق أمام السلامك كما نشاء ونهوى . وإنه لشيء لذيد أن تستشعر حريرتك وإنه لشيء مفرح ولا شك . ومن عجب أن الإنسان قد يفرح أحيانا لفقد الكثير من حريرته ، فأخى محمد كان متهللا متفرحا لأنه سيتزوج ، كان محمد أكبرنا وما كنا نراه قبل أن تنتقل إلى البيت الجديد إلا فى المساء نتناول عشاءنا ، فهو يعمل مع أبى طوال النهار فى الدكان ، وما كان قد اختلط بنا أو شاركنا فى لعبنا . أما وقد أمسى السلامك يجمعنا فقد بدأت علاقات جديدة بيننا وبينه ، وصار بيننا كثير من الود وكثير من الحب .

كان حديث زواجه يملاً فراغ ليالى طويلة فى السلامك وفى الحرمك . كان كل من فى بيتنا يتأهب للحدث الكبير : أول فرح فى أسرتنا التى تتكون من أبى وأمى وستة

أولاد وأخت واحدة ، وكانت جدتي سعيدة بذلك الزواج ، فالعروسان من حفدتها ، وكان أكثر ما يدخل السرور على قلب جدتي أن توفق رأسين في الحلال .
وانتهت الإجازة الصيفية وكلنا نتعجل الفرح ، فبدلنا الجديدة قد فصلت ، والأحذية فصلت ، وما كنا نذهب إلى دكان الترزي أو صانع الأحذية ، فقد كانت المقاسات تؤخذ لنا في السلامك وكانت البروفات تجري فيه ، وكذلك جميع مقابلات أوى ، فما كان لرجل أن يقتحم حرمة الحرمك .
ذهب أحمد إلى مدرسة بنباقادن الثانوية ، وذهب سعيد إلى مدرسة فؤاد الأول الثانوية ، وأخذت أختي فتوح معي لنذهب سيرا على الأقدام إلى مدرسة الجمالية .
أحسست لأول مرة أنني أصبحت مسئولا بعد أن كنت عالة على أخوى أحمد وسعيد ، وما كنت أقدر أعباء المسؤولية قبل أن أمارسها .
كان أوى يعطيني كل يوم ثمن غدائي وغداء فتوح ، فإذا ما دق جرس فسحة الغداء



أخذت فتوح من يده لأطعمه في أحد المحال المنتشرة في الحى ، وكنت أحيانا آخذه إلى المحال المواجهة لمسجد الحسين . وحدث أن أخذته ذات يوم إلى محل كباب وكفتة . وكنت أظن أنني سأعود به بعد ذلك إلى المحال التى فى الحسين ، ولكنه أصر على أن يذهب كل يوم إلى محل الكباب والكفتة ، وما كان من المستساغ أن نتغدى كل يوم فى محل واحد ومن صنف واحد ، فأخذته إلى محل آخر . فلما عدنا إلى البيت انتظر حتى جاء أبى وراح ييكى ويدعى .أننى لم أطعمه فى ذلك اليوم . فى ذلك اليوم . فرحت أقسم أنني أطعمته والغيظ يكاد يمزقنى ، وتعلمت من ذلك اليوم وقع قسوة الافتراء ، ووطنت النفس على أن أغلق أذنى دون بعض ما يقال . ونجح فتوح فى أن يرغمنى على أن أغديه كل يوم كباب وكفتة ، وأن أشتري له بسبوسة أو هريسة بعد الغداء ، وإن كان ذلك على حساب غدائى .

٢٨

خرجت أُمى وعمتى عزيزة وجدتى أم عبد الغنى لدعوة الأسرة لتشريفنا فى فرح أخى ، وذهب أبى إلى أعمامى وأولاد أعمامى الذين توفى آباؤهم ليدعوهم إلى فرح محمد ، وذهب أبى لدعوة أخوالى فما اكتفت أُمى بدعوتهم ، وقد استغرقت الدعوات أياما وليالى فما كنا قد عرفنا بعد أن الدعوات للأفراح تطبع على ورق وردى مصقول وترسل دون عناء إلى المدعوين .

كانت أُمى تعود فى المساء وتضع قدميها فى ماء ساخن به ملح لعل التعب الذى تحسه يزول ، وكانت جدتى تقدح زناد فكرها لتذكر من نسيت أن تدعوه من الأحباب . وكل من دخل أو دخلت دارنا فى حارة صلاح أو فى شارع جنيحة الكوة أو فى شارع سكة الظاهر من الأحباب ، سواء أكان بائع لبن أو دلالة من الدلالات اللاتى يأتين إلى دور المحجبات بألوان من الأقمشة ، فقد كان النزول إلى شارع الموسكى أو الذهاب إلى صيدناوى أو عمر أفندى لا يحدث إلا لتجهيز العرائس ، وكان يعبر عن ذلك فى زهو وتقول المرأة لجارتها فى استبشار إنها ذاهبة إلى المدينة ، وإنها ستركب الترام ! ولو

كانت أم عباس الصباحية الندابة على قيد الحياة لما ترددت جدتي في دعوتها ، ولكنها كانت قد ماتت فقالت جدتي في براءة :

— ما تنسوش تعزموا عباس .

وفي المساء كان أصدقاء أبي في السلامك يشاركون أبي في تجهيزات الليلة الكبيرة ، ليلة الفرح . ومضت ليلة وهم يتدارسون من يحبى الليلة ، وقال قائل منهم : عبد اللطيف البنا . وقال آخر : صالح عبد الحى . واقترح ثالث : الشيخ على محمود . واستقر رأى أبي على أن يحبى الشيخ على محمود الليلة . وبدأ الحديث يدور حول من الذى يتصل بالشيخ على محمود ، فهتف الجميع فى صوت واحد :

— الشيخ عبد العزيز السحار .

كان الشيخ على محمود والشيخ محمد رفعت والشيخ الشعشاعى وجميع مقرئى ذلك العصر من تلاميذ الشيخ عبد العزيز السحار . وما كان الأمر يحتاج إلى تفكير أو إدارة فكر ، فالشيخ على محمود قد أحيا ليلة مأتم جدى ، وكان جدى ابن عم الشيخ عبد العزيز ، وما كان الشيخ على محمود ليرد لشيخه طلبا .

واسترى أبى عجلا ، وجاءت الهدايا من خراف وديوك رومية وصفائح السمن من قلوب ومن كل أنحاء القاهرة . وتكدست الهدايا فى بدروم منزلنا ، وارتفعت أصواتها كأحلى نغم فى آذاننا . وصرت أنتظر يوم الفرح فارغ الصبر . ففى الفرح سأرتدى البنطلون الطويل لأول مرة ، وستكون مفاجأة للمدرسة جميعها عندما أذهب إليها فى اليوم التالى بالبنطلون الطويل ، فما كان أحد فى المدارس الابتدائية كلها يرتدى بنطلونا طويلا .

وجاء الفراش وأقام سرادقا ضخما فى الطريق أمام بيتنا ، وفتح الباب الحديدى المؤدى إلى السلامك على مصراعيه ، وجاء النسوة وكل واحدة منهن تحمل صرة ملابسها ، جئن ليحبن ليلة الحنة ، ودقت الطبول وقامت بعض المدعوات يرقصن كأحسن ما يكون الرقص .

وفى بدروم بيتنا قامت مذبحه ؛ عجول تذبح وخراف تنظر إلى الدم المهراق فى فرع ، والأولاد يجرون خلف الديوك الرومية ليقبضوا عليها ليقدموها فرحين إلى

الجزار . و حملت اللحوم إلى السطح حيث كان الطباخ يعد العشاء للنسوة اللاتي سيبتن عندنا .

وفي شقة عمى جىء بطسوت بها معجون الحنة ، ومزقت أثواب من القماش لتلف بها الأرجل والأيدى بعد تلطيخها بالحنة ، ومدت الموائد للعشاء فكان منظرًا فريداً أن تطعم اللاتي لم تلتطخ أيديهن بالحنة بعد ، اللاتي أسرعن لتزويق أيديهن .

وراح بعض النسوة يسربن شرائح اللحم وبعض أصناف الحلوى إلى بيوتهن ، فإنه من الوفاء أن يطعمن أزواجهن وأطفالهن مما طعمن !

كانت أمى تغدو وتروح بينهن تحاول أن تلبى كل طلباتهن ، وما أكثرها من طلبات ؛ إحداهن تريد أن تسخن اللبن لطفلها الرضيع ، وأخرى تريد مكانا لابنها الذى نام ، وثالثة تسلمها مصاعها لتحفظه حتى الصباح ، ورابعة تدفع إليها بملابسها التى جاءت بها لترتديها فى الفرح ...

وحان أوان النوم فراحت أمى تطرح لهن المراتب فى كل مكان على الأرض وتبحث لهن عن أغطية . وانقضى الليل والشخير ينبعث من كل مكان ، وما لاحت تباشير الصباح حتى أرسلت أمى إلى الطباخ تأمره أن يعد الإفطار لضيوفها اللاتي تكدسن فى الحجر والطرقات وعلى بسطات السلم .

وتقاطر الرجال والنساء على بيتنا منذ الصباح الباكر ولم أعر ذلك اهتماما ، كان كل ما يعنينى أن يأتى المساء لأرتدى بنطلونى الطويل وأن أخطر به فى السراى الكبير بين المدعوين ، كان فى يقينى أن مجرد ارتداء البنطلون الطويل سيدخلنى فى عداد الرجال . وفى الظهر مدت الموائد للرجال والنساء ، وكان أبى يدور على الموائد محييا الذين لبوا دعوته والذين جاءوا دون دعوة .

وفى المساء جاءت بمبة كشر بلحمها المكتر ، وقد قوبلت أشهر عالمة فى ذلك الوقت بترحاب كبير ، وكان أكثر الناس ترحيبا بها عمى محمد . والحق يقال لم يترك عمى محمد أية امرأة دخلت دارنا دون أن يغازلها أو يعلق على جمالها ، وما أكثر كلمات الغزل والقدح التى فرت من بين شفثيه فى ذلك اليوم ، لكأنما كان ذلك تسبيحا .

ومدت الموائد فكان فى كل غرفة من غرف شقة أبى مائدة طعام ، وراح أبى يدعو الرجال

الذين ملئوا السرادق للعشاء ، وكان يعاونه في ذلك عمى وبعض أبناء عمومتي من الرجال ، وما كان الرجال ينهضون مرة واحدة للأكل بل كان على أبنى ومن يعاونونه أن ينتخبوا لكل مائدة مجموعة متجانسة ، كانوا لا يدرون شيئاً عن البروتوكول ولكنهم كانوا يتبعون تقاليدہ بالفطرة .

وجاء الشيخ على محمود وبطانته واتجهوا إلى المنصة التي أعدت لهم ، وارتفع صوت الشيخ قويا يتجاوب في جنبات الحى وما كان الميكروفون قد عرف بعد ، فجاء أناس من أقصى الشارع واندفعوا إلى السرادق فكان علينا أن نطعمهم وأن ندعوهم إلى موائد العشاء .

وظل أبى واقفا على قدميه منذ الصباح الباكر حتى كاد الليل أن ينتصف ، ودخل أخى شقيقته يتأهب للزفاف ودخل معه بعض أصدقائه يلقنونه معلومات خاطئة ولا ريب عن الزواج والليلة الأولى . وخرج أخى ومن حوله أبناء عمومته وبعض أصدقائه ليزوروا الحسين ، فمن تقاليد أسرتنا أن يزور العريس الحسين وأن يصلى على الميت فى الحسين ، وما كان هناك فرق كبير عندنا بين الزواج والموت .

وذهب أخى وأصدقائه إلى الحسين يسير أمامه بعض من يحملون القناديل الصغيرة ، وقد التف حوله شباب يحملون باقات الورد والشموع . ولم أستطع أن أستقر فى السرادق فصعدت إلى حيث كان النسوة أشاهد بمبة كشر وهى ترقص رقصة الشمعدان ، وأصغى إلى تعليقات عمى عزيزة المرحه ، فقد كانت خفيفة الروح .

وساد همس بين الواقفين على السلم :

— العريس وصل .. العريس وصل .

ووصل الهمس إلى حيث كان النسوة فانطلقت الزغاريد وصعد محمد بين اثنين من أبناء عمه وجلس فى الكوشة إلى جوار العروس ، وإن هى إلا لحظات حتى كانت بمبة كشر تزف العروسين . كانا طفلين فما كان قانون تحديد سن الزواج قد صدر بعد . وأغلق الباب على العروسين وبدأ المدعوون فى الانصراف ، فإذا بوقع أقدام تترادف على السلم ، وإذا بكتل بشرية تكاد تسد الطريق . وتوقف الشيخ على محمود عن الشدو الجميل فانصرف من فى السرادق مع نسائهم ، وجاء الشيخ على وبطانته

ليتسلموا أجورهم من أبى ، وأسرع إليه الفراش والطباخ وكل من قدم خدمة فى الفرح لينالوا أجورهم ويطلبوا بالبقيش .

وراحت لفائف الحلوى واللحوم تتسرب من كل باب ، وألقى الطباخ ما بقى من صفائح السمن على رماد الفحم وما أيسر أن يفصل السمن عن الرماد بعد ذلك ، ولم ينته السلب والنهب إلا بعد أن أغلق باب السلامك وباب المنزل .

وصعد أبى إلى شقته محطما وقد بدا البيت كساحة قتال بعد انتهاء المعركة ، وأرادت أمى أن تعيد إلى البيت نظامه ولكن التعب كان قد أخذ منا كل مأخذ فنمنا حتى الصباح . ثم بدى فى تطهير البيت بعد أن مضى كل شىء كأن لم يكن ، وراح أبى يتذكر ما كان فلم يجد إلا التعب والإسراف والأوهام ، فأقسم ألا يقيم فرحا بعدها أبدا .

أكان هذا الفرح بعض وحى قصتى التى كتبتها فيما بعد ، قصة « أم العروسة » ؟ !
ربما .

٢٩

كنت أهوى الكرة هوايتى للسينما ، وقد لعبت لفريق المدرسة قلب هجوم . وكنت أعرف طريقى إلى المرمى فكنت هداف المدرسة . وكنت ألعب فى ملاعب المدارس المجاورة لمدرستى ، فكنت ألعب فى مدرسة القرية وكانت تقع فى حارة متفرعة من شارع الغورية ، وفى المباريات الرسمية كنا نلعب فى أول الأمر فى أرض شريف باشا ، وكانت أرضا واسعة لها باب خشبى كبير أمام باب عمر أفندى بشارع عبد العزيز . ولم أشعر أننى صرت شيئا مذكورا إلا بعد أن لعبت عدة مباريات فى ملعب مدرسة الحاكم بأمر الله وكانت عند باب الفتوح . وكانت المنطقة تعرف بسوق الليمون لأن معظم حوانيت الحى كانت للتجارة فى الليمون والزيتون الأخضر .

إننا عقب كل مباراة هناك كنت أقابل بتحية صبية المحال والمقاهى ، لذلك صار طريقى إلى مدرستى من البنهاوى ثم باب الفتوح بعد أن كان طريقى إليها من باب

الشعرية إلى أمير الجيوش ، فإنه لشيء لذيد أن تسير بين أناس يحبونك ويقدرونك .
التقدير .. إنه أجمل وسام يوضع على صدر إنسان ، ولا يكلف الناس شيئاً لو كانوا
يعقلون . ولكن الظاهر أن في الناس جحوداً وأن في طبعهم أن يخسوا الناس
أشياءهم . جاء يوم الخميس وما كانت عندي مباراة في ذلك اليوم ، فسعى إلى بعض
رفاقى في المدرسة لألعب معهم مباراة في أرض المثلث بغمرة ، فاعتذرت بأني أرسلت
حذاءي لإصلاحه ، فإذا بهم يدعوننى إلى منزلهم لأختار حذاء من أحذية الكرة الكثيرة
التي عندهم . وذهبت معهم من الجمالية إلى الفوطية سيرا على الأقدام ، فما كانت
هناك مواصلات في القاهرة غير الترام التي كانت تجرى بين العباسية والعتبة الخضراء ،
والترام التي تنطلق إلى الجيزة ، والترام التي تسير من العتبة إلى شارع كلوت بك ثم
تنطلق فوق كوبرى شبرا إلى شبرا ، والسوارس التي تزاحم الناس في الموسكى لتربط
بين العتبة الخضراء والحسين ، ولطالما نقت عن تلك العتبة الخضراء التي ينسب إليها
الميدان الذى ازدحم بالترام والسوارس والحمير والحجارة دون جدوى !
وبلغنا حارتهم حارة الملاح ، وإذا بالمياه التي اختلطت بالصابون قد ألقيت من
الشبابيك ، وإذا برائحة عطن تنبعث من الحارة كلها . وعند باب خشبي ارتفع عن
الأرض قالوا لي فى أدب جم وهم يفسحون لى الطريق :

— تفضل .

سرت فى ردهة رطبة وأنا أتنفس بقدر حتى لا تملأ الروائح الكريهة كل أنفى . كنت
أخذ من الهواء ما يكفينى لأعيش حتى أغادر المكان .
ودخلنا شقتهم وكانت طسوت الغسيل تكاد تغطى الأرض ، ودلفنا إلى غرفة قد
انتشرت فيها الأشياء انتشاراً ، وجلست على كرسى من الخيزران ووضعت الأحذية
أمامى ، فرحت أقيسها حتى وجدت حذاء محبوكا على قدمى فقلت :

— الجزمة دى مضبوطة .

وهمت بأن أخلعها فأسرعوا إليّ وقالوا :

— والله ما انت قالعها .

— ح اقلعها وهاتوها معاكم .

— والله لانت مروح بيها .

وتحت إلحاحهم حملت حذاء المدرسة تحت إبطى وعدت إلى البيت وأنا أضرب في الطريق بحذاء الكرة . وجاء ميعاد ذهابى إلى غمرة فانطلقت إلى أرض المثلث



واشتركت مع فريق رفاق المدرسة ، وانتهت المباراة بأن فزنا بإصابتين أودعتهما مرمى الخصم .

وعقب المباراة التف زملائي والفريق كله حولي . حسبت في أول الأمر أنهم ما جاءوا إلا ليشكروني على ما أبليت في المباراة من مجهود حتى خرجنا منتصرين ، وإذا بي أفاجأ بصديق المدرسة يقول :

— الجزمة .

فتظرت إليه في دهش فعاد يقول :

— هات الجزمة .

— دلوقت ؟

— أيوه .

— طب مش لما ارواح البيت .

— لأ .

— طب تعالى معايا وخدها .

— لأ .. أنا عايزها دلوقت .

— وأروح حافى ؟

— ما ليش دعوة .

وضاقت الحلقة حولي كأنما قد هموا بأن ينزعوا الحذاء من قدمي بالقسوة ، فجلست وخلعته ودفعته إلى الزميل ، ورحت أعدو بالشراب من غمرة إلى البيت مخترقا الشوارع الجانبية ، يخيل إلي أن الدنيا كلها قد أصبحت عيوننا صوبت إلى شراي .

وكان درسا .



كان فريدون وخاله شيرازى يأتیان إلى السلامك ليخبرا أخوى أحمد وسعيد بآخر أنباء مجلة البهلوان ، ويعرضا عليهما بعض أفكار الكاريكاتور والمقالات ، وكان الجميع يعيشون على أمل أن رخصة المجلة ستصدر قريبا ، ولم يقلقهما أمر الطبع فقد كانت بضعة جنيهات كافية في ذلك الوقت لشراء الورق ودفع استحقاق المطبعة .

وراح أخى سعيد يكتب الأزجال استعدادا لنشرها في المجلة ، وكان سعيد

ينظم الأزجال في يسر ، فراح يكتب زجلا ، فلما انتهى منه تركه في السلامك . وذهب سعيد إلى المدرسة الثانوية التي التحق بها ، فلما عاد راح يبحث عن الزجل فلم يجد له أثرا . أين اختفى وهو واثق أنه تركه على المكتب الخشبي المتواضع القابع في ركن من أركان السلامك ؟

وفي الليل جاء أصدقاء أبى وجاء مع العم سيد الدخاخنى ضيف جديد . كان سمينا خفيف الظل راح يروى نوادره وهو لا يكف عن الضحك . وساد المجلس روح دعاية فإذا بالضحكات تتجاوب في السلامك . وقال العم سيد إن صديقه أحمد جبريل لا يعرف للدنيا هماً ، فقال جبريل وكرشه تهتز من الضحك اهتزازا :

— في الدنيا فيه بس ثلاثة مبسوطين : البواب والكلب الرومى وأحمد جبريل . وضحك جبريل ضحكة مجلجلة أشاعت المرح في المكان ، وجاء إلى السلامك

شيخ جاوز التسعين كان يعمل إمام الزاوية التى يخدمها العم إبراهيم الشرى . إنه اعتاد أن يأتى كل يوم سيرا على الأقدام من إمبابة إلى بيتنا فى الظاهر ، وقد غاب بالإمس فقال له العم إبراهيم :

— ما نجيتش ليه امبارح يا سيدنا ؟

فقال الشيخ فى بساطة :

— حسيت بحركة وأنا جاي فى نص السكة رجعت نمت مع الست ، ما اقدرتش آجى بعدها رقدت للصبح .

وانطلقت التعليقات من كل جانب ، حتى أبى ضحك وقلما كان يضحك ، فقد كان يكتفى بالابتسام .

وفقد المجلس وقاره التقليدى . كان الحاضرون يقرعون عادة « السيرة النبوية لابن هشام » أو « فتوح الشام » للواقدى ، أو فصلا فى كتاب « الأيام » للدكتور طه حسين ، أما فى ذلك اليوم فلم يكن الجو مهياً لمثل ذلك ، فأخرجوا كتاب أبى معشر الفلكى لقراءة الطالع ، وفى أول الكتاب مقدمة توضح كيف يحتسب الطالع ؛ فعلى من يراد معرفة طالعہ أن يذكر اسم أمه وأن يعطى كل حرف من حروف الاسم رقما وتضاف بعد الأرقام وتقسم على رقم معين ، فحاصل العملية يوضح رقم الطالع فى الكتاب .

وقال العم إبراهيم للشيخ إمام الزاوية :

— اسم امك يا شيخ ؟

وضحكت ، كنت أحسب أن الشيخ لن يذكر اسم أمه فقد كنت فى ذلك الوقت أعتقد أن اسم الأم عورة لا يجوز الكشف عنها — وتذكرت أن معاون مدرسة الجمالية قد قرأ اسم أمى وهو ينظر فى شهادة ميلادى فثرت وأردت أن أعبر عن ثورتى بأن أهجم عليه وأن أصفعه ، ولكنى كنت أهون من أن أفعل ذلك — وذكر الشيخ اسم أمه ، وأجريت العملية الحسابية وخطفت الكتاب لأقرأ طالعہ ، وأخذت أقرأ والرجل يهز رأسه موافقا حتى وصلت إلى جملة فلم أقرأها خجلا واحمر وجهى وألقيت بالكتاب ، فخطفه أخى أحمد وراح يقرأ حتى بلغ الجملة التى توقفت عنها فراح يقرأ :

(هذه حياتى)

— وعلى ذكره شامة .

وضحك أخى محمد ، وإذا بكل الحاضرين يضحكون وإذا بالشيخ يقول :

— حقا والله حقا .

فازداد الضحك وتناثرت التعليقات ، وراح جبريل يطلب أن يقرأ طالعه ويذكر

اسم أمه بطريقة ظريفة ويعلق على طالعه :

— عارفه قبل أبو معشر . كله ضحك وفرفشة ، الدنيا ضحكة .. ضحكة

وبس .

وكان من عادة أبى أن ينصرف فى الساعة العاشرة مساء وأن يستمر الضيوف إلى

أى وقت يشاعون فالسلامك لهم ، فأبى ينام مبكرا ليستيقظ فى الفجر للصلاة ،

ولكنه فى تلك الليلة نسى ميعاد دخوله إلى فراشه واستمر ساهرا حتى انصرف

الجميع .

ومرت أيام وإذا بأخى سعيد عند عودته من المدرسة يفاجأ بابن عمى بدر وهو يرفع

مجلة السيف فى يده ويلوح بها فى الهواء ، ويقول لسعيد فى فرح :

— تعال اقرأ .

ودفع بالمجلة التى كانت تطبع على ورق أصفر فى حجم الصحف إلى أخى ، فراح

سعيد يقرأ الزجل الذى تعب فى البحث عنه وقد وقع باسم بدر محمد ، ولم يغضب

سعيد ولم يثر ، كان متهللا لأن ما كتبه قد نشر .

كانت مجلة « السيف » و « الناس » مجلتين متنافستين ، وكانتا تهتمان بنشر النوادر

والنكت والأزجال والمقالات السياسية الفكاهية ، وكان الأستاذ محمود رمزى نظم

يكتب زجلا كل أسبوع فى مجلة السيف وقد دب خلاف بينه وبين رئاسة التحرير إن

كان لمجلة السيف رئاسة تحرير ، فكف عن الكتابة فيها وكان ذلك فرصة مواتية

لسعيد ، فإنه سرعان ما بعث إلى المجلة بزجل آخر ، فنشر الزجل تلو الزجل فى البريد

والمجلة تنشر أزجال الأستاذ الكبير ونحن ننطلق إلى العتبة الخضراء يوم صدور المجلة

لشرائها ورؤية الزجل مطبوعا بأحرف الطباعة ، فتمتلى نفوسنا زهوا وفخارا .

وفى ذات يوم رأى سعيد أن يذهب إلى إدارة المجلة بعد عودتنا من سينما إيديال ليسلم

الزجل بنفسه ، فانطلقنا إلى السينما الحبيبة ، وكان يحلو لنا أن نسمى نجوم السينما بأسماء عربية ، فأطلقنا على وليم هارت : « على الديان » وأطلقنا اسم « برعى » على ممثل كان يقوم بدور الشرير دائما ، وحدث أن عرضت سينما إيديال في ذلك اليوم رواية « لبرعى » كان يقوم فيها بدور « الشريف » الذى يطارد العصاة والخارجين على القانون ، فضجت السينما بتصفيق طويل استمر طوال عرض الفيلم ، وكنا فى نشوة وانفعال لأن « برعى » قد تاب وأناب وعرف طريق الاستقامة .

وذهبت أنا وسعيد بعد انتهاء حفلة الساعة الثالثة إلى دار مجلة « السيف » وقدمنا إلى رئيس التحرير الزجل ، فنظر الرجل إلى أخى سعيد وقال له :

— هو الأستاذ بعثك ؟

فقال سعيد فى زهو :

— أنا سعيد جوده السحار .

وأخذ الرجل الزجل من يد سعيد وهو ينظر إلى الصبى الذى فى السنة الثانية الثانوية فى استخفاف ، ولم يظهر بعدها أى زجل لسعيد فى مجلة « السيف » .

٣١

جاء إلى السلامك راغب النجار وهو عامل يهوى القراءة والأدب . كان يستعير بعض الروايات من أخوى ثم يقرأها فى نهم ولذة ، ثم يتحدث مع نزلاء السلامك الشبان عن جونسون وابن جونسون وفانتوماس وطرزان . وكنت أصغى إلى الأحاديث وأتمنى فى قرارة نفسى أن يأتى اليوم الذى أقرأ فيه بعض هذه القصص التى كانت تشتري بالآقة من مكاتب الأزهر ، فما كان للقصص قيمة فى تلك المكاتب .

جاء راغب ومعه عامل آخر يملك رخصة مجلة ، رخصة مجلة ؟! إنها الأمل المنشود . وراح أحمد وسعيد وفريدون يرحبون بذلك العامل ، ويصفون إلى أزجاله ، إنها أزجال جنسية يلعب فيها بالألفاظ ولم يكن أمامنا إلا الإعجاب به ، فهو صاحب رخصة مجلة « المدفع » .

ودار الحديث حول إصدار المجلة فتم الاتفاق على أن يقوم فريدون برسم صورة الغلاف والصور الكاريكاتيرية ، وأن يكتب سعيد وأحمد الأزجال وبعض المقالات ، وأن يترجم أحد الزملاء قصة . وكان كل دورى فى هذه المسرحية أن أصغى إلى مواد العدد الأول وهى تقرأ ، وأن أشاهد رسومات فريدون فى إعجاب ، وأن أحلم ببيعة الصحف وهم ينادون على مجلة « المدفع » .

و لم يستطع مشروع المجلة أن ينزعنا من لعب الكرة أو الذهاب إلى السينما ، فقد ظهر فى ذلك الوقت لشارلى شابلىن فيلم « الغلام » وكثر الحديث عنه فى الصحف والمجلات الفنية ، وعرفنا منها اسم الطفل « جاكى كوجان » قبل أن نشاهد الفيلم . وذهبنا لنشاهد أول فيلم طويل لشارلى شابلىن : إن أما تضطرها الظروف لترك وليدها فى الطريق لأنه ابن غير شرعى رفض أبوه أن يعترف به ، وجاء شارلى وهو أفاك من الأفاكين كما اعتاد أن يظهر فى كل أفلامه وعثر على الطفل فأخذه ورباه . ولما كبر الغلام عهد إليه بتكسير ألواح الزجاج ثم يأتى شارلى صانع الزجاج لإصلاحها . وفى آخر الفيلم تعثر الأم على ابنها وتأخذه من شارلى ، فرحت أبكى بكاء لم أبك مثله فى أعنف تراجيديا .

وخرجت من السينما وقد احتل الفيلم كل تفكيرى ، وتمنيت لو أننى ولدت فى أمريكالىتاح لى فرصة الظهور فى فيلم . ولم يؤثر الفيلم فى خيالاتى بل أثر فى تصرفاتى ، فرحت أحطم زجاج فوانيس الطريق وأعدو فى الشارع قبل أن يلمحنى العسكرى . وحدث ذات يوم أن ضبطنى العسكرى وأنا أحطم بحجر أحد فوانيس الحى ، ولحته وهو يدنو نحوى فجريت وجرى خلفى ، فدخلت فى حى البكرية وهو يجرى خلفى وأخذت أحاوره فى أزقتها . ولم ينقذنى إلا أننى اختبأت فوق سطح بيت إلى أن جاء الظلام ، وتسلفت إلى بيتنا ولم أغادره ثلاثة أيام .

وتوطدت صداقة بينى وبين أخى محمد فكان يأخذنى معه كلما خرج للنزهة يوم الجمعة . إنه كان يهوى الذهاب إلى حديقة الأزبكية وينطلق إلى كشك الموسيقى يصغى إلى فرقة موسيقى البوليس التى كانت تعزف هناك بقيادة الصياد . وقد توطدت صداقة متينة بينه وبين الصياد . وكانت الاجتماعات السياسية واجتماعات الطلبة تعقد

غالبا عند كشك الموسيقى وقد كان فرحى عظيما عندما ذهبت إلى هناك أول مرة فقد أحسست أننى ازور مكانا له خطره وله قدسيته فى تاريخ بلادى .

وكان أخى محمد يأخذنى كل يوم جمعة مساء فى الصيف إلى سينا حديقة الأزبكية ؛ كانت مناخذ حولها كراسى وكان ثمن التذكرة أربعة قروش . وكانت التذكرة تعطينا حق طلب من البوفيه قيمته قرشان ، فكنت أشتري سميط وبيض ثم أطلب جيلاتى ، وما كنت أدفع شيئا فقد كان محمد يتكفل بكل مصاريف ذلك اليوم .

وأنجب محمد بنتا وقد أشاع ذلك السرور فى بيتنا ، أبى أصبح جدا لأول مرة وصارت أمى جدة وصرت أنا وإخوتى أعماما . وكانت عمى زينب أكثر أسرتنا سرورا ، فهى لم تنجب فاتخذت بنت أختها زوجة أخى محمد بنتا لها ، وقد فرحت حقا لأن ابنتها الطفلة صارت أما .

كانت الأحاديث فى السلامك تدور بين أخوى أحمد وسعيد وأصدقائهما حول الروايات التى قرعوها وحول المجلة ، وكانت الأحاديث فى الليل بين أبى وصحبه تدور حول الكتب التى كانوا يقطعون الوقت بقراءتها والتعليق عليها . فاشتيت أن أشارك فى تلك الأحاديث . وشحد ذلك همى فعزمت على أن أقرأ كما يقرعون وأن أدلى برأى فيما يقولون ، فأقدمت متيها على قراءة « ماجدولين » للمنفلوطى ، ولكن ما إن قرأت بضع صفحات حتى أحسست سرورا يغمرنى ؛ إننى أستطيع أن أفهم ما أقرأ وأن أتأثر به وأنفعل له .

ومرت الساعات وأنا عاكف على الكتاب فنسيت كل ما حولى ، وعشت مع أبطال الرواية حتى أوشكت على نهايتها . ومس أذنى أصوات مهمة فذهبت إلى حيث كانت الأصوات منبعثة والكتاب فى يدى ، فرأيت ابنة أخى الصغيرة نائمة شاحبة اللون تلتقط أنفاسها فى جهد ، وأهل الدار حولها مطاطنى الرعوس فى حزن . ففطنت إلى أنها فى النزاع الأخير فانقبض صدرى ، وعلى الرغم من ذلك لم أستطع أن أترك ماجدولين وهى تجود بآخر أنفاسها فأسرعت إلى القراءة وسالت عبراتى ونسيت كل شىء إلا أن ماجدولين تموت . وذهبت ماجدولين فى الغابرين ، وانطلقت

الأصوات مفعوجة مولولة في الحجرة التي سجيت فيها ابنة أخى ، فخيل إلى أن
الصوات ما انطلق إلا لموت ماجدولين .

٣٢

ذكرت صحف ذلك اليوم أن الملك فؤاد سيفتح شارع الأمير فاروق ، فراح
حديث السهرة في السلامك في تلك الليلة يدور حول الملك فؤاد وكيف كان يعيش
قبل أن يصبح سلطانا على مصر في طرقات القاهرة ، والديون التي كانت عليه لبعض
أفراد الشعب العاديين . وقال إبراهيم الشرى معلقا :
— عايز الحق .. فؤاد ملك مرقع ، تربية شوارع .

وراح بعض الحاضرين يدافعون عن تولية فؤاد ، ويقولون لولا أن قبل فؤاد الحكم
لولي الإنجليز « أغا خان » ملكا على مصر . وجر الحديث بعضه بعضا والحديث ذو
شجون ، فإذا بالحاضرين يذكرون بعض النوادر عن إسماعيل وعن توفيق وعن
السلطان حسين ، وأمست الندوة منبرا سياسيا تتصارع فيه المذاهب والآراء . وإذا
ببعض الرجال يتحمسون للحزب الوطنى ومصطفى كامل ، وإذا بالحديث يتطرق إلى
ثورة ١٩ ومواقف سعد زغلول . وانعقدت مقارنات بين مواقف مصطفى كامل
ومواقف سعد ، ودار الحديث حول الخلافة . قال قائل إن القضاء على الخلافة وإزكاء
نار الوطنية في الشعوب إن هو إلا خدعة استعمارية لتمزيق وحدة العرب وإضعاف
المسلمين .

ورأى الحاضرون أن اتحاد الدول الأوروبية وقيامها في وجه محمد على وتخطيم
الأسطول المصرى في معركة تاكاريت هو دليل على خوف الدول الأوروبية من
انتفاضة إسلامية تعيد للإسلام مجده ، وتغرس في قلوب المسلمين العزة والكرامة ،
فيثورون على ما هم فيه من ذل الاستعمار والامتيازات الأجنبية .

وتحرك شيطان رجل من الحاضرين فراح يتحدث عن العلاقة التي كانت بين الملك
فؤاد والملكة نازلى ، وكيف أرغم فؤاد على الزواج من نازلى ، وكيف أخفى تاريخ

ميلاد فاروق. وضايق ذلك الحديث والذى فطلب أن نبدأ فى قراءة الأيام للدكتور طه حسين ، فراح أخى أحمد يقرأ والشيخ إبراهيم الشرى يعلق على ما كتب الدكتور طه ، فإذا ما حرك أحد فصول الرواية إعجابه راح يسب أبوى الدكتور وهو يهز رأسه فى نشوة ، وقد ظهر فى وجهه أنه قد بلغ قمة الانفعال .

وبدأت صلتى بالأدب فى السلامك على أيدى أناس بسطاء ، أبى وتاجر دخان وخادم فى زاوية ، وشيخ الزاوية المسن الذى كان يتناول بعض الموضوعات الدينية التى تزخر بها الكتب الصفراء المكدسة فى حى الأزهر .

وفى السلامك عرفت كيف تصدر المجلات الأدبية ، ففى كل يوم كان يجتمع أخواى أحمد وسعيد وصاحب رخصة مجلة « المدفع » وفريدون وبعض الأصدقاء لمراجعة مواد العدد الأول وتنسيقه والتحليق مع الأحلام .

وقد كدنا نظير من الفرح ذات يوم عندما جاء إلينا صاحب رخصة المجلة يزف إلينا نبأ عثوره على مطبعة فى حى الحسين اتفق معها على طبع المجلة لقاء جنيهاً لا تصل إلى العشرة ، ولا أدرى كيف حصل أخواى والزملاء على ذلك المبلغ الكبير . كل ما أذكره أن المبلغ قد جمع وأن جزءاً منه قد دفع إلى المطبعة قبل بداية الجمع والطبع ، وأن الجميع قد ذهبوا إلى موزع الصحف والمجلات فى العتبة الخضراء واتفقوا معه على توزيع المجلة .

وبينما كنا سعداء جاء نبأ وفاة الزعيم سعد زغلول فأحسنا حزناً يعتصر أفئدتنا . كنا نحب سعداً فرحنا نردد فى أسى بعض أقواله فى مناسبات وطنية :

— تقطع يدي ولا يقطع السودان عن مصر .

— وقالوا فيما يختص بالرياسة أقوالاً غريبة ، قالوا إنه لا يليق بكرامة الحكومة ألا يكون رئيسها رئيساً للمفاوضين .. باطل ما قالوا ! فالسيادة فى الأمة وهى تعطى لمن تشاء ، فللأمة وكيل أجمعت عليه رغم أنف كل معارض . ومن التواضع ألا أقول إني رئيس ولكن الأمة هتفت ولا تزال تهتف بأنى رئيسها . هل يخل بكرامة الحكومة أن رئيسها يكون مرعوساً لوكيل الأمة ؟!

— الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة .

ومرت حياة سعد زغلول فى لحظات بعد أن أصبحت ذكرى ، وراحت كل المجلات والصحف تنعى زعيم الأمة ، فكان على مجلتنا التى أوشكت على الظهور أن ترثى الزعيم الخالد ، فكلف أخى سعيد بكتابة الرثاء ، فتركناه وحده فى السلامك يعتصر قريحته ورحنا نقول مع القائلين :

— سعد باشا قبل ما يموت قال ما فيش فايده .

— سعد باشا قال وهو ييموت أنا انتهيت .

وكان حافظ إبراهيم شاعر النيل لا يفارق سعدا ، سافر معه إلى قريته « مسجد وصيف » وبقي إلى جواره حتى اللحظات الأخيرة ، وقد رثاه بقصيدة تقطر لوعة . وكان أحمد شوقي أمير الشعراء غائبا عن البلاد فلما عاد رثا نبى الوطنية ، وقاضى الصحف بتاريخ سعد ومواقفه وما قاله الزعماء عنه . إن غاندى قال إنه تعلم الوطنية من سعد ، وإن كل ثوار ذلك العهد قد تأثروا به . وكتبت الصحف فيما قاله سعد قبيل دخوله فى مفاوضات سنة ١٩٢٤ ، فقد أعلن مستر ماكدونالد رئيس الوزراء البريطانى أن المفاوضات ستجرى على أساس التحفظات الواردة فى تصريح ٢٨ فبراير ، فقال سعد فى مجلس النواب : إنى لست مرتبطا بما يقوله رئيس الوزارة الإنجليزية فى مجلس النواب البريطانى ، ولكنى مرتبط بالدعوة التى ترد إلى : فإذا كانت الدعوة مطلقة وكنت أرى أن أدخل المفاوضات طليقا من كل قيد دخلتها .

ونشرت الصحف خط سير الجنازة الرسمية ؛ إنها ستسير فى شارع محمد على فى طريقها إلى القلعة ، أى أنها ستمر أمام بيت غمكه فى شارع محمد على . فذهبت مع أبى وأمى وإخوتى إلى هناك لنشارك الشعب فى توديع الزعيم ، ارتدى النسوة السواد ، ووقف الرجال على جانبي الطريق وفى أيديهم المناديل يجففون الدموع . وانسابت أصوات موسيقى حزينة آتية من بعيد ، ودنت الجنازة : فرق الجيش الموسيقية تسير فى المقدمة ، ثم جثمان الزعيم على مدفع ومن خلفه كبار المشيعين ، ثم الأمة كلها تبكى وتنوح وأصوات مبحوحة ثكلى تهتف :

— إلى جنة الخلد يا سعد .. إلى جنة الخلد يا سعد .

وأجهشت النسوة بالبكاء وذرف الرجال الدموع ، وحاول كثير من الواقفين أن

يقتربوا من النعش الذى يحمل الزعيم ولكنهم لم يفلتوا من الحصار الذى ضربه البوليس على الواقفين على جانبي الطريق ، وبالجماهير الذين ملئوا الأفق لكأنما كان ذلك اليوم يوم النشور . ودار بخلدی سؤال : إذا مات زعيم ماتت الأمة ؟ إن الزعيم يؤثر في شعبه ولا ريب ، فمن شجاعته تستمد الشجاعة ، ومن تضحياته تتعلم التضحية ، ومن صموده تستمد الصمود ؛ ولكن لكل عصر دولة ورجال ، فما إن يموت زعيم حتى يقوم زعيم تحاول الدعاية والإعلام أن يوطداله أركان زعامته ، وتتسلل الحقيقة في بطنه شديد لتسفر عن حقيقة معدنه .

وكللت صحف الوفد بالسواد ، وراحت تنشر المقالات الطوال عن سعد ، وفي نفس الوقت تتكلم عن خليفة سعد ، واهتم الناس باجتماعات لجان الوفد المصرى ، وفي ذات صباح أعلن أن مصطفى باشا النحاس انتخب خليفة للزعيم الراحل . وعدنا لنهتم بأمورنا الخاصة ، كان شغلنا الشاغل ظهور العدد الأول من مجلة « المدفع » ، كان أخوای أحمد وسعيد وزملاؤهما يذهبون كل يوم إلى المطبعة في الحسين ويعودون فرحين ببعض البروفات لتصويبها . وبدى الطبع وطبع الغلاف فإذا بالأسى يظهر في كل الوجوه ، كان غلافا باهتا ضاعت معالمه ، لا يكاد يظهر منه إلا توقيع فريدون ورحنا نواسى أنفسنا . وسرعان ما عاد الحزن إلى قلوبنا الصغيرة فقد تأخر صدور العدد الأول عن مواعده ، وبعد جهود وانفعالات وعتاب ولوم وأمل ورجاء وخوف ظهر العدد الأول في الأسواق ، فانطلقت أنا وأخى سعيد إلى ميدان الظاهر واشترينا نسخة من هناك ورحنا نقلها فرحين ، ونسأل بائع الصحف عما باع منها فقال لنا :

— ده أول عدد بعته .

ولم نشأ أن نصدم أنفسنا فأرجعنا ذلك إلى أن البائع لا ينادى على المجلة ، وذهبنا إلى ميدان العتبة لنراقب توزيع العدد فلم نعثر للمجلة على أثر ، وعللنا ذلك باحتمال نفادها . أحلام أطفال !

وفي نهاية الأسبوع صفعتنا الحقيقة المؤلمة ، عادت المجلة إلى الموزع كما هي ولم تعط

النسخ التي بيعت بعض ما تحملنا من مصروفات .
ومات أمل طالما أسعدنا أوقانا .

٣٣

ظهرت نتيجة الابتدائية و كنت من الناجحين ، حصلت عليها بعد سبع سنوات بعد أن يئست من الموت الذي كنت أنتظره في كل ليلة . كنت لا أفتح كتابا خشية أن الموت قد ينزل بي في أية لحظة فيبدد ما بذلت من جهود . فلما أيقنت أن الحياة قد كتبت علينا وأنه لا بد من المكابدة بدأت في الاستذكار مع صلاح قنصوه الذي صار يلزمي كلما فتحت كتابا من الكتب ، وقد أتت التجربة ثمارها فكنا من المفلحين . وقررت أنا وصلاح أن نقدم أوراقنا لمدرسة فؤاد الأول الثانوية ، كانت المدرسة في أول الأمر في قصر الزعفران حيث جامعة عين شمس الآن وكان أخى سعيد قد التحق بها ، وقد ذهبت معه ذات يوم إليها لمشاهدة مباراة على أرضها بينها وبين المدرسة الخديوية . وكنت في ذلك الوقت من أحسن لاعبي الكرة في المدارس الابتدائية فإن مدربنا كان حارس مرمى مدرسة المعلمين الثانوية ، وكان يستعين بي لألعب قلب هجوم لمدرسته . وعلى الرغم من ذلك خيل إلى أن لاعبي الثانوى من طينة أخرى ومن مستوى يفوق مستوى لاعبي الابتدائي . فمن ذا الذي يخطر له على قلب أن تلاميذ ابتدائي مثل طلاب الثانوى ؟ فلم أفكر في أنه قد يأتي ذلك اليوم الذي ألعب فيه لهذه المدرسة العتيدة .

وقبل أن أحصل على الابتدائية انتقلت مدرسة فؤاد الأول الثانوية من قصر الزعفران إلى مبنى مدرسة الحسينية الابتدائية في العباسية ، فذهبت أنا وصلاح وقدمنا أوراقنا دون جهد أو تعب ، فقد كان الالتحاق بالمدارس في ذلك الوقت أمرا ميسورا . إن أهلنا كانوا يتركوننا في الشوارع فنجد أنفسنا في المدارس ، أما عندما أصبحنا أولياء أمور فقد كنا نترك أبناءنا في المدارس فنجدهم في الشوارع .

وتوثقت الصلة بيني وبين شارع فاروق وإن كانت الدولة لم تحتفل بافتتاحه رسميا ،

فقد قصر المسافة بينى وبين المدرسة وبينى وبين سينما إيديال . فكنت فى أثناء ذهابى إلى العتبة الخضراء أفضل أن أسير على قضبان الترام التى لم تمد بعد تجنباً للزلط والحجارة ، وكثيراً ما كنا نتسابق فوق تلك القضبان وكان ذلك مصدر سعادة لنا .

وكبرنا وتغيرت نظرنا للحياة ، فبعد أن كنا نقيس نجاح الفيلم بعدد اللكمات ومقالب الحرامية ، أصبحنا نقيس نجاح الفيلم بالمواقف العاطفية وطول القبله . إن شيئاً ماى يتحرك بين جوانحنا ، وبدأت تطورات نفسية وعضوية تظهر على تصرفاتنا ، وفى ذات يوم بينما كنت أسير أنا وصبى من أصدقائى فى مثل سنى راح كل منا يتحسس الحمصة التى فى مقدمة أنفه ليتأكد من أنها قد انفلقت ، وكان انفلاقها دليلاً على أننا قد وصلنا إلى سن البلوغ . ولم يكتف كل منا بأن يتحسس حمصة أنفه بل راح كل منا يتحسس حمصة أنف زميله ، وقد لاحظ ذلك بعض الجالسين على مقهى « وطنى » فضجوا بالضحك ، فإذا بالخجل يملكنا ونوسع من خطانا .

وظهر فى ذلك الوقت رودولف فالتينو ساحر النساء فأصبح من أحب النجوم إلى قلوبنا ، واستولى على كل مشاعرنا بروايتى الشيخ وابن الشيخ ودماء ورمال . وكانت الروايات التى يرتدى فيها الزى العربى أكثر تأثيراً فى شباب ذلك العصر ، حتى إن كمال سليم قد أطلق سوائفه ولبس ملابس الشيخ وصور فى صورة تحاكى رودولف فالتينو ، ووضعت الصورة أمام محل المصور فى إطار فى عرض الطريق بالقرب من سينما أولمبيا ، فكنا نقف عندها طويلاً نقارن بين كمال سليم وبين فالتينو ونحن نغطه على ما هو فيه من نعمة كبرى ، نعمة أن تكون له مثل هذه الصورة فى مثل ذلك الشارع ، شارع عبد العزيز .

ورحت أحلق ذقنى قبل الأوان لتطول سوائفى ، وقد استطالت فعلاً وسعدت بأن أصبحت كسوائف رودولف فالتينو ، وقد سجلت ذلك فى أكثر من صورة غير أننى كنت أرتدى ملابسى العادية .

وأصبحت طالبا فى الثانوى فصار على أن أقرأ جزءاً مما يقرعون فى السلامك بالليل ، فبدأت بالنسبة لى تجربة جديدة . ولما كلفت بقراءة بعض صفحات من كتاب « فتوح الشام » للواقدى أحسست أننى أصبحت شيئاً فى ذلك الجمع الذى يضم

كثيرا من الشيوخ والرجال .

كان الواقدي يروى حوادث التاريخ في أسلوب قصصى شائق ، وكان يهتم بالتفاصيل المثيرة التى تستولى على القارئ . وإن أنس لا أنسى سرده العجيب لوقوع ضرار بن الأزور في أسر الروم ، وكيف ارتدت أخته خولة بنت الأزور ملابس الفرسان وهجمت هى ومن معها على الروم هجوما عنيفا . كانت الفارس الصندي الذى لا يشق له غبار . وقد هزنى السرور وأنا أقرأ كيف احتالت حتى خلصت أخاها من الأسر . وأعتقد أن فى تاريخ الواقدي — سواء أطابق التاريخ أم كان من نسج الخيال — مادة رائعة تصلح أساسا للباحثين عن الفروسية وروايات المخاطرات ، وللواقدي الفضل الأول فى تعلقى بالتاريخ وحبى إياه .

وأحيانا كنت أصغى إلى من يقرأ فى السيرة النبوية لابن هشام أو أقرأ للحاضرين بعض فصولها . وابن هشام قد أخذ عن ابن إسحاق ولم يهتم أحد منهما بأن يسرد أحداث السيرة حسب زمان وقوعها ، فكنت أجد مشقة فى قراءة العنعنات وفى التتبع الزمنى للأحداث ، وتمنيت لو أن أحدا كتب السيرة بأسلوب قصصى حسب وقوع أحداثها . ترى هل بذرت فكرة كتابة السيرة فى نفسى منذ ذلك الوقت ؟ أعتقد أن ذلك كان يفوق أحلامي المتواضعة ، فقد كانت أقصى أمانى أن أكون لاعب كرة فى مدرستى .

وجاء يوم الافتتاح الرسمى لشارع فاروق وكان الملك فؤاد سيقوم بالافتتاح ، فاصطف الجند منذ الصباح الباكر على جانبى الطريق ، واجتمع الناس خلف الجند وتراصت الكتل البشرية من ميدان الحسينية حتى ميدان العتبة ، ومنع الناس من أن يعبروا من أحد جوانب الشارع إلى الجانب الآخر .

وكانت العداوة مشتعلة فى ذلك الوقت بين الوفد والسراى ، وكان منزل عبد الحميد البنان نائب الجمالية الوفدى يقع بالشارع الجديد بالقرب من ميدان الحسينية على بعد أمتار من بداية الشارع الذى سيفتحه الملك بعد قليل .

وفى غفلة من الجند تسلل رجل يحمل كلبا من منزل البنان وراح يدفع الجموع المحتشدة بمنكبيه حتى وصل إلى حيث اصطف الجند للمحافظة على النظام . وألقى

بالكلب فى عرض الطريق فراح الكلب يعدو لا يجد له منفذا ، واستمر فى عدوه فى الشارع حتى بلغ ميدان العتبة وقد استقبله الناس بعاصفة من التصفيق والتهنئات والقهقهات العالية . ولم يحاول أحد من الجند أن يعترض طريق الكلب فقد أخذتهم جميعا المفاجأة وشلتهم عن الحركة أو التفكير .

وجاء ركب الملك فؤاد يتهاذى وقد جلس إلى جواره الأمير فاروق ، فارتفعت صيحات الشعب بالهتاف للأمير ، فالقلوب البريئة مهما كانت جريحة تنسى كل شيء أمام الطفولة الرقيقة ، واستقبل الملك فؤاد الأول بمثل الحماس الذى استقبل به الكلب .



كان صلاح قنصوه يأتى إلى بيتنا يوما وأذهب إلى بيته يوما لنذاكر معا ، وكان بيت صلاح فى شارع الملكة نازلى — شارع رمسيس الآن — بالقرب من شارع التوفيقية . وما كنا نبدأ فى الاستذكار قبل أن يغادر أخوه محمود البيت ، فمحمود موظف فى الدرجة السابعة ينام بعد عودته من الديوان حتى الغروب ، ثم ينهض ويأخذ فى ارتداء قميصه الحريرى ذى الزراير الذهبية ، ويربط رباط عنقه المستورد من باريس ، ثم يدس رجله فى بنطلونه الكحلى وهو يحدثنا فى موضوعات الساعة . وسرعان ما يخطف الجاكتة من فوق الشماعة وهو مستمر فى حديثه ، كانت بذلة والحق يقال من أفخر الأقمشة الإنجليزية ، فهو موظف قادر على أن يدفع خمسين قرشا كل شهر لأحسن التريزة فى مصر سدادا لثمن القماش والتفصيل .

وكان محمود يلقي علينا التحية قبل أن يخرج ليحضى سهرته على قهوة الفن بشارع عماد الدين ، القهوة التى يؤمها كبار الفنانين فى ذلك العهد ، فكنا نرمقه وهو ينصرف فى إعجاب وإكبار ، ونتعجل الزمن لنصبح مثله فى الدرجة السابعة لنتردى فاخر الثياب مثل ما يرتدى ، ونزين أصابعنا بخواتم كتلك التى تزين أصابعه ، ويكون لنا حق السهر حيث يجلس الفنانون والأدباء .

وكان أخى محمد يكلفنى بأن أشتري تذاكر فرقة رمسيس أو فرقة فاطمة رشدى أو الريحاني أو على الكسار ما دمت قريبا من شارع عماد الدين ، فما كان يمر أسبوع دون أن نذهب معا إلى مسرح من مسارح القاهرة . وكان مجرد ذهابى إلى شارع عماد الدين يملؤنى غبطة ، فرؤيتى للريحاني فى القهوة أو لفاطمة رشدى — صديقة الطلبة — وهى جالسة أمام مسرحها وإلى جوارها إيلي الدرعى الرجل اليهودى المسن تاجر الأقطان الذى كان من شدة إعجابه بالفنانة يمول فرقتها المسرحية ، كانت تعتبر حدثا فى حياتى . فما أكاد أعود إلى البيت حتى أتحدث عن حسين رياض وأحمد علام وهما

يهرولان في شارع عماد الدين حتى لا يتأخرا عن البروفات ، وعمما التقطته أذنای من حديث فاطمة رشدى لهما الذى يقطر سخرية ومرارة لتأخرهما خمس دقائق عن موعدهما .

وفي يوم الجمعة ذهبنا إلى مسرح رمسيس . كان للمسرح تقاليده ؛ الستار يرفع في مواعده ، وكنا نجلس صامتين كأنما كنا في معبد . ورفع الستار عن رواية الذبائح لأنطون يزيك ، كان أخى سعيد قد قرأ الرواية في السلامك ، ولم يكتف بالقراءة بل قام بتمثيلها . وكنت قد قرأت ما كتب عنها من نقد في مجلة المسرح ، إنها مجموعة من الفواجع التى تهز رواد مسرح رمسيس من الأعماق ، كان يوسف وهبى يهدر فوق المسرح ، وفتوح نشاطى يندمج في دوره الدرامى العنيف ، وأمينه رزق تولول ، ودموع المشاهدين تنسكب من العيون . والتفت إلى الجالس إلى جوارى فإذا به شيخ كبير حفر الزمن في وجهه أنحاديده ، والدموع تجرى من عينيه في الأخاديد حتى إذا بلغت ذقنه راحت تتساقط على الأرض كأنما صنبور قد فتح لينقط نقطة نقطة ، فما تمالكت أن ضحككت فإذا بالشيخ يلكرنى بكوعه في جنبى ويقول لى فى همس غاضب :

— إذا كان ما عندكش شعور إيه اللى جابك ؟

واضططرت أن أكتم الضحك فما كانت فواجع مسرح رمسيس تهزنى ، كنت أعشق أن أرى يوسف وهبى في أدواره الكوميديية وقد كان يتألق هو ومختار عثمان في المواقف الضاحكة ، وإن أنس لا أنسى لهما مسرحية « شارع عماد الدين » فقد ضحككت فيها ضحكا مرحا طليقا كذلك الضحك الذى كنت أضحككه كلما شاهدت فيلما لملوك الفكاهة في سينما إيديال .

وفي يوم من أيام الجمعة التى أصبح لى فيها حق السهر ، ذهبت مع إخوتى إلى مسرح برينتانيا لنشاهد فاطمة رشدى وأحمد علام في مسرحية مجنون ليلى لأمير الشعراء أحمد شوقى ومن إخراج المخرج العبقرى عزيز عيد . كان المسرح لا موضع فيه القدم ، وكان فى الصالة وفى أعلى المسرح كثير من أولاد البلد . ورفعت الستار فساد القاعة سكون عجيب ، وانساب الشعر من بين شفاه فاطمة رشدى وأحمد علام ليعبث بأوتار

القلوب ، فإذا بالانفعال يبلغ قمته فتدوى القاعة بالتصفيق ، وتنطلق من الحناجر صيحات :

— أعد .. أعد .

لكأنما كان المشاهدون ينصتون إلى لحن جميل . وانتهت المسرحية وخرجنا ونحن نكاد نترنخ من فرط النشوة ، وأذكر والأسى يحز في نفسي أنني شاهدت المسرحية بعد ذلك بسنين طويلة في دار الأوبرا ، مع طلبة من الجامعة ، فإذا بالقاعة تتجاوب بالتعليقات السخيفة وضحكات السخرية ، فلم يتذوقوا المسرحية . صارت الفصحى غريبة على آذانهم لبعد الشقة بينهم وبين لغتهم الجميلة .

وراحت الصحف والمجلات الفنية تتحدث عن اتفاق بين وداد عرقي وعزيزة أمير على إنتاج أول فيلم مصرى فتلقينا الخبر بين مكذبين ومصدقين ، فقد كنا نحسب أن نجوم السينما من طينة غير طينة أمثالنا من المصريين . ولم يكن اسم وداد عرقي جديدا علينا فقد قدمت له فرقة رمسيس مسرحية ، وأخذنا نتبع أخبار المشروع في شوق ولهفة ، وسرعان ما أحسنا خيبة الأمل لما حملت إلينا الصحف أن خلافا قد دب بين وداد عرقي وعزيزة أمير ، وأن العمل قد توقف في فيلم « ليلي » أول فيلم مصرى . وكان وقع النبأ ألما فقد كنا في شوق إلى أن نرى على الشاشة الفضية أبطالاً مصريين مثل مارلين ديتريتش وجون باريمور وجريتا جاربو والعزيزة بيللى دوف ، وكنت وأنا في سن المراهقة من أشد المعجبين بها ، ومن حسن حظي أن أفلامها جميعا كانت تعرض في سينما إيديال وأنها كانت وفيه لصداقتي فلم تسمح بعرض أفلامها في أية دار أخرى من الدور لمنافسة لداري المفضلة .

وعادت الصحف وحملت إلينا بشرى أن العمل في فيلم « ليلي » قد استؤنف ، وأن الصحفى أحمد جلال سيقوم ببطولة الفيلم وإتمام إخراجه .

وأعلن عن قرب عرض الفيلم بسينما متربول وكانت خلف شيكوريل ، فأعطاني أخى محمد نقودا لأشتري تذاكر فكانت فرحتي لا تقدر . وقد وقفت في الصف الطويل أمام شباك التذاكر ساعات دون أن أتبرم ، ومن أين يأتينى التبرم أو الملل وأنا أزحف نحو الشباك لتحقيق حلم كبير ؟

وجاء اليوم المرتقب وتجمع الناس أمام دار العرض ، ودخلنا فرحين مستبشرين إلى الصلاة . وبدأ العرض وقلوبنا ترقص من الفرحة ، وكل لقطة تهزنا . وأخذنا جميعا نصيح مأخوذين كلما ظهر شيء فيه الطابع المصرى : قلة .. طبلية .. ملوخية .. طربوش .

وخرجنا من قاعة العرض نكاد نظير من الفرح ، لم يفكر واحد منا أن ينقد الفيلم بل كنا نلتمس للأخطاء المعاذير ، وكنا فى غاية البشر لأننا شهدنا مولد صناعة السينما فى مصر .

٣٥

كانت الوزارات فى مصر أشبه بلعبة الكراسى الموسيقية ، فمنذ أن ولدت إلى أن أصبحت طالبا فى السنة الأولى بمدرسة فؤاد الأول الثانوية لم تتغير وجوه اللاعبين كثيرا : صاحب العطوفة حسين رشدى باشا ، صاحب الدولة محمد سعيد باشا ، صاحب الدولة يوسف وهبة باشا ، صاحب الدولة محمد توفيق نسيم باشا ، صاحب الدولة يحيى إبراهيم باشا ، صاحب الدولة سعد زغلول باشا ، صاحب الدولة أحمد زيور باشا ، صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا . وما كنت أهتم كثيرا بالسياسة فقد كنت أرى أن الكلمة فى بلادى ليست لعظمة السلطان أو جلالة الملك بل هى لمندوب بريطانيا ، سواء أكان الفيلد مارشال ألنبي القائد العام لقوات جلالة الملك فى القطر المصرى أو المندوب السامى البريطانى ، إننا نحكم من قصر الدوبارة مقر السلطة البريطانية وما قصر عابدين إلا لإيهامنا أن أمورنا بأيدينا وأنا نحكم أنفسنا بأنفسنا . واجتاحت البلاد موجة من الفرح ، فالنحاس باشا رئيس الوفد وزعيم الأمة قد ألف وزارة ائتلافية . وقامت مظاهرات الابتهاج فى المدارس ، وصار هذا الحدث حديث كل الصحف والبيوت . وفى السلامك دار حديث سياسى ، راح العم إبراهيم الشرى يتحدث عن بطرس غالى باشا وعن تأليفه للنظارة فى عهد عباس حلمى ، وتشعب الحديث والحديث ذو شجون فدار حوار حول كيفية مقتل بطرس غالى وكيف قتله (هذه حياتى)

الورداني ، واختلف الحاضرون في الدوافع لمقتله ، وقد أثار كل ذلك تعيين واصف بطرس غالى باشا وزيرا للخارجية .

وتحدث البعض عن تعيين سعد زغلول باشا لنظارة المعارف العمومية في وزارة بطرس باشا ، وكيف أمر سعد باشا أن تنقل لافتة الوزير من مكانها إلى حيث وضعت لافتة دانلوب المستشار الإنجليزي لنظارة المعارف المصرية لما وجد الوزير أن مكتب المستشار البريطاني أفخم من مكتب الوزير . ودار الحديث حول ما كان بين سعد باشا وبين دانلوب من خلافات ، وكيف نجح سعد باشا في جعل التعليم باللغة العربية بعد أن كان باللغة الإنجليزية .

كل ما تذكرته في ذلك الوقت عن سعد باشا أنه عندما تولى رئاسة الحكومة قرر أن يقام ملحق لكل من رسبوا في الملحق لانشغال الطلبة بالقضية الوطنية في أثناء إجراء الملحق الأول ، وقد رسبت كما كان منتظرا في ملحق الملحق ، فماذا ينتظر من طفل لا يستذكر دروسه انتظارا للموت في كل ليلة ؟!

وتذكرت يوم أطلق الرصاص على سعد ، وقد ذاع في حيننا أن رجلا أرمنيا هو الذى أطلق عليه الرصاص فراح الغوغاء يهاجمون الأرمن في منازلهم . واتجهوا إلى بيت قريب من بيتنا كانت أسرة أرمنية تسكن فيه ، فغاص قلبى في ذلك اليوم خوفا وإشفاقا على خاتشو ، فقد كان خاتشو حارس مرمى فريق حيننا ، وقبل أن يصل الثائرون إلى الأسرة الأرمنية ويلقوا برجالها وأطفالها ونسائها من الشرفات جاء من يؤكد أن مصريا مجنونا هو الذى أطلق الرصاص على زعيم الأمة ، ونجا خاتشو من الموت كما ينجو منه أبطال الأفلام في آخر لحظة .

وتذكرت ما قرأته عن المنفلوطى عندما أصبح المنفلوطى من الكتاب الذين ألهم كتبهم التهاما . إن المنفلوطى مات في ذلك اليوم ، وقد كان المشيعون لجنازته يعدون على الأصابع ، وقد اعتذر أمير الشعراء أحمد شوقي عن ذلك النكران بأن المنفلوطى مات في يوم الهول الأكبر .

واشتدت المناقشات في السلامك وأنا أصغى داعم العين ، فدخات السجائر تكاثف في المكان حتى ملأ الأعين والأنوف . إنى أكره رائحة الدخان منذ ذلك اليوم

الذى اشتريت فيه علبة سجائر بعشرة مليمات واختفيت خلف كشك العم داود وكان وراء بيتنا القديم وأمام الشقة التى كانت تدار للدعارة ، وحاولت أن أدخن كل ما فى العلبة ، عشر سجائر مرة واحدة ، فإذا بالدموع تنهمر من عيني وأستشعر اختناقاً بعد السجارة الرابعة ، فلقى بالعلبة وما بقى فيها وقد عزمت على أن لا أعود إلى السجائر أبداً .

فكرت فى أن أفر من المكان ولكن النقاش كان لذيذاً ، فقامت أفتح النافذة ولم يعترض أحد . كنا فى شهر مارس وبرودة ذلك الشهر أهون من عذاب الدخان المتكاثف ، وراح سائل يسأل : هل يمكن أن يدوم ائتلاف بين الوفد والأحرار الدستوريين ؟ وقال آخر : لماذا لم يشترك الحزب الوطنى فى الوزارة ، وقيل : إن سياسة الحزب الوطنى أن لا مفاوضة إلا بعد الجلاء . وسأل سائل : ما الفرق بين سياسة الوفد وسياسة الأحرار الدستوريين ؟ وقيل كلام كثير لم أرتح إليه . قيل إن الوفد يطالب بحقوق البلاد وفى الجلاء والاستقلال التام ، وإن سياسة الأحرار أن ما لا يؤخذ كله لا يترك كله . وطال الحديث عن دور الأمير عمر طوسون فى تأليف الوفد المصرى ، وأن هناك كراهية شديدة بين الملك فؤاد والأمير .

وراح الحاضرون يحللون حكمة اختيار كل وزير لوزارته لكأنما كانت هناك حكمة حقيقية من تأليف وزارة ائتلافية لن يطول بها العمر أشهراً . وكنت فى قرارة نفسى أستشعر أن تغيير الوزارات هى لعبة الحكام لشغل رأى العام عن أهدافهم الحقيقية . وعلق على اختيار مكرم عبيد أفندى وزيرا للمواصلات طويلاً ، فهذه كانت أول مرة يشترك فيها مكرم عبيد فى الوزارة . راحوا يتحدثون عن لباقة وعن براعته وقدرته الخطابية وعن أشهر مواقفه فى المحاماة ، ودار رأسى فانسملت من السلامك قبل أن ينفض الاجتماع الخطير ، وأنا أعجب فى نفسى من أن إنجلترا تكاد تحكم العالم ، وأن إمبراطوريتها لا تغرب عنها الشمس . كنت فى دهش من أمر زعماء المستعمرات جميعاً ، لماذا يحارب كل زعيم الإمبراطورية العاتية وحده ؟ لماذا لا يجتمع زعماء مصر والهند والمستعمرات وأن يقرروا الثورة على الأسد البريطانى فى يوم واحد ؟ أن يعلن العصيان المدنى فى كل ممتلكات التاج البريطانى فى وقت واحد ، وأن يستمر حتى يجلو

الإنجليز عن مستعمراتهم ويعودوا إلى أوطانهم في الجزر البريطانية ؟
كنت أعتقد أن الأمر سهل ، وقد كنت بريئا في ذلك العهد ساذجا في تفكيري ،
فلم أعمل حسابا للمطامع والأهواء ومكر الاستعمار وأساليبه في خداع الشعوب
وقمعها وتغذية المطامع الرخيصة .

٣٦

كان معظم سكان حيننا من اليهود ، وقد كنا ونحن أطفال لا نبتعد كثيرا عن بيوتنا
لأن أهلنا قد غرسوا في روعنا أن فطير الفصح الذي يتناوله اليهود في عيد الفصح لا
يكون فطيرا شرعيا إلا إذا عجن بدم مسلم ، فكنا إذا سرنا في شارع هادئ بعيدا عن
العمران قبيل الفصح نستشعر خوفا ورهبة خشية أن نختطف ونذبح ، وكنا إذا غبنا عن
دورنا بعد الغروب ترسل أمهاتنا من يبحث عنا ويعود بنا سالمين .

وكان لليهود أعياد كثيرة : عيد الفصح ، وعيد الضليلة وهو عيد المظلة . وكانت
الشرفات تقام فيها مظلات من الجريد وسعف النخل ، وقد ورثوه عن عيد كان يقام
في الربيع فيه تشد المظلات في الخلاء ، ويخرج فيه الشباب لاختيار شريكات حياتهم
من الفتيات اللاتي كن يتزين ويرزن فتنتهن لهذه المناسبة ، وعيد المسخرة وهو عيد
الكرنفال ، وفيه يتجاوز الهزر كل حد وتمارس فيه الفتيات حريتهن ، وكان عيد
نشارك فيه مرحبين فيلقون علينا الماء من النوافذ ونلقى عليهم الماء من النوافذ ، وكل
يضحك في سرور . إنه عيد الغانية إستير التي ضارت في التوراة القديسة إستير لأن
كسرى أخشوريوش كان قد أمر بقتل كل اليهود في مملكته ، وقد استطاعت إستير
بمعاونة عمها مردخاي أن تفتن كسرى وأن تتزوجه وأن تصدر عفوا عن كل اليهود
الذين كانوا في إمبراطورية فارس من إيران إلى مصر .

كان لي أصدقاء من اليهود من الجنسين ، فقد كنت ألعب مع الولدان والبنات على
السواء في وقت كان الناس ينظرون شزرا إلى أية محادثة بين ولد و بنت في الطريق . وبعد
أن انتقلنا إلى بيتنا الجديد توطدت صداقة بيني وبين أسرة يهودية كانت تسكن في الشقة

الأرضية المواجهة لباب السلامك . كانوا أباء وأماو ثلاث بنات . وكان ألبير كلما رآني جالسا في الحر أمام بيتنا يهبط ليجلس معي يحادثني ويقص علي مغامراته ليكتسب عيشه ، فقد كان على الجميع أن يعملوا . وكان فخورا بأخته فرتينية فهي تعمل في شيكوريل وتتقاضى ثلاثة جنيهات في الشهر ، وكان ذلك مبلغا كبيرا يسيل لعاب الكادحين من اليهود .

كانت فرتينية تصادق صديقا يرافقها في العودة كل يوم ليدفع لها ثمن تذكرة الترام ، وتخصص آخر لينفق عليها يوم الأحد يوم عطلتها . وقد رآها كل الصبيان الذين كانوا يجلسون معي ومع ألبير وهي في صحبة صديقها المسلم . وقد ضايقنا أن أخت صديقنا تصاحب شابا أسمر ، فاجتمعنا ذات يوم نناقش ذلك الأمر الخطير ، فكيف تنحرف أخت صديقنا دون أن نحذره . واستقر رأينا على أن من الواجب أن نخبره . ولكن من ذا الذي يجرؤ على أن يفجأه بذلك النبأ العظيم ، وفي موجة من الحماس قلت :
— أنا .

وجاء ألبير وجلس معنا ، فنظر إلي الأصدقاء نظرات تحد كأنما كانوا يقولون لي :
— قول .. قول إن كنت شجاع .

فقلت وقد اخمر وجهي وكاد صوتي أن يذوب في حلقي قبل أن يخرج واهيا من بين شفتي :

— ألبير .. فورتينية ماشية مع واحد مسلم .

وانتظرت ثورته ، وكم كانت دهشتي عندما قال في هدوء :

— سييها ، بكره .. وتأخذ فلوسه .

وصفعتني الكلمة التي آذت أذني ، قاتها في بساطة لكأنما أخته ستأتي أمرا مشروعا تستحق عليه أجرا . إنها كلمة لا تقال وما خطر لنا على قلب أن نسمعها ، فساد الصمت بيننا إلى أن قطعه ألبير بحديثه المستفيض عن كفاحه وآماله وأمله في أن يتزوج فتاة غنية تدفع له « دوته » تمكنه من أن يفتح دكانا يستقر فيه ، عوضا عن تجواله في شوارع القاهرة من طلوع الشمس حتى غروبها ينادي على ما يحمل من إبر وابور الجاز وحبل الغسيل ومشابك الغسيل .

و كنت أقضى ساعة الغروب قبل أن تدب الحياة فى السلامك عندهم ألعاب الطاولة مع الأب . وكثيرا ما كان الأولاد يجتمعون حولنا ليشاهدوا المباراة التى كانت تشتد أحيانا حتى تخرج الأب عن وقاره فيسب دين الزهر والأولاد يضحكون فى مرح وكان ألبير ينتهر هذه الفرصة وينسل إلى بيتنا ويقول لأمى إننى عندهم وأنى أطلب زجاجة زهر ، فتعطيه أمى زجاجة من الزهر الذى كانت تقطره فى البيت .

و كنت أعجب من أين يعرف ألبير أن أمى تقطر زهرا وما أخبرت أحدا بذلك ؟ كان ألبير يسمع فى الصباح أثناء خروجه للتجوال فى شوارع القاهرة الخادم وهى تنادى على بائع الزهر ، وكان ينتظر حتى تتم الصفقة وقد يشارك فيها فكان يفطن إلى أن موعد تقطير الزهر قد آن ، فكان ينتظر يوما أو يومين ثم يذهب إلى بيتنا يطلب زجاجات الزهر باسمى .

وجاء موعد صيامهم . إنهم يصومون من غروب الشمس إلى غروب شمس اليوم التالى دون أن يتناولوا شيئا . وانقضى الليل وكاد النهار أن ينتصف و كنت جالسا عند الباب الحديدى ، وإذا بالشرفة الأرضية تفتح وتظهر فيها فورتينيه . فلما رأتنى حيتنى وطلبت منى أن أنتظرها .

ونزلت فورتينيه وجاءت إلى بخطوات ثابتة وقالت لى :

— تعال معايا .

— على فىن ؟

— أسلى صيامى .

وسارت وسرت إلى جوارها حتى بلغنا ميدان الظاهر ، ثم أنطلقنا إلى شارع إدريس راغب وطلبت منى أن أدخل معها أحد البيوت لتزور إحدى صويحباتها . ودخلنا وصافحتنا الصديقة مرحبة ولم يبد عليها أية دهشة لكأنما كان شيئا عاديا أن يأتى لزيارتها شاب وشابة . إننى كنت فى الخامسة عشرة وكانت هى تزعم أنها فى السابعة عشرة ، وانسلت الصديقة من الغرفة وتركتنا وحدنا .

ولفت فورتينيه ذراعها حولى وراحت تقبلنى وأنا فى حيرة من أمرى ، أهذا فعل فتاة صائمه ؟ ألا يطل ما تفعله صيامها ؟ ولم أفرح كثيرا بما كانت تفعله . ضايقتنى

أننى أصبحت أداة لتسليتها ، مجرد أداة تسلية .
وبلبل أفكارى حديث ألبير عن الجنس وتعبيره الهادئ عن الفعل الفاضح . وظل ما فعلته فورتييه فى ذلك اليوم يحيرنى ، ولم أفطن إلى تعليل تصرفاتهم إلا بعد أن كبرت وقرأت توراتهم وتلمودهم ، إن الزنا لا يعتبر زنا عندهم إلا إذا كان بين يهودى ويهودية ، وكذلك القتل والسرقة . فالزنا مع غير اليهود لا يعتبر زنا ، وسرقة غير اليهودى حلال ، وقتل غير اليهودى حلال ، وتناول الربا من غير اليهودى حلال ، لأنهم هم وحدهم الناس ، شعب الله المختار ومن عداهم أمم ، كلاب البشرية .

٣٧

كان أخى سعيد قد رسب فى السنة الثالثة الثانوية فكان يرى ألا يعيد السنة وأن يلتحق بأية مدرسة أهلية فى السنة الرابعة ليتقدم منها إلى امتحان البكالوريا ، ولكن ذلك لم يصادف هوى فى نفس أبى فراح يقنعه بأن يقبل الأمر الواقع وأن يعيد السنة فى مدرسته ، وقبل سعيد ذلك على مضض .

ورحنا نذاكر دروسنا ، وفى أيام الخميس من كل أسبوع كنا نذهب لتبارى مع فريق من فرق الكرة المنتشرة فى الأحياء المجاورة . وما من أرض للعب الكرة فى القاهرة إلا وقد تشرفت بنا ، لعبنا فى أرض مولد النبى وكانت ساحة فسيحة مكان كلية هندسة عين شمس الآن ، ولعبنا بأرض مولد النبى بالنظارة وهى الأرض المجاورة لجامعة عين شمس — قصر الزعفران — وأطلق عليها أرض النظارة لأنها كانت أرضا فضاء بها برج خشبى تابع للجيش يرصد منه بعض الجنود الأفق لإطلاق مدفع الظهر أو لإطلاق المدافع فى المناسبات الأخرى ، ولعبنا بأرض العيون وكانت بشارع أحمد سعيد بالعباسية بالقرب من عيون الماء التى تغذى القاهرة ، ولعبنا كثيرا بأرض سيدى جلال وكانت أرضا منخفضة بقايتباى كنا ننحدر إليها من فوق تلال أشبه بتلال الدراسة ، وكنا فى أثناء عودتنا بعد اللعب نجد جماجم وعظاما فكان كل منا يلتقط عظم ذراع أو عظم ساق ثم نأخذ فى المباراة ونحن نقفز من هنا وهناك لكأنما كل منا

قد صار فارسا من فرسان العصور الوسطى قد امتشق سيفه . ولماذا لا نفعل وقد رأينا
فيلم الفرسان الثلاثة وكل منا يريد أن يكون درتنيان !

و كنا ننساب بين القابر بعد غروب الشمس ونحن نغنى :

أهو جالك المحضر يا واكل الحق استحضر

للحجز والنيلة والـ بلا لزرق والبلا لحر

وكثيرا ما كنا نغنى ونحن ننقر على جمجمة أو نحاول أن نحصل على نغم من قرع
عظام الموتى ، حتى إذا ما اقتربنا من باب النصر ألقينا ما فى أيدينا من بقايا من كانوا مثلنا
يمشون فى الأرض مرحا .

سمع الموتى منا كل أغانى سيد درويش التى كانت نغما فى كل فم فى ذلك العصر ،
وسمعوا المنولوجات التى كنا نحفظها عن ظهر قلب :

مرة ماشى بادلع فى ميدان عابدين بتمخطر

ولابس لبس جديد ومعيا كان نقديـة

وسمعوا أغانى حامد مرسى التى كان يشدو بها فى مسرح على الكسار أمام عليـة

فوزى ، ثم عقيلة راتب من بعدها :

فى يوم جميل من ذات الايام والجو كان صافى ورايق

نقلنا إلى الموتى كل مباحج عصرنا وجعلنا القبور الساكنة تكاد أن تنبض بالحياة ،

ترى ماذا سينقل إلينا أبناؤنا من حضارتهم بعد أن نسكن قبورنا ؟ قنابلهم المدمرة ؟!

قنابلهم الذرية ؟! أن تطير قبورنا فى الهواء ؟ أكتب علينا أن نذوق الموت مرتين ؟!

وأصيبت إبهام قدم سعيد من جراء حذاء الكرة إصابة أجرى بعدها عملية إزالة ظفر

إبهام قدمه وحالت العملية بينه وبين الخروج ، فعزم سعيد على أن يستذكر دروس

السنة الرابعة وأن يتقدم إلى امتحان البكالوريا من المنزل .

كان أحمد فى السنة الرابعة وكان رياض فوزى قد حصل على البكالوريا فى السنة

السابقة ، فكانا يجلسان كل يوم فى السلامك ليشرحا لسعيد الدروس التى سيمتحن

فيها . وانقضى الشتاء ولا حديث فى السلامك إلا حديث السياسة وقراءة الصحف

التي كانت تبارك الائتلاف والصحف التى كانت تلعه ، ومنذ أول يوم لتشكيل

الوزارة الائتلافية ظهرت بوادر الاختلاف .

وجاء الصيف ففرش أخى محمد أبسطة على الرصيف عند الباب الحديدى المؤدى للسلامك ، وجلسنا على وسائد صفت فوق الأبسطة ، وجاء أخى بالفوتوغراف وجلجل صوت أم كلثوم فى الحى الهادى :

إن كنت اسامح وانسى الأسيرة

وكأنما عز على الأسرة اليهودية التى تسكن أمامنا أن تترك الميدان لنا وحدنا ، فإذا بفورتنيه تدير أسطوانة سيد درويش :

آه أنا هويت وانتهيت .

وما إن تنتهى الأسطوانة حتى تضع أسطوانة أخرى للشيخ سيد : آه أنا عشقت . ويصل صوت أم كلثوم وصوت سيد درويش إلى الرجال المجتمعين فى السلامك فيذكرهم بذلك الحدث الفنى الكبير الذى وقع من سنين : اشتراك محمد عبد الوهاب مع منيرة المهدية فى رواية أنطونيو وكليوباترة . كنت لا أطيق أن أستقر فى مكان . فما بدأ صوت سيد درويش يشدو : آه أنا عشقت حتى فررت إلى السلامك ، وأفرغ روعى الحوار الفنى الدائر بين الرجال البسطاء الذين كانت تستهويهم السير والقصص العصرية . راح أحدهم يقارن مقارنة فنية بين تلحين سيد درويش للفصول الأولى وتلحين عبد الوهاب للفصول الأخيرة ، وعقدت مقارنات بين عبد الوهاب ومن سبقه من كبار المغنين ، وتحدثوا حديث الخبراء عن معدن صوت منيرة المهدية ، ونوقش الخلاف الذى دب بين عبد الوهاب ومنيرة ، وأجمع الكل على أن منيرة لم تنجح نجاح عبد الوهاب عندما مثلت دور أنطونيو بعد أن انسحب عبد الوهاب من المسرحية ، واختلف الحاضرون فى تقييم أداء صالح عبد الحى لدور أنطونيو .

كانت جلسة فنية صاخبة وكان إبراهيم الشرى أكثر الحاضرين جدلا . إنه يحفظ كثيرا من أغاني عبده الحمولى والشيخ سلامة حجازى والشيخ يوسف الميلاوى ، وهو يجيد الحديث عن المقامات الصوتية ، وكانت له أذن موسيقية فما كان يسمع نغما حتى ينقر بأصابعه على بطن قدمه التى كانت دائما فى متناول يده يعبث فيها بأصابعه . وانتهت من امتحان آخر السنة وكنت واثقا من النجاح قبل أن تعلن النتيجة ، فقد

واظبنا أنا وصلاح على المذاكرة منذ أول يوم في السنة . وانقضت السنة ولم أشاهد مباراة واحدة لفريق مدرستي ، إلا أن كل من شاهدني وأنا ألعب كان يرى أنني أفضل من كثيرين من الذين يلعبون في فريق المدرسة ، فكنت أتحرق شوقاً إلى أن ألعب لمدرستي . ولكن كيف وأنا أكره أن أزكي نفسي أو أن أتقدم لأكون موضع اختبار ، إن الشيء الذي أخشاه دائماً أن تتمهن كرامتي أو أن أكون موضع سخرية .

وذهبت أنا وصلاح إلى المدرسة لنطلع على النتيجة فإذا بسكرتير المدرسة يقرأ أسماء المنقولين إلى السنة الثانية . قرأ اسم صلاح فأخذ قلبي يدق في شدة بين جنبي ولفتنى رهبة كادت تفقدني وعيي ؛ كنت واثقاً من النجاح ولكن الخوف تملكني . وقرأ الرجل اسمي فإذا بصلاح يقفز إلى ويحتضني في فرح ويقول في نشوة الأطفال :
— نجحنا .. نجحنا .

وعدت إلى البيت مسروراً وكنت أنتظر أن يطغى حديث نجاحي على كل حديث في البيت وفي السلاملك ولكن الجميع كانوا مشغولين بحديث آخر ؛ أقال الملك فؤاد الوزارة الائتلافية وكلف محمد محمود باشا بتأليف الوزارة الجديدة . وفي السلاملك كان موضوع الإقالة حديث الندوة ، فإنها أول إقالة في تاريخ مصر الحديثة . وما سبب تلك الإقالة ؟ تصدع الائتلاف ، ولماذا لم يطلب الملك من النحاس باشا الاستقالة ؟ إنه اختار الإقالة إمعاناً في إذلال الوفد . وتشعب الحديث وراح كل من الحاضرين يؤكد أنه على علم بالدوافع والأسباب ، ولم أنفعل بالأحداث كثيراً فقد كنت أنظر إلى السياسة على أنها لعبة قصر الدوبارة وقصر عابدين . إنها لعبة مندوب بريطانيا وجمالة الملك والساسة الذين يعيشون للسياسة ، وإن مصالح الشعب الحقيقية إن هي إلا جسر مؤقت يطرؤه الجميع بأقدامهم ليصلوا إلى أهدافهم ومصالحهم الشخصية .

كنت من صغرى أعتقد أن لا أحد يحقق مصالح الشعب إلا الشعب ، ولا أحد يسعد الشعب غير الشعب ، لذلك لم أنتم إلى حزب ولم أتحمس لحزب وإن كنت في بعض الأحيان أميل إلى حزب الأغلبية ما دمنا قد قبلنا الأسلوب الديمقراطي لحياتنا ، ولم يمنعني ذلك من أن أعجب بتصرفات بعض رجالات أحزاب الأقلية .

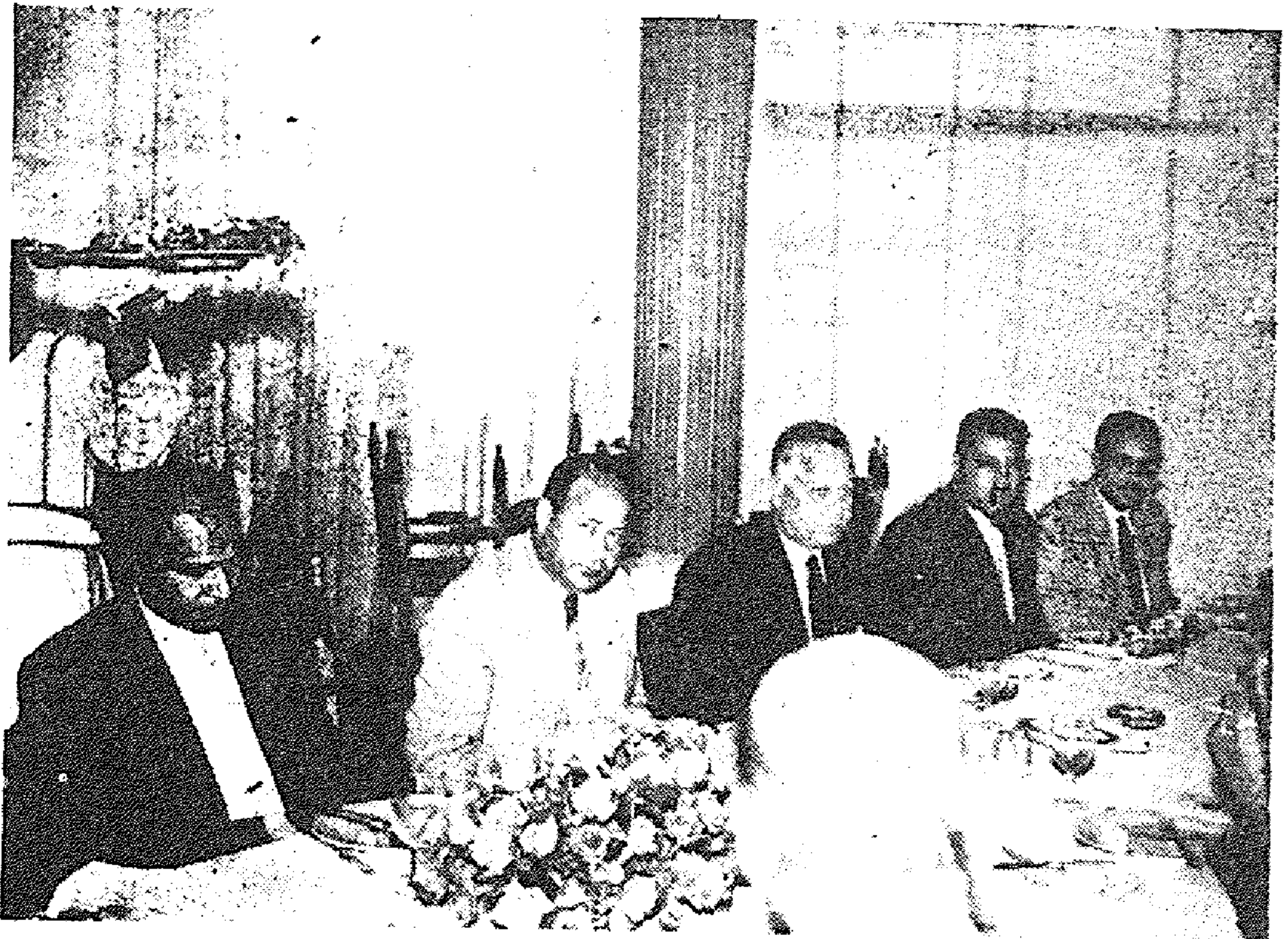
ولعبت الصور الكاريكاتيرية في ذلك العهد دورا كبيرا في السياسة . كانت الصحف الوفدية تسخر من محمد محمود باشا ذى اليد الحديدية ، وكانت صحف الأحرار الدستوريين تسخر من النحاس باشا . وقلت الصور والمقالات التى تهاجم إنجلترا والاستعمار البريطانى الجاثم على أنفاسنا . تفرقنا أحزابا وشيعا . وظهرت نتيجة البكالوريا فإذا بسعيد ينجح وإذا بأحمد يرسب . وحزن أحمد وغضب وقرر ألا يعود إلى المدارس أبدا . وذهبت كل المحاولات التى بذلت لثنيه عن عزمه سدى ، فأخذه أبى معه إلى المحل ليعمل هناك إلى جوار أخى محمد ، وقد ارتاح أحمد لذلك القرار الذى أراحه من عناء المذاكرة وترقب نتائج الامتحانات فى خوف وقلق .

٣٨

مات رودولف فالتينو أشهر عاشق عرفته السينما فشغلت الصحف والمجلات الفنية بأخبار وفاته ونشر صور النساء اللاتى توشحن بالسواد حدادا عليه واللاتى أغمى عليهن حزنا لفقده ، فلطالما حرك أخيلتهن بأعذب الرؤى والأحلام . كان فالتينو معبود النساء فحجت المعجبات إلى قبره شهورا ، ووجدت المجلات فى ذلك الحدث مادة لإشباع فضول الفارغين من قرائها . ولم أهتم بذلك كثيرا فقد تعلمت منذ أن فتحت عيني على الحياة وقضيت طفولتى مع أم عباس الندابة أن الموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة فى هذه الدنيا . وكأنا كان موت فالتينو إيذانا بموت السينما الصامتة ، فقد راحت المجلات الفنية تحمل أنباء بداية مولد السينما الناطقة . إن الصوت قد سجل فى بادئ الأمر على أسطوانات ، وقد أقبل الناس على هذا الفن الجديد مما شجع المشتغلين بصناعة الفيلم على ابتكار وسيلة أخرى يسجلون بها الصوت على نفس الفيلم مع الصورة . وقامت معركة حامية بين أنصار الجديد وأنصار القديم . تنبأ شارلى شابلن بإخفاق السينما الناطقة وقال إن السينما الصامتة سينما عالمية بينما السينما الناطقة لا تزيد على سينما

محلية ، وإن السينما الناطقة تحطم أقدم فنون العالم « البانتوميم » أى فن التعبير بالتمثيل الصامت دون كلام أو ألفاظ ، إنها تفسد الجمال العظيم الذى يوحيه الصمت . وعرضت شركة أفلام وارنر فى القاهرة أول فيلم ناطق . إنه فيلم « المغنى المجنون » لآل جونسون وكان مغنيا مشهورا . وتدفقنا إلى دار العرض الفاخرة سينما جوزى بالاس بشارع عماد الدين لنشاهد المعجزة الجديدة . وخرجنا من الدار مبهورين ، سمعنا لأول مرة موسيقى الجاز وصوت المغنى وكنا مبهورين بالتجربة أكثر من انبهارنا بشدو المغنى ، فما كنا نفقه شيئا من أغانيه .

وكتبت المجلات الفنية أن شارلى شابلن مصمم على موقفه من السينما الناطقة . إنه يمثل ويخرج فيلم « أنوار المدينة » ولن ينطق أى ممثل حرفا فى هذا الفيلم . وكان تيار السينما الناطقة جارفا ، فعلى الرغم من أنه لم ينبس بكلمة إلا أنه وضع موسيقى تصويرية لفيلمه . كان لا بد أن يجارى عصره وإلا حكم على نفسه بالموت الفنى كما مات أعظم نجوم السينما الصامتة عندما اتضح أن أصواتهم لا تصلح للفن الجديد . وعرض فيلم



« أنوار المدينة » في القاهرة وانقسمت ثلثنا حوله ، البعض يتحمس لما فعله شارلي والبعض يرى أن ما فعله شارلي إن هو إلا خطوة في طريق اعترافه بالسينما الناطقة .

و ذات يوم بعد أن انتهى منير مدير سينما إيديال من سحب اليانصيب الذي كانت السينما تجريه على دراجة وبعض جوائز أخرى ، أعلن أن السينما تزف إلى روادها الكرام أنها ستعرض فيلما فرنسيا ناطقا فدوت الصالة بالتصفيق ، فما كان يهمننا أن يكون الفيلم ناطقا بالإنجليزية أو الفرنسية أو حتى بالصينية ، فما كانت اللغة تهمننا كثيرا . كل ما أدخل البهجة على نفوسنا أن دارنا الحبيبة قد سبقت سينما أوليمبيا في عرض الأفلام الناطقة ، وإنها لفرصة لنذل أصدقاءنا المتحمسين للدار المنافسة .

وجاء ميعاد عرض الفيلم الناطق وكان يدور حول ماري أنطوانيت ، فانطلقت إلى السينما ورحلت أزاحم الكتل البشرية التي تكدست أمام شباك التذاكر . وبعد جهود مضنية حصلت على تذكرة فكان فرحي شديدا فأنتنى داخل إلى السينما لأرى حدثا عظيما يستحق كل ما تكبدت من جهود ليكون لي حظ معايشته .

وعلى الرغم من الزحام الهائل لم تقع حادثة نشل واحدة وما أدرى ما سر ذلك ، هل كان كل الرواد مثلي لا يملكون أكثر من ثمن التذكرة أو أن النشالين كانوا من المتعصبين لسينما إيديال فأبوا أن يكدرُوا صفو إخوانهم الذين تدفقوا إلى الدار ليعيشوا سويعبات في أبهج نشوة وانفعال ؟!

وأسرعت إلى مقاعد الألواج فلم يعد يليق بطالب مثلي في الثانوية أن يقعد على دكك الدرجة الثالثة ، فإذا بالناس قد حشروا في الألواج حشرا ، وإذا بأناس قد وقفوا لم يجدوا لهم أماكن فكان على كل من في الألواج أن يقفوا حتى يستطيعوا أن يتابعوا ما يعرض على الشاشة . ووقف أمامي رجل أجنبي طويل القامة عريض الأكثاف لا أدرى أكان حليق الذقن أو أنه أجرد لم ينبت في ذقنه شعر ، وحاولت بكل الطرق أن أشاهد شيئا من الفيلم المعروض دون جدوى . كانت الأصوات تصل إلى أذني ، ولكن أيكفيني أن أسمع الأصوات دون أن أشاهد الصور التي تتابع على الشاشة ؟!

وطلبت من الرجل في رفق أن يتحرك قليلا لأستطيع أن أرى ، فإذا به يتسم لي ابتسامة لم أفهم معناها وإذا به يتحرك بنصفه الأسفل حر كات تنم على أنه ليس رجلا ،

ففرغت وتركت اللوج ووقفت في الممر إلى جوار الحائط لا أحد يقف أمامي ويتعمد أن يلصق ظهره بي ، ونسيت ما حدث وأنا أتابع أول فيلم ناطق يعرض في السينما التي طالما شاهدنا فيها أفلام توم ميكس وآرت أكرود وماري بيكفورد ودوجلاس فيربانكس وشارلي شابلن وزيجوتو وكل أبطال المغامرات والفكاهة .

ولكأنما شبت السينما معنا ، كانت تعرض أفلام المغامرات والضرب لما كنا نقيس جودة الفيلم بعدد ما فيه من لكلمات ومقالب حرامية ، وصارت تعرض الأفلام العاطفية لما صرنا نقيس جودة الفيلم بعدد ما فيه من قبل . وعلى قدر ما فرحنا بظهور السينما الناطقة حزنا على نجومنا الذين أسعدونا في عهد السينما الصامتة الذين قيل إن أصواتهم لا تصلح للسينما الجديدة ، كان إشفاقى عليهم عظيما لكأنما كنت أشاهدهم وقد أوقفوهم إلى الحائط وأطلقوا عليهم جميعا الرصاص . وما ذنبى أنا في هذا التصور وقد شهدت في أفلامهم مثل ذلك المشهد لكثير من المكافحين الذين تعاطفت معهم بل وتعلقت بهم وأحببتهم ؟

وفي أرض قرية من سينما إيديال راحت إدارة السينما تبني دارا جديدة ، دار سينما رويال . إنها لن تستعين في الصيف بالمراوح للتغلب على الحر بل إن سقفها سيتحرك ليفتح فتكون سينما صيفية في الصيف وشتوية في الشتاء . أتستطيع سينما أولمبيا أن تحقق مثل هذه المعجزة ؟ وذهبنا إلى رفاق الحى المتعصبين لسينما أولمبيا لنغيظهم بهذا النصر الجديد ونتحداهم أن تصنع لهم أولمبيا ما صنعتها إيديال لعشاقها . كانت أولمبيا توزع « نوتا » وكانت إيديال توزع « نوتا » ، وكانت أولمبيا تصدر مجلة وكنا نتوسل إلى مدير إيديال أن يصدر مجلة حتى لا يكون لهم فضل علينا . كنا في أعماق نفوسنا نستشعر قهرا وإن كنا نحاول أن نهون من أمر المجلة ، ولكننا صرنا الآن نتكلم في ثقة واطمئنان فمن ذا الذى يستطيع أن يجادل في أن مجلة تفضل دارا جديدة مجهزة بمعجزة هندسية ، انفتاح سقفها وانغلاقه بأزرار كهربية ؟ إنها وثبة بل طفرة لن تستطيع أولمبيا في السنوات القادمة أن تحققها .

وطابت نفوسنا .

كنت أستغل كل لحظة في إجازتي الصيفية ، فكنت في الصباح أتمدد في سريري وأقرأ القصص التي كنت أضعها تحت الوسادة ؛ وبعد تناول الغداء كنت أذهب إلى أحد ملاعب الكرة مع فريق حينا الجديد ، فقد غاب عن الفريق أخى أحمد بعد أن التحق بدكان أوى وشغل سعيد عنا بعض الوقت استعدادا للالتحاق بالجامعة ، ولم يلعب فتوح معى فله ثلة غير ثلثى وكنت أراه فى أوقات اجتماعنا لتناول طعامنا ، فأوى كان يحرص على أن نجتمع فى الغداء وفى العشاء ولعل ذلك كان سببا من الأسباب التى قربت بينى وبين إخوتى .

وكنت بعد عودتى من اللعب أدخل الحمام وألقى بكل ملابسى لتغسل ، ولم تعد أمى تنهرنى كما كانت تفعل عندما كنت صبيا ولم أعد أفر منها أو من الشباشب التى كانت تقذفها خلفى كلما أفلت من بين يديها أثناء ضربى . صارت أمى أكثر رقة وغمرتنى بعطف زائد لكأنما كانت تريد أن تعوضنى عن أيام طفولتى .

وكنت فى أيام الجمع أخرج مع أخى محمد إلى سينا حديقة الأربكية أو إلى مسرح من المسارح المتنافسة فى شارع عماد الدين . كنت أشاهد مسرحيات يوسف وهبى وفاطمة رشدى والريحانى وعلى الكسار وجورج أبيض وأمين صدقى ، ولم يشف كل ذلك نهى إلى الفن . فلما جاءت فرقة أحمد الشامى إلى الظاهر ، وكان أحمد الشامى يمثل شخصية « كشكش بك » مقلدا الريحانى ، كنت أنسل إليها فى الليالى التى لا أخرج فيها مع أحد من إخوتى .

وكنت أذهب مع سعيد إلى دور السينما ، فقد كان أخى محمد لا يحب أن يشاهد الأفلام الأجنبية . وكانت الأفلام المصرية نادرة ، فبعد أن شاهدنا فيلم « لىلى » انتظرنا ستة أشهر لنشاهد فيلم « قبة فى الصحراء » للأخوين إبراهيم وبدر لاما .

وفى بعض الليالى كنت أجلس مع أبى وصحبه فى السلامك . كان محمد محمود باشا رئيس الوزراء وكان يجوب البلاد يأمر بردم البرك والمستنقعات ، فكانت الصحف

الوفدية تسخر منه بالأزجال والصور الكاريكاتورية وقد أطلق عليه بعضهم وزير « السخام والبرك » ، فكانت التعليقات تدور حول ما يكتب في الصحف ، وكنت أشارك فيما يدور من حديث إلا أنني في قرارة نفسي كنت أرى أن ردم البرك والمستنقعات عمل وطني لا يستأهل الهزء والزراية ، وأن الهجوم القاسي الذي كان يتعرض له الزعماء من الأحزاب كان سببا في أنني لم أنشأ حزبا ولم أرض لنفسي أن أكون مطية لأهواء نفر كل همهم الوصول إلى الحكم باسم الأغلبية تارة وباسم مصلحة البلاد العليا تارة أخرى .

واقرب موعد انتظام الدراسة فكان الحديث في السلامك يدور حول موقف الطلبة من الوزارة ، فقال قائل :

— أليس في البلد طبقة تثور لمصلحة البلاد غير الطلبة ؟

— إنهم يستشعرون المصلحة الحقيقية للبلاد لأنهم يزنون الأمور بلا مطامع ولا

أهواء .

وتحركت الذكريات فراح أحدهم يتحدث عن دور الطلبة في ثورة ١٩١٩ ، فقال أحد الموظفين معلقا : إن اللورد كروزن قال عنهم : « إن ثورة ١٩ هي إلا حركة صغار التلاميذ وهي شعلة سأطفئها ببصقة . إن الموظفين وهم أرشد عنصر في مصر لم يساهموا فيها » . فلولاً إضراب الموظفين لما هزت ثورة ١٩ الإمبراطورية البريطانية . ودار حوار حول إضراب الموظفين في ثورة ١٩ وكيف لعب عبد الرحمن فهمي دورا كبيرا لتحقيق ذلك . وقيل إن الموظفين كانوا يجتمعون بمنازل إبراهيم دسوقي أباطة وعبد الهادي الجندي بك ومراد الشريعي بك ، وأثنى بعض الحاضرين على جهود أحمد ماهر والنقراشي .

ولما كان الحديث يجرب بعضه بعضا فقد خاض الحاضرون في تشكيل الوفد المصري وفي الجهود التي بذلها عبد الرحمن فهمي بك سكرتير لجنة الوفد المركزية في الدعاية للقضية المصرية ، وجمع الأموال وسفر الوفد إلى مؤتمر الصلح في فرساي ، ولجنة ملنر التي جاءت للتحقيق في أسباب الثورة ومقاطعة اللجنة ، وجهود عبد الرحمن فهمي في إغلاق كل الأبواب في وجه اللجنة ، إنه كان يرسل إلى القرى يقول لأهلها « إذا جاءت

اللجنة تسألکم عن أسباب الثورة قولوا لها : اسألوا سعد في باريس وهو يجيبکم .
ولم تقف جهود عبد الرحمن فهمي في جمع كلمة الموظفين على الإضراب ولا في
مقاطعة لجنة ملنر ، بل إنه استطاع أن يقنع محمد سعيد باشا رئيس الوزراء بأن يستقيل
احتجاجا على إيفاد لجنة ملنر وتجاهل وكلاء الأمة .

ولما كان الحديث ذا شجون ، فقد تطرق الحوار إلى السودان والدستور . تحدثوا
عن لجنة الثلاثين التي كلفت بوضع الدستور ، وكيف أن اللورد ألبني طلب من عبد
الخالق ثروت عدم ذكر السودان في طلب الدستور ، وكيف صمم عبد الخالق ثروت
باشا على أنه لن يقبل أي مساس بالدستور ولا أي انتقاص من حق مصر في السودان
ولا حق السودان في مصر باعتبارهما وطننا واحدا .

كان حديثا يدخل البهجة على نفسى ويعدنى عن الحزبية المقيتة .

وطال الحديث عن عبد العزيز فهمي وعبد اللطيف المكباتي وباقي أعضاء لجنة
الثلاثين ، وتفجرت الذكريات فإذا بالبعض يذكر أن عبد الخالق ثروت باشا قد أوحى
إليه أن يستقيل ، وأن نسيم باشا جاء إلى الحكم من بعده ليرفع ذكر السودان من صلب
الدستور ويحقق رغبة ألبني .

ولم يمر ذكر ذلك الحادث البغيض دون أن يشع منه بصيص من الوطنية المجردة عن
الهوى ، فقد ذكر بالحمد والإجلال موقف يوسف سليمان باشا في مجلس الوزراء
الذى حذف الجزء الخاص بالسودان . إنه وقف بخطب معارضا أمر الحذف وقد بلغ
به الانفعال غايته ، فلما لم يؤخذ برأيه اعترضته حالة من الغضب والتأثر حتى لقد
أنغمى عليه وحمل إلى منزله .

وعاد المجتمعون في السلامك يذكرون ثورة ١٩١٩ ومقالات سينوت حنا بك
وكيف خطب القسس في المساجد وخطب شيوخ الأزهر في الكنائس . وكأنما عز
على المتحمسين للحزب الوطنى أن يكون سعد والوفد المصرى رسل الوطنية فرووا
ذكرياتهم عن جمال الأفغانى ومصطفى كامل ومحمد فريد وعن مواقفهم الوطنية قبل أن
يثور المصريون ثورة ١٩١٩ . وقد كانت اجتماعات السلامك معلما لى ، تعلمت فيها
(هذه حياتى)

أشياء كثيرة في السياسة والفن والحياة وكان لها الفضل الأول في ألا أكون حزبيا ، فما أكثر المواقف الوطنية الرائعة التي وقفها رجالات مصر من كل الأحزاب وفي كل العصور .

٤٠

كان يهود حيننا يفخرون بمناسبة وبلا مناسبة أنهم حماية وأنهم رعايا إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا أو أية دولة أجنبية مهما حقر شأنها ، وأنهم يتمتعون بالامتيازات الأجنبية ، وأن لهم محاكمهم الخاصة فهم لا يحاكمون إلا أمام المحاكم المختلطة . وكانوا يقولون في زهو إنهم ليسوا أولاد عرب . وكان ذلك يغيظني ، فكيف يكون للأجانب حقوق تفوق حقوق الوطنيين ؟ فكنت إذا سرت في مظاهرة من مظاهرات الطلبة — وما كان أكثرها في أيام دراستي — كنت أهتف من أعماق صادق صادقا بسقوط الامتيازات الأجنبية إذا ما هتف أحد بسقوطها .

شيئان كنت أعرف حقيقة شعوري نحوهما ، مقتى الشديد للاستعمار و كراهيتي التي لا حد لها للامتيازات الأجنبية . أما صراعات الأحزاب فكنت أقف متأرجحا بينها لا أعرف إلى أين أنحاز أو إلى من أنحاز ؟ فقد كنت في ريبة من الدوافع الحقيقية التي فرقت بين إخوان الأمس ، وما كنت أجد سببا معقولا لأن نتفرق شيئا فبالعدو واحد والهدف واحد ، فما الذي مزق أواصر وحدتنا ولم يجعل قبلتنا واحدة ؟

كانت الأسرة اليهودية التي تسكن في الدور الأرضي أمام الباب الحديدى للسلامك تزعم أنها حماية فرنسية ، ولا أدري من أين جاءت هذه الرعاية وكل أفرادها قد ولدوا في حارة اليهود قبل أن ينزحوا إلى الظاهر في رحلة اليهود الداخلية : حارة اليهود فالظاهر والسكاكيني فمصر الجديدة أو المعادى فالمقاعد الوثيرة في مجالس إدارة المحال الكبرى والبنوك وشركات التأمين .

كان رب الأسرة رجلا قصيرا نحىلا نتف الزمن مقدم شعر رأسه ، مضعضع العينين ، لا يغادر البيت إلا نادرا فكان يقاسى من وطأة الملل ، فما إن يرانى حتى

ينادينى لنقطع الوقت فى لعب الطاولة . وكانت فورتينيه وأختها التى تصغرها فى السن يشاهدان أحيانا التنافس بينى وبين أبيهما وما كانتا محайдتين ، بل كانت فورتينيه تقبض على إحدى ساقى بفخذيهما وكانت أختها تفعل مثلها بالساق الأخرى ، فكنت ألقى بالزهر وأقول فى صوت خافت مبحوح مرتعش متشنج :

— شيش بيش .

و كنت أعجب فى نفسى كيف أن الرجل لم يفطن من صوتى إلى اضطرابى وإلى أننى لست فى حالة طبيعية .

وفى ذات يوم كان الرجل وزوجه وحدهما فى البيت ، ودعانى الرجل لنقطع الوقت فى لعب الطاولة ، وفيما كنا منهمكين فى اللعب أقبلت زوجته وكانت امرأة سمينة لم تعد تهتم بمظهرها ، وكان كل همها أن تجهز الطعام للأفواه الجائعة التى تأتى للغداء وللعشاء ، وأن تأخذ من كل فرد من أفراد الأسرة نصيبه من تكاليف ما أكل ، وكثيرا ما كانت تقوم مشادات بين فورتينيه وألبير حول دفع نصيبهما : فورتينيه تريد أن تدفع أقل مما يدفعه ألبير لأنها لا تلتهم نفس الكميات التى يلتهمها ، وكانت تلك المشادات غريبة علىّ فما كنت أدرى كم أتكلف وما سألنى أحد أن أسدد ثمن ما أكلت أو ما لبست .

وقفت الزوجة قليلا ترقب ما نفعل ثم جلست لتقشر بطاطس ، فإذا بالأب يتوقف عن اللعب ويتفرسنى مليا ثم يقول لزوجته فى بساطه وهو يشير برأسه نحوى :

— دا ما يحبلش .

وصعد الدم فى رأسى وأحسست كأن نارا تشوى وجهى وكدت أصعق ، فإذا بالأم تقول فى استنكار :

— ليه كده ؟. ليه كده ؟. كسفت الولد .

ونفضت أبحث عن قدمى لأفر من المكان .

ومرت أيام وأنا أتخاشى أن أقف عند باب السلامك الحديدى حتى لا أرى الرجل ولا أتيح له فرصة مناداتى وإن كنت قد علمت أن فورتينيه قد تركت شيكوريل والتحقت بدكان لتفصيل القمصان وبيع الكرفقات بشارع محمد على بالقرب من دار

الكتب .

وفي الليل جلست في السلامك أصغى إلى نقد لمقال نشر في المقطم ، ولم يدهش أحد لما جاء في المقال مما يتعارض مع المصالح الوطنية فقد قيل إن المقطم منذ أن صدر يعتمد على الأموال البريطانية ويخدم الاستعمار البريطاني .

وبدأ أخى أحمد في قراءة حديث عيسى بن هشام وأصغى الحاضرون وهم ينفخون دخان السجاير في لذة ونشوة ويلقون على الأحداث . وفيما أنا ألقى سمعى إلى ما يقرأ أخى إذا بى أفاجأ بفورتييه واقفة لدى الباب ، فخفق قلبى رهبة وجف حلقى وتمنيت لو أن الأرض قد انشقت وبلعتنى . وفطن الرجال إلى وقوفها فالتفتوا نحوها فقالت في ثبات عجيب :

— بابا عايز عبده .

ولم ينبس أحد بكلمة ولم يلتفت أبى نحوى غاضبا بل أشار لأخى أن يستمر في القراءة ، وانسللت من السلامك وأنا ذاهل عن نفسى وإن عجبت من هدوء أبى . لم تكن فورتييه طفلة ولم أعد طفلا بعد فقد تأكدت من أن الحمصة التى في مقدمة أنفى قد انفلقت وغلظ صوتى وفردت امتلائى طولاً .

إن أبى مذ كنا أطفالا كان يبعث بنا إلى طرايشى وكانت دكانه في وجه البركة ، وكانت دكاكين العاهرات على جانبى ذلك الشارع . ويا طالما رأينا الساقطات يجلسن شبه عاريات أمام محالهن أو وهن يدخلن مع الرجال ويفلقن الأبواب خلفهن ، وكان يترك لنا حرية الدخول أو الخروج ويسمح لنا بمجالسة الكبار نصغى إلى ذكريات مغامراتهم دون حرج ، كان على يقين من أننا خلقنا لتلاطم مع الحياة فليس من الحكمة أن يعزلنا عن الدنيا ثم تضطرنا الظروف أن نجد أنفسنا في خضمها دون سلاح . إنه يعلم بفطرته السليمة أن القدوة هي الدرع الواقى من الانزلاق ، فكان لنا نعم الأسوة والمثال .

وخرجت مع فورتييه وانطلقنا إلى حيث كانت أسرته مجتمعاً وكانوا يتسامرون . ولم تمض دقائق حتى تيقنت أن أباه لم يبعث في طلبى فقد كان مشغولاً في حديث مع أولاده . وما كدت أستقر في جلستى بينهم حتى قالت فورتييه :

— بابا ، أنا ح اتفسح الليلة دى مع عبده .
وانكملت فى مكانى وانتظرت ثورة الأب العارمة فلن يدهشنى أن يخطف كرسيا ويهوى به على أم رأسى . وقرع أذنى صوته وهو يزجر :
— اسمع . أنا ما عنديش بنات تتأخر عن الساعة حداشر .
حداشر ؟! ومن قال له إننى أستطيع أن أتأخر حتى تلك الساعة ؟ إن أبى ينام فى العاشرة ، وإنه لا ينام إلا بعد أن يطمئن إلى أننا جميعا فى فراشنا ، فقد حدث ذات ليلة أن ذهبنا لنسمع محمد عبد الوهاب فى بيت العروسي وبقينا هناك حتى بعد منتصف الليل فبقى ينتظر عودتنا ، ومن بعدها قررنا جميعا ألا نسهر حتى لا نضطره إلى السهر .

وجذبتنى فورتيه من يدي لنخرج ، وقبل أن أتبعها قال الأب :

— ما تروحوش باللو .

كانت السينما فى ذلك الوقت تعلمنا رقصة الشارلستون وكنت قد أتقتها شفاهة ولم أجرب أن أرقصها ، فمن قال لذلك الأب القمىء أننى أجرو على دخول مرقص أو محاصرة فتاة على الملأ ؟!

وسرنا أنا وفورتيه فى شارعنا الذى ينتهى فى ميدان الظاهر وراح أناس من الحى يرقبوننا وهم يعجبون ، وقد سمعت بقالا يقول :

— عيلته طيبة كلها ، ما فيهاش حد فسدان إلا الولد ده .

ووصلت معها إلى الميدان وأنا مسلوب الإرادة ، وما إن وقفت على محطة الترام حتى التفتت إلى وقالت :

— أنا متشكرة ، رّوح انت بقى .

وتسترت بالليل وفى غفلة من أهلها انسللت إلى السلامك وجلست شارد اللب ، ثم ذهبت إلى فراشى وخطفنى النوم . وبعد أن انتصف الليل استيقظت على أصوات وجلبة ، فأسرعت إلى الشباك أنظر فإذا بأبى فورتيه يرغى ويزبد ويصيح :

— كنت فى لغاية دلوقت ؟ وجاية كان فى عربية ! مين ده اللى معاكى ؟

وقالت فورتيه فى تحد :

— إيه ؟ أخو صاحب المحل .
وكأنما ألقمت أباها حجرا فصمت كالبغل .

٤١

كانت الصحف الوفدية قد سخرت من كل مشروعات الإصلاح التى قامت بها وزارة محمد باشا محمود ، وكانت مجلات الوفد قد نجحت بالصور الكاريكاتورية أن تثبت فى الأذهان أن رئيس الوزراء صاحب يد حديدية وأنه وزير السخام والبرك . فما إن بدأت الدراسة فى المدارس حتى هيج زعماء الطلبة الوفدين جموع الطلاب فقامت المظاهرات تهتف بسقوط الوزارة التى قيدت الحريات وعبثت بالدستور .

وخرجت المظاهرات إلى الشوارع وسادت عقلية القطيع ، فراح بعض المخربين يلقون الحجارة على مصابيح النور فى الطرقات ، وما كنت أدري ما العلاقة بين المطالبة بسقوط الوزارة وبين تحطيم ممتلكات الدولة ، وقد كنت أطلق على تلك العهود عصر تحطيم الفوانيس فقد كنا نسرع بتهشيم كل ما يضىء استجابة لرغبات الحزبية العمياء . كان محمد محمود باشا قد سافر إلى إنجلترا لعقد محالفة بين الأمتين المصرية والبريطانية ، وكان مشروع المحالفة قد نشر فى مصر فهاجمته الصحف الوفدية وحاولت صحف الأحرار الدستوريين أن تبرز ما فى المشروع من محاسن وأن تؤكد نجاح المحادثات التى قام بها رئيس الوزراء مع وزارة الخارجية البريطانية ، ولكن الشعب كان لا يثق إلا بالوفد صاحب الأغلبية ، فصم أذنيه عن دعاوى الأحرار الدستوريين وأطلق لسانه فى الوزارة ورئيسها واتهم الجميع فى بساطة ويسر بالتفريط فى حقوق البلاد ، فقدم محمد محمود باشا استقالته وتشكلت بعد ثلاثة أشهر وزارة عدلى يكن باشا الثالثة .

وهدأت الفورات بعد استقالة الوزارة لكأنما قد جلا الإنجليز عن البلاد وألغيت الامتيازات الأجنبية ، وانتظمت الدراسة فى المدارس وأعلن الأستاذ المشرف على الرياضة عن ميعاد اختيار لاعبى الفريق الأول والفريق الثانى لكرة القدم فجاء إلى كثير

من أصدقائي يحرصوننى على أن أنزل ميدان الاختبار ولكننى رفضت . قالوا لى إن مستواى أفضل من مستوى كثير ممن يلعبون لفريق المدرسة إلا أننى وضعت أصابعى فى أذنى وإن كنت أتمنى من كل قلبى أن ألعب لفريق المدرسة . إننى أمقت أن أتقدم لأى امتحان فإنى أضن بنفسى أن أكون موضع سخرية ، وإننى أفضل أن أترك كل شىء وأن أكبح رغباتى وشهواتى وأن أحرم من حقوقى على أن تجرح كرامتى أو أن تخدش كبريائى .

ووقفت فى فناء المدرسة عند التقاء خط التماس بالخط الذى يمر بالرمى فى نفس مكان الضربة الركنية ، وجاء إلى صديقى وزميل المذاكرة صلاح قنصوه وراح يتوسل إلى أن أذهب حيث يخلعون ملابسهم استعدادا للعب . إنها فرصة ويكفى أننى ضيعت السنة الماضية . وأبيت أن أستجيب له ، ونزل الذين يرشحون أنفسهم إلى أرض الملعب وألقيت عليهم نظرة فيها شىء من حسد فقد كنت أحسدهم على جرأتهم وثقتهم بأنفسهم . ترى هل أفقد الثقة بنفسى أو أننى كما قيل لى من أكثر من مصدر مريض بالحساسية المفرطة ؟!

لقد بلغ بى الأمر أننى أصبحت أخجل من أن أطلب من أبى مصروفى أو أية نقود أخرى ، وقد فطن أبى إلى ذلك فكان يعطينى دون أن أسأل فأخذ ما يعطينى شاكرًا ، فقد وقر فى وجدانى أننى عبء على أهلى ، ولو كنت أدرى مقدار ما غرس الله من حب فى قلوب الآباء لأولادهم ما فرضت على نفسى ذلك الحرمان الذى ما كان له ما يبرره .

وقسم الأستاذ المشرف على الرياضة الطلبة الذين نزلوا إلى الميدان إلى فريقين ثم أطلق صفارة البدء ، فإذا بالصورة الحقيقية تتضح . إن بعضهم وإن كان يرتدى ملابس الكرة لم يسبق له أن لعب الكرة فى حياته ، وضحك المشاهدون وضجوا بالضحك فى كثير من الأوقات فقد كانوا يشاهدون ألعابا كوميدية ، وكنت أضحك وقد أشفقت على نفسى وأنا أشاهد ما يبعث على السخرية . أكان صلاح يريد لى أن أكون مبعث ضحك مثل هؤلاء الذين لا يعرفون أقدار أنفسهم ؟!

وحدث أن جاءت إلى الكرة وأنا واقف على الخط عند راية « الكورنر » فضربت

الكرة ضربة فنية فإذا بها تستقر في المرمى ، فصاح الأستاذ المشرف على الرياضة :
— انت .. تعال .

وذهبت إليه فطلب منى أن أنزل للعب ، فذهبت إلى غرفة الملابس ولبست ملابس
الكرة وأنا سعيد . لم أعرض نفسي ولكنى طلبت ، وضمنى إلى فريق من الفريقين
المتنافسين . وكانت ميزتى التى عرفت بها فى اللعب أننى أعرف طريقى إلى المرمى ،
فأحرزت هدفا ثم هدفا ، فإذا بالأستاذ يطلب منى أن أنتظر ليحربنى مع الفريق الأول
للمدرسة .

وجاء دور اختيار لاعبى الفريق الأول فلبت لعبا هنا أنى عليه صديقى صلاح ونحن
فى طريق عودتنا إلى المنزل نبدأ فى استذكار دروسنا ، فقد عزمنا أن لا تقف الكرة
حائلا بينى وبين مستقبلى . راح صلاح يحدثنى عن الأهداف التى أحرزتها ويؤكد لى
أننى كنت أفضل اللاعبين ، إلا أننى كنت واثقا من أننى لن ألعب هذه السنة للفريق
الأول فأنا ألعب قلب هجوم ورئيس فريق المدرسة يلعب فى نفس المركز .
واخترت للعب للفريق الثانى ولم أشعر بأية عضاضة ، كان يكفىنى أن ألعب
وأن أمارس هوايتى . ووزعت علينا ملابس الكرة وكان ذلك اليوم يوما مشهودا
فى حياة لاعبى الكرة ؛ كان أشبه بيوم عيد ، هذا يلبس الحذاء ثم يغدو ويروح وهو
يضرب الأرض بمقدم الحذاء ليتأكد أن الحذاء ملائم لقدمه ، وذاك يقيس الفانلة ،
وثالث يزعم أنه ليس فى حاجة إلى الجوارب فلا تزال جوارب السنة الماضية سليمة
وأنه ذاهب إلى محل تاجر الملابس ليبدل ما لا يحتاج إليه من ملابس بأشياء أكثر
نفعاً ، وإذا بأصوات ترتفع مؤيدة الفكرة ، وإذا بمعظم أفراد فريقى المدرسة ينطلقون
إلى حيث دكان التاجر ليستبدلوا بعض ما وزعته عليهم المدرسة بملابس داخلية أو
بقمصان على أحدث طراز ، وقد سمعت أن بعضهم فضل أن يسترد جزءا من ثمن ما
استغنى عنه من ملابس ، وكان كل ذلك شيئا جديدا بالنسبة لى فما كنا نعرف ونحن
فى مدرستنا الابتدائية من أين تأتى المدرسة بما توزعه علينا من ملابس للألعاب
الرياضية ، فقد كنت فى فريق كرة القدم وفى القسم المخصوص كذلك ، وقد وزعت
علينا ملابس جديدة ذات يوم لنشارك فى استعراض الأقسام المخصوصة للمدارس

الابتدائية فى النادى الأهلى أمام جلاله الملك فؤاد فى مناسبة من المناسبات ، وقد رقصنا أمام جلالته رقصة اسكتلندية على العزف على القرب . وكانت الفرقة التى تعزف من فرق الجيش الإنجليزى ، وما كان ذلك شيئا مستغربا فى ذلك الوقت فالإنجليز فى كل مكان ؛ تكنات جنود الاحتلال فى قصر النيل تطل على أحسن مكان فى القاهرة وأرقاه وتمتد إلى الأسد الرابض على الكوبرى ، ويا طالما خيل إلّى وأنا أنظر إلى جنود الاحتلال وهم فى شبابيك ثكناتهم يسخرون من المارة ويمعنون فى المعاكسة أنه أسد بريطانى . وفى يوم الخميس كان علينا أن نذهب إلى شبرا للتبارى مع فريق المدرسة التوفيقية الثانوية على ملعبها ، فاستدعانا الأستاذ المشرف على الرياضة وأعطى رئيس الفريق مبلغا من المال ليعطينا أجر الترام من العباسية إلى شبرا ذهابا وإيابا . وراح الرئيس يوزع على كل منا خمسة قروش تعريفة ، وكان زملائى يأخذون المبلغ فى يسر ، فلما جاء إلّى ليضع المبلغ فى يدى تقاصرت نفسى وأحسست أن الأمر يجرح كبريائى وهممت بأن أرفض تناول النقود ، إلا أننى خشيت أن أهين رفاقى فأخذت المبلغ وأنا فى شدة الخجل وقد تفصد العرق منى وإن لم يكن الجو حارا .

وتواعدنا أن نلتقى قبل بدء ميعاد بدء المباراة بوقت طويل ولم أدر حكمة ذلك وفى الميعاد المضروب اجتمعنا وإذا بالزملاء ينطلقون سيرا على الأقدام من العباسية إلى شبرا ليوفروا ما حصلوا عليه مقابل انتقالهم وسرت معهم مرغما ، ولكن بعد المباراة رفضت أن أعود سيرا على الأقدام فركبت ترام شبرا الذاهب إلى محطة مصر وزملائى يرموننى بنظرات غاضبة . وأطلق بعضهم لسانه واتهمنى بالغرور والقنزحة

عقد أبى النية على أن يحج فإذا بعى حنفى يقرر أن يحج معه ، وأبدت جدتى أم عبد الغنى رغبتها فى أن تصاحبهما إلا أن الحج فى ذلك الوقت كان مشقة ويحتاج إلى تحمل . وأحست أنها ستكون عبئا على ولديها فعدلت عن رغبتها ، وفرحت كثيرا عندما قرر والد امرأة عمى حنفى أن يصحب أبى وعمى فى سفرهما . ولم يعد هناك حديث بين الرجال فى السلامك وبين النساء فى شقة جدتى إلا حديث الحج وذكرياته . كان أبى يروى ما سمعه عن جده الحاج أحمد من أن الحجاج كانوا يتعرضون للسلب والنهب فى الطريق ، وقد يكون مصير بعضهم الذبح إذا ما قاوم قطاع الطريق . حكى أن جده كان نائما فى خيمته لما أحس ببعض الأعراب فى الخارج يزحفون ويشقون جانب الخيمة بسكين ، فهب صائحا فإذا المغيرين يفرون .

ويقول قائل إن تلك الأيام قد ولت وإن الأمن يسود الحجاز الآن بعد أن آلت إلى الوهابيين ، وأثار ذكر الوهابيين كوامن الذكريات فإذا بالحوار يدور حول المذهب الوهابى . إن المحمل والكسوة كانا يخرجان إلى الحجاز لكسوة الحرم والقبر النبوى الشريف منذ عصر شجرة الدر إلى سنوات قريبة ، وكانت هناك دار للكسوة فى الخرنفش تعمل طوال العام لإعداد الكسوة فكانت مصر هى التى تكسو أول بيت وضع للناس ، وكانت تحتفل بالمحمل احتفالا رسميا وشعبيا ففرق الطرق الصوفية تخرج فى مواكب أمام المحمل ، وبعض فرق الجيش تسير أمام الرجال الذين يحملون الكسوة على محفات خشبية تعزف موسيقاها ابتهاجا بهذه المناسبة الدينية السعيدة ، ويأتى بعد ذلك المحمل على جمل يتهادى فى كبريائه كأنما يستشعر خطر شأنه . إن الكسوة التى على المحمل هى كسوة قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه . وما إن يهل المحمل على الناس حتى ترتفع الأصوات بالتكبير والتهليل وتندفع الكتل البشرية إليه غير حافلة بالعساكر الذين على جانبيه ولا بالعصى التى تنهال عليهم من الشرطة ، فالسعيد السعيد من

أتيحت له فرصة مسح المحمل بيده .

وكان المحمل يحمل مع الكسوة في السفن إلى جدة وكان يستقبل هناك استقبالا رسميا ، وكانت فرقة من الجيش المصرى بمعداتنا الحربية تسير إلى أرض الحجاز تعظيما للمحمل وتكريما ، فلما صار الأمر للوهابيين كرهوا ذلك الاحتفال لأنهم رأوا فيه بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

قبلت الحكومة الوهابية الأمر على كره منها ولكن الأمرين بالمعروف من الوهابيين لم يقبلوه ، فما إن سار المحمل في حراسة الفرقة المصرية حتى هجم عليه الرجال من كل جانب ، وخاف قائد الحامية المصرية على من معه من الحجاج المصريين فأمر المدفعية أن تضرب المهاجمين ، وسرعان ما انحسر الهجوم ووصل المحمل ومن معه سالمين . وعاد المحمل بالكسوة القديمة واحتفل المصريون بعودته ، وكان ذلك الاحتفال آخر عهد مصر بالمحمل . وذكر الناس اسم الضابط الذى أمر بالضرب .. إنه على إسلام وما دار بخلقى أن سيأتى يوم أعمل فيه تحت رياسته .

وسأل أبى عما إذا كان يجوز أن يكلف أحدا أن يحج حجة يهبها لأبيه الذى مات قبل أن يؤدى الفريضة ، فأجمع الحاضرون على جواز ذلك إذا كان المكلف قد سبق له أن حج . وعاد يستفسر عما إذا كان يجوز أن يكلف من تحج عوضا عن أمه التى لا تحتمل مشقة السفر فاختلفوا فى ذلك وتعصب كل فريق لرأيه بلا مجاملة ، فما كانوا يجاملون فى أمر يتعلق بالدين .

وراح النسوة يتحدثن عن الحاجة جدة والدى وما كانت تفعله قبل الحج وفى أثناء الحج ونوادرها فى الحجاز وما كانت تحمله معها من زاد . وأخذت أمى تشرح لامرأة عمى حنفى كيف تحفظ اللحم سليما قالت :

— شفى اللحم من العضم وقطعها تحت ، وهاتى اللية وسيحيا وحطى اللحم فى صفيحة وحطى اللية وهى سايحة فوقها لغاية ما تغطيها ؛ بالشكل ده اللحم تفضل سليمة شهر وشهرين .

وشغلت أمى بإعداد حاجات أبى من ملابس وبشاكير إحرام وزاد ، وجاءت بالخرج ووضعت فيه فطائر وخبز مجفقا وعلب الجبن والزيتون وصفيحة اللحم

المحفوظ ، ووضعت الملابس في حقيبة من الجلد كتب عليها ببوية بيضاء اسم أبى .
ومرت الأيام ووافى ميعاد السفر فجاء عمى محمد والأسرة لوداع أبى وعمى ،
وجاء والد زوجة عمى ليسافر من بيتنا ليخرج الحجاج الثلاثة معا . وكان وداعا
وكانت دموعا وكثر العناق ، ثم انطلق الرجال الثلاثة إلى محطة كوبرى الليمون ، فمن
هناك يبدأ القطار في التحرك إلى السوبس .

كانت المحطة غاصة بالفلاحين ، وكانت الزغاريد تنطلق والموسيقىات النحاسية
تعزف ، وكان رفاق السلامك في انتظار أبى لتوديعه . كانت ساحة المحطة أشبه بمولد
فهذا يجرى هنا وهناك وذاك ينادى ويصيح . وتدافع الرجال إلى القطار وراح
المودعون يزاحمون المسافرين ويتكدسون في العربات ، فلم يعد هناك موضع لقدم .
وانقضى أكثر من ساعة في العذاب ثم صفر القطار ، فإذا بالمودعين يتزاحمون مهرولين
للنزول يدوس بعضهم بعضا ، ثم وقفوا على الرصيف يلوحون مودعين ، وسالت
الدموع على الخدود وأحسست لأول مرة مرارة الوداع .



وعدنا إلى البيت ومرت الأيام ونحن نجتمع في السلامك لا حديث لنا إلا حديث الحج والحجاج . وجاءت أول رسالة من أبى فكدنا نظير بها فرحا ، ورحنا نقرأها لجدتى وأمى وعمتى زينب التى مات زوجها فجاءت لتعيش مع أمها ، فما انتهينا من قراءتها حتى قالت عمتى :

— الجواب ده اتكتب امتى ؟

— من عشرة أيام .

— إيش عرفنى إيه الى جرى لهم فى العشرة ايام دول ؟.

وينقلب فرحنا إلى رهبة وخوف وقلق . وفى ليلة وقفة العيد قيل إن الحجاج قد نفروا من عرفات وأنهم فى طريقهم إلى منى ، وقيل إنهم قد أصبحوا حجاجا فالحج عرفة . وعجز خيالى عن أن يتصور شيئا عن الحقيقة أو قريبا من الحقيقة ، فكل ما شاهدته فى السينما عن الصحراء كان شيئا ممتعا بهيجا ، رودولف فالنتينو فى فيلم « الشيخ » وفى فيلم « ابن الشيخ » يركب حصانه الأبيض ويخطف قيلما بانكى الجميلة ويعدو بها إلى خيمته الفاخرة ، خيمة كنت أتمنى أن أعيش فيها ناعم البال عيشة فاتن النساء المحبوب .

وكان علينا أن نضحى فى عيد الأضحى فجدتى وأمى وعمتى قررن ألا تقطع لنا عادة طوال غياب أبى . وصعد أطفال الأسرة وشبابها إلى السطح ليشاهدوا الجزار وهو يذبح ما تجمع هناك من خراف ، ولم أشارك إخوتى فى هذه المناسبة فقد كرهت رؤية الخراف وهى تذبح مذ كنت طفلا ، فقد أشرفت فى ذلك الوقت على تربية خروف توطدت بينى وبينه صداقة متينة حتى إننى إذا ما سرت سار خلفى وإذا ما جريت فى ميدان الظاهر جرى خلفى حتى يلحق بى ويتمسح بى ، فأحبته حبا عظيما . فلما جاء عيد الأضحى أخذوه ليذبحوه فتشبثت به وبكيت وتوسلت إليهم ألا يفعلوا ، ولم يلتفت أحد إلى هذيانى وأخذوه منى وفجعونى فيه .

بكيت عليه بكاء وغص عليه حلقى ، ولم يمنعنى حزنى عليه أن أكل لحمه مع الآكلين .

وجاءت برقية من أبى أنه وصل إلى الطور مع رفاقه وأنهم جميعا سالمون ، فكدنا

نطير من الفرخ ورحنا نتلاعب بكلمة الطور ، فمن قائل إنه عندما يحج سيبعث بريقة إلى أهله يقول : « أبوكم الطور وصل » ومن قائل : « الطور وصل » وأخذنا نمزح مستبشرين فقد أصبح أبونا ومن معه على أرض مصرية . وإنه لشيء يدعو إلى الاطمئنان أن تضع قدميك على أرض الوطن .

وسافر أخى محمد وبعض رفاق أبى لاستقباله فى السويس ، وانتظرنا فى البيت نتلهف على يوم اللقاء . وتأهبنا لنعلن فرحنا بمقدم أبى السعيد ، وإذا بريقة تأتى من السويس أن أبى وعمى قد وصلا وأنهما قد تركا والد زوجة عمى فى الطور لأنه مريض .

وبدأ الشك يعث بنا : أترك المريض فى الطور ؟ وانتابنا خوف شديد وذهبنا إلى محطة كوبرى الليمون ننتظر القطار القادم من السويس . وبعد ساعات من القلق أقبل القطار واندفع رجال أقوياء من العاملين فى دكان أبى وحملوه وراحوا يشقون به طريقا بين الكتل البشرية التى اندفعت كالجراد إلى عربات القطار . ورأيت أبى ، كان ناحلا قد غاض لونه . ولم أحفل بالهزال الذى بدا عليه وارتميت فى أحضانه فضمنى إليه فى حنان وهو منهوك ، وعدنا إلى البيت فرحين وصعد عمى إلى شقته ودخل أبى إلى فراشه ليستريح .

كانت رعدة شديدة تنتاب أبى مرة كل يومين ، فكان أن استدعينا الطبيب فلما فحص عنه قال :

— ملاريا .

وذا ع خبر فى البيت أن حما عمى قد مات فى الطور فنزل بنا هم ثقيل ، وحرصت أمى كعادتها على ألا نفعل شيئا يجرح شعور امرأة عمى التى تسكن معنا فى بيت واحد . جاء أفراد أسرتنا ليهنئوا أبى وعمى على سلامة العودة فلم يشربوا غير القهوة وبقيت زجاجات الشرابات لم يمسهما أحد .

وأصبح بيتنا خلية نحل . إن أبناء الرجل الذى مات جاءوا إلينا يستشيروننا فيما يفعلون . كنت أرى أن يدفن الرجل حيث مات ، ولم أستطع أن أجهر برأىي وإلا عكرت الصفو الذى ساد العلاقة بينى وبين أمى ، فأمى كانت تكره أن تتدخل بأى

رأى فى مشاكل الآخرين .

وقر قرار الرجال والنساء على أن يسافر بعض أهل الرجل إلى الطور ليحضرُوا جثمانه
مهما كانت المشقة ومهما كانت التكاليف ، وارتفعت أصوات :
— كله من خيره .

— لازم يدفن جنب أبوه وأمه .

و كنت أقلب بصرى بين الجميع فى دهش فقد راح الجميع يخوضون فى لجج من
النفاق . وذهبت إلى جدتى التى ما كانت تعرف إلا الصراحة وما كانت تجيد إخفاء
شئ أو سر :

— شفتى أمه وأبوه يا ستى ؟

— والله يا بنى ما شفتهم ولا عرفتهم .

وسافر رجال إلى الطور وعادوا بجثمان الرجل . وخرجت جنازته من ميدان
الحسينية فسار المشيعون خلفه وما من أحد منهم يذكر الرجل أو يترحم عليه . كان كل
اثنين يتحدثان حديثاً يخص أمر دنياهما ، وما من أحد إلا يفكر فى شئونه . ورحت
أفكر : أهذه الجنازة تجشم أهله ما تجشموا من جهد وبذلوا ما بذلوا من مال ؟ ألا ما
أتفه الناس .

وعرجت الجنازة إلى شارع نجم الدين فى طريقها إلى القرافة حيث المدفن القديم ،
وكان الترى يسير إلى جوارى فإذا بتربى آخر جالس على جانب الطريق ينظر إلى غريمه
ويقول له :

— ليلتك سلق ، لهفته ... دفنة فيها خمسة جنيه على الأقل .

و كانت الخمسة جنيهات مبلغاً كبيراً فى ذلك الوقت فكدت أن أضحك ، إلا أننى
كتمت ضحكى وإن ضحكت فى أعماقى ، فلسنا إلا بضاعة فى نظر كثير من الناس
سواء أكنّا أحياء أم أمواتا .

كانت الوزارات في مصر تلعب لعبة الكراسى الموسيقية ، فما إن تشكلت الوزارة الائتلافية برياسة مصطفى النحاس باشا حتى تصدع الائتلاف ، وما مرت ثلاثة أشهر حتى أقالها الملك وتولى محمد باشا محمود الوزارة وسافر إلى إنجلترا ليعقد محالفة مع الدولة البريطانية التي تجثم جيوشها على أرض الوطن ، وبعد ثلاثة أشهر أخرى استقالت الوزارة وجاءت وزارة عدلى يكن باشا لتمهد لانتخابات حرة .

وشغلت مصر بالدعايات الانتخابية وتششت أحزابا ، وراح كل منافس يقده في منافسه وينعته بأبشع الصفات ، وأخذ كل حزب يكيل التهم للحزب الآخر ولم يتحرر حزب وجه الحقيقة ف راحت الصحف الحزبية تهم الخصوم بالخيانة والتفريط في حقوق البلاد ، واشتعلت المهاترات فإذا بالمصريين يتناحرون فيما بينهم وقد نسوا أعداءهم وتركوهم ناعمى البال في قصر الدوبارة وتكنات قصر النيل وتكنات محطة مصر ، بل وفي كل شبر من أرض الوطن .

ونصبت السرايدات في أحياء القاهرة وقام الخطباء بخطبون في كل مكان ، ونشط سماسرة الأصوات وكان صوت الناخب يرتفع ثمنه كلما دنا موعد الانتخاب ، وكانت أغلب المبالغ التي يدفعها المرشحون تدخل في جيوب السماسرة وما أقل ما كان يوضع في أيدي أصحاب الأصوات الفقراء !

كانت مواسم الانتخابات مواسم تكثر فيها الولايم والإنفاق ، وكان المرشحون في تلك الأيام يتحلون بكل الخصال الحميدة : الرقة والأدب والكياسة والتواضع . إن بيوتهم مفتوحة لكل طارئ في الليل أو في النهار ، الناس عندهم سواسية لا فضل لكبير على صغير ولا لغنى على فقير ولا لصاحب جاه على حقير فلكل صوت في الانتخاب وهو شحاذ أصوات .

وكان خالى عبد الحميد — من سميت على اسمه — من أنصار البنان مرشح الجمالية ،

فكان يقيم السراشق للبنان من ماله ، وكان يؤلم له ولأنصاره في بيته ، وكان يكفيه أن يمسح البنان على ظهره أو يربت على كتفه ويقول له :
— بارك الله فيك وفي أمثالك .

وكان هناك في كل حي من ينفقون على المرشحين في سفه ومن يتعصبون لهم انبهارا بالوفد ومرشحي الوفد . وتعطلت القراءة الأدبية في السلاملك وأصبح أبى وأصحابه يكتفون بقراءة المقالات في البلاغ وفي كوكب الشرق وفي الأهرام فقد طغت السياسة على كل شيء ، ويا ليتها كانت سياسة قومية أو سياسة تستهدف مصلحة الوطن ، ولكنها سياسة مغام وبناء أفراد على حساب الشعب المخدوع بما يحمل كل حزب من شعارات .

كان أغلب رواد السلاملك من الوفدين .. وحتى الذين كانوا من أنصار الحزب الوطنى كانت ميولهم مع الوفد . وقد تحمست في بعض الأوقات للوفد وكنت أرى أننا ما دمنا قد ارتضينا الحياة الديمقراطية فلا مناص من أن نحترم رأى الأغلبية ، ولكنى لم أستطع أن أكون حزبيا فإنى لا أسمح أن يسلبنى الانبهار بشخص أو بشيء عقلى أو إرادتى .

وكانت الصحف تتحدث عن المستوزرين الذين يتخذون بار اللواء مكانا مختارا لهم ، وكانت الصحف تفيض في الحديث عنهم فدفعنى حب الاستطلاع إلى أن انطلق إلى هناك لأرى رواد ذلك البار الطامعين في مراكز السلطة والسلطان . وركبت الترام حتى إذا ما وصلت إلى ميدان العتبة نزلت هناك وسرت في شارع عبد العزيز ، فلما وصلت إلى سينما أولمبيا عرجت إليها لأتفرج على صور الممثلين فإننى لا أستطيع أن أمر على دار سينما دون أن أنجذب إلى الصور التى تزينها . وقام فى وجدانى صوت يعاتبنى : كيف أمر على سينما أولمبيا دون أن أمر على إيديال ؟

ولم أحتمل تأنيب ضميرى فانطلقت إلى سينما إيديال أجوس خلال ردهتها أشاهد وأنا مسرور صور ما سوف تعرض حتى وصلت إلى بار اللواء فرحت أغدو وأروح أمامه أفرس فى الجالسين . إنهم أناس يرتدون الطرايش والملابس الأفرنجية ليس فى وجوههم ما ينطق بالنباهة أو ينم عن علو الشأن ؛ إنهم يلعبون الطاولة أو يثرثرون على (هذه حياتى)

قارعة الطريق أو يجلسون إلى البار يشربون .

وقفز إلى رأسي سؤال : أليس القادة قدوة الشعب ؟ فإن كان هؤلاء هم القادة أو الذين يحلمون بأن يكونوا قادة ، أيتخذهم الناس أسوة ؟ لا . إنهم ليسوا أسوة حسنة . ودرت على أعقابى وأنا أستشعر خيبة أمل ، وإذا باعتراض يهب فى وجدانى صائحاً بى : إن هؤلاء ليسوا وزراء الشعب . إن وزراء الشعب هناك فى نادى محمد على وفى أندية الأحزاب . وهل تختلف حياة الجالسين هناك عن حياة الجالسين هنا ؟ وخطر لى أن أنطلق إلى نادى محمد على نادى الباشاوات ، وأنى لمثلئ أن يفتح باب ذلك النادى العتيد الذى يحس المارون أمامه من أمثالى وجلا ورهبة ؟

وفى أثناء عودتى اشتريت جريدة المقطم ورحت أقرأ فيها أنباء المعركة الانتخابية وبعض أنباء جاءت من إنجلترا . وكانت المقطم تهتم بأنباء الدولة المستعمرة وتدافع عن تصرفاتها ، وقد ذاع بين الناس أن المقطم تعتمد فى تمويلها على الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس .

كانت مقالات المقطم تهدن فى ذلك الوقت الوفد ، فكان ذلك إشارة إلى أن الانتخابات ستكون حرة ، وما دامت الانتخابات حرة فلا مرء فى أن الوفد سيكون صاحب الأغلبية .

وجاء يوم الانتخابات فإذا بسماسرة الأصوات ينشطون ، وإذا بسيارات المرشحين تجوب فى الأحياء تهتف وتجمع الأنصار ، وإذا بأنصار كل مرشح يقفون عند أبواب الدوائر الانتخابية يذكرون الداخلين بانتخاب ابن الدائرة المجاهد النزيه . ومريوم ملء بالنشاط والحركة والإنفاق وبات الناس ينتظرون نتائج الانتخابات ، ولو أننى لست حزيباً إلا أننى كنت فى قرارة نفسى أتمنى فوز الوفد ليكون ذلك لطمة للملك الذى ابتدع بدعة الإقالة يوم أطاح بالوزارة الائتلافية .

وأعلنت النتيجة فإذا بالوفد يفوز بالأغلبية ، وإذا بموجة من الفرح تجتاح البلاد . واجتمع النواب الوفديون وانطلقوا إلى مجلس الأمة وقد أغلقت أبوابه بالسلاسل ، فتقدم ويصا واصف وكان رئيس المجلس الذى انفرط عقده لما أقيمت الوزارة فصاح بالحراس أن افتحوا الأبواب ، ففتح الباب الحديدى وتدفق منه النواب حتى إذا ما يلغوا

الباب الداخلى ألفوه مغلقا فهزه بعض النواب هزا عنيفا وصورة الملك معلقة فوقه .
فاهتزت الصورة فقال النقراشى :

— حاسبوا لصورة الملك تقع .

وفهمها النواب فقد كانوا فى طريقهم إلى القاعة ليتحدوا إرادة الملك ، ودخل
النواب المجلس وفتحت لهم كل الأبواب ، بينما غلقت الأبواب فى وجوه الناحيين فى
نفس الوقت .

٤٤

كانى أخى محمد لا يترك عيداً أو أية مناسبة دون أن يجمعنا ويخرج بنا إلى حلوان أو
القناطر لنمضى يوماً معاً فى مرح وانطلاق . فلما اقترب يوم شم النسيم راح يضع
الترتيبات لنقضى ذلك اليوم فى القناطر . فما من صديق من أصدقائنا يدخل السلامك
إلا ويدعوه ليمضى اليوم معنا ، وكان الخروج مع محمد معنا أن يتكفل بنقلنا وأكلنا ،
وما كان للأكل ثمن يذكر فى تلك الأيام فرطل اللحم الضأن بثلاثة قروش ، فكان يجهز
طعاماً بثلاثين قرشاً يكفى عشرة أشخاص .

وكان كل عمل فى الاستعدادات للرحلة أن أنفخ الكرة وأعد وسائل اللعب
والتسلية ، فما كانت أية رحلة ترضينى إذا لم تتح لى فيها فرصة المشاركة فى مباراة
عفوية تقام بيننا وبين أية مجموعة من الناس فى حلوان أو فى القناطر أو فى أى مكان
نذهب إليه لنقضى فيه يوماً ما .

إننا ذهبنا إلى قليوب ولعبنا فى سوقها ، وكانت أسرة شديد تقطن نفس الحى الذى
نسكن فيه وقد لعب معنا بعض أفرادها . وفى ذات يوم دعونا لنذهب إلى بلدتهم
أجهور الورد فسافرنا إلى هناك لتبارى مباراة حبية . فلما كان موعد الغداء إذا بالموائد
تمدو وكان عليها ديوك رومية ودجاج وحمام . وكان حارس مرمانا أرمنياً فقيراً وكان أبوه
يعطيه مليمين كل يوم اثنين فكان ينزل إلينا يزف ذلك النبأ السعيد فى فرح وابتهاج .
فلما بدأنا فى الأكل ظهر عليه الانبهار ، ثم راح يأكل فى حفاوة ويضع عظم الديك

الرومى فى جيبه ، فلما لمحتة قلت له :

— بتعمل إيه يا خاتشو ؟

فقال فى بساطة دون خجل :

— بحط العضم فى جيبى عشان أمدى تعرف إنى أكلت ديك رومى .

وأعد أحد الأجران ليكون ملعبا ، وبعد الغداء بقليل بدأت المباراة لنتمكن من العودة قبل أن يهجم علينا الليل ، ووقف الفلاحون حول الجرن يشاهدون المباراة . ومنذ اللحظة الأولى اتضح أن الضيوف لا يجيدون اللعب ، فتسلمت الكرة وجريت بها حتى أودعتها المرمى وأطلقت صفارة الحكم ، وارتفعت بعض الأصوات :

— جول .

وسأل الفلاحون :

— مين اللى غلب ؟

— اللى جاين من مصر .

وغضب الفلاحون وقالوا :

— بقى نغديهم وجاين يغلبونا !

وذهب الفلاحون وسرعان ما عادوا وفى أيديهم سعف النخل والهراوات ، وسمعنا بعض أصدقائنا من الشدايدة يطيبون خاطرهم ويحاولون أن يهدئوا من ثورتهم . أحسنا جميعا بالخطر المحدق بنا وبما يجرى خارج الملعب ، ووصلت إلى الكرة وما تسلمتها حتى جريت بها صوب المرمى ، فإذا بأخى أحمد يصيح لى :

— سيبها .. سيبها .

كيف أترك الكرة وقد أصبح المرمى مفتوحا أمامى ؟ وصاح لى أخى مرة أخرى :

— سيب الكرة .

وتركتها وأنا كاره فأخذها أحد الخصوم وركلها فإذا بفريقنا يقف فى مكانه لا يتحرك ، فتقدم آخر من الشدايدة وأخذ الكرة وجرى بها وأعضاء فريقنا يفسحون له الطريق حتى وصل إلى المرمى .

وخشى أخى أحمد أن لا يتمكن الخصم من إصابة مرمانا فأشار لخاتشو أن يترك

المرمى ، وتمكن الفريق المضيف من التعادل ، فلما أطلقت صفارة الحكم ارتفعت أصوات مهللة :

— جول .

وسأل الفلاحون :

— حصل إيه ؟

— هم جابوا جول واحنا جنبنا جول .

— يعنى حبايب ؟

— حبايب .

ونزل الفلاحون إلى أرض الملعب وقالوا :

— خلاص ما فيش لعب ، نطلع حبايب أحسن .

فقال أخى أحمد :

— أحسن .

وانتهت المباراة وأنا فى قمة ضيقى . كنت أفضل أن تستمر المباراة وأن نلعب ونغلب حتى لو كان نصيبنا الضرب فى آخر المباراة .

وجاء الفلاحون يوزعون علينا أكواب شراب الورد ، وكان شرابا لذيذ الطعم ، ولا غرو فإننا فى أجهور الورد .

تذكرت تلك المباراة وأنا جالس أمام باب السلامك أحلم بمباراة فى ملعب القناطر فى شم النسيم ، وفيما أنا غارق فى أحلامي إذ أقبل ألبير وشاركنى فى جلستى وقال لى :

— ح نروح القناطر فى شم النسيم .. ما تيجى معانا .

— ح اروح مع اخواتى . نتقابل هناك .

وظهرت فورتينيه فى الشرفة ، فلما رآها ألبير قال لها :

— مش ح ييجى معانا ، ح يروح مع اخواته وح يقابلنا هناك .

وفى الصباح الباكر من اليوم الموعود حملنا غداءنا والكرة وأدوات اللعب وركبنا الترام إلى العتبة ومن هناك ركبنا الترام إلى روض الفرج ، وهبطنا مسرعين فى فرح إلى الرفاص الذى كان ينتظر عند الساحل . ومرت أكثر من ساعة وإذا برجال ونساء

وأطفال يتوافدون إلى المركب ، وانساب أخيرا في النيل فانطلقت الزغاريد من بعض النسوة ودقت الطبول وقام بعض الشباب يرقصون ، وردد بعض الرجال والنساء أغاني عاطفية . كانت البهجة تلف كل الناس ، وقبيل الظهر وصل المركب إلى شاطئ حديقة من حدائق القناطر ، ومد لوح خشبي بين المركب والشاطئ ، فسرنا عليه لكأنما كنا نقطع الصراط ، فأى اختلال في توازننا معناه السقوط في الماء .

وتحت شجرة وارفة الظلال فرشنا ما معنا من بسط ثم جلسنا أرضا ، ولم نستطع أن نصبر على ما معنا من الطعام فأخرجناه من لفائفه ، وامتدت الأيدي إلى اللحم والبطاطس والكبيبة وكل أنواع المخللات كأنما كنا في حاجة إلى ما يفتح شهيتنا .

وعقب الغداء رحت أجوب حدائق القناطر أنقب عن جيراننا اليهود . كانت الحدائق تموج بالناس موجا فرحت أحاذر وأنا أنقل قدمي حتى لا أدوس جموع الناس الذين افترشوا الأرض يأكلون الفسيخ والبصل . وأخذت أتلفت في حيرة فخيّل إليّ أنني أبحث عن إبرة في كوم من القش ، وتعبت من البحث ولكن لم يتسرب إليّ اليأس فجعلت ألف وأدور وأنا أكاد أنوء من التعب .

وقررت أن أعود إلى حيث يجلس أصدقائي وأن ننطلق إلى ملعب الكرة لنبحث عن فريق ينازلنا . وسرت مطرقا وفيما أنا في طريق عودتي وجدت ألبير وأخويه وأباه وأمه وفورتييه وأختها ، وكانوا يفرغون زجاجات البيرة في أجوافهم ، فخطر لي أن أفر وما كنت أدري لذلك سببا . أبعد كل ذلك التعب أهرب منهم بعد أن وجدتهم ؟!

ولمحتني فورتييه فنادت :

— عبده .. عبده .

وذهبت إليهم فدعوني للجلوس وسرعان ما قدم لي الأب زجاجة بيرة فاعتذرت بأنني لا أشرب ، فأخذت فورتييه من أيها الزجاجات وراحت تغريني على أن أشرب ولكنني أبيت ، فإذا بأختها تقول لي :

— خايف من إيه ؟ دي بيره ، احنا شربنا ستة وثلاثين إزازه .

وراحت فورتييه وأختها يزينان لي شرب البيرة وأبيت ، فكيف أشرب بيرة وأبي لم يدخن طوال حياته سيجارة ؟ كان أبي مثلي الأعلى فقد اتخذته قدوة وعزمت على أن

أسلك في الحياة مسلكه ، فلا أذكر أننى سمعته يوماً يغتاب أحداً أو يسخر من أحد أو يأتى معصية تغضب الله .

ولعبت البيرة برعوس الأسرة كلها ، فإذا بالأب يهذى ، وإذا بالبير يأتى حركات لا تنم عن اتزان ، وإذا بفورتينية تميل على فى تهتك ، وإذا بأختها تحاكيها ، فصرت بين أناس لا يستطيعون أن يتحكموا فى تصرفاتهم ولا فى عواطفهم ، وانطلقت ألسنتهم بألوان من الهذيان فاستشعرت خجلاً وإشفاقاً على جيرانى الذين انحطت إنسانيتهم ، فوطدت النفس على ألا أهبط بإنسانيتى إلى ما هبطوا إليه ، وأن لا أكون عبداً للكأس تجرح كبريائى وتمرغ كرامتى فى التراب .

٤٥

انتهت الدراسة وكنت من الناجحين فقد انقشعت عنى تلك الفكرة التى استولت على طوال أيام دراستى الابتدائية ، ففكرة أن كل جهد أنفقه فى الحياة عبث ما دام الموت هو نهاية كل شىء . إن الموت حقيقة لا ريب فيها ، ولكن ليس معنى ذلك أن أسلم نفسى لليأس وأن لا أخوض معركة كتبت على ، فما دام الموت يخاصم الذين يرتقبونه فعلى أن أتسلح بكل الأسلحة التى تمكننى من أن أعيش أيامى على الأرض عيشة كريمة وألا أكون عالة على أحد .

كان أبى يلبى كل حاجاتنا ، بل كان يجلب لنا أكثر من حاجاتنا فلم نذق طعم الحرمان ، إلا أننى فى قرارة نفسى كنت أستشعر أننى حمل على أهلى ، وكنت أحس لذة روحية إذا ما قسوت على نفسى ولم أستجب لرغباتها ، فإذا ما زينت لى أن أطلب من أبى نقوداً لشراء بعض ما تشتهيه من ملابس فاخر كنت أزجرها وأفطمها عن شهواتها ، بل كنت أوئبها وأشد فى تأنيبها ، فزرعت فى نفسى بذور الزهد فى كثير من الطيبات .

وتبدل الحال فبعد أن كنت أدخل فراشى على أمل أن تكون رقدتى فى كل ليلة هى الرقدة الأخيرة فإذا ما فتحت عيني على نور المصباح انتابنى غم شديد لأن الموت لم

يرحمنى من وطأة الحياة ، أصبحت أدخل فراشى أتعجل انقضاء الليل حتى إذا ما لاحت تباشير النهار انطلقت متفرحا إلى مدرستى ففيتها أصدقاء وزملاء ورفاق كرة جملوا الدنيا فى عينى .

إن الإجازة الصيفية طويلة وما كنا بعد قد عرفنا السفر إلى الإسكندرية . كنا نقرأ أنباء السادة المترفين الذين يقضون الصيف فى سان ستيفانو فى المجلات تحت عنوان « أنباء الطبقة الراقية » وما كنا يوما من تلك الطبقة . كنا نمضيها فى التنقل بين المسارح الصيفية فى روض الفرج والمسارح التى تعمل فى الحر فى القاهرة ودور السينما التى تعتمد فى تلطيف الجو الخائق على المراوح فى السقف أو على جانبى الصالة .

كانت مسارح روض الفرج تقيم حفلة نهائية فى التاسعة صباحا ، كانت تقدم فيها للرواد الفول والخبز والمخللات ، فكنت أذهب فى يوم الجمعة صباحا أنا وأحمد وسعيد فنتناول الفطور ثم نسمع حياة محمد تلميذة سيد درويش ، أو نشاهد مسرحية فكاهية من فرقة عز الدين أو فرقة الجزايرلى ونسمع منولوجات ونشاهد رقصا شرقيا . وكان أكثر ما يمتعنا فى تلك الفرق إذا ما نشبت مشادة بين رتيبة أحمد وبين بعض المتظارفين من الجمهور ، وكنت أحس شيئا من التعاطف مع رتيبة أحمد فقد كنت معجبا بتهريج أبيها الشيخ أحمد الحمزاوى فقد كان يحيى معظم الأفراح التى تقام فى الأحياء الشعبية . ويا طالما حضرت أفراح الناس البسطاء هناك ، فأهلى من البسطاء المنتشرين فى باب الشعرية والجمالية .

كان أحد أفراد بطانته يسأله عن الساعة فيخرج من جيب قفطانه منها ضخما ، وكانت تلك الحركة كافية لأن تبعث الضحكات من الأعماق . وكان خفيف الظل حاضر البديهة سريع النكتة ، وكانت معظم نكاته جنسية تدغدغ الحواس وما كانت تخدش حياء أحد ، فالجنس شىء مألوف بين البسطاء ليس له تلك الهالة الرهيبة التى عقدت المتفقهين والفلاسفة الذين وضعوا كل مواهبهم فى سبيل تعقيد المريدين وطمس كل ما فى الحياة من جمال .

إنه أبو فتحة أحمد مطربة القطرين صاحبة الصوت الأخاذ ، فكان ذلك يزيد فى رصيده عند جمهوره . وكثيرا ما كانت تعقد مقارنات بين فتحة أحمد ومنيرة المهديّة كلما ذهب الشيخ أحمد الحمزاوى ليحيى فرحا من الأفراح أو يشارك فى إحياء الليلة

إذا ما كان أصحاب الفرع على جانب من اليسار واستطاعوا أن يتفقوا مع الشيخ زكريا أحمد على الغناء .

كنت أذهب في صباح يوم الجمعة إلى روض الفرع لأعاش الفن ؛ إلا أن الليلة التي كنت أقضيها هناك مع أخى محمد كانت تعمل في نفسى عمل السحر ، فالكهرباء تضىء واجهات المسارح المتواضعة ، والرواد يتدافعون بالمناكب ، والعشاق ينسلون إلى المراكب ، وأصوات الموسيقى النحاسية تدوى في كل مكان ، وبعض الرجال يقفون على أبواب المسارح يعلنون البرامج فمعظم الرواد ممن لا يحسنون القراءة أو يعجزون عن قراءة الإعلانات ، واستعراضات الرقص أدمم من استعراضات الصباح ، إذا كان رقص راقصة واحدة على نقرات الطبله وهز البطن يعتبر استعراضا .

إن هرولتنا عقب انتهاء العرض في سكون الليل لنلحق ترام روض الفرع العائد إلى العتبة شىء رائع ، وكنت أسرع الخارجين من المسارح إلى الترام ، فكنت أحتل مكانى وأحجز مكانا لأخى محمد ، فإذا ما انساب الترام في شوارع شبرا الهادئة التى لفها الليل بغلالة من الغموض والسحر كانت نشوة عارمة تنداح في أغوارى .

كنت أمتص رحيق الفن في دور السينما ومسارح عماد الدين وروض الفرع ، وأتجرع السياسة في كل ليلة في السلامك ، فقد كان نزلاء الليل يخوضون في السياسة اليومية قبل أن يقرءوا كتابا من كتب التاريخ أو الأدب الحديث أو تفسير الأحلام وقراءة الطالع .

كان النحاس باشا رئيس الوزراء قد سافر إلى إنجلترا لإجراء مفاوضات مع هندرسون فكانت الصحف الوفدية وصحف الأحرار الدستوريين ، بل والصحف التى تعتمد على الدولة المحتلة في تمويلها تنشر أنباء تلك المفاوضات . وكنت في أثناء فترة استراحتى من المذاكرة أشارك القوم جلستهم وأصغى إلى نتف من الحوار المحتدم بينهم ، كان البعض يرى أن صحف الوفد تتفاءل أكثر من اللازم ، وأن صحف المعارضة تتشاءم أكثر من اللازم ، وأن أنباء الأهرام والمقطم قد تكون أكثر حيادا وأكثر واقعية .

وأخفقت مفاوضات النحاس — هندرسون ، فلما عاد النحاس باشا قدم استقالة

الوزارة نظرا لعدم تمكنها من تنفيذ البرنامج الذى قطعت على نفسها عهدا بتنفيذه وقبلت استقالة الوزارة ، وفى نفس اليوم كلف إسماعيل صدقي باشا بتأليف وزارته الأولى . كان اللورد جورج لويد قد نقل إلى إنجلترا وحل محله فى مصر سير برسى لورين ، فراحت أبواق القصر تذيع بين الشعب أن الملك قد عين صدقي باشا دون أن يرجع فى ذلك إلى المندوب السامى البريطانى للتدليل على جرأة الملك ووطنيته !

كان سير برسى لورين يفاوض زعماء الأغلبية لوضع مشروع اتفاق بين مصر وبريطانيا وكان يأمل أن يجد المخرج للوصول إلى اتفاق ، فلما كلف صدقي باشا بتأليف الوزارة كان أول ما فعله أن ذهب إلى المندوب السامى ليخبره أنه مكلف بتأليف الوزارة وأنه ساهم فى تصريح ٢٨ فبراير بل إنه أحد واضعيه ، وأنه كان المفترض الثانى مع عدلى باشا سنة ١٩٣١ .

وراحت الصحف المؤيدة لكل حاكم تؤكد أن سياسة الوزارة الجديدة نحو الماضى بما له وما عليه وتنظيم الحياة النيابية تنظيما جديدا يتفق ورأى صدقي فى الدستور واستقرار الحكم . وأجل صدقي باشا البرلمان شهرا وإذا بمعارضة حامية تهب فى مجلس الشيوخ والنواب ، وإذا بالثورة تنتقل إلى الشعب فتقوم بمظاهرات فى القاهرة والإسكندرية وفى الريف . وسرعان ما يطلب الذين يتمتعون بالحماية الأجنبية وبعض أصحاب الهوى من إنجلترا التدخل بحجة حماية أرواح الأجانب وأموالهم .

وحدث أن مات ويصا واصف باشا رئيس مجلس الأمة فقالت الصحف إنه مات من أكل « ما ينيز » فاسد ، وراحت الشائعات تؤكد أنه مات مسموما ، وكانت جنازته مظاهرة ضخمة فقد ارتفعت الأصوات تهتف :

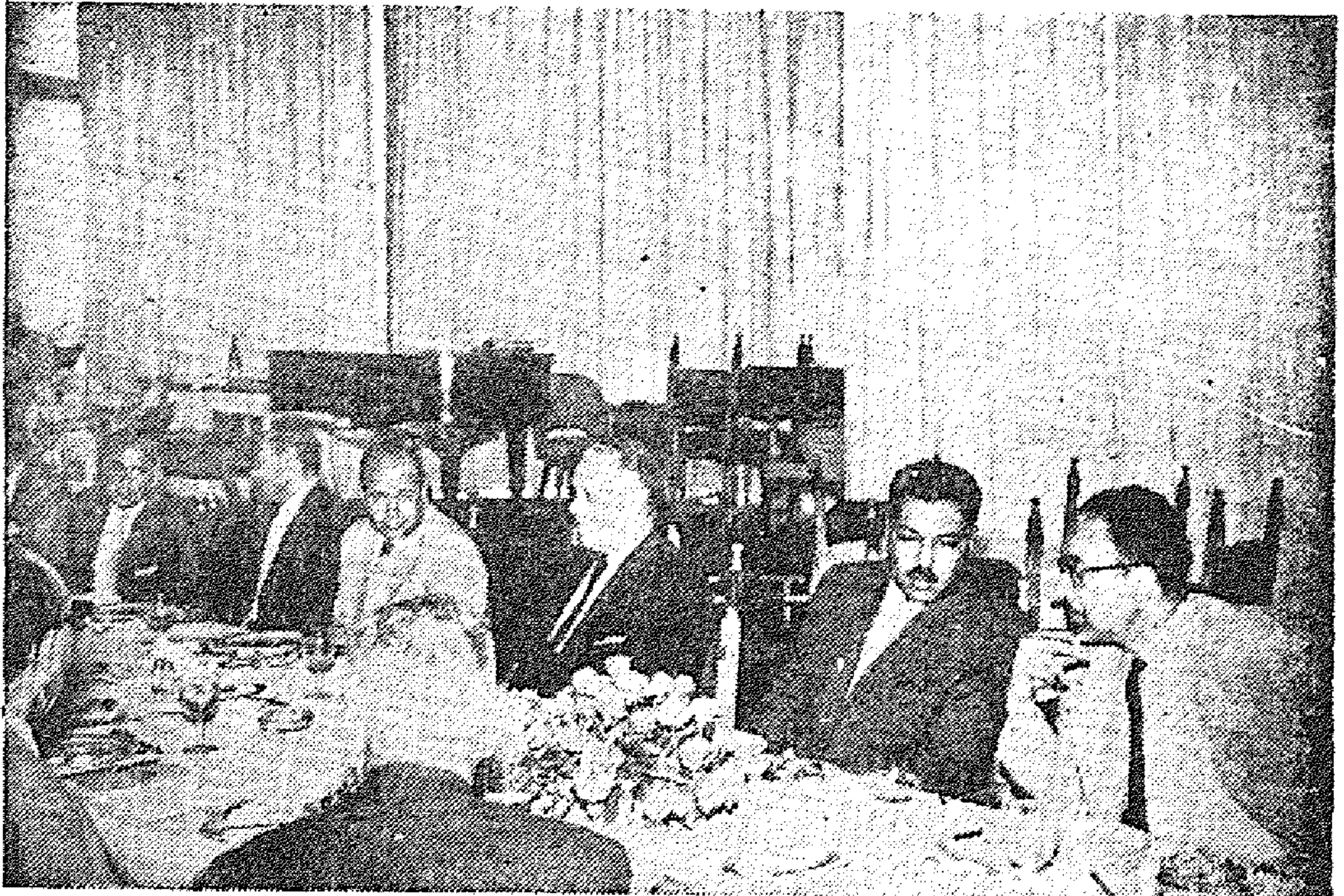
— اشكى الظلم لسعد يا ويصا .

وثارت الإسكندرية وزجرت وزارت فأرسلت الحكومة البريطانية تعليمات إلى المندوب السامى ليبلغ صدقي باشا أن الحكومة البريطانية تعده مسئولا عن حماية أرواح الأجانب وممتلكاتهم فى مصر ، وقد كلفت السير برسى لورين بأن يبلغ النحاس باشا أنه يجب أن تحل مشاكل مصر الداخلية دون أن تتعرض أرواح الأجانب للخطر ، وأن إنجلترا تعده مسئولا لذلك مع الحكومة .

ولم تعدل إنجلترا من أسلوبها فنشرت الصحف أنها أرسلت بوارج وأن البوارج في طريقها إلى الإسكندرية . كنا في يوليو من عام ١٩٣٠ وكان إرسال البوارج لاحتلال الإسكندرية بحجة حماية الأجانب وأموالهم في يوليو من عام ١٨٨٢ . أكرر التاريخ نفسه !؟

واستولى القلق على جميع المصريين ولكن صدق باشارد على التبليغ بأنه تدخل في الشؤون الداخلية ، وأن الحكومة المصرية ترى أن التبليغ تجاوز حده لما أشرك غيرها في المسؤولية . وقد فعل الرد فعله فبعثت الحكومة البريطانية تأمر البوارج بالعودة من منتصف الطريق .

واستراحت مصر من شبح تهديد البوارج البريطانية وبقي التوتر بين أغلبية الشعب والحكومة ، كان القلق على دستور البلاد يستولى على المصريين جميعا .



كان أبو شفاتير شاباً مفتول العضلات ، غليظ الشفتين دق عصفورين على صدغيه بالوشم الأخضر . إنه يخدم في بيوت الحى ، وقد جاء لىخدم عند الأسرة اليهودية الصديقة . وفى ذات يوم صعد إلى غرف الغسيل مع فورتينيه ، فما إن هبط إلى الشارع حتى أقبل على مسرورا وراح يفضى إلى فى فرح أنه نال الفتاة .

و لم يثر حديثه دهشتى فما أكثر الذين قالوا إنهم عرفوها . ومرت الأيام وأبو شفاتير يفضى إلى بسر العلاقة بينه وبينها ، إلا أننى لاحظت أن انبهاره قد خمد . وسرعان ما بدأ يشكو إلى نهما ، ثم بدأ يتبرم وقد لاح عليه سيماء الإرهاق ، وبعد أقل من شهر هرب الشاب واختفى . وقابلته صدفة وسألته عن سر فراره فقال لى :

— الموت جوع ولا الشغل ده .

وابتسمت ، وما كدت أعود إلى مكانى المختار عند الباب الحديدى حتى نادانى ألبير لأسلى أباه بلعب الطاولة ، ومد يده إلى يدى يعاوننى على الدخول من الشرقة ، وما كدت أستقر على الكرسي حتى راح الأب يروى ذكرياته وهى يلقي الزهر ؛ قال إنه كان مطرباً وقد سمعت ذلك منه مرات حتى حفظته ، ولم يكتف بالقول بل نهض وأحضر أسطوانة على شكل كوب وقال إنه سجل صوته على هذه الأسطوانة وتمنى لو كان عنده فوتوغراف قديم يمكنه من إدارة تلك الأسطوانة ، إذن لسمعنا أن صوته من نفس معدن صوت صالح عبد الحى .

وعاد إلى مقعده ليستأنف اللعب ، وإذا به يقول فجأة :

— عايزين ناكل كساتا على حسابكم .

لم يكن طلبه شيئاً يرهقنى ، ففكرة الكاساتا كانت تباع بسبعة قروش بالفجالة ، فأخرجت القروش السبعة وقلت :

— مين اللى ح يجيب الكاساتا ؟

فقال الأب فى بساطة :

— ألبير يروح بالعجلة .

وأخذ ألبير النقود وانطلق مسرعا واستأنفنا لعب الطاولة ، وما أسرع أن عاد ألبير بكرة الكاساتا فراحت الأم توزعها علينا ، وإذا بالأب يقدم إلى قطعة فى صحيفة ويقول لى :

— إدى دى لفورتينيه .

فورتينيه ؟! إنها فى الحمام . ووقفت لحظة حائرا وقد احمر وجهى خجلا . ونظرت فى وجوه الذين يلتهمون الكاساتا فلم ألحظ أية دهشة أو ظل لاعتراض ، فذهبت وأنا أكاد ألا أحس وجودى وطرقت باب الحمام ، فإذا بصوتها يأتى من الداخل هادئا :

— أيوه .

فقلت فى صوت مضطرب :

— خدى الكاساتا .

فسمعت صرير الباب وهو يفتح ، ولم أر إذا ما كانت عارية أو غطت جسدها فإننى مددت يدي بالكاساتا وأشحت بوجهى بعيدا ، فالناس قد وثقوا بى وليس من الأمانة أن أخون الثقة .

وفى الليل شاركت نزلاء السلامك جلستهم . كانت مصر قد عرفت محطات الإذاعة الأهلية : محطة مصر الملكية ، محطة فاروق ، محطة سقال ، وكان التنافس بين تلك المحطات شديدا ، وقد استقبل الناس هذا الحدث بكثير من الرضا فليالى الطرب أصبحت تقام كل ليلة فى منازلهم . إنهم يلقون أسماعهم إلى المنولوجات وإلى أصوات المطربين الندية وهم مسترخون على أرائكهم أو فى مقاعدهم . كان الجميع ينصبون فى اهتمام فأخى أحمد كان يلقي زجلا فى محطة كانت مقامة فى ميدان الحسينية . وما انتهى أخى من زجله حتى راح الجميع يتحدثون عن ماركونى واختراعه العجيب .

وأعلن المذيع أن الشيخ محمود صبح سيغنى أغنية جديدة من تلحينه ، ثم راح يشدو

بياليل يا عين وما كاد ينتهى منها حتى قال :

— يسمع دى محمد عبد الوهاب .. يقدر محمد عبد الوهاب يوصل لكده ؟
كانت تعليقات المطربين على أصواتهم ومقارنتها بأصوات الآخرين أمرا لا يثير أية
دهشة ، بل إن بعض المحطات كانت تلجأ للإثارة لتجذب أسماع الجماهير وانتباههم
ففى ذلك زيادة للإعلانات التى تعيش المحطات عليها .
وكانت فورتينية قد تركت محل القمصان والكرفات بشارع محمد على والتحقت
ببوفيه جزيرة الشاى بحديقة الحيوان ، وكانت فرقة الصياد الموسيقية وهى فرقة من
البوليس قد انتقلت من كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية إلى كشك الموسيقى بحديقة
الحيوان . وكان أخى محمد يذهب إلى حيثما تذهب فرقة الصياد ، فهو من المعجبين
بالفرقة ، وقد توطدت صداقة متينة بين أخى والصياد قائد الفرقة الموسيقية . فما إن
دعانى محمد للذهاب إلى حديقة الحيوان فى صباح يوم جمعة حتى لييت دعوته
مسرورا . وانطلقنا إلى الحديقة وجلس محمد لسمع الفرقة التى عشقها وذهبت إلى
جزيرة الشاى أنظر من بعيد نظرات متلصصة إلى حيث جلست فورتينية خلف الكيس .
كانت النقود فى جيبى وكنت قادرا على أن أجلس إلى منضدة وأن أتظاهر بمراقبة البجع
فى بحيرته وأن أمد إلى فورتينية عيني بفلوسى ، ولكنى كنت أرتجف فرقا من أن تلمحنى
وأنا أمر على الممرات الزلطية التى كانت طابع ممرات الحديقة .
وعند محطة الترام بميدان الظاهر كنت أنتظرها كل ليلة لنعود معا ، فما كان بيننا
أكثر من قطع الطريق بين المحطة والبيت وتبادل حديث لا نخسر شيئا إذا ما كتمناه ،
ولكنه على الرغم من فراغه كان حوارا ممتعا يعث الرضا فى نفسى .
وفى ذات يوم بينا كنا فى طريق عودتنا قالت لى فى بساطة :

— حلمت إنك نايم معايا . ترضى ؟

فقلت دون تفكير : هذا الكتاب

ملك الأستاذ الدكتور

— لا .

وساد صمت بيننا ، ترى هل جرحت كبرياءها برفضى ؟ وعدت إلى البيت ولم
أدلف إلى السلامك بل ذهبت إلى سريرى واستلقيت عليه وأخذت أفكر فى ذلك

العرض الذى إن دل على شىء فإنه يدل على أنها تريد أن تتخذنى لعبتها. إني لم أنس أنها قالت لى يوم أن كانت صائمة ودعتنى لأقضى الوقت معها :

— تعال نسلى صيامى .

أكل ما تريده منى أن أكون لها تسلية ؟! أو أقبل أن أكون لها كما كان أبو شفاتير ؟ كنت أريدها شيئاً آخر أظهر مما هي عليه وأعف . إنها أول من خفق لها قلبى . إنها أول فتاة فى بواكير رجولتى وكنت أتمنى أن تكون طيفاً لا جسداً ، أن تغذى روحى قبل أن تشفى غليل رغباتى ؛ إلا أنها لم تكن تعرف أكثر من إسكات صرخات الشهوة وتلبية نداء الغابة .

ولم أستطع أن أقاوم ذلك الشىء القاهر الذى يدفعنى كل ليلة لانتظرها عند محطة الترام فى الليل لنعود معا إلى البيت . وفى ذات مساء بينا كنا نسلك سبلنا قالت لى فى فرح :

— اتخطبت وح ييجى خطيبى بكره يعيش معانا .

كنت أعرف أن لا بد من أن يمضى الخطيب مع خطيبته أربعين يوماً قبل أن يقررا الزواج ، إنها فترة التجربة . وكنت فى قرارة نفسى أتمنى لها أن توفق وأن تجد الزوج الذى يتخذها سكناً له ، أن يهدى من ثورتها الجنسية الجامحة ، وتذكرت فرار « أبو شفاتير » فقلت لها صادقاً :

— فورتينيه ، نامى مع أى واحد بس ما تناميش مع خطيبك .

فقالت وهى تضحك ضحكة ساخرة :

— انت غرت منه .

فجمعت كل شجاعتى وقلت لها وقد تدفق الدم حاراً إلى وجهى :

— ح يهرب .

وأقيم فى بيتها حفل متواضع إلا أنه كان حفلاً صاخباً ، رقص وشرب وأصوات كبار قدامى المطربين والمطربات تنبعث من الفونوجراف ، ولم أَدْع إلى ذلك الحفل ولكن ألبير جاء إلى يقدم بعض أصناف من الحلوى المتواضعة .

كان ألبير أقرب إلى من مورييس أخيهما الأكبر . إنه يقص على دقائق حياتهم ؛ راح

يروى لى كيف أنفقت فورتينيه كل ما ادخرته فى ذلك الحفل ، وأنها ستدفع « دوتة » كبيرة ، وأنه يتمنى أن يجد فتاة تدفع له « دوتة » تمكنه من أن يفتح دكانا بدلا من أن يطوف كل شوارع القاهرة لبيع ما يحمل على ذراعه من بضاعة .

إنه ليس أقل من حايم . كان حايم يدور فى الطرقات وهو يحمل صرة كبيرة بها أقمشة ، وهو الآن بعد أن تزوج وتسلم « الدوتة » صاحب دكان مانيفاتورة . كانت الفتاة هى التى تدفع المهر للذى يتزوجها ، وذلك ولا شك من تقاليد حكماء صهيون فلا أظن أن بين حكماء صهيون فى سالف الزمان امرأة .

وأخلت غرفة من الغرف التى تطل على الشارع ووضع بها سرير ودولاب ، وعاشت فورتينيه وخطيبها فى تلك الغرفة وحدهما . وانقضى يوم ثم يوم ثم يوم وهما يتعانقان والشباك مفتوح دون حجل . ومن بعيد أحسست فتورا فى علاقتهما ، فما زرت الأصدقاء مذ جاء الخطيب إلى بيتهم . ومرت ستة عشر يوما وإذا بالخطيب يحمل حقيبته وينصرف غاضبا . إنه شاب وسيم طويل الرقبة نحيل القوام ، لم يكن مثل « أبو شفاتير » عريض الكتفين مفتول العضلات بل كان فى تكوينه أقرب إلى تكوين الأنثى ، وكنت مشفقا عليه من أول يوم وقعت عليه عيناي . إنه سيفر ، سيفر قبل أن تنتهى أيام التجربة وقد كان .

وعادت فورتينيه لتقابلنى ، قالت لى وهى تبكى :

— صرفت عليه دم قلبى .

ولدت بالبصمت ، إنها سخرت من نصيحتى وقد كان ما توقعت . وكان لا بد أن يتركوا الشارع بعد أن كان مصير الخطوبة الإخفاق ، فمن ذا الذى يتقدم لخطبة فتاة ثبت بالتجربة أن شابا وسيما لم يستطع أن يعاشرها نصف المدة ؟! وحمل عفشهم المتواضع على عربات كارو وسار ألبير وموريس وأمهم وأبوهم إلى جوار العفش ولم أسألهم إلى أين ؟ كل ما عرفته أنهم انتقلوا إلى البكرية وما يفصل بيننا وبينها إلا شارع الخليج المصرى . ذلك الشارع الضيق الذى تجرى فيه الترام وتكاد تحتك بجدران المنازل التى تطل عليه .

رحت أستعد لأول رحلة في حياتي ، فأخى محمد أخبرني أنني سأسافر معه إلى الإسكندرية ثمضى هناك يومين ولم أكن قد رأيت الإسكندرية بعد . كنت أقرأ وأنا صغير ذلك الحوار الحار الذى يدور فى صفحات كتاب القراءة الرشيدة بين مصر والإسكندرية والذى يبدأ بـ « كيف حالك يا مصر » فتجيب مصر « أنا بخير ما دمت بخير » ثم ينقلب الحوار اللطيف إلى ما يعيد إلى ذهني تلك المشاجرات التى كانت تنشب بين امرأتين فى شباكين متقابلين فى حارة من أحيائنا الوطنية .

كنت أنفعل بذلك الحوار الذى كان يشتد ويعنف أحيانا ثم ينتهى بمصالحة بين الثغر الجميل والعاصمة التى بناها جوهر الصقل ، وكنت أحلم بزيارة مدينة الإسكندر لأرى إذا ما كانت بذلك الحسن الذى تدعيه فى تزكية نفسها .

وفى الصباح الباكر جاء إلينا صديق من أصدقاء أبى وأخى كان أول من فكر فى تعبئة الشاى فى عبوات صغيرة ، فنزلت إليه أنا ومحمد وسعيد ثم انطلقنا إلى ميدان الظاهر وركبنا الترام حتى المحطة ، ومن هناك ركبنا القطار فى الدرجة الثالثة وكانت مقاعدها أشبه بذلك الحداثق العامة ، وكان عدد الركاب قليلا وإن كنا فى شهر يونية فما كان عامة سكان القاهرة قد عرفوا بعد تمضية الصيف على الشواطىء ، فالذهاب إلى الشواطىء شىء عسير يحتاج إلى تكاليف كثيرة ، فما كان كورنيش الإسكندرية قد أقيم بعد .

وأمضيت الوقت فى التنقل بين عربات القطار فأنا لا أستطيع أن أستقر طويلا فى مكان . وانقضت ساعات قبل أن نصل إلى عروس البحر الأبيض التى كانت صورتها فى ذهني ، بعد أن قرأت ذلك الحوار الساخن فى كتاب القراءة الرشيدة بينها وبين القاهرة ، امرأة من بنات بحرى اللاتى تتفنن المجلات فى رسمها بملاءتها اللف ولسانها الطويل .

(هذه حياتى)

ووصلنا إلى محطة مصر وكانت دهشتي بالغة . كيف تكون محطة مصر وهى فى الإسكندرية ؟! ولم أجد لذلك تعليلا ، وسرت بين الرفاق أتلفت وأفعل مثلما يفعلون . إن القطار قد وقف على الجانب الأيسر وكان لا بد أن نصعد إلى جسر علوى لنعبر إلى الجانب الأيمن ، ولكن أحدا من الركاب لم يفعل ذلك ، بل نزلوا إلى طريق القطارات وعبروه ثم قفزوا كالقردة إلى الرصيف الأيمن . ولم نكن لنشذ عن الناس ففعلنا مثلهم ، وسرعان ما خرجنا إلى الميدان الفسيح أمام المحطة والهواء المنعش يداعب أرواحنا قبل أن يعث بشعورنا ويصافح وجوهنا .

وركبنا عربة حنطور وانطلقنا فى شوارع نظيفة وأنا أتلهف على رؤية الترام ذى الطبقتين ، فيا طالما سمعت عنه من كل من زاروا المدينة الجميلة التى كانت تختلف تماما عن كل ما تصورته : فلم أجد فى شوارعها الفتيات اللاتي يرتدين الملايات اللف بل وجدت كثيرا من الأجانب يغدون ويروحون فى خيلاء ، فأحسست أننى قد انتقلت إلى مدينة أوروبية .

وراح أخى محمد يسأل أين نزل ؟ فهتفت فى حماس : المنشية ، وما كنت أدري شيئا عن الإسكندرية . كل ما أعرفه عنها من كتاب القراءة الرشيدة ، أن فى ميدان المنشية تمثالا لمحمد على الكبير . وانطلق الحنطور بنا إلى هناك ونقلنا حقائبنا ، وكانت حقائب متواضعة لا تزيد على حقائب تحمل فى اليد ، فقد جئنا لتمضى يومين فقط فى المدينة الساحرة .

ووضعنا حقائبنا وهبطنا مسرعين فما كان هناك وقت لنضيقه ، ورحت أملاً عيني من كل شيء : كان فى الميدان مناضد للصرافين وضعت عليها كل العملات الأجنبية ، وكان الناس يستبدلون ما معهم من نقود فى حرية . لم تكن هذه أول مرة أرى فيها الصرافين فقد رأيتهم فى العتبة الخضراء وفى شارع فؤاد الأول ولكن لم أرهم بمثل هذه الكثرة . ودنوت من أحدهم أتطلع إلى الإسترليني وإلى المارك الألماني وإلى ما لا أدري من العملات ، وكنت أنظر إلى الجنيه المصرى فى فخر فإنه أكبر من الجنيه الإنجليزى ولم تؤثر فيه الأزمة الاقتصادية التى كانت تجتاح العالم . إنك تقدمه إلى أى صراف فيناولك جنيه إسترليني ثم يعطيك خمسة قروش تعريفة ، إنه شئ يدعو إلى الزهو ؛

ولكن ماذا يفعل من كان مثلى أو مثلنا بجنيهات إسترلينية ؟
وقال أخى محمد :

— نروح سيدى بشر .

وقلت مسرعا :

— ح نركب الترمای أبو دورين ؟

— أيوه .

— نروح .

وسرنا من المنشية إلى محطة الرمل ، وصرت أسأل عن كل ما أرى وكل ما قرأت عنه فى الصحف . وكم كانت سعادتى عندما رأيت البورصة وقهوة البلياردو التى كنت أقرأ أن نجوم كرة القدم بالإسكندرية يجلسون بها . وبعد أن جئنا خلال سرة الإسكندرية ورأينا محال الحلوى المنتشرة فى كل مكان التى يملكها اليونانيون ، ذهبنا إلى محطة الرمل ؛ إنها مكان كالأمكنة التى رأيت مثلها فى القاهرة ، لم يكن بها رمل ولولا وقوف الترام ذى الطبقتين عندها لغاضت نشوتى .

وعرجت إلى الطبقة العليا فى الترام وأنا أكاد أطير من السرور ، ولم أصغ إلى النداء الذى أطلقه أخى لأستقر فى الطبقة السفلى الخالية . واتخذ الترام طريقه فكنت أقرأ أسماء المحطات بنفس النشوة التى كنت أحسها كلما قرأت اسم بطل من أبطال أفلام سينما إيديال ، حتى إذا ما بلغ الترام محطة سان استيفانو شعرت بخشوع ، فقد اقترن اسم فندق سان استيفانو بأسماء الوزراء والأعيان والوجهاء ، وكان لتلك الأسماء سحر فى تلك الأزمان .

ووصلنا إلى سيدى بشر ، إلى مكان رملى قفر وقفت عنده بعض العربات التى تجرها الحمير وبعض الحمير والحمارة . وسرنا من محطة الترام إلى حيث العربات والحمير فراحت أقدامنا تغوص فى الرمل . ودون عناء أو تفكير فطنت إلى سبب تسمية المحطة التى ركبنا الترام من عندها بمحطة الرمل ، كان كل ما أراه وأسمعه جديدا فكنت أستشعر شعور الغبطة التى يحسها القادم على دنيا جديدة .

وانحشرنا فى عربة مع بعض أناس آخرين فانطلقت بنا إلى قرب شاطئ البحر

فنزّلنا ، وكان علينا أن نقطع المسافة إلى البحر سيرا على الأقدام فرحنا ننقل أقدامنا التي كانت تغوص في الرمال بصعوبة حتى بلغنا الشاطئ . لم تكن معنا مايوهات وكانت هناك أكشاك لتأجيرها وغرف لاستبدال الملابس ، وقمت لأكثرى مايوها ولكن أخى محمد نهانى خوفا من الجرب والعدوى .

ووقفنا على الشاطئ ننعّم بنسيم البحر . وما كاد النهار ينتصف حتى عدنا إلى المنشية لتناول غداءنا ونستريح في غرفنا . وما كدنا ندخل غرفنا حتى خرجنا مسرعين . فما جئنا إلى الإسكندرية لننام . فذهبنا إلى الميناء نشاهد البواخر والسفن ، ووجدنا باخرة راسية فصعدنا إلى ظهرها وطلبنا من أحد المصورين أن يلتقط لنا صورة ونحن نلوح مودعين ، كأنما كنا على أهبة السفر .

ورحنا نتفقد الباخرة نصعد ونهبط في سلالها ولم يفارق بصرى الشاطئ . فما وقفت أنظر إلى البحر ولم أمد بصرى إلى الأفق البعيد ؛ فما خطر على قلبى في تلك اللحظة أن سيأتى يوم أغادر فيه مصر . وكيف أفكر في مثل ذلك وما وافق أبى على ذهابى إلى الإسكندرية إلا بعد توسلات وبعد أن قطعنا على أنفسنا عهدا ألا نغيب عن البيت أكثر من يومين .

إن أبى لا يذهب إلى فراشه إلا بعد أن يتأكد أننا جميعا في فراشنا وأن شبابيك غرف نومنا قد أغلقت ، ترى هل سينام أبى ونحن في بلاد الغرب أم سيظل في شرفته يرقب عودتنا حتى نعود ؟

وعدنا إلى الحى الذى ينبض بالحياة في الإسكندرية . كانت الشمس تغوص في البحر وكان مشهد الغروب يأخذ بالألباب ، وكان زبد البحر كأنه جياذ شهب يجرى بعضها في إثر بعض . وخطر لى أن أذهب لأمتع الطرف بذلك الجمال ، إلا أن دون ذلك رمال ، وقد تعبت من السير في الرمال .

وجلسنا في محل من تلك المحال الكثيرة التى تقدم الحلوى للرواد وكان كل العاملين من اليونانيين وكان أغلب الرواد من الأجانب وكان الحديث بكل اللغات ، وقلما سمعت اللغة المصرية فسرعان ما أحسنا بالغربة وانسحبنا من المكان ورحنا ندور على دور السينما ، فوجدنا أن فيلم زينب يعرض هناك ، ولما كنا قد شهدناه في سينما

متروبول في القاهرة فقد بحثنا عن فيلم آخر . وأخيرا استقر رأينا على أن نمضي السهرة في مسرح محمد علي .

كنت من رواد سينما إيديال والكوزموجراف الأمريكاني وتريومف وما كانت في القاهرة دار تضاهي مسرح محمد علي فخامة ، فما كنت قد رأيت دار الأوبرا بعد . إن أفخم المسارح التي شاهدتها كانت مسرح الأزيكية ومسرح دار التمثيل العربي بقنطرة الدكة ومسرح رمسيس ومسرح برنتانيا الذي تعمل عليه فرقة فاطمة رشدي ، وما كانت تلك الدور في فخامة مسرح محمد علي ، فخطفت ديكورات الدار بصرى وجعلتني أعيش ساعات مسحورة من عمرى .

وانقضى اليومان اللذان أمضيتهما في الإسكندرية كما ينقضى الحلم الجميل ، وركبنا القطار فإذا بالساعات المترعة بالنشوة قد أصبحت ذكرى ، وإذا بحنين إلى أبى وأمى وإخوتى وأصدقائى يملاً أقطار نفسى ، وإذا بسعادة طاغية تغمرنى ؛ إننى عائد ، عائد إلى الوطن !

٤٨

راحت صحف الوفد تشن حملة مريرة على صدقي باشا فقد استبدل دستور سنة ١٩٢٣ بدستور جديد ، وقد لعب الكاريكاتور دورا خطيرا فما كانت مجلة أسبوعية تصدر إلا وبها أكثر من صورة كاريكاتورية تسخر من صدقي باشا ودستوره . كان هدف رئيس الوزراء القضاء على شعبية الوفد وتحطيم أوتوقراطيته البرلمانية ، ولكن الصحف الوفدية تمكنت من أن تغرس في قلوب الناس كراهية صدقي والعداوة لدستوره .

كان الانتخاب مباشرا فجعله صدقي ذا درجتين ، وجرى انتخاب الدرجة الأولى في الريف وراحت صحف الوفد بكل ما أوتيت من قوة وبيان تصمها بالزيف . ولما حانت انتخابات العواصم دعت الصحف إلى مقاطعتها ، فأغلقت المحال يوم الانتخاب واعتصم أبى وأصدقاؤه بالسلامك وراحوا يتحدثون في السياسة ، وكان

بينهم شهاب أفندى أحد أصدقاء العم سيد الدخاخنى فكان يقول مقاطعا حديث السياسة :

— امبارح بالليل لقيت عربية تين بشوكة ، نفسى هفتنى عليه قلت للراجل قشر ، قعد الراجل يقشر وأنا آكل ، وقف الراجل عن التقشير قلت له ما تقشر . قال الراجل يا ريت ! صحة وعافية يا بيه . بصيت لقيت العربية كلها قشر ، قلت للراجل بكره ابقى املا العربية كويس .

وضحك شهاب أفندى واهتزت كرشه ، فما كان يطيق أى حديث جاد ، إنه يدخل الدنيا من بابها الضاحك ويتمنى أن يخرج منها من نفس الباب ، وإنه يقول دائما أن ليس فى الدنيا أسعد من ثلاثة : البواب والكلب الرومى وشهاب ، فما كان يعرف من أصناف الكلاب المدللة غير ذلك الكلب .

وضحك الموجودون فقد كان خفيف الظل على الرغم من ضخامته ، بل لعل ضخامته التى تتناسب تناسبا عكسيا مع رقة ذاته الإنسانية هى سر خفته . وعاد أبى وأصدقاءؤه فى الخوض فى حديث السياسة ، وخرج أخى محمد إلى حيث اللجنة الانتخابية القرية من بيتنا يتنسم الأخبار فإذا به يعود ويقول :

— كلكم انتخبتم .

— ازاي واحنا قاعدين هنا ؟

— المخبرين انتخبوا بدالكم .

— مش معقول .

— كشوف الانتخابات بتقول إنكم رحتم وانتخبتم .

— دا تزوير .

وثار الرجال ؛ إنهم أغلقوا دكاكينهم لكيلا يشتركوا قسرا فى الانتخابات فإذا برجال آخرين ينتحلون شخصياتهم ويدلون بأصواتهم . وبينما كانوا يزجرون راح أمين أفندى يقول :

— يوم الخميس اللى فات كنا معزومين على العشا ، وكان الطباخ عشى باشا وقدم أصناف ما شفناهاش قبل كده ، أصناف بقيت أبص لها وأنا مدهوش مع أنى خبير فى

الأكل .

وراح يسهب في وصف ألوان الطعام الذي تناوله وقد تحلب ريقه ، فما كان يجيد إلا الحديث عن الموائد والطعام ، فراح الرجال ينظر بعضهم إلى بعض وهم يتغامزون . ولما كان الحديث يجرب بعضه بعضا ، إذا ببعضهم يروى ما كانت أمه تقدم له من الطعام الشهى وهى واقفة أمام الفرن يوم الخبز . وحرك حديثه الذكريات فإذا بالرجال الثائرين لدستور ٢٣ قد عادوا أطفالا في القرى أو في البيوت العتيقة يروون ذكريات ما يخرج من الأفران من طيبات . وساء أحدهم أن ينحرف حديث الجهاد إلى حديث البطون فراح يتحدث في انفعال عن الانتخابات وتزوير إرادة الشعب ، وسرعان ما عاد الجميع إلى مناقشة القضايا الوطنية .

وأقبل المساء وحان ميعاد عودة فورتنيه من عملها . لقد مضت أيام كنت أقاوم فيها ذاتى ، ففى مثل هذا الوقت من كل يوم كانت كل مشاعرى وعواطفى تحرضنى على الذهاب إلى محطة الترام لانتظارها ، ولكنى كنت أجاهد رغباتى . وقد نجحت فى قهر ضعفى فقد انقضى أسبوع دون أن أراها ، وكنت أرى من العقل أن أقطع كل صلة بها ولكن متى أطاع القلب صوت العقل ؟ إن قلبى تمرد فى تلك الليلة وساقنى سوفا إلى محطة ترام الظاهر .

وقفت على المحطة مسلوب الإرادة ولم أعد أشعر إلا أننى قد أمسيت قلبا يخفق فى جنون ، ولم أعد أملك أن أحقد على نفسى . ومر الوقت وإذا بفورتنيه تهبط من غرفة الحريم ، وما إن ترانى حتى تقول :

— انت فىن ؟ جمعة فاتت ما حدش شافك . تعالى معايا .. أبويا واخواتى وأمى عازين يشوفوك .. يسألوا عليك .

وسرت إلى جوارها وأنا سعيد ، فما كنت أطمع فى أكثر من أن أكون بالقرب منها . وانسبنا فى شارع الخليج الضيق ، ثم عرجنا يمينا فى زقاق تكاد البيوت على جانبيه أن تتصافح . إنه شريان مظلّم ليس به إلا مصباح واحد عند بدايته . والتصقت بى ، ولم تكتف بذلك بل لفت ذراعها حول وسطى . ولم أقو على أن أفعل مثلها ، فلو أننى على يقين من أنها مورد كثير الزحام إلا أننى كنت أعاملها على أنها شىء مقدس لا يمس .

ودلفنا إلى منزلهم الجديد . كان الظلام يلف كل شيء ، بير السلم كأنه قبر رطب .
إننى لا أرى أين أضع قدمى ، ولولا أنها قادتنى لما تقدمت خطوة . وفى أثناء صعودنا
فى الدرج قبلتنى أكثر من مرة ، لم تكن قبلاّت خاطفة بل كانت قبلاّت محمومة . وعند
الطبقة الثالثة وقفت أمام الباب تصلح ثيابها ثم طرقت . ثم طرقت . وما إن انفرج
وتقدمت إلى النور حتى ارتفعت صيحات ترحيب لى فتعثرت قدماى خجلا ،
وجلست بالقرب من الشرفة فإذا بفورتنيه تستمر فى سيرها حتى تدخل الشرفة وتحبى
جارا لهم .

وتفرست فى ذلك الجار وكانت شرفته تكاد أن تعانق شرفتها . إنه شاب قصير ممتلئ
الجسم لا يملأ العين ، إنه ولا شك صديقها الجديد . وأحسست شيئا من الضيق لما
حيانى بانحناءة من رأسه . ترى أهى تحية أم تحد ؟ وشردت أفكر فيما أعجبها فى ذلك
الشاب . ترى ما هو المقياس أو الوزن الذى تقيس به المرأة الرجل أو تزنه به ؟ ولم أهتم
إلى جواب ، فلكى تحكم على تصرفات امرأة لا بد أن يكون لك عقل امرأة ، وإنه ولا
شك عقل من معدن آخر غير معدن عقل الرجل .

ولم أستطع أن أمكث طويلا فقد استأذنت فى الانصراف واعدة بزيارة أخرى ؛
وما كدت أنساب فى الزقاق الضيق حتى كان الجار الجديد يشغل كل تفكيرى . ترى
أيستطيع الصمود أم أنه سينقذ جلده ويفر كما فر من قبل محمود أبو شفاتير ، وخطيب
ساقها سوء حظه فى طريقه .

٤٩

كانت الإجازة الصيفية طويلة فكنت أقضى فترة الصباح فى قراءة الكتب التى
كنت أصفها تحت وسادتى ، فإذا ما تعبت من القراءة انطلقت إلى شارع سوق الجراية
حيث دكان أبى ومخازنه . وقد كان كل تجار الشارع الضيق يرحبون لى فكنت إذا
مررت على دكان العم إبراهيم أنظر إلى ابنه حسين الواقف خلف قدرة الفول فى
إعجاب . إنه مصارع يجيد المصارعة ، وإن الصعايدة الذين يشترون منه علب

الورنيش لتلميع الأحذية يهابونه ، فصدور كلمة لا تعجبه من أحدهم كانت كافية لأن يقفز من فوق الحاجز الذى يفصل بينه وبين الزبائن وأن يدحرج ذلك البذىء على أرض الشارع كما يدحرج طفل كرتة . وطالما رأيت رجالا يتدحرجون تحت قدميه فإذا ما قدر لأحدهم أن يقف على رجله أطلق ساقيه للريح .

وكان حسين على الرغم من شراسته الظاهرة طيب القلب ما أسرع أن تأسره كلمة حلوة ، جاءه أخى أحمد وقال له :

— يخلصك يا سحس يلقى فى البيت الى قدامنا بيت سرى ؟

فقال حسين فى بساطة :

— سيب الموضوع ده على .

وفى سكون الليل جاء حسين ومعه بعض الرجال يحملون العصي فى أيديهم وطرقوا باب الشقة التى كانت تدار للدعارة فى البيت المواجه لبيتنا . وما إن فتح الباب حتى انهال حسين ضربا على كل من كانوا فيه ، وفى الفجر كانت العربات الكارو تحمل أثاث الشقة المتواضع ، وما إن طلعت الشمس حتى كانت الشقة خالية من كل سوء .

وذهبنا وشكرنا حسين ، وتلقى الشكر فى خفر العذارى .

وكانت الشائعات قد وصلت إلى آذاننا أن فؤاد الشامى قد كون عصابة فى البكرية ، عصابة تبتز الأموال من الراقصات ، وأن فؤاد يستغل طيبة حسين وشهامته فى تحقيق بعض أغراضه . ولم أصدق تلك الشائعات فأنا أكثر الناس معرفة بفؤاد ؛ إنه يروى مغامرات قام بها لم يكن مسرحها إلا خياله الخصب ، ترى هل انتقلت المغامرات حقا من مسرح الخيال إلى مسرح الحياة ؟

وخطر لى أن أسأل حسين عما يقول الناس ، ولكن لم أجد فى نفسى الشجاعة أن أحدثه فى مثل ذلك الموضوع الذى لا ناقة لى فيه ولا جمل .

وذهبت إلى دكان محمود النشاشقى وكانت أمام دكان أبى ، وكان له شرف يرتفع عن الأرض بمقدار ارتفاع كرسي ، فكان كل من يريد أن يستريح يجلس على ذلك الشرف ويأخذ فى الحديث مع محمود الذى كان — مبالغة فى الإكرام — يقدم له تنشيقا .

وجلست أحداث محمود وعمه أحمد أفندي مدرس الإلزامى ، وكان حديثى مع العم يدور حول مباريات الكرة فقد كان الرجل يحب مشاهدة المباريات القوية . ولولا أنه فى كل مرة يشاهد فيها مباراة يطلب من زوجته ثمن تذكرة الدخول — فقد كان يعطيها فى أول كل شهر مرتبه — لكان من رواد الملاعب الدائمين .

كان الحديث ممتعا وما كان يعكره إلا الحكايات الجنسية المكشوفة التى كان يرويها محمود ثم يقهقه قهقهة عالية تخرق أذنى العم أحمد عثمان الجزار ، وكان دكانه ملاصقا لدكان النشوق ، فكان ينظر إلى وفى يده السكين ويقول :

— إيه اللى قعدك مع الواد النجس ده ؟!

فكان محمود يندفع إلى العم أحمد عثمان محاولا أن يداعبه فى مواضع حساسة من جسمه ، فلما يرى أن العم أحمد قد حرك سكينه يفر إلى وسط الطريق وهو يقهقه فى طلاقة كأن ليس فى الدنيا هموم .

و كنت أذهب إلى العم أحمد وأقول له :

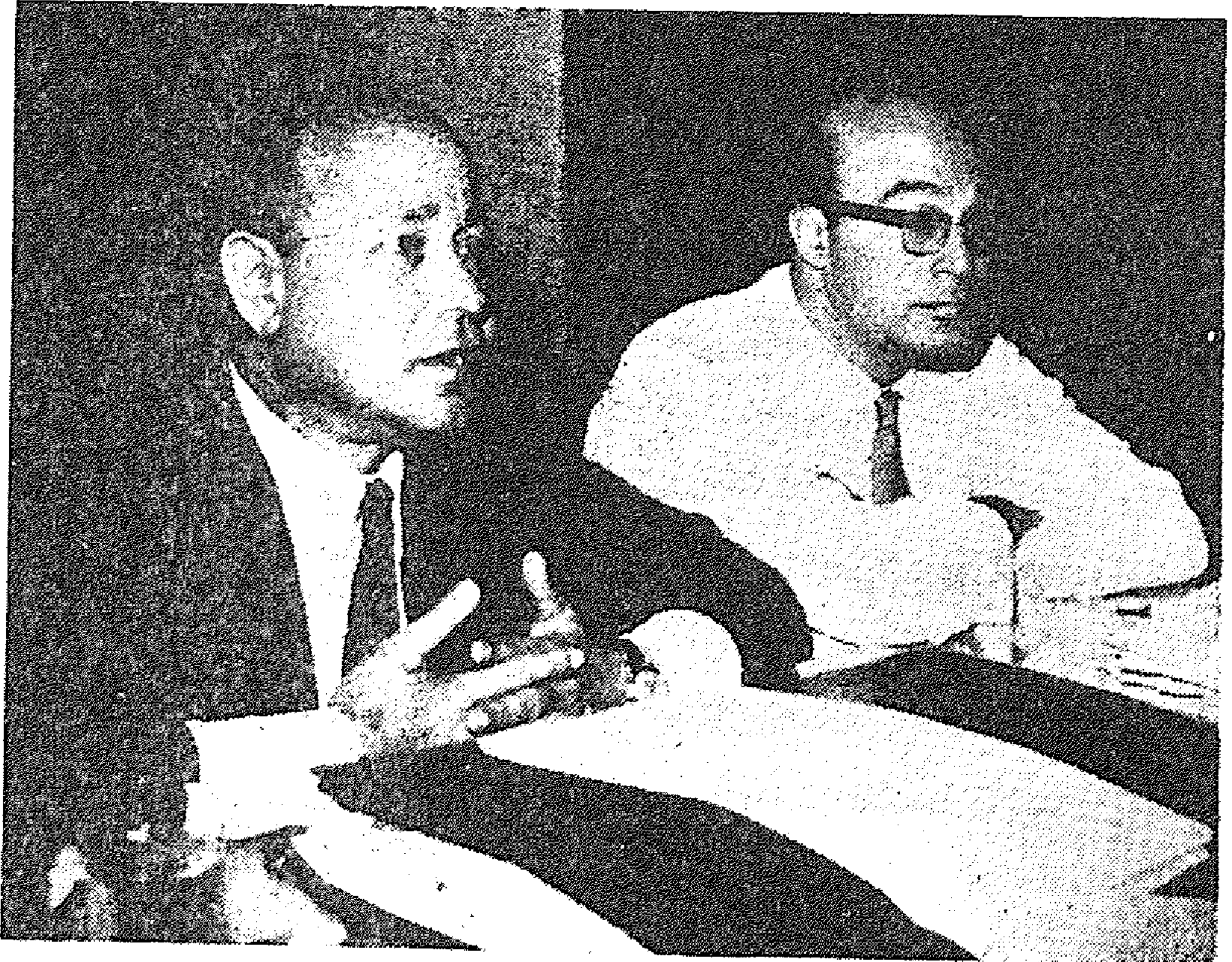
— عندى لعب كورة الساعة تلاته ، عايز أتغدى بدرى النهار ده .

فكان العم أحمد يقطع رطل لحم من أجود قطعة من الخروف المعلق أمامه ، ويأمر صبيه بأن يشتري بصلا ورغيفا ، فكان يقطع اللحم والبصل ويضعه فى الرغيف ثم يلفه بورقة لحم ويبعث باللفافة مع صبيه إلى الفرن و كنت أنتظر الطعام متحلب الفم . كان غداء طيبا دسما ، و كنت عقب كل مباراة أعود إلى العم أحمد عثمان لأطمئنه أن الفضل فى الأهداف التى أصبتها إنما يعود إلى ما يعده لى من طعام . وما خطر لى على بال أنى سأدفع فى مستقبل حياتى ثمن ذلك الطعام الدسم اللذيذ ، فما كنت قد تعلمت بعد أن لكل فعل رد فعل مساو له ومضاد له فى الاتجاه .

وكان أمتع اللحظات فى شارع سوق الجراية تلك الساعات التى تصف فيها العربات التى تحمل براميل الزيت أمام مخازننا . كان الرجال يضعون عرقين من الخشب فى نهايتهما خطافان بين العربة والأرض ، ثم يأخذون فى دحرجة البراميل فى حرص شديد لإنزالها من فوق العربة إلى أرض الشارع ، فما كانت الونشات الخفيفة قد عرفت بعد . وكان كل رجل من الرجال يصدر تعاليمه وإرشاداته ، فكانت الأصوات

تتداخل والأوامر تتعارض والبراميل تترنح وبعض ذوى النخوة من العابرين يخف للمساعدة ، لكأنما كان إنزال برمبل من فوق العربة إلى الأرض أمرا خطيرا تتضافر له العقول والسواعد القوية المفتولة !

و كنت أمضى معظم أوقات الفراغ فى الصيف أمام مكتب صغير إلى جوار مكتب سى عبد المجيد كاتب حسابات المحل . وكان ذلك المكتب لأبى أو لأخى أو لمن يزورنا من التجار اليهود أو السماسرة من يهود ووطنيين ، وكانت الخزانة الحديدية خلف ذلك المكتب ، وقد أغرت تلك الخزانة اللصوص بنقب سقف المحل وسرقته أكثر من مرة . كانت السرقات تتنوع فى حى باب الشعرية وقد بلغت إحداها درجة التدبير المحكم . أراد بعض اللصوص أن يكسروا خزانة محل مشهور ، وخشية من أن تسرب أصوات الكسر إلى المارة أقاموا فرحا وهميا وسارت زفة العريس فى الشوارع حتى إذا



ما وصلت إلى المحل المنشود وقفت تعزف أمامه « سلام للجدة عان » بينما كان اللصوص يحطمون الخزانة في الداخل . ولم تستأنف الزفة سيرها إلا بعد أن استولى اللصوص على كل ما في الخزانة .

لم يكن محلنا في حاجة إلى تدبير لسرقته ، إنه إلى جوار مسجد قلما يؤمه الناس ، وإن من الميسور أن ينتقل من يريد من سطح المسجد إلى سطح دكاننا ، وكانت هناك فتحة في سقف الدكان للإضاءة والتهوية قد حصنت ببعض أسياخ الحديد وما كان أيسر إزاحتها والتدلى منها بجبل إلى الدكان ، وكانت عمليات السطو التي تعرض لها المحل أقرب إلى الخطف منها إلى السرقة .

كان سي عبد المجيد رجلا مخلصا راض نفسه على القناعة ، لا يمد عينيه إلى ما متع الله به غيره . وكان أجمل ما فيه أنه يفرح للخير الذي يناله غيره أكثر من فرحه لنفسه لو نال ذلك الخير . إنه طراز فريد بين الناس ، وإن طول عشرته لأبى جعلته يواظب على الصلوات في مواعيدها ، فما أكثر ما كنت أراه وقد طوى أكام قميصه وأطراف بنطلونه ودس رجله في القبقاب وذهب ليتوضأ والقلم الرصاص خلف أذنه . وكان يختلس بعض الوقت بعد صلاة الظهر ليقراً في المصحف ، وكانت بشائر الرضا تلوح في وجهه . إنه يحس جمال القرآن في أعماقه ، ولكن بعض معانيه كانت تغيب عنه ، فدراسته كانت تجعله يفسر آيات القرآن تفسيراً خاطئاً ، قال لي ذات يوم وهو في نشوته :

— تصور ، بعض اللى ح يدخلهم ربنا جهنم ح يتغزلوا فيها .

ثم راح يتلو وهو يهز رأسه إعجاباً وتعجباً : « ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما » .

وكان سي عبد المجيد لا يحفل بالطعام كثيراً ، كان إذا حان وقت الغداء يغربني على أن نفتح علبة سردين ، فإذا ما طاوعته قام وفتح علبة وجاء بصفحة بها زيتون وطماطم ووضع الزيتون ورش الزيت وعصر الليمون ، وجاء بخبز ساخن ثم جلسنا نأكل في شهوة .

وكان يحب البصارة ، فإذا ما حدث أن كان عندنا بصارة بعثنا إليه بها فكان يقبل

عليها بشهية مفتوحة ، حتى إذا ما أتى عليها راح يتحدث عنها حديث مفتون ، وكان ذلك يثير دهشتي فقد كنت أفر من البيت يوم أحس أننا سنأكلها إلى محل الحاج صبحي بجوار سينما أولمبيا وكان من أشهر محال الأطعمة ، وكنت أتلمس أسباب الغضب من طعام البيت لأفر إليه .

٥٠

كان ألد ما يدخل أذني جدتي أم عبد الغنى من كلام حديث الزواج ، وكان أكثر ما يدخل البهجة على قلبها أن توفق رأسين في الحلال ، فما كان لها من حديث إذا ما جاء إليها نساء البيت في الليل عندما يجتمع الرجال في السلامك إلا تزويج فلان من فلانة ، وقد يكون فلان هذا لم ير نور الحياة إلا منذ أسبوع . وما كانت تكتفى بأحاديث الليل لتزجية الوقت ، بل كانت إذا ما جاءتها أم إحدى الفتيات بالنهار قالت لها إنها قد زوجت بنتها من فلان .

وما كانت تكتفى بتزويج حفدتها ، فما إن ترى فتاة قد أشرفت على سن الزواج — وكان سن الزواج عندها أن ينبت صدر الفتاة — حتى تبحث لها عن زوج ، كأنما كان أمر زواج كل من وقعت عليها عيناها قد وكل إليها . وما كانت تتذوق طعم الراحة إلا إذا وجدت لكل فتاة ضالتها ، ومن عجب أنها كثيرا ما كانت توفق .

اجتمع النسوة عندها في الليل ودار الحديث حول ابن عمي بدر ، إنه خطب ابنة خاله وما كانت ابنة خاله من أسرتنا ، لذلك لم تكن النسوة متعاطفات مع ذلك الرباط المقدس . قالت جدتي لتبرر خروجه عن الخط الذي رسمته في ذهنها لحفدتها ، ذلك الخط الذي يقود إلى زواج أبناء العم من بنات الخال أو أبناء الخال من بنات العم ، الخط الذي يؤكد أن جحا أولى بلحم ثوره :

— ييجبها .

وكأنما قد فتحت باب المداولة فقالت إحداهن :

— ح يخرب الدكان عليها ، كل اللي بتطلبه بيعجيوها .

— خد من الصايغ غواشات عشان يفرجها عليهم اتسرقوا منه فى الأوتوبيس .
— أبوه دفع تمنهم .

— إشمعنى اليومين دول بقى يتسرق كثير ؟!
— عشان أبوه يدفع .

— وأبوه ح يفضل يدفع لامتى ؟

— ما هو ما دفعلوش البدلية ، خرج م الجهادية عشان عينه الشمال عليها نقطة .
وقالت جدتى لتنقذ لحم حفيدها الذى كان النسوة ينهشنه دون رحمة :
— كفاية بقى .. الكلام ده حرام . ما يعلم الغيب إلا صاحب الغيب .

وساد الصمت برهة ، ولكن حديث الزواج كان قد شغل كل العقول فقالت إحداهن :
— هم أحمد وسعيد ح يجوزوا إمتى ؟

كانت جدتى قد وعدت كل زوجات أبنائها اللاتي عندهن فتيات فى سن الزواج بأحد أخوى ، وما من فتاة من حفدتها أو من أبناء أو بنات حفدتها إلا وقد عرضتها عليهن . وانتهى الأمر بأن خطب أحمد ابنة خاله عبد الحميد ، وخطب سعيد ابنة عمته أخت زوجة أخيه محمد ، وقد وضع ذلك جدتى فى مركز حرج ، وإن أى زواج لهما كان لا بد أن يضعها فى نفس المركز ، فما كان زواجهما من أى فتاتين من فتيات الأسرة ليفى بالوعود الكثيرة التى قطعها لكل الأمهات !
وقالت أُمى :

— ح نستنى لما يخلص سعيد الجامعة .

ولم يعجب ذلك جدتى فقالت :

— الشقق جاهزة والعفش كمل ، ح يستنوا إيه ؟ هم مش ح يلاقوا ياكلوا .

كانت جدتى تأخذ الحياة فى بساطة ، ولا غرو فالحياة سهلة ميسورة ، فبضعة جنيها لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة كافية لفتح بيت . وأبى الذى قام بتعليق بيتنا ووفر لهما المسكن قادر على أن يوفر لهما المأكل ، وما كانت الحياة عند جدتى لتزيد على مأكل ومسكن وزواج .

كانت جدتى لا تغادر البيت ، وإن قدر لها أن تخرج لزيارة ضريح من أضرحة

الأولياء فهذا انتهى الترف . إنها لم تذهب إلى سينما أو مسرح طوال حياتها ، فهي تؤمن أن ذلك رجس من عمل الشيطان ، وإن كانت في بعض الأوقات تصغي في نشوة إلى الأغاني المنبعثة من الراديو .

وذا ع في كل بيوت الأسرة نبأ خطبة أحمد وسعيد ، وسادت موجة استياء في دور اللاتي وعدتهن جدتي بهما . وأرادت جدتي أن تطيب خاطرهن فلم تجد أمامها غيري ، فكانت كلما قابلت زوجات أبنائها أو زوجات حفدتها ممن أنجبن فتيات — سواء أشرفن على الزواج أم كن صغيرات — تعدهن بي ، كأنما كنت قطعة شطرنج في يدها تحركها كما تشاء دون أن تراعى قواعد اللعبة .

وبين مساء وصباح أصبحت أضحوة في فم الأمهات ، وصرت أسمع عبارات التهكم دون ذنب جنيته ، صار من المعتاد أن أسمع من تقول :

— هو اللي فاضل ! ناخذ جوز ام عباس الندابة .

— ما لقتلناش غير الصايغ الضايغ ده .

وفي ذات يوم رأيت طفلة ممن خطبتها لي جدتي تتعثر في غائطها فاستولى على اشمئزاز ، وقد صرت أشعر بغثيان كلما رأيته حتى بعد أن صارت شابة يشتهيها الرجال ، بل وبعد أن أمست عجوزا تتعثر خطاها ، إنني ما جنيت عليها ولكنها جناية الخطبة المبكرة التي لم يكن لها مكان .

وخرجت في الظهيرة لأذهب إلى سينما الكلوب المصري بالحسين وكانت الشمس حامية ، لذلك اخترت أن أسير في الشوارع الضيقة فرارا من لسع الشمس ، فانسبت في شارع البنهاوي ، وقبل أن أعرج إلى باب الفتوح وقفت أحادث بدرا ابن عمي وكان جالسا أمام دكانه . لم يعد ذلك التلميذ الذي ينفخ في البوري في مدرسة الإيرانية بل صار شابا أبيض البشرة متورد الخدين ممتلىء الجسم يتحدث في مرح وطلاقة . إنه سيتزوج يوم الخميس القادم ، ليلة الجمعة ، وجعلت أتفرس في وجهه كأنما كنت أريد أن أكتشف ما إذا كانت الأساور قد سرقت منه حقاً أم أنه باعها ليستعين بثمنها على إتمام زواجه ، فإذا بكل خلجة من خوالجه تفصح عن حقيقة ما حدث ، لقد باعها . وانصرفت من عنده وقد قفزت صورة فورتنيه لتحتل تفكيري ، وراح خاطر يتردد

بين جوانحي :

— ليه كل شىء بيهون فى سبيل الحب ؟!

٥١

نجحت الصحافة الوفدية فى أن تملأ قلوب الشعب كراهية لحكم صدق باشا ، وزاد الأمر سوءاً أن أصدقاءه الأحرار الدستوريين رفضوا أن يدخلوا وزارته ، ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يهاجمون صدق لاعتدائه على دستور ١٩٢٣ ، دستور الأمة . وعندما أعلن صدق باشا عن مشروع كورنيش الإسكندرية هبت الصحافة الحزبية تهاجم المشروع دون رحمة ، ولم تكتف بذلك بل بذلت جهوداً مضنية لتلويث طهارة الرجل ونظافة يده . ولا أدعى أنني فكرت فى ذلك اليوم المظنى الذى غاصت فيه أقدامى فى الرمال عندما توجهت أنا وأخوئى محمد وسعيد وصديق أبى إلى سيدى بشر ، أو أن خيالى استطاع أن يتصور جمال الإسكندرية بعد الكورنيش ، ولكننى سرت مع القطيع أردد كالبيغاء ما تزعمه الصحافة وما تفتريه على الخصوم .

وبدأت الدراسة فى المدارس فإذا بالمظاهرات تخرج إلى الشوارع بقيادة الطلبة الوفديين نهتف بسقوط صدق وبحياة دستور ٢٣ . واندست شراذم من الغوغاء فى المظاهرات فحطمت فوانيس النور فى الشوارع وقلبت بعض عربات الترام وأشاعت الفوضى فى القاهرة ، فكان صدام بين الشرطة والمتظاهرين ، وكانت مقالات نارية فياضة تتهم صدق بالدكتاتورية وكبت الحريات ، وفاضت الصحف بأبناء المظاهرات فى القاهرة وفى الإسكندرية وفى المدارس والمعاهد فى كل مكان .

وحاصر البوليس المدارس وتسليح رجاله بالخيوفات والمراوات ، فوقفنا فى فناء مدرسة فؤاد الأول الثانوية نهتف بسقوط دستور صدق وبسقوط الطاغية والطغيان ، ولم يهتف أحد بسقوط الاستعمار والمستعمرين ، فالإنجليز كانوا ناعمى البال بالخلاف الذى دب بين أحزاب الأمة ، ينظرون فى ابتهاج إلى أبناء الأمة الواحدة الذين يقتلون تحت نوافذ ثكنات قصر النيل ، حصن الاستعمار .

وجاء طالب يسعى يتهمنا بالجبن والخور، فطلبة الصنائع قد سلطوا خراطيم الماء على الجنود، وراح يحرضنا على أن نقتحم الحصار وأن يكون ما يكون. وتقدم في تهور وإذا بنا نندفع خلفه ونحن نرجم في غضب ونحاول أن نخترق في تحد صفوف العسكر، فإذا بالهراوات تنهال علينا، وإذا بمعركة تنشب بيننا وبين الجنود تنتهى بأن نتقهقر لتحصن في فناء المدرسة ونحن نهتف بأصوات كالرعد بسقوط صدقي ودستور صدقي.

وصعد بعض طلبة في ثورة الغضب إلى الفصول وأخذوا يلقون بالتخت من النوافذ، وهجم آخرون على قاعة الطعام يحطمون الصينى وكل ما تصل إليه أيديهم، وراح ناظر المدرسة والمدرسون يجرون هنا وهناك محاولين وقف أعمال التخريب؛ ولكن الطلبة كانوا يتلفون كل شيء، فقد كانوا يحسبون أن ما يفسدون هو من ممتلكات الدولة وأن الخسائر سترهقها، وما خطر لهم على قلب أن أهلهم سيتحملون إصلاح ما أتلفوا في صورة ضرائب جديدة توضع على كواهلهم.

وتحت ضغط الحكومة وتهديداتها انتظمت الدراسة في المدارس وعاد الهدوء إلى عنابر السكة الحديد بعد أن حاصر العمال حكمدار بوليس السكة الحديد وصوبوا إلى الجند خراطيم المياه الساخنة، فكان أن عدنا إلى فناء المدرسة لنلعب الكرة.

كنت واثقا أنني سألعب للفريق الأول للمدرسة، فرئيس الفريق الذى كان يشغل نفس المركز الذى أشغله قد انتقل من مدرستنا إلى المدرسة الخديوية، ولكن فى أثناء تدريباتنا كانت مفاجأة تنتظرني، فقد جاء رفاقي بطالب يجيد إصابة الهدف إذا ما ثبتت الكرة فى أى مكان من الملعب، كانت الكرة تنطلق من قدمه إلى المرمى كأنها قذيفة تعرف أين تستقر.

لماذا يحاربني زملائي؟ لست أدري. لعل فكرة محاربتهم لى وهم من أوهامى. إنهم يريدون مصلحة الفريق ومصلحة الفريق فوق كل مصلحة. وتقاصرت نفسى، وخرج فريق المدرسة إلى أرض مولد النبى وكانت مكان كلية هندسة عين شمس الآن عند نهاية ترام عبده باشا، وخرجت وقد ارتديت ملابس الكرة فقد كنت احتياطيا. كانت مباراة حبية بين مدرستنا ومدرسة البوليس، وأطلقت صفارة الحكم وخفق (هذه حياتى)

قلبي في شدة ، وركزت عيناى على منافسى ، وفطنت إلى أنه لا يجيد إلا توجيه الكرة إلى المرمى إذا ما ثبتت على الأرض ، ولكن من ذا الذى سيثبتها له في أثناء المباراة ؟! وانتهى الشوط الأول دون أن يلمس الشاب الكرة ، فقد كان يلعب قلب هجوم ولكنه لم يهاجم ولم يدافع . وطلب منى المدرس المشرف على الفريق أن ألعب الشوط الثانى ، فما إن أطلقت صفارة الحكم حتى كنت أعدو هنا وهناك متحكما في الكرة ، وكما كنت أرى في الأفلام السينمائية عندما ينزل اللاعب الاحتياطى ليحقق لفريقه النصر فقد سجلت لفريقي الهدف الأول ، وسرعان ما عززته بالهدف الثانى . وانتهت المباراة ولم يحملنى أحد على الأعناق كما يفعل الجمهور في أفلام السينما ، بل إن بعض أعضاء الفريق قابل إحرازى الهدفين بفتور قاتل ، كأنما كنت سببا مباشرا لهزيمتهم . ولقنت الدرس الأول في حياتى ، فليست العبرة بكفاءتك أو قدرتك أو استحقاقك فالأهم من كل ذلك أن تكون من الشلة ، فحطمت غرورى وانضمت إلى فريقهم الخاص ، فإذا بهم جميعا يصبحون أصدقاء يستشيروننى في أمورهم ويمضون إجازاتهم في السلامك .

وانشرت في البلاد دعوة مقاطعة البضائع الأجنبية ، ولما كان معظم ما نستورده من بضائع من إنجلترا فقد كان المقصود مقاطعة البضائع الإنجليزية ، فخلعنا ما كنا نرتدى من أصواف وجعلناه كوما في وسط فناء المدرسة وأشعلنا فيه النار ، وخلعنا الكراقات ولبسنا عوضا عنها المناديل المخلاوى .

وفي ذات يوم بعد الغداء دخلنا الفصل ، وجاء مدرس الطبيعة يسأل عن الواجب فأخبرته أننى أديته إلا أننى نسيت الكراس في البيت ، قصدنى الرجل فقد أصبحت من الطلبة المجتهدين بعد أن ضيعت ثلاث سنوات من عمرى في الابتدائى انتظارا للموت الذى أعرض عنى ونأى .

ودخل وكيل المدرسة وشكا إليه المدرس أن الطلبة لم يؤدوا الواجب ، فالتفت إلينا الوكيل وقال :

— الى ما عملش الواجب يقف .

فوقفت مع الواقفين فأشار إلى المدرس أن أجلس . ولكن كيف أجلس وكراسة

الواجب ليست معي ، إن مثلي مثل الذين أهملوا في تأدية واجبهم وقد تعودت ألا أتهرب من أخطائي .

والتفت إلي وكيل المدرسة وقال :

— انت يا اللي عامل وطني ولا بس لي مندبل محلاوى ، تعال هنا .

ولم تعجبني سخريته فخرجت إليه متذمرا وسرت إليه في استخفاف ، فإذا به يقبض على المندبل المحلاوى في عنف ثم ييسط يده فيرتطم كفه بخدي ، لم تكن لطمة قوية ، ولكن دمانى ثارت في عروقي . لم يضربني أحد قط غير أمي فلم يكن لأحد حق ضربي إلا هي ، فهممت بأن أمسك الرجل من وسطه لولا نظرات الزجر التي وجهها إلى مدرسي .

وأشار الوكيل إلى الطلبة الواقفين أن تعالوا فخرجوا من مقاعدهم ، وأمرنا أن نخرج من الفصل ، فلما فعلنا خرج في أثرنا وبدأ يوجه إلينا السؤال :

— أبوك مين يا افندي ؟

— المرحوم اللواء فلان .

ووجه نفس السؤال إلى طالب آخر فكان والده لواء آخر .

فقد كان معظم طلبة فؤاد الأول من أولاد الضباط ، وسألني :

— أبوك يشغل إيه ؟

— تاجر .

فقال الوكيل في ثورة :

— لما أهاليكم فقرا ومش لاقين يأكلوكم ، ما بتعملوش واجباتكم ليه ؟

وفي اليوم التالي كانت عندنا مباراة في أرض الجزيرة ، فقال لي المدرس المشرف على الكرة :

— الوكيل عايز يتفرج على الماتش ده ، خده معاك .

وسرت إلى جوار الوكيل حتى باب المدرسة حيث كانت سيارة أبي تنتظرنى ، كانت سيارة صغيرة طراز رينو وما كان ثمنها يزيد على مائتين وخمسين جنيها ، وقد أبى والدى أن يشتريها بالتقسيط حتى لا يتحمل وزر التعامل بالربا ، وكانت تنتظرنى

عقب انتهاء الدراسة لتحملنى أنا وزميل الدراسة صلاح قنصوه إلى بيتنا لنعكف على الاستذكار .

فتح السائق باب السيارة فدخل الوكيل ثم دخلت خلفه ، وما كدنا نستقر فى مقاعدنا حتى التفت إلى الوكيل وقال :
— مش تقول إنك ابن ناس طيبين كده !

٥٢

كان امتحان الكفاءة على الأبواب فكنت أستاذ دروسى مع زميل الدراسة من بعد العشاء حتى منتصف الليل . كان الحر خانقا وكنت أعجب لعقول المربين الذين يصرون على أن تكون امتحانات الشهادات فى القيظ القاتل ، ترى هل تتبدل هذه العقول يوما ؟!

وحان الامتحان فدخلنا إلى سرادق عظيم تؤدي فيه اختبارات تؤهلنا لأن نحصل على الشهادة التالية للشهادة الابتدائية ، وكنت عقب كل يوم أخرج مسرورا على الرغم من العرق الذى كان يتصبب من كل جسمى ، فقد كنت راضيا عما أكتب فى كل مادة أدت امتحانها .

وسرى همس بين الطلبة أنهم كانوا على علم بالأسئلة قبل أن توزع عليهم ، ولم أصدق زعمهم فمن أين تتسرب الأسئلة ودون ذلك صعوبات تجعل معرفتها ضربا من المستحيل . وفى الليل جاء إلى صديق وأخبرنى بالنظرية الهندسية التى سأسأل فى الغد عن إثباتها ، ولم يكتف بذلك بل أعطانى قصاصة ورق بها تمرين هندسى سيطلب منى حله . وكنت دهشتى عندما قرأت ورقة امتحان الهندسة فكانت تحتوى على نفس النظرية ونفس التمرين . وعلى قدر فرحى كان استيائى فما أكثر الذين سينجحون بالغش والتدليس .

وخرجت من السرادق وأنا أتوقع أن أحصل على الثمرة النهائية فى الهندسة ، وإذا بشائعة تنطلق كالقذيفة بين الطلبة : لقد ألغى امتحانا الكفاءة والبكالوريا ، لأنه ثبت

أن الأسئلة قد تسربت قبل الامتحان ، وأن الصحافة المعارضة للحكومة شنت هجوما قاسيا على الوزارة واتهمتها بالتفريط في كل شيء ، وأشاعت الفوضى والفساد . وتأجل الامتحان وعدنا نستأنف الاستذكار في فتور وعلى مضض ، حتى إذا وافى الموعد الجديد ذهبنا إلى مقر اللجنة ونحن نشفق على أنفسنا من الحر الشديد ومن أن تسرب الأسئلة وأن يعاد الامتحان مرة ثالثة . وانتهت أيام الامتحان بخيرها وشرها وأقبلنا مستبشرين على الإجازة الصيفية ؛ إنها إجازة طويلة نقضيها في سلامك الدار صباحا نقرأ بعض الروايات ونخوض في مناقشات في السياسة والفن ، وبعد الظهر نذهب إلى ملاعب الكرة أو السينما ، وبعد العشاء نعود إلى السلامك لنشاطر أبى وأصحابه سمرهم ونصغى إلى تعليقاتهم عن الحياة الجارية وإلى المقارنات التي يعقدونها بين اليوم والأمس .

كنت أعتقد أنني بلغت السن التي ينبغي لي فيها أن يكون لي لون سياسى وفلسفة في الحياة ؛ كان جل رواد السلامك من الوفدين المتحمسين وكانوا يعتنقون كل الآراء التي يبذل كتاب الوفد كل الجهود لتشيبتها في ضمائر الجماهير ، فصار الوفد عقيدة يذودون عنها في تعصب مقيت ، فما كان في البلاد من وطنيين شرفاء غير الوفدين . إن إسماعيل صدقي باشا قد أنشأ كورنيس الإسكندرية ، وأسس بنك التسليف الزراعى ، وقام بأعمال يمكن أن تذكر له ؛ ولكن كتاب الوفد أمكنهم بما أوتوا من قوة الجدل والبيان أن يلطخوا وجه كل ما قام به أو يقوم به رجال غير وفدين . كان قد انتشر بين الناس قول يزعم أن الاحتلال على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى ، ولم يستطع عقلى أن يهضم ذلك القول ، لذلك قررت ألا أنضم إلى الجماهير إلا فيما يقبله عقلى ، ألا أكون أحد خراف القطيع ؛ فعزمت على أن أعيش طليقا من قيود الحزبية ، وأن أؤيد كل عمل يستهدف مصلحة بلادى .

وتلفت حولي أبحث عن منفذ للطاقة المذخورة في كياني فوجدت أن الماسونية هي أشهر التنظيمات في ذلك الوقت ، فرحت أحاول أن أعرف شيئا عنها ، ولكن جميع محاولاتي باءت بالإخفاق . قيل لي إن من يفشى أسرار الماسونية من أعضائها يقتل ، وأن لهم إشارات وإيماءات لا يفهمها غير الماسونى ، فإذا التقى أحدهم بآخر يسر له

أعماله حتى لو تعارضت مع مصلحة الجهة التي يعمل بها .
ورحت أستعرض عظماء الماسونيين فوجدت بينهم كبار الشخصيات المصرية
واليهودية ، وسألت عما يجمع بينهم فقيل لي : الخير العام . ولم تكن الصهيونية قد
لفتت أنظار المصريين بعد فلم يخطر لي على بال أنها فرع من ذلك التنظيم الخطير الذي
يستهدف استيلاء اليهود على مقدرات العالم .

وأعرضت عن الماسونية فكيف لي أن أنخرط في تنظيم سرى يقتل من يروح بأسراره
للناس ؟! وكان في حيننا المركز الرئيسي للبهائية وكانوا يجتمعون تحت بصرنا وسمعنا
اجتماعات دورية كل أسبوع ، وفيهم من كان ناظرا لمدرستي الابتدائية وكثير من
الإيرانيين الذين يقطنون المنازل المجاورة لنا ، بل إن أغلبهم من أصدقائنا توطدت
الصداقة بينهم وبيننا بحكم الجيرة .

كان بعض رفاق الحى من أبناء البهائيين فسألتهم عن البهائية أهى فرقة من فرق الشيعة
أم دين جديد ، فلم أحظ من أصدقاء طفولتى برد شاف ، تكلموا عن البهاء وعن
نشأته وعن عباس ابنه وكيف سار في دعوته بعد أبيه . ولكن ما هى الدعوة ؟ قالوا
إنها دعوة إلى مكارم الأخلاق فما من دين إلا ويدعو إلى مكارم الأخلاق ، إذن هى
دين ! قالوا نعم . وسألت أهناك دين جديد بعد الإسلام ؟ وتحدثوا حديثا طويلا عن
تفسير معنى أن محمدا صلوات الله عليه وآله خاتم الأنبياء حديثا سمعوه عن آبائهم ولا شك ، ولم يستطع
حديثهم أن يقنعنى بشىء ، فذهبت إلى ذلك الشاب الذى كان يعمل نجارا ويهوى
القراءة والجدل وقد تحول أخيرا إلى ميكانيكى وكان يحضر كل اجتماعاتهم ويشترك في
مناقشاتهم وسألته عن البهائية فإذا به يقول لي إذا دخلت فيها زوجوك فتاة جميلة من
فتياتهم .

ولم أجد فائدة في محاورته فلن أخرج منه بشىء مفيد ، إلا أن حديث الزواج داعب
خيالى ، فلما جاء موعد اجتماعهم الأسبوعى أسرع أجوس بينهم أتفرس في وجوه
فتياتهم . كن ذوات أعين نجلاء عسلية وشعر سبط أسود . كن جميلات حقا ، ولكن
أيعتنق الإنسان دينا من أجل عينين واسعتين آسرتين وشعر أسود كالحرير ؟!
أكانت إحداهن القادمة من إيران وحى قصتى « وكان مساء » ؟ ربما . أيتخزن

العقل صورة فتاة عابرة في حياتي أكثر من ثلاثين عاما ، فإذا ما فكرت في كتابة قصة أمدني بصورة البطلة ونسج حولها من التفاصيل ما جعل كل النقاد يؤكدون أن ما يقرءون هو تجربة شخصية مارستها في الباكستان ؟ إن هذا هو ما حدث ، وإن لم أفطن له يوم أن كتبت القصة في جدة .

وكان حديث أصدقاء أبي في السلامك لا يخرج في ذلك الوقت عن مقارنات تعقد بين الطرق الصوفية ، وقد وصلوا بعد حوار طويل إلى أن الطريقة الدمرداشية هي أفضل تلك الطرق ، وكان مقر تلك الطريقة في جامع المحمدى خلف الأرض الفضاء التي تطل على شارع الملكة نازلي بالقرب من ميدان العباسية ، والتي كانت مسرحا للحياة وميدانا فسيحا لهواة الحمير الذين كانوا يتبخثرون هناك على ظهور حميرهم المطهمة عصر يوم الخميس من كل أسبوع .

وقال قائل :

— نأخذ عهد على السادة الدمرداشية .

وما مر على ذلك القول سوى بضعة أيام حتى جاء أخى محمد وسى عبد المجيد وبعض رواد السلامك ليقولوا إنهم أخذوا العهد وأصبحوا من أتباع الدمرداشية ، وراحوا يصفون مراسيم أخذ العهد وأنا أصغى في دهش لما اعتراهم من حماس وهم يتحدثون في فرح فياض عن النعمة الكبرى التي حلت بهم .

وقيل في السلامك إن سى عبد المجيد دخل الخلوة ، فلما قال أبى إنه ذاهب إلى جامع المحمدى عزمته على أن أذهب معه لأرى ما فاض الحديث عنه . كنا ذاهبين لصلاة العشاء فتوضأت وركبت السيارة مع الراكبين وانطلقنا إلى حي عرب المحمدى . وما إن اقتربنا من الجامع حتى وصلت إلى مسامعنا أصوات العاكفين في المسجد يذكرون الله بأصوات منعمة عالية ، فإذا بكل من في السيارة يطأطئون رءوسهم في خشوع ، ولكننى أحسست بعدم ارتياح ، فقد سمعت المقرئ يتلو : « واذكر ربك في نفسك تضرعا وخفية » فوقر في ضميرى أن ما يفعلونه ليس من الدين . ودلفنا إلى الجامع فكان أول ما فعله أبى أن سأل عن خلوة سى عبد المجيد فقادنا رجلا إلى خلوته ، وكانت غرفة صغيرة ليس بها أى نوع من الأثاث ، وإلى جوارها غرفات مثلها لها أبواب من

الخشب مرفوعة عن الأرض حتى يمكن إدخال الطعام والشراب من تحتها . يدخلها المتعبد ويغلق الباب خلفه فلا يفتح إلا بعد سبعة أيام ، فالمتعبد قد نذر للرحمن صوما طوال تلك المدة ، لا يكلم خلالها إنسيا بل يكتفى بالتسبيح وذكر الله . وناديننا على سى عبد المجيد بعد أن تأكدنا أنه قد أفطر لما أذن المؤذن بصلاة المغرب ولكنه لم يرد على ندائنا ، فلو رد علينا لقطع تعبده وكان عليه أن يخرج من خلوته . ورحت أفكر فيما يفعلون ، فالرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يتحنث في غار حراء في شهر رمضان ، ومريم عليها السلام نذرت للرحمن صوما ولم تكلم في ذلك اليوم الذى نذرت أن تصوم فيه إنسيا ، فلعلهم أخذوا من ذلك فكرة الخلوة ؛ ولكن الله في كتابه يأمر الناس إذا ما قضيت الصلاة أن ينتشروا في الأرض وأن يتتفوا من فضل الله .

كان أبى يذهب كل يوم جمعة إلى الإمام الشافعى وكثيرا ما كنت أرافقه ، وكنا نجلس من بعد صلاة العصر إلى صلاة العشاء نصغى إلى القراء وهم يرتلون القرآن فكنت أنشرح إلى ما يقرءون ؛ أحكام بسيطة بلا تعقيدات ، وأوامر لو اتبعت لكان فيها خير الدنيا والآخرة ، فوطدت النفس على أن يكون القرآن إمامى وأن أتبع سنة الرسول بلا اعتناق مذاهب أو الانتماء إلى فرق ، فالحلل بين والحرام بين والدين يسر .

٥٣

تزوج بدر ابن عمى ، وما إن مضت سنة على زواجه حتى أنجب ولدين توأم وكان ذلك حديث الأسرة ؛ كان الحوار يدور حول إذا ما كانت تلك الظاهرة وراثية أم أنها مجرد صدفة ، وراح من يتحمس للرأى القائل بأنها وراثية يعدد جدود الزوج والزوجة الذين أنجبوا توأم .

دار الحديث حول ذلك فى شقة جدتى التى كان نسوة البيت يجتمعون كل مساء فيها ، وفى السلاملك حيث مجمع الرجال . وتذكر المتحدثون الشيخ محمود جبار أبى فى شارع سوق الجراية ، فقد أنجب سبع مرات جاء فى كل مرة منها بتوأم وأبدوا إشفافا

عليه ، ففى مدة لا تزيد على عشر سنين أصبح عليه أن يطعم أربعة عشر فاها غيره وغير
زوجه .

ولم تكن الحاجات غالية فى ذلك الوقت فرطال اللحم الضأن لم يكن ليزيد ثمنه على
ثلاثة قروش ، وعشر بيضات بقرش صاغ ، أما الخضار فنصف القرش يكفى لشراء
ما يسد حاجة الأسرة ، وإيجار الشقة فى الأحياء الوطنية ما كان ليزيد على جنيه أو جنيه
ونصف ، ولكن الدخول كانت محدودة ، فكان الشيخ محمود يعمل فى دكانه من
الصباح الباكر حتى منتصف الليل ليملا البطون التى تحتاج إلى طعام ثلاث مرات فى كل
يوم ، ويكسو الأجسام التى تبلى ما يسترها من ثياب ، ويدفع مصاريف التعليم فى
المدارس ، فما كان التعليم إلا للقادرين على سداد الأقساط المدرسية فى مواعيدها .
ولا أستطيع أن أنسى جارى فى السنة الثالثة الابتدائية الذى عجز عن سداد
المصاريف لوفاة أبيه ، وجاء ناظر المدرسة إلى فصلنا وطلب منه أن يغادر المدرسة وألا
يعود إلا إذا كانت معه المصاريف . كان عليه أن يسدد ثلاثة جنيهات ولكن كل موارد



أسرته عجزت عن تدبير المبلغ ، فخرج من مقعده وسار بين الصفوف مطاطيء الرأس يسح الدموع . غاص قلبي في ذلك اليوم وكاد أن يتمزق أشلاء ؛ لم أكن لأملك غير الحزن وكنت أصغر من أن أمسح عنه تلك المذلة . وفكرت في أن أفاتح أباي في الموضوع وأن أسأله أن يسدد المبلغ وما كان أبي ليحجم عن ذلك ، ولكن لو كنت فاتحته أكان قادرا على أن يسدد مصاريف كل العاجزين عن دفعها في مدارس الحكومة ؟!

كنت أرقب الشيخ محمود في إشفاق ، وكنت لا أعجب من أنه لا يؤم السلامك مع أصحاب أبي فهو يكافح ويصارع الحياة لينتزع من أنيابها قوته وقوت عياله ، فما عنده وقت للقراءة وملتعات ذهنية أو محاورات سياسية لن تمده بلقمة العيش .

وكانت الاستعدادات في بيتنا على قدم وساق لزواج أخوي أحمد وسعيد ، فسعيد قد نال ليسانس الآداب ولم يجد وظيفة بعد . إنه لو توظف لقبض في الشهر ستة جنيهات وهي كافية لفتح بيت ، ولكن زواجه ما كان ليتأخر لذلك فالخير في البيت كثير ، والأيام كفيلة بأن تجعل منه رجلا يحمل أعباء أسرته ، وما كان الرزق أو المستقبل ليشغل تفكير أبي ، فهو يؤمن إيمانا راسخا أن الرزق في السماء وأن القدر مكتوب .

إن إيمانه بالقدر لا يقعه عن السعي في الحياة ، فهو يرى أن الدين يحض على العمل ، وأن لكل درجات مما عملوا ، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات . لهم أجر في محياهم ومماتهم ، وأن طلب الرزق من حلال من الأعمال الصالحة التي يجزي الله عليها ، وأنه من الإيمان .

تعلمنا منذ تفتحت أعيننا على الحياة أن مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا الله له غيب السموات والأرض ، ولم نتعلم ذلك من الكتب ولكن من تصرفات أبي ومن بعض ما كان يجري في السلامك من أحاديث ومحاورات ، لذلك لم نكن لنتنظر المستقبل في قلق وتوجس ، بل كنا نقبل ما يأتي به الغيب في رضى ، فإن جاء ما نكرهه فلا نجزع بل نصبر ونتنظر في أمل ، فمن يدري فقد يكون فيه خير كثير .

لم يكن رضانا بقضاء الله وقدره عن يأس بل عن إيمان واقتناع . وراحت المبادئ الإسلامية تغرس فينا على مرور الأيام فكنا نعيش في كل لحظة من لحظات حياتنا

مع الله ، حتى صار الله يسرى فينا مسرى الدم . وكان لتلك المبادئ فضل ما نشعر به من سلام في حياتنا ، وكان لها فضل ما تم من مصالحه بيننا وبين أنفسنا ، تلك المصالحه التي حررتنا من الخوف ومكنتنا من امتلاك الذات التي يحسب كثير من الفلاسفة والمفكرين أن تحقيق ذلك ضرب من المحال .

لقد بذرت في أعماقنا بذور النمو الروحي وسقيت بتعاليم تمجد حب الخير العام وتنبه عن الأنانية وحب النفس وسوء الظن بالناس ، فتحررنا على قدر طاقتنا من الذاتية ، وبذلنا كل ما نستطيع لتندمج في كل ما أمرنا به الدين لنحمل قلوبا بيضاء ناصعة .

كان أبى لا يدخن فشبينا جميعا لا نعرف السيجارة أو السيجار ، ولم تدخل الخمر بيتنا أبدا فلم نذقها ، ولولا الإعلانات وأشرطة السينما ما كنا لنستطيع أن نفرق بين البيرة والويسكى . وكان أبى ينام مبكرا فلم نسهر خارج البيت . ولو كان أبى يدخن أو يسكر أو يسهر لدخنا وسكرنا وسهرنا ، فكان أن تعلمنا فيما تعلمناه من البيئة التي عشنا فيها أن القدوة من أهم ما يشكل الحياة ، وأن سلوك الحاكم له أثر كبير في فساد الأمة أو صلاحها .

وجاء إلينا الخبر أن بدر ابن عمى مريض فذهبت لعيادته ؛ إنه يسكن في نفس بيت عمى في شقة بنيت له خصيصا فوق شقة عمى ، فما كانت هناك أزمة مساكن ولكن العرف كان في أسرتنا أن الابن إذا ما تزوج لا يغادر بيت الأسرة ، فإن كان الأب قادرا أدخل له شقة في بيته أو بنى له شقة فوق بيته .

وزرت بدرا وداعبت ولديه التوأم ؛ كان يشكو من حمى إلا أنه كان يبش لمداعياتي ، وكان في كامل وعيه فقد أجابني عندما سألته متى سينزل إلى دكانه بأنه سيكون به بعد يومين .

وواعدته على أن أزوره هناك وعدت إلى منزلنا لأشارك في ترتيب شقتي أخوى أحمد وسعيد ، فلم يبق على زواجهما غير أسبوع . ومر يوم وإذا بالناعى يحمل إلينا نبأ موت بدر فجثم الحزن على كل من في دارنا ، وكنت أكثر الناس ذهولا لذلك النبأ فلم أر في وجهه أى ذبول . كان معافى على الرغم من الحمى التي نزلت به ، ووصل الهمس

إلى دارنا أن سبب موته حنان أمه ، فقد بعثت إليه بكشك به كبيبة مصرى ، وقد تعب تعباً شديداً بعد تناوله وظل يقاسى منه حتى فاضت روحه .

وسواء أكان ذلك الهمس صادقا أم كاذبا فالحقيقة التى ما بعدها حقيقة أن بدرا قد مات ، قد ذهب وترك الأحران لعمى محمد . وما كان بدر أول من مات من أبنائه فقد دفن فى السنوات القليلة الماضية بتتين : إحداهما ماتت حرقاً وتركت خلفها بنين وبنات وإن لم تتجاوز الثانية والعشرين ، والثانية ماتت من حمى النفاس وتركت خلفها ولداً واحداً وأربع بنات ، وقد سقط الولد فى بئر السلم بعد ذلك ومات .

ورحت أفكر كيف احتمل عمى كل هذه الصدمات ؟! وإذا بى أتذكر ما تقوله جدتى فى جلساتها كلما مات أحد . كانت تقول إن عروق محبة الوالد للولد فى القلب مائة ، فإذا ما مات الولد فإن الله من كرمه ولطفه يقطع تسعة وتسعين عرقاً ولا يبقى سوى عرق واحد ، ولولا ذلك لمات الثاقل كمداً .

إنه قول وإن لم يكن قد أصاب كبد الحقيقة فإنه عبر عنها وصورها تصويراً يفسر حقيقة المشاعر التى نحسها نحو الأعمام الذين كتب علينا أن نفارقهم . ورحلت أفكر فى الموت أهو الصخرة العاتية التى تتحطم فوقها آمال البشرية ؟ هل وجودنا إن هو إلا آثار أقدام فوق الرمال ، وميض خاطف سرعان ما ينطفئ فى الظلام ؟ ولو كان الموت كذلك لكانت حياتنا عبثاً ، لكانت الدنيا مهزلة . لا بد أن ما لقناه هو الصحيح ؛ إنها دار ممر إلى دار مقر ، إنها نهاية حياة وبداية حياة أخرى ، فالله يحيينا ثم يميتنا ثم يحيينا ، والإيمان بذلك يجعلنا أكثر طهراً نستجيب لنداء القيم ونرنو إلى الخير الأقصى .

وقامت فى بيتنا مشكلة بعد موت بدر ، أيؤجل زواج أخوى أحمد وسعيد وقد تم تجهيز كل شئ وحدد يوم الزفاف ؟ وإن كان لا بد أن يؤجل فالى متى يؤجل ؟ إلى الأربعين أو ينتظران مرور سنة !

وبعد مشاورات اشترك فيها كل من فى بيتنا استقر رأى على أن يتم الزواج دون إعلان أو إقامة زينات . وفى سكون الليل انسل أحمد وعروسه إلى شقته وانفصل سعيد

وعروسه إلى شقته . أطفأنا الأنوار وأغلقنا الأبواب كأننا كنا مقبلين على عمل سرى من المشين أن يراه الناس أو يسمعوا به !

٥٤

أرسل سعيد أكثر من طلب إلى مصالح الحكومة ودواوينها يبحث عن عمل ، ومرت شهور دون أن يتلقى ردا . وفي ذات يوم جاءت رسالة صفراء عليها اسم الحكومة الملكية المصرية فتلقاها مستبشرا ، إنها تحدد له يوم إجراء الكشف الطبى فكان عليه أن يستعد لذلك الحدث الخطير .

إنه لو اجتاز الكشف الطبى فسيعين فى وظيفة راتبها ستة جنيهات فى الشهر فى محافظة من المحافظة ، وهى وظيفة صغيرة ستبعده عن بيتنا وما غاب أحد منا عن والديه أبدا ؛ ولكن لا بأس فهى بداية ستفتح أمامه باب الوظائف وما كان أحد فى أسرنا قد طرق بعد هذا الباب .

واجتمعت الأسرة تناقش ذلك الأمل ، وذهب سعيد ووقع الكشف الطبى على عينيه ، فكانت النتيجة ٦ على ١٢ للعين اليمنى ، و ٦ على ١٨ للعين اليسرى ، وكان لا بد لينجح فى الكشف الطبى أن يحصل فى مجموع العينين على واحد صحيح . ففكر فى أن يلبس نظارة لتعويض ذلك النقص . فذهب هو وأخى محمد إلى الدكتور عزمى القطان فى شارع فؤاد الأول ، فلما كشف عن عيني سعيد قال إن قاع العين سليم ولا يحتاج لعمل نظارة ، وكل ما يحتاج إليه هو عملية كحت بسيطة فيقوى إبصاره ويمر فى الكشف الطبى بسهولة . وقام بالعملية ، وقال إن الطب الحديث يقضى بألا يوضع على العينين أى ضماد ، وأن تعرض العينان للهواء والنور .

وفى اليوم التالى كانت هناك مباراة بين منتخب مصر وفرقة أجنبية ، فراح محمد يقنع سعيد بالذهاب معه إلى النادى الأهلى لمشاهدة المباراة ، فلما اعتذر سعيد عن الذهاب راح محمد يستخف بالعملية ويهون من شأنها ويقول إن الدكتور نفسه نصح

بتعريض العينين للهواء والنور ، وحتى وافق سعيد — مضطرا — على الذهاب معه .
وعادا بعد انتهاء المباراة إلى البيت وسعيد يستشعر آلاما مبرحة في عينيه ، إنه يحاول
أن يتحمل ما يعانیه حتى لا ينهال عليه اللوم والتقريع لذهابه في الحر لمشاهدة ما لا يغنى
ولا يفيد ، ولكنه لم يستطع أن يزدرد أو جاعه في صمت فباح بما يحسه ، فطلب منه أبى
أن يعرض نفسه في الصباح على الطبيب الذى أجرى له العملية .

وفي عصر اليوم التالى ذهب أخى محمد وسعيد إلى الطبيب ، وفحص عن عيني
سعيد ، ثم قلب كفيه في أسف وقال :

— الننى انجرح .

وعاد محمد وسعيد في الترام حزينين ونزلا عند محطة مدرسة خليل أغا في شارع
فاروق ، وبدلا من أن يذهبا إلى البيت قال محمد : هلم نعود إلى شارع فؤاد الأول .
واستقلا الترام العائد ونزلا عند شارع عماد الدين ، ودخلا عيادة طبيب ألماني مشهور
خلف أجزخانة دلمار اسمه ماكس مايرهوف . كان ذلك الطبيب يهوديا ، فقد كان كل
الأطباء الذين نعرفهم في ذلك الوقت من اليهود . كان كوهين ذو اللحية الرمادية هو
الطبيب الذى نفزع إليه إذا ما شكنا أحدهما من مرض باطنى ، وكان ساكس هو طبيب
عيوننا ومن بعده إيلي مسعودة . ولم يكن الأطباء وحدهم من اليهود بل كان كل من
نتعامل معهم منهم ، فإذا أردنا أن نشترى مصاعنا نذهب إلى ليتو مسعودة ، وإذا ما
خطر لنا أن نشترى أقمشة كان بنزيون محلنا المختار . وكان كل الذين يوردون البضائع
إلى دكان أبى من اليهود : مناحم كلانتة ، إيلي شمطوب ، عزرا كوهين ، بل إن البقالين
في حيننا كانوا منهم ، فكان كل ما يصل إلى أيدينا من نقود يتسرب إلى جيوبهم أو إلى
خزائنتهم .

فلما كشف الطبيب على عيني سعيد ، قال إنهما تحتاجان إلى علاج طويل ، وأن
على سعيد أن يزوره كل يوم ليغير على عينيه ، وأن يدفع له عن كل زيارة جنيها . فأخبره
أخى محمد أن سعيد طالب بالجامعة وأنه يتكلم الألمانية ، فكلم الطبيب سعيد بالألمانية
ورد عليه سعيد . فقال الطبيب : لأنك طالب ولأنك تتقن الألمانية سأتقاضى منك
نصف جنيه فقط عن كل زيارة ، وعاد محمد وسعيد إلى البيت ، وأخبرانا بالنبأ .

وتلقينا النبأ في جزع ، ولكن أرى ظل كعهدنا به لم يضطرب وإن كان قلبه يكاد ينفطر . كان يبدو في أعيننا دائما أكبر من الأحداث . إنه الشيء الهائل الأشم الذي نزع إليه في ملماتنا ، فكيف للجبل الراسخ أن يهتز ؟ كان أرى يبدو لناظري أنه قادر على احتمال صروف الدهر وإن كنت قد رأيت ذات يوم يذرف الدموع لأن خلافا قد وقع بين عمى وزوجها ، إنه رق رقة هزت كياني فجعلتني أفر من المكان لأبكي بعيدا ، إلا أنني جاهدت حتى مسحت تلك الصورة من خيالي ، لأحل مكانها صورة رجل قوى يتسم للأحداث في رضا وتسليم لإرادة الله ، فالأيام أكسبته عمقا وخصبا وثراء .

وراح سعيد يعالج عينيه ، وبعد ثلاثة أشهر قال الطبيب :
— أستطيع اليوم أن أقرر أن الخطر قد زال . فقال له سعيد : أتقول الخطر ؟ قال :
نعم ، لقد كنت أعمى يا حبيبي .
وعمل له نظارة ، وذهب سعيد ووقع الكشف الطبي على عينيه للمرة الثانية ، فكانت النتيجة ٦ على ٣٦ للعين اليمنى و ٦ على ٩٦ للعين اليسرى .
وكانت أمامه فرصة ثالثة ، ولكنه يئس من نتائجها مقدما ، وكانت أمي أكثر أهل البيت ضيقا بضيا عأمل أن يكون لها ابن من مستخدمي الحكومة ، وإن كانت تظهر لهفتها على أن يصبح سعيد عائلا لأسرته .
كانت أمي تحاول أن تبدو صارمة حازمة وإن كانت في أعماقها ترتجف فرقا من أن تشكل في واحد منا ، كانت إذا ما ضاقت بتصرفات بعضنا الخطرة تكشف عن ضعفها بقولها في ضيق :
— استنوا لما أموت وابقوا التجنوا وموتوا نفسكو .

وكانت والحق يقال قادرة على أن تكبت عواطفها ؛ إنها كانت تحبنا حبا جارفا ، ولما كانت ترى حنان أينا المتدفق كانت تبخل بإظهار حقيقة مشاعرنا خشية أن تفسدنا بتدليلها . إنها لم تحجم ذات ليلة عن أن تضرب محمدا وأحمد بعد أن تزوجا وقامت بينهما مشادة كلامية كادت أن تتطور إلى التشابك بالأيدي ، وإنها في ذات الوقت كانت تسهر إلى جوار سرير أي من بنينا المتزوجين طوال الليل إذا ما أصيب

بوعكة بسيطة لا تستأهل عناية أو سهرا .

وبقى سعيد ملازما البيت يمضى نهاره معنا فى السلامك ، وإذا ما جن الليل شارك فى الندوة الليلية . وكنا نذهب معا إلى السينما كما اعتدنا أن نفعل قبل أن يتزوج وقبل أن يحمل ليسانس الآداب .

كنا ننتظر فى لهفة فيلم « أولاد الذوات » فهو أول فيلم ناطق يصور الجزء الناطق منه فى فرنسا وتشارك فى تمثيله ممثلة فرنسية ، ورحنا نخوض فى القصص التى كانت تروى عن علاقة يوسف وهبى وسراج منير بتلك الممثلة ونروى ما نسمع من تفاصيل لكأنما كنا شهود عيان !

وعرض الفيلم وشاهدناه مع من شاهده من جمهور القاهرة ، وإذا بحوار الفيلم يصبح على كل لسان لكأنما كان أغنية هزت ضمائر الناس .

أصبح من المألوف أن تسمع سباكا يقول وهو يحاول أن يسلك بالوعة :
— يا مرات الكل يا مزبلة .

وأن تسمع الناس يقولون فى الطرقات :

— شرف البنت يا باشا زى عود الكبريت ما يولعش إلا مرة واحدة .

حفظ الناس عن ظهر قلب حوار الفيلم ، ومما لا شك فيه أن أحدا منهم لا يحفظ خطبة لمصطفى باشا كامل أو سعد باشا زغلول .

٥٥

كان فرحى شديدا لانتهاء الإجازة الصيفية فقد توطدت بينى وبين المدرسة علاقة حب بعد أن صرت لاعبا فى فريقها الأول للكرة ، وبعد أن أصبح لى أصدقاء بها يسعدنى أن أكون معهم نروى آخر ما نسمع من نكات سياسية وجنسية .

كنت أمضى تلك المدة التى بين انتهاء الدراسة وغيش الليل فى فناء المدرسة ألعب الكرة ، فإذا ما أويت إلى فراشى رحت أتذكر الألعاب الحلوة التى لعبتها والأهداف التى أحرزتها ، أو أتخيل أهدافا لم يكن لها مكان إلا فى أوهامى أو أحرزها لاعبون من

لاعبى منتخب مصر أو أندية الدرجة الأولى ، فقد كان أخى محمد يأخذنى كل يوم جمعة لمشاهدة مباراة فى الدورى العام أو فى مباريات كأس مصر .

لم يلعب أخى محمد الكرة أبدا ولكنه عشق مشاهدتها ، وتوطدت بينه وبين كثير من اللاعبين والإداريين صداقة كما توطدت بينه وبين الصياد قائد فرقة البوليس الموسيقية التى تعزف كل يوم جمعة فى كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية ، صداقة لا أدرى كيف فترت .

كان أخى محمد كتلة من النشاط والحركة الدائبة لا يطيق أن يمكث فى مكان واحد طويلا . إنه فى يوم الجمعة يذهب إلى ملاعب الكرة بعد الظهر وينطلق إلى مسارح عماد الدين فى المساء ، فإذا ما حدث وعرض فيلم عربى — وما أقل الأفلام العربية فى ذلك الوقت — كان من أوائل مشاهديه . وكثيرا ما كان ينظم لنا رحلات إلى القناطر أو حلوان فى فترة صباح يوم الجمعة حتى يستغل كل ساعات ذلك اليوم المبارك .

كان مشاهدو مباريات الكرة قلة وكانوا ينتقلون من ناد إلى ناد ، وقد كدنا نعرف بعضنا بعضا من كثرة ما التقينا حتى إننى أذكر أننى ذهبت أنا وأحمد وسعيد لمشاهدة مباراة فى نادى الزمالك ، فلما بدأت المباراة تلفتنا نبحث بأعيننا عن شخص معين كان يجلس فى مكان معين ، ثم قلنا جميعا :

— محمد عبد الوهاب ما جاش لسه .

وإن هى إلا لحظات حتى جاء عبد الوهاب يهرول وأخذ مكانه .

* * *

وكنت قد اخترت القسم العلمى مع أننى كنت أحب التاريخ والأدب ، وما كان ذلك الاختيار عن اقتناع فقد قيل لى إن الدراسة العلمية تفتح الطريق للطب والهندسة ، وكان مستقبل الدراسة الأدبية مجسما أمامى فى أخى سعيد ، فهو يحمل ليسانس الآداب وجالس فى الدار ينتظر ليس له وظيفة غير أنه زوج .

ووزعت علينا الكتب التى ستحدد مستقبلنا وحملناها فرحين ورحنا نقلب صفحاتها فى نشوة ، وما دار فى خلدى فى ذلك الوقت أن تلك الكتب ما هى إلا بذرة فى أرض قدرنا ستنبث رؤساء وزارات ووزراء وأطباء ومهندسين وزراعيين وتجارين

(هذه حياتى)

وقادة للجيش والطيران والبوليس وكتبة في الأرشيف .

وانتظمت الدراسة ودخل الفصل مدرس اللغة العربية ، وكان قصيرا ممتلئا يبدو من كل حركاته اعتزازه بقوته الجسمانية ، فإذا ببسمة ترتسم على شفاه الطلبة الذين يعرفونه وما كنت قد رأيته من قبل . وأخرج كراسية يعتز بها وراح يكتب على السبورة بخط جميل « قواعد » ، ثم ينقل من الكراسية ما فيها وينسقه على السبورة ويطلب منا أن ننقل ما كتبه في كراسياتنا .

وانتهى من مهمته دون أن يشرح شيئا فقد كان يعتقد أن ما يكتب لا يحتاج إلى شرح ، ودون مقدمات قال :

— كنت باعوم في اسكندرية ونمت وأنا باعوم ، ما صحيتش إلا على صوت يقول : « باسبور . مارسيليا » .

وانفجرت وحدى بالضحك ، وإذا بالأستاذ يقول في غضب :

— بتضحك على إيه يا افندى انت ؟ اطلع بره .

وخرجت مطرودا من الفصل ، وفهمت سر تلك الابتسامة التي ارتسمت على الشفاه . وبعد الحصّة عرفت الكثير عن أستاذنا المبعجل ، إنه حديث عهد بارتداء البذلة ، كان يرتدى الجبة والقفطان فلما غير زيه فصل القفاطين كرفقات ، ولم ينس عادة تشبيك يديه خلف ظهره من تحت الجبة فكان يشبكهما خلف ظهره من تحت الجاكتة . وهو يروى نوادره التي لا يصدقها عقل ويعاقب من يضحك سخريّة مما يقول ، فلما عرفت ذلك روضت نفسي على الإصغاء وزم الشفتين حتى لا يفضحا حقيقة مشاعري .

وراح الأستاذ يدرس لنا النصوص ، وكنت في قرارة نفسي أعجب من تلك المناهج التي تقررها وزارة المعارف العمومية على تلاميذها وطلبتها . إننى في السنوات الماضية درست تاريخ الفراعنة وتاريخ الثورة الفرنسية ولم أدرس شيئا عن الإسلام ونشأته ، ولولا قراءات السلامك ما عرفت شيئا عن تاريخه وروعته وأثره في إخراج أناس كانوا خير أمة أخرجت للناس . إننى لا أنكر أنني درست أسباب سقوط الدولة الأموية ، والآن أدرس في النصوص التغزل في الذكر والخمريات ، لكأنما كان هناك

هدف لتشويه وجه التاريخ الإسلامى ، كان الطلبة يرددون فى فرح :
هزنى الشوق إلى أبى طسوق فتدحرجت من تحت إلى فوق
وما كانوا يكتفون بذلك ، بل كانوا يذهبون إلى طلبة الفصول الأخرى يسألونهم
عن أبيات الشعر التى تكشف عن العلاقات الجنسية الشاذة ، وبدأ أن وزارة المعارف
العمومية تتأمر على تاريخنا وتحمل معاول هدم القيم والأخلاق .

وكان للمدرسة وكيل حاصل على الدكتوراه فى الآداب فكان من المنتظر أن يولى
اهتمامه للمكتبة وغرس حب الاطلاع فى الطلبة ، ولكنه لم يفعل ذلك بل كان اهتمامه
نقيض ذلك ، فقد ذاع بين الطلبة شعاره القائل : « التلميذ الكويس يلعب كويس
وياكل كويس » . وكنت أحسب أن ذلك القول إن هو إلا افتراء من افتراءات
الزملاء ، إلى أن أصدر أول ما أصدر أمرا بتخصيص مائدة خاصة لفريق كرة القدم فى
غرفة الطعام .

وجلسنا إلى مائدتنا نتطلع إلى أصدقائنا المبعثرين فى أنحاء القاعة هنا وهناك فى زهو
وكان ذلك أول امتياز أشارك فيه . وجاء الطعام ووضع أمام كل منا ما يوضع عادة أمام
سنة تلاميذ فانتابني خوف ، فأنا أتناول عادة قبل المباريات طعاما خفيفا ، ولم أستطع
أن أشارك الزملاء فرحهم وقد عبروا عنه بأصوات مرحة جلجلت فى المكان وبدعوا
يتخاطفون التفاح !

وجاء الوكيل وكان أشبه بكرة كبيرة ركب لها رأس فيه عينان مضعضعتان تكادان
أن تختفيا تحت نظارة طبية سمكة ، ولصق بها ساقان قصيران . أقبل نحونا وهو يوسع
من خطاه فساد قاعة الطعام صمت ، ووقف فوق رأسى وقال فى صوت آمر :
— كل .

وما كنت بقادر على أن ألتهم كمية اللحم التى وضعت أمامى فرحت أغافله وأسر بها
إلى الزملاء من تحت النضد ، فلما رأى الأوعية والصحف بيضاء من غير سوء قال
مظهرا إعجابه :

— النهارده ح تلعب كويس .

وربت على كفى، ثم انصرف . كان اهتمامه بى أننى كنت هداف الفريق فما من

مباراة اشتركت فيها إلا أحرزت هدفا على الأقل . وبعد الغداء ذهبنا إلى شبرا للتبارى مع مدرسة التوفيقية ، فلما نزلنا إلى أرض الملعب لمحت الوكيل قد جلس فوق كرسيه على الخط الجانبى عند منتصف الملعب .

وأطلقت صفارة البدء وراحت الكرة تنتقل بين أقدام اللاعبين ، حتى إذا ما وصلت إلّى إذا بالوكيل يصيح :

— خده ع اليمين .. خده ع الشمال .. شوت فى الجول .

وفعلت ما أصدر إلى من أوامر ، وصوبت الكرة إلى المرمى من منتصف الملعب فوصلت إلى حارس المرمى تهادى مع أننى كنت أستطيع أن أجرى بها حتى أودعها الشبكة .

واستأنفنا اللعب وجاءتنى الكرة عند منتصف الملعب ، فإذا بالوكيل يصيح :

— خده ع اليمين .. خده ع الشمال .. شوت .

ولم ألفت إلى صيحاته وأخذت الكرة وجريت بها ، وإذا بصوت الوكيل ينفجر فى الملعب :

— ح يضيعها ابن الكلب .. ح يضيعها ابن الكلب .

واندفعت أعدو حتى إذا ما أصبحت أنا وحارس المرمى وجهها لوجه أودعت الكرة عن يساره فإذا بصفارة طويلة تعلن إصابة الهدف ، وبدلا من أن أعود إلى منتصف الملعب خرجت غاضبا ، فإذا بالوكيل يأتى إلى معتذرا ويقول :

— ما انا كنت خايف لتضيعها . انزل وح اديك تذكرة تشوف بيها انت وأهلك فرقة أتكنز فى الأوبرا .

وعدت إلى الملعب وسخرية مريرة تولدت فى أعماقى ، تصورت أمى التى لم تذهب إلى السينما أبدا فى لوج فى الأوبرا تشاهد مسرحية باللغة الإنجليزية !

وبعد ذلك اليوم أصبح وكيل المدرسة يقف على رأسى عند تناول الغداء كلما كنا نتأهب للذهاب للتنافس على دورى المدارس الثانوية ، فكنت أسرب الأكل الكثير الذى كان يوضع أمامى إلى الزملاء من تحت النضد فى غفلة من عينيه المضعضتين . وأصبحت المدرسة أحب مكان إلى قلبى ، وكانت حصص العربى والنصوص

والقواعد من الحصص التي أترقبها في شوق ، فأستاذنا يروى النوادر للتدليل على قوته الخارقة ونحن نرويهما فرحين للزملاء بعد ذلك ، وقد يقوم بعضنا برسمها رسماً كاريكاتورياً ، فقد ازدهى الكاريكاتور السياسي في ذلك الوقت ولعب دوره الخطير في تكوين رأى عام في خدمة الوفد وهدم أعدائه .
قال أستاذنا الشيخ :

— كنت نائم صحيح على حركة تحت السرير ، بصيت لقيت حرامى ، سحبته من تحت السرير ووقفته جنب الحيط ، وجيت اديله بوكس خلى منه جه البوكس فى الحيط ، جبت المهندس بعد كده يشوف البيت ، بعد ما كشف عليه هز رأسه وقال :
ما فيش فايده .. البيت حصله خلل .

وانفجرت ضاحكاً وإذا بالأستاذ ينهرنى قائلاً :

— إذا ضحكت تانى ح اديك بوكس أوقع لك صف اسنانك ، تلمها تديها لوالدك .
ولم أضحك ، وتعلمت كيف أحبس ضحكاتى فى أعماقى فإذا بصداقة متينة تتوطد بينى وبين أستاذى .

٥٦

لم تغادر سيارة أبى القاهرة منذ أن اشتريناها ، فقد كنا فى أيام الصيف نحمل عشاءنا ونذهب إلى صحراء المأظة لنسعد بالهواء الجاف والأحاديث التي كانت تدور بين أبى وخاصة أصدقائه : العم السيد الشامى وإبراهيم الشرى . وكنا نزور الحسين والسيدة زينب ، وفى يوم الجمعة أصاحب أبى من العصر إلى العشاء إلى المقرأة بمسجد الإمام الشافعى أصغى إلى تلاوة كبار المقرئين . وأذكر أن شيخاً قرأ ذات مساء : « فوسوس لهما الشيطان » فإذا بجميع المقرئين الآخرين يقولون فى صوت واحد : « فوسوس لهما الشيطان » وطلب من المقرئ أن يتوقف عن القراءة وأن يعود إلى المصحف ليعاود التلاوة أمام اللجنة فى الأسبوع التالى .

وخطر لى خاطر فى تلك اللحظة : ما أيسر أن يجمع القرآن الآن من صدور هؤلاء المقرئين كما أنزل ، وإن جمع القرآن من الصدور أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه لا بد أنه كان أكثر يسرا ، فالحفاظ قد حفظوه عن النبى صلوات الله وسلامه عليه كما أنزل عليه .

وقد وقفت سيارة أبى ذات صباح أمام دار السينما وهبط منها أبى وأنا فى إثره بعد أن أقنعت أنه يذهب معى ليشاهد أنشودة الفؤاد فى حفلة الساعة العاشرة . كان يصغى إلى أغانى نادرة بأذن مرهفة ويظهر إعجابه بتمثيل جورج أبيض وعبد الرحمن رشدى . وبعد أن خرجنا قال لى : إن جورج أبيض كان يمثل بالفرنسية المسرحيات العالمية ، وأن سعد باشا زغلول هو الذى طلب منه أن يمثل بالعربية حتى يتذوق الجمهور المصرى الفن الرفيع . ولأول مرة اكتشفت اهتمامات أبى الفنية على الرغم من صمته فى أثناء المناقشات التى كانت تدور حول فن الشيخ سلامة حجازى ورخامة صوت الشيخ يوسف الميلاوى والمقارنات التى كانت تعقد بين فتحية أحمد ومنيرة المهدية . ولم يقدر أحد منا السيارة ، فقد أصدر أبى للسائق تعليمات مشددة بإغلاق السيارة وتركها فى الشارع ثم تسليمه مفاتيحها إذا ما جلس أحدها خلف عجلة القيادة . كانت أوامر قاطعة وقد حاولت أكثر من مرة أن أغرى السائق الأسمر بأن يترك لى القيادة ولكن جميع محاولاتي باءت بالإخفاق .

وذاات ليلة بينما كنا نتسامر فى السلامك برزت فكرة الذهاب إلى طنطا وزيارة السيد البدوى ، فوضعت ترتيبات الزيارة . وفى الصباح كنت أنا وأخى أحمد نجلس إلى جوار السائق ، وكان أبى والعم السيد الشامى والشيخ إبراهيم الشرى يجلسون فى المقعد الخلفى . وانسابت السيارة فى طريقها وأخى أحمد يقودها شفها . إنه يشرح كل خطوات القيادة شرحا وافيا ولكنه لم يحاول أبدا ممارستها ، فهو لا يحب أن يخاطر بحياته أو بحياة المارة أو يلعب بحياة الراكبين معه .

ووصلنا إلى دفرة ولم يبق بيننا وبين طنطا إلا دقائق معدودة ، وفيما نحن فى قمة النشوة إذا بصوت تحطيم حديدى ينبعث من المحرك . ووقفت السيارة ونزل السائق مسرعا يفحص عنها وبعد قليل رفع وجهه وقال :

— مسمار اتفك وقع في الموتور .

— وإيه العمل ؟

— نشوف عربية تقطر عربيتنا لغاية مصر .

إننا على مشارف طنطا ، أنعود دون زيارة السيد البدوى ؟! لم يكن معقولا . فطلب أبى من السائق أن يبحث عن سيارة لتحملنا إلى طنطا وأن يتصرف في سيارتنا المعطلة ، فذهبت أنا والسائق إلى طريق جانبي نبحث عن سيارة ، إنه الطريق المؤدى إلى دفرة فإذا بنساء عاريات يستحممن في التربة ، أجسام بضة ناصعة البياض كن أشبه بلوحة فنية لفنان روماني قديم تفنن في إبراز محاسن فائنات سابحات .

ووقفت أنظر وقد سرح خيالي ، وإذا بصوت زاجر يرن في أذنى :

— اخرج من هنا قبل الرجالة ما يشوفوك يقتلوك .

وانسحبت مسرعا خائفا أترقب وإن كنت في دهش مما سمعت ، لماذا يقتلوننى والنساء عاريات في طريق عام ؟ إننى لم أقتحم عليهن دورهن ولم أقرأ لافتة أو أية علامة تنهى عن السير في ذلك الطريق .

لم تكن هذه أول مرة أرى فيها نسوة عاريات يستحممن في التربة ، فكثيرا ما ذهبت مع أخى سعيد لزيارة صديق لنا يسكن في مهمشة وكنت أرى نساء وفتيات عاريات في الماء يلعبن ويقفزن ويتضحكن والنهود تظهر وتختفى تبعا لقفزاتهن وغطساتهن وضحكاتهن . شاهدت في تربة غمرة ما لم أشاهده طوال حياتى على شواطئ البحار أو الملاهى الليلية ؛ إن ما شاهدته هناك ترك في نفسى أثرا أعمق من كل الآثار التى تركتها في نفسى مشاهد التعرى في ملاهى باريس وكوبنهاجن وبرلين وهامبورج .

وعدنا إلى الطريق فإذا بأبى وصحبه ينتظرون ، وأشار علينا السائق أن نذهب إلى طنطا وأن ندعه يتصرف .

وركبنا سيارة أجرة وانطلقنا إلى مسجد السيد البدوى ، وما إن هبطنا منها حتى راح تجار حب العزيز يجذبوننا من ملابسنا لنشترى من البركة . وفاحت رائحة الفسيخ وغص المكان بشحاذين وبأناس يرتدون ثيابا مرقعة ويتعممون بعمائم خضراء



أو سوداء أو بقلنسوات أشبه بالطراير . إنهم مجاذيب السيد البدوى ، وعبق المكان بروائح البخور فانسلت خلف أبى إلى داخل الجامع وأنا أستشعر أسى فى أعماقى ، يزيد فى ضيقى تلك الأصوات الرتيبة المنبعثة من مجموعة اجتمعت قرب الباب أخذت تطول وتقصر وهى تردد : حى .. حى .

أيتحول الدين القيم ، دين الفطرة إلى هذه المشاهد المؤذية ؟! وعند الباب وقعت عيناى على صندوق النذور . إن البسطاء من الرجال والنساء يلقون بالنقود فى ذلك الصندوق . ترى من يا ترى هؤلاء السعداء الذين سيقسمون ذلك الكنز الغالى ؟ ومن أين أتت هذه العادة ؟ أهى عادة فرعونية متأصلة فى المصريين منذ عهد الفراعين ، عهد تقديم القرابين لكهنة المعابد ؟! ربما .

ورأيت أناسا يسجدون ليقبلوا العتبات الرخام ، وأناسا يتمسحون بالحديد الذى حول المقام ، ولا يكتفون بالتمسح بل يقبلونه فى إيمان عميق ، ويطوفون بالمقام طوافهم

بالكعبة ويقفون عند حفرة من الحفريات في خشوع شديد . إنهم أمام قدم النبی ، وقد تنوّل ذلك الزعم من أيام الفاطميين ، كانت وثنيات تمارس على مرأى ومسمع من وزارة الأوقاف ورجال الدين . ولو طاوعت نفسى لأخذت أضرب ذات الشمال وذات اليمين ، فقد بلغ لى الضيق غايته ، فما كنت أراه كان بعيدا عن الدين النقى البسيط الذى جاء به ابن عبد الله عليه صلوات الله وسلامه .

وارتفعت أصوات تسأل السيد البدوى الشفاء وقضاء الحاجات ، فإذا بالدين الذى جاء ليقضى على الوسائط بين الله والناس جاء معتنقه بشفعاء بينهم وبين ربهم ، وكأنما قد نسوا قول الله : « وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » . « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » .

وغادرنا الجامع بعد الزيارة ولم أكن فى قرارة نفسى راضيا عن شئ مما رأيت ، رأيت وثنيات ترتكب باسم الإسلام ، وضلالات ليست من الدين فى شئ ، وأناسا قد أتوا من كل مكان لبركة مزعومة ، فما جاءوا ليسجدوا لله بل جاءوا لقطب من الأقطاب ، وكأنما قد غاب عنهم « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » . وذهبنا إلى مقهى فى الشارع الرئيسى وجلسنا على حافة ترعة الجعفرية ؛ كانت الترعة تشق طنطا وتنساب إلى الحقول وقد قامت الدكاكين والدور على جانبيها . وتناولنا هناك غداءنا ، وبعد العصر جاء إلينا السائق وطلب منا أن نركب سيارة فوردي قديمة ، إنها السيارة التى ستقطر سيارتنا إلى القاهرة .

٥٧

فترت العلاقة بينى وبين فورتينيه فلم أعد أذهب كل مساء إلى محطة ترام الظاهر أنتظر أوبتها من الجزيرة ، ولم أعد أذهب إلى حديقة الحيوان يوم الجمعة صباحا مع أخى محمد ، فما كنت أذهب لأستمع بموسيقى البوليس ومشاركة أخى فى الحديث مع صديقه الصياد قائد الفرقة الموسيقية ، بل كنت أذهب إلى هناك لأنظر من بعيد إلى فورتينيه الجالسة خلف « الكيس » بيوفيه جزيرة الشاى .

كانت فورتينية غارقة في علاقتها بجارها الجديد و كنت على يقين من أنه لن يزيد على عابر سبيل في حياتها . إنه مثل محمود أبو شفاتير لا أكثر ولا أقل يرضى رغبات جسدية فوارة . وقد حاولت منذ أول يوم عرفتني فيه أن تضمّنني إليها أن تلتصق أجسامنا ، ولكنني كنت أقاوم ذلك لأنني أحسست أنها بعد ذلك ستلفظني كما لفظت شابا قبل ، ستعزّلني عنها وما كنت أحب أن أبعاد عنها فقد تعلق بها قلبي .

أحببت فتاة في الظاهر وإن كانت داخرة من الرأس إلى القدم ، كان سيرى إلى جوارها متعة وحديثي إليها يرفعني عن الأرض وكلماتها تنسكب شهية في روحي . إنها ملاذي ، إنها الأتون الذي أصهر فيه وحدتي ، فإنني على الرغم من أنني أعيش في عالم زاخر بالأصدقاء لم أكن أستشعر بأني تخلصت من فرديتي إلا عندما أكون حيث تكون .

كنت أحس سعادة غامرة معها ، ولو طاوعت قلبي لما انقطعت يوما عن رؤيتها ، ولكن كرامتي ثارت على ثورة عارمة وراحت تؤنّبني على ربط الأسباب بيني وبين بغى لا تعرف إلا الاستجابة الرخيصة لنزواتها .

وكانت معركة بين عبودية الروح وحريتها ، بين الاستسلام للقلب أو الانقياد للعقل . إنه صراع مرير بذرت فيه بذور نموى الروحي ، وبدأت حياتي الباطنية تتعمق ، وجعلت أهيب بإرادتي أن تعبر هذا الجسر ، أن تفرمّا أنا فيه من خزي . وهل هناك هوان أكثر من أن أحب فتاة فتحت أبوابها للجميع ؟!

ومرت أيام وشهور أتأرجح بين قلبي وكرامتي ، وعشت في قلق وصرت مشكلة في عين ذاتي . إن أناسا كثيرين يفرحون بأن يدوروا في فلك من كانت مثل فتاتي ، أن ينهلوا من نفس النبع الذي ينهل منه الآخرون ، ولكنني عشت في مجتمع ينظر إلى الحب نظره إلى محرم ، وإلى أن أية علاقة بين فتى وفتاة إنما هي علاقة آثمة ينظر إليها في هلع وإنكار ، فما بالك بهيام فتى لا يزال في المدارس الثانوية عالة على أهله ، بفتاة لعوب تهوى جمع الرجال بنفس حماس هواة جمع طوابع البريد ؟

إنني وإن كنت أحمل قناعا على وجهي كلما شاركت أي جلسة المساء في السلامك أو شاركت أُمّي في أحاديثها ، إلا أنني هتكت ذلك القناع بين وبين ذاتي .

إننى باتصالي بها أحقر نفسى ، أمرغ إنسانيتى فى التراب . فلا بد أن أتحلل منها وأن أسترد حرىتى ، فحرىتى هى عين وجودى . وعزمت على أن أفر منها ولم أجد لى ملجأ إلا الله ، فرحت أصلى وكان يحنقنى أنها كانت تتخايل لى فى صلاتى .

وجاء إلى ألبير ذات ليلة وسألنى عما دعانى إلى مقاطعتهم ، فاعتذرت بأنهم لا يكونون فى البيت إلا فى المساء وأن ذلك الوقت ليس وقت زيارة ، فهم يجتمعون فيه للعشاء . وإذا بصوت داخلى حاقد يفح فى أغوارى : أكان ذلك الوقت مناسبا أيام أن كانت العلاقة بينك وبين أخته طيبة ؟ وعرض على ألبير أن أنهض معه وأن أذهب إلى بيتهم فأبوه فى شوق لرؤيتى . وكدت أضعف فقد تأمر على قلبى ، وهممت بأن أقوم معه ولكن إرادتى تغلبت على كل ما ثار فى أعماق من مغريات ، وفرحت بانتصارى وإن أحسست بانعدام الانسجام بينى وبين كل ما حولى .

وبينما كنت أذرع الطريق بين البيت وميدان الظاهر كما اعتدت كل ليلة لمحتها قادمة ، فإذا بقلبى يخفق بين جنبى ، وإذا بى أكاد أن أتسمر فى مكانى . إن كل خلجة من خلجاتى تهفو إليها ، وكدت أن أطير إليها متفرحا بهذا اللقاء ولكنى درت على عقبى ووسعت من خطوى حتى غبت فى البيت وهرعت إلى شباك أرصد الطريق .

فجاءت حتى وقفت على الباب الحديدى للسلامك وأنا أرتجف فرقا فى مكانى ، وجعلت تتلفت وتردد بين الإقدام والإحجام . وأخيرا انكصت على عقبيها وانصرفت وأنا أقاسى مرارة الصراع الذى نشب فى أعماق . قلبى يقفز بين جوانحي فى جنون ، إنه يحرضنى على النزول واللحاق بها والسكون إليها ؛ إنها وإن كانت نهبا للرجال فإنى أريد منها غير ما يريد الآخرون ، أريد أن أنعم بالحديث إليها والإصغاء إلى ما تقول ، ولو أن ما تقوله تافه لا جديد فيه ، ولكن مجرد وجودى إلى جوارها يفيض على سعادة عميقة ، إنها لذة المشاركة فى أنقى صورها .

ووجدت نفسى أهبط إلى الشارع كالمسحور وأهرول لألحق بها ، وما إن لفح هواء الليل وجهى حتى استيقظت إرادتى . أهدم فى لحظة كل ما كافحت من أجله ؟ أستجيب لرغبة طائشة تقودنى إلى هوان نفسى وجرح كبريائى ؟ ووقعت عيناى على راشيل وقد وقفت وحيدة أمام الزقاق الذى تسكن فيه . كانت إستر من فتيات الحى

و كنت قد تبادلـت معها بعض الأحاديث ، فما كانت العلاقة بيننا لتزيد على حديث عابر ، فوجدت أن أفضل ما أفعله أن أفر إليها من قلبى الذى يدفعنى دفعا للحاق بفورتيـنيه ، فذهبت إليها ووقفنا نتسامر . وانتهى الحوار على أن نتقابل فى الخامسة بعد ظهر اليوم التالى .

كانت إستـر تزعم أنها إسبانيولية على الرغم من أنها ولدت فى حينا ، فما من يهودى أو يهودية كان يفخر بأنه مصرى . إن غرورهم يصور لهم أنهم من جنس أفضل من كل البشر ، وبالرغم من قلة عددهم فقد أسسوا فى وسط منازلنا نادى المكابى وأباحوه لليهود وحرموا على غير اليهود الدخول إلى حرمة المقدس ، وما كان ذلك الحرم ليزيد على ملعب باسكت بول .

كنت أستذكر دروسى وأذهب إلى السينما وألعب الكرة وأشارك أبى وصحبه سهرتهم فى السلامك . وكانت حياتى مزدهمة بالأصدقاء ، ولكنى كنت أحس وحدة وأستشعر حنينا إلى الجنس الآخر . فكنت أخرج أنا وإستـر كل يوم نجوس خلال حينا أو نركب الترام الذهاب من العباسية عبر شارع فاروق إلى إمبابة ، كنا نهبط من الترام عند بداية كوبرى الزمالك ونسير على النيل نتسامر .

و ذات مساء بينا كنا نسير حول جامع الظاهر نمزح ونضحك إذا بصوت غاضب يهتف قائلا :

— إستـر !

وتسمرنا فى مكاننا والتفتنا نحو الصوت ، فإذا بشاب يهودى قد وقف متحفزا ، فذهبت إليه إستـر ثابتة الخطو فقال لها :

— مين اللى ماشية معاه ده ؟

— واحد صاحبى .

— قدامى ع البيت .

— انت مالك ومالى .

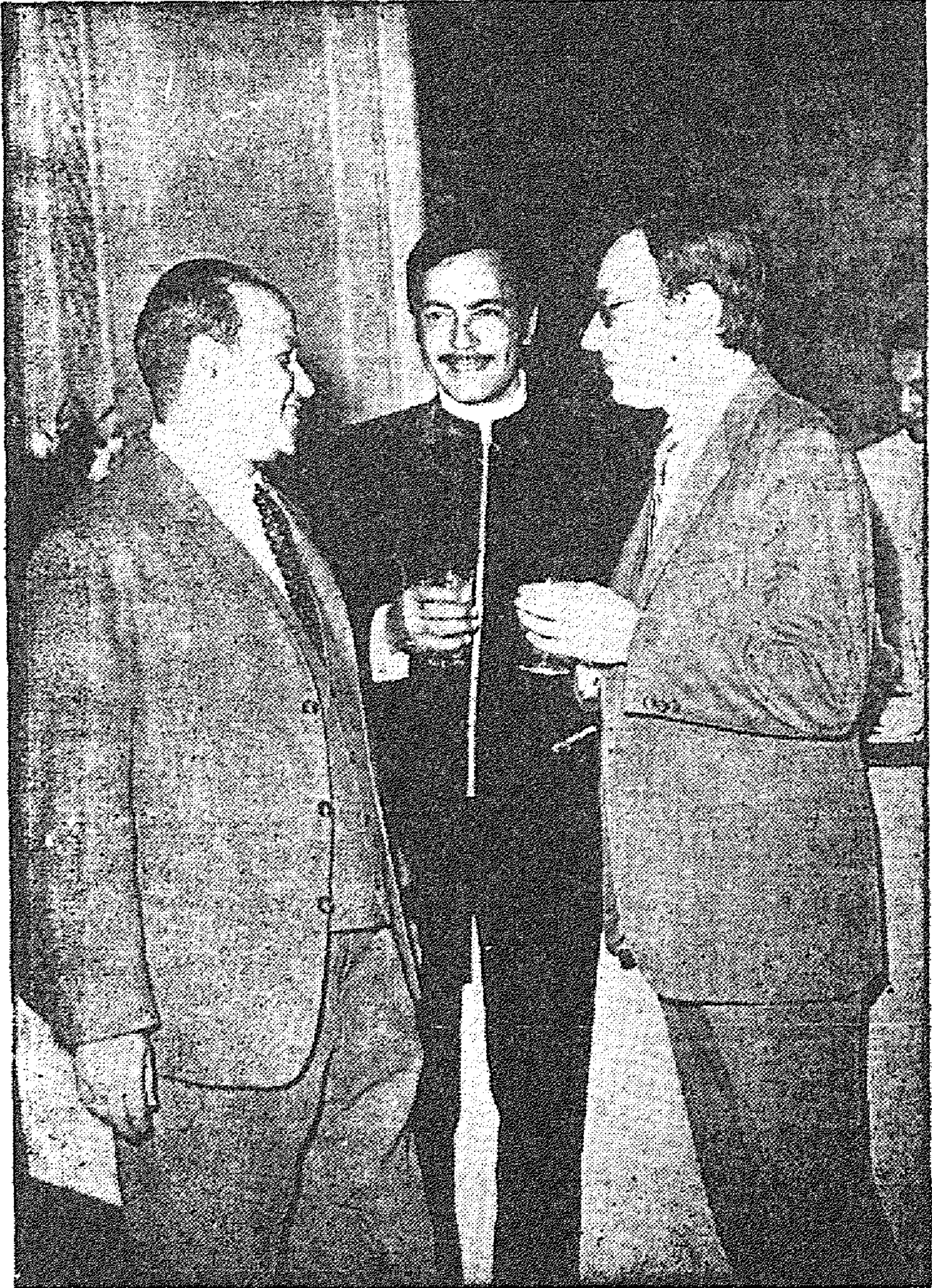
— ح اقول لأمك .

— قول لها .. أنا حرة .

وعادت إلی کأن شیئا لم يحدث ، فقلت لها :

— مین ده ؟

— ابن عمی .. ولا یهملک .



كانت إستر تحاول أن ترضيني وكانت على استعداد لأن تفعل أى شىء من أجلى .
وكانت رائعة الحسن ففى يوم كنت أسير أنا وفريدون فى الشارع وكانت إستر جالسة
على صندوق وقد تهدل شعرها الأصفر السبط على كتفها ، فوقف فريدون أمامها
يحدق النظر فيها ثم التفت إلى وقال :

— نفسى أرسمها .

وقد لوت عنق فريدون أكثر من مرة .

كانت إستر تهزل سعيده إذا ما حددت لها ميعادا للقاء ، وكانت تذهب إلى
المكوجى لتكوى الفستان الوحيد الذى كانت تملكه لتخرج به . وكنت أرقبها من
الشرفة مشفقا ، كانت سلوكى وإن لم يفتح لها قلبى ، فقوادى المجنون قد تعلق
بالأخرى وإن كانت أقل جمالا ، لا تعرف عن الإخلاص شيئا إلا الإخلاص لجسدها .

٥٨

كانت الصحف المصرية تصف فى خماس رحلة النصور المصرية ، فقد تخرجت أول
دفعة من الطيارين المصريين فى إنجلترا ، وقد تقرر أن يطير طيارونا بطائراتهم الحربية من
لندن إلى القاهرة . إنهم قاموا بطائرات « موث » من مطار ليمب ووصلوا إلى ليورجيه
فى فرنسا ، ثلاث ساعات مثيرة قضاها فى الجو وما كانت الطائرة تستطيع أن تحلق أكثر
من ذلك ، فهى طائرة صغيرة أسموها بحق « موث » أى الناموسة . إنها مغامرة شدت
انتباهنا جميعا وجعلتنا نستشعر زهوا وفخرا ، فأخواننا قد ركبوا متن الجو وأمسكو
بأيديهم زمام الفضاء .

وقامت الطائرات المصرية الست من ليورجيه بفرنسا إلى باريس ، وتناقلت
وكالات الأنباء النبأ العظيم ، وأفاضت الصحف المصرية فى وصف الرحلة . واستراح
الطيارون وملئت خزانات الطائرات بالوقود ثم استأنفت رحلتها التاريخية من باريس
إلى ليون ، وتبعنا فى انفعال أخبار النصور . ومر يومان ونسورنا الشجعان لم يطروا
أرض فرنسا ، إنهم يطرون من ليون إلى بيجو ومن بيجو إلى مرسيليا . وأخيرا يغادرون

سماء فرنسا ليحلّقوا في أجواء إيطاليا . إنهم يهبّطون إلى أرض المطار في فلورنسا لينعموا بالراحة ويتناولوا المكرونة ويصغّوا إلى أنباء الوطن الحبيب من الموظفين المصريين الذين كانوا يهرعون لاستقبالهم في نشوة واستبشار .

وارتفعت الطائرات لتصارع الجو وتشق طريقها إلى سماء روما تحمل فلذات أكباد مصر وأعز بنينا ، فتية اغتربوا وعرضوا حياتهم للخطر لرفعة بلادهم . وهبطت الطائرات المصرية في مطار صقلية فامتلأت الأفئدة بالآمال . إنها مرحلة واحدة ثم تلمس الأقدام الأرض الطاهرة ، أرض مصر الغالية .

وطارت الطائرات تحوها الآمال وتحيط بها القلوب إلى أن هبطت في مرسى مطروح ، وإذا بالتعليمات تصدر إلى النصور أن ينتظروا بمرسى مطروح حتى تصل إليهم أوامر أخرى .

سته أيام انقضت وطائرات الموت تحلق في الجو ثم تهبط لتملأ خزاناتها بالوقود حتى وصلت إلى أحب بقاع الأرض إلى قلوب الاثنى عشر مغامرا الذين قادوا طائرات يعبث بها الهواء ، فما كانت أكثر من ست ريشات في مهب الريح .

وراح على جمال الدين باشا وزير الحربية والبحرية يتأهب للفتح المبين ، فقد ولد في وزارته سلاح جديد ، وما أحسب أن أحدا في مصر قد فطن إلى خطورة ذلك المارد الجديد ، فما فكروا فيه إلا أن يكون مظهر الجيش المصرى مشابها لمظهر الجيوش الأوروبية الراقية !

وقامت الاستعدادات على قدم وساق في ألماظة لاستقبال الملك فؤاد الأول ، فقد تقرر أن يكون جلالة في استقبال أول سرب مصرى . ولما كان جلالة سيشفرف الحفل فقد راح جميع المسئولين يتنافسون في الاهتمام بإبراز نواحي الجمال فيه إرضاء للعاهل الذى بيده الأضرار السحرية التى ترفع أو تخفض ، تعز أو تذلل أولئك الذين تعلقوا بحطام الدنيا .

ورسموا الطريق الذى سيشقه جلالة إلى ألماظة وشغلت وزارة الخارجية باختيار وفد المستقبلين وما سيقدم لجلالة من مرطبات . وصار جلالة محور كل تفكير كأنما كان النصور المصريون المنتظرون في مرسى مطروح نمرة في حفل تكريم صاحب

الجلالة .

وبعد يومين من الاستعدادات صدرت الأوامر للطيارين المصريين بالتحليق إلى القاهرة ، ومنذ الصباح الباكر اصطف جنود الجيش والبوليس من قصر عابدين حتى مطار أمانة ، وتعطل المرور وتعطلت مصالح الناس وركبوا شططا ليوفروا كل سبل الراحة والاستعلاء لرجل لعبت الصدفة العمياء دورها المجنون ليكون على رأس أمته ، تحلب كل طيبتها لمتعته .

وراح الموكب الملكي يشق القاهرة إلى أمانة ، فهرع الناس إلى الشرفات وإلى جانبي الطريق ليتسلوا بمشاهدة الركب الفاخر . وإنهم ليسرعون إلى النوافذ إذا ما مست آذانهم أصوات تعلن عن عرس أو أراجوز ، فما كان اصطفاك الناس يوما على ضفتي طريق أو تكديسهم في النوافذ والشرفات دليلا على حب أو تعاطف مع الذين



يشقون جموع البشر في كبرياء واستعلاء ، فما أكثر الطغاة والمستبدين الذين خف الناس للتفرج عليهم .

وأزت الطائرات في سماء القاهرة وحلقت على ارتفاع منخفض ، وكان أزيزها أروع من لحن شجى في آذان المصريين . إنه صوت عبث بأوتار القلوب وملاً الصدور نشوة وشحن الأرواح بالانفعال والبهجة ، فإذا بدموع تترقرق في العيون .

وارتفعت صيحات صادقة تعبر عن الفرحة ، وخفقت الأفئدة حبا ، فالقلوب تتعلق بكل ما من شأنه أن يرفع الرعوس ويجعل الأبصار ترنو إلى السماء . ورفعت عيني أرصد النسور في طياراتهم وأنا في قمة الانفعال ، وما خطر لي على قلب أن القدر سيربط بيني وبينهم الأسباب ، وأن زهرة عمري سأقضيها في هذا السلاح الذي سيعلن مولده عندما تلمس عجلات أول سرب مصرى أرض المطار .

واشترت مصر من إنجلترا ست طائرات أخرى ، وما خطرت خاطرة على فكر مسئول أن يشتري طائرات من دولة أخرى ، فما كان في مصر من يجرؤ أن يحلم بشراء شيء من غير الدولة المحتلة حتى لا يغضب السادة المتربعين في قصر الدوبارة ، فخزانة مصر كانت تصب في خزانة الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس .

وسافر النسور إلى لندن وقادوا طائراتهم وغادروا أرض بريطانيا العظمى وراحوا يخلقون في فرنسا وتأهبوا للهبوط في مطار باريس ، كان الضباب كثيفا وكانت الرؤية متعذرة ، وما كان أمامهم إلا محاولة النزول ، فالوقود في الخزانات على وشك النفاد . وهبطت الطائرات واحدة إثر أخرى ، وإذا بطائرة ترتطم بالأرض وتتحطم ، إنها طائرة حجاج وشهدى ، ووصل النبا الفاجع إلى مصر فنزل بالقلوب حزن ، وخرجت مصر تودع جثمان أول شهيدين للسلاح الناشئ .

خاضت المجلات الفنية في نشر أنباء فؤاد الشامي فقد صار يهدد فنانات الصالات ، وأضفت عليه ألقابا لا بد أنها كانت ترضى غروره الجاهل . كانت تنعته مرة بإمبراطور الليل ومرة بفتوة عماد الدين ، وكنت أقرأ تلك الأبناء وأنا أفكر في دهش في أمر عصابة فؤاد . أحقا صار لفؤاد عصابة وأصبح ميدان نشاطها الملاهي الليلية ، أم أن المجلات تبالغ وتكتب تلك المقالات لإثارة قرائها ؟!.

كان فؤاد منذ أن كان صبيا يحاول أن يشد الأنظار إليه ، فكان بمناسبة وبغير مناسبة يستعرض عضلاته ويروي النوادر التي يدلل بها على قوته الجسمانية ، وكان يتميز بجرأة تبلغ مرحلة التهور . حاول أن يكون ملاكاً ، وحاول أن يكون رباعاً ، وتحدى بطل مصر في المصارعة دون أن تكون له أدنى خبرة بها وهزم في الثانية الأولى من المباراة ، ولم يقر بهزيمته بل عزا ذلك إلى المفاجأة . ونجح في أن يلقي الرعب في قلوب لاعبي الكرة الذين يوقعهم سوء حظهم في مباراة فريقنا ، وكنت أركبه بسخرياتي وأنا طفل فلم يتورع عن أن يحملني بين يديه ويطلب من أخى أحمد أن يتلقفني ، وبدلاً من أن يدفعني إلى يدي أخى الممدودتين قذفني في غيظ إلى الأرض فارتطمت بها وبقيت مدة في شبه غيبوبة ، تصل إلى مسامعي صرخات أحمد خافته مفزوعة :

— قتلته .. قتلته .

ولما أفقت أحسست ضلوعي تؤلمني ، ولكن ألم خيانتة كان أقسى في نفسي ، حقيقة جرحت كبريائه في ذلك اليوم فأني تركت معه قرشين منذ أيام وطلبت منه أن يعيدهما إليّ فأبى ، فما كان مني إلا أن أخذت الكرة وصعدت إلى الشرفة وأخذت أنادى وأنا أطوح الكرة في الهواء وقد دليتها من رباطها :

— من ده بكره .. بقرشين .. من ده بكره .. بقرشين .

وكان جميع رفاقي يعلمون قصة القرشين فأخذوا يضحكون وفؤاد يكم غيظه ،

حتى إذا تعبت من النداء وهبطت لألعب مع الرفاق لم أكن أحسب أن ذلك سيكلفني غاليا .

وكان فؤاد يملك خيالا خصبيا ، كان يروى مغامراته المتخيلة في أسلوب أخاذ . إنه كان يحلم ولا شك بالبطولة ، كان ينفس عن رغبات تمور في وجدانه ، وقد كنت أهرس لزملائى فى أثناء استرساله فى رواية أحلامه :

— نشه .. نشه .

فإذا ما ضبطنى متلبسا بالهمس كان يتوعدنى فكنت أطلق ساقى للريح . ولكنى أقرر حقيقة لم أكن أكره فؤاد و كنت أحب أن أصغى إلى « نشاته » ، ولما كثر تهديده لنا وطالت يده علينا تمنيت أن يبتعد عنا وقد كان ، وذهب إلى البكرية والتقى بشباب ضائع فكان أن كون عصابته .

ودفعنى الفضول بعد أن أصبح فؤاد الشامى مادة لا تخلو منها مجلة فنية أن أتقصى أخباره . إننى على كثرة ما سمعت منه لم أسمع قصة تدور حول امرأة أو تعاطى الحشيش أو المخدرات . إن كل ما كان يحلم به أن تنشر صورته فى الصحف بمناسبة ضربه لرقم قياسى فى رفع الأثقال أو الملاكمة أو المصارعة ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق ، ولعل ذلك دفعه إلى أن يتلمس طريقا آخر يحقق فيه ذاته ويؤكد أهميته .

وفى شارع عماد الدين سمعت عن فؤاد حكايات غلفت ولا شك بمبالغات ، فقد فرض إتاوات على كل راقصات الملاحى الليلية ، بعد أن حطم البارات وضرب الفتوات وألقى الرعب فى قلوب الجميع .

ولما سألت :

— وأين البوليس ؟

قيل لى إنه أبرم اتفاقا مع ماركو .

— ومن هو ماركو هذا ؟

فقيل لى إنه كونستابل إنجليزى كان يطلق سراح فؤاد كلما قبض عليه فى مشاجرة ، وكان يحفظ كل ما يقدم ضده من شكائيات تقدمها راقصات ضغن به وبرجال عصابته .

كان فؤاد يقبض من أصحاب الباربات والملاهي الليلية والراقصات وكان ماركو يقبض من فؤاد . كانت وزارة الداخلية في أيدي المحتلين وكان الإنجليز هم عصب الوزارة والمشرفين على الأمن ، فكانت تجارة المخدرات في أيديهم ولم يتورعوا عن حماية المجرمين والخارجين على القانون لقاء أجر معلوم .

كان فؤاد منذ أن كان غلاما قد شق عصا طاعة أسرته ، وكان يتلذذ كلما ارتكب حماقة لا يقرها مجتمعه . ولم يكن فؤاد وحده قد حطم جسور الود بينه وبين ما تعارف الناس عليه بل شاركه في ذلك أخوه مختار ، ولكن مختارا قد عرف الطريق السوى . فقد وجد أنه يحطم نفسه بعداوته لكل ما تقع عليه عيناه فاستقام ورضى بأن يكون واحدا في ركب رضى بواقعه ، يتحرك في دائرة إمكانياته وآماله ومشروعاته المقبلة ؛ أما فؤاد فقد غرق في الأحلام وظل يرنو إلى ما يريد أن يكونه ، ثم انطلق في سبيله وقد داس كل المبادئ والقيم .

وفي ذات صباح قرأت في الصحف أن عصابة فؤاد الشامي قد قتلت في ملهى البوسفور الراقصة امثال فوزى ، وأنه قد قبض على حسين إبراهيم حسين بتهمة القتل . وهرعت إلى شارع سوق الجراية فرأيت العم إبراهيم في دكانه والها حزينا فأحسست أسى ، وكنت في أعماقي أومن أن حسينا قد جر إلى الاشتراك في تلك الجريمة جرا .

كنت أعرف أن كلمة طيبة تدفع الفتى إلى القيام بأية مغامرة ، كنا نقول له : — بقى يصح يا أبو الحسن ان البيت اللي قدامنا يدار للدعارة وانت موجود ؟ فإذا به يأتى في جنح الليل مع بعض أصدقائه ويضربون كل من في البيت المشبوه ، ولا يغادر المكان قبل أن يترك من فيه الحى كله .

إن فؤاد قد استغل فيه هذه الناحية ولا شك ، فرحت أتقصي الحقائق أسأل كل من يعرفون حسين زكنة عن قرب ، فإذا بالصورة تكتمل أمام خيالى ، جاءه فؤاد وقال له :

— أبو الحسن ! عايزين نشوف ضربة رقبة القزازة .
ولم يكذب أبو الحسن خبرا ، فجاء بزجاجة وكسرها وأخذ رقبتها وراح يسنها

ثلاثة أيام ، ثم أخفاها في ملابسه وذهب إلى كازينو البوسفور وجلس يتربص ، حتى إذا قامت امثال فوزى تغنى وترقص انقض عليها وضربها ضربات قاتلة ، وماتت امثال وألقى في غيابة السجن فؤاد الشامى وعصابته ثمرة التمرد والضياع .

٦٠

كان البرلمان يتكون من مجلسين : مجلس الشيوخ ومجلس النواب ، وكان معظم الشيوخ من أصحاب الإقطاعيات ، فإذا ما جاء يوم الانتخابات عاش الباشا المرشح بين فلاحيه يغمرهم بعطفه ورعايته ، حتى إذا ما كان يوم الانتخاب كدسهم في اللوريات ونقلهم إلى مكاتب الانتخاب كما تنقل المواشى إلى السلخانات !
كان الفلاحون هم أصحاب الأصوات وكانوا يؤيدون صاحب الأرض أو من يؤيده صاحب الأرض فما كانت لهم إرادة ؛ أما في المدن فقد نجحت الصحافة الوفدية في أن تكون رأيا عاما وفي أن تهدم أى زعيم لا يرضى عنه الوفد وإن كان من أنفع الزعماء وأخلصهم لبلاده .

كان الفلاحون في قبضة الوفدين وكان زعماء الطلبة منهم ، فكان أن صارت إرادة الأمة ، إلا أن طبقة جديدة قد بدأت تتكون بعد أن أسس بنك مصر شركة مصر للغزل والنسيج بالحلّة ، فقد صار هناك لأول مرة في مصر تجمع عمالى له شأنه .

كان العمال قبل ذلك مبعثرين في القاهرة والإسكندرية وبعض عواصم المحافظات ، وكانوا يعملون في الصناعات اليدوية الصغيرة أو في محال التجارة أو في بعض شركات السجاير والدخان التى كانت تعتمد في لف السجاير باليد على صغار الفتيان والفتيات . وكان لهؤلاء العمال ممثلون في الأحزاب ، وكان الدكتور محبوب ثابت مستشارهم ، وكان الدكتور محبوب ينصحهم بأن يجانبوا الأحزاب لمصلحتهم ومصلحة وطنهم ويقول لهم :

— لا تكونوا مطايا للأشخاص ، احذروا الزعماء والمتزعمين وسماستهم المستغلين . لا تتحزبوا بل قفوا ما يعمل لمصلحتكم سليا ، وليكن تأييدكم لكل حزب

بقدر ما يعمل لمصلحتكم ومصلحة وطنكم . أيدوا من يعمل لكم خيرا واخذلوا من يحاول تسخيركم . ولا أريد أن يكون لسان حالى يوما ما : « ذل من دافع عن الدليل » : وكونوا أعزاء النفوس ولا تقصروا عنقى ، ولا تسمعوا القول الذين يقولون لكم أيدوا الأحزاب « على بياض » ، وأكرر لكم القول والنصيحة أن يكون تأييدكم لكل حزب بقدر ما يعمل لرفع مستواكم من حيث المعيشة والصحة والنهوض بكم إلى مستوى كريم ، ولكن لا تنسوا استقلال مصر وسودانها والسودان ومصره .

هاجمت الصحف الوفدية الدكتور ، ولكن لم يجد الوفد في العمال ما يشغل تفكيره فعمال السكك الحديدية وهم أكبر تجمع عمالي يدينون بالولاء له . ولكن بعد أن أخذت الصناعة تنمو في البلاد وأخذت العمالة في التضخم وأصبح لأصوات العمال في الانتخابات أهمية ، فكر الوفد في أن ينصب لهم زعيما وفديا .

كان النبيل عباس حلمي قد انتقد الأسرة المالكة فغضب عليه الملك وحرمه من لقبه ، وكان إذا ما غضب الملك على أحد أسرع الوفد في احتضانه ، فراحت الصحف الوفدية تفيض بأنباء عباس حلمي بعد أن خلعت عليه لقب « الشريف » عباس حلمي . وراح عباس حلمي بإيعاز من الوفد يتصل بالعمال ، وكانت الصحافة الوفدية على علم بأهداف ذلك فكانت تتبع خطواته وتصف اجتماعاته ومشروعاته ، وصارت كلما ذكرت اسمه أردفته بلقبه الجديد « زعيم العمال » .

وعلى مر الأيام صار عباس حلمي زعيما للعمال بفضل الصحافة الوفدية والمستغلين والمتملقين لكل ذى نفوذ وسلطان ، وصار الشريف لا يسير إلا في زفة من الأنصار . وفي ذات يوم أراد أن يحض العمال على التماسك والترابط فجمعهم ووقف فيهم خطيبا وقال :

— فيه واحد جبل نازل من السما ، كله يمسك فيه .

أراد أن يستشهد بقول الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . فلم تسعفه اللغة ، فراح يعبر عن الآية الكريمة بأسلوب عامي ركيك على قدر فهمه وتصوره . ولم يكن عباس حلمي من العمال وما كان بقادر على أن يعبر عن آلامهم وأمالهم ، وكان كل ما يمتاز به أنه من الأسرة المالكة ، من الأسرة التي يجرى في عروقها

الدم الأزرق النبيل وكان لذلك سحره وتأثيره ، وزاد في قدره أنه وقف في صف أعداء الملك وكان ذلك وحده كافيا في نظر الوفد لاعتبار الرجل من كبار الوطنيين !
لم يكن يهم في شيء معرفة أسباب الخلاف بين الملك وبين النبيل السابق أهى خلافات شخصية أم خلافات من أجل مصلحة الوطن ، المهم أن الخلاف قد وقع وأن النبيل السابق قد صار في المعسكر المناوئ للملك فصار من الواجب على الوفد مكافأته .

ألم يكن في الوفد من يصلح لزعامة العمال غير عباس حلمي ؟! أليس في تنصيب الرجل الذي لم تكن بينه وبين العمال أدنى صلة على رأس الطبقة الجديدة التي بدأت تتكون ليكون لها أثر كبير في سياسة البلاد استخفاف بالعقول وتحقير لشأن العمال ؟
كان الوفد في ذلك الوقت واثقا من نفسه حتى لقد ذاع بين الناس القول المشهور : لو رشح الوفد حمارا في أية دائرة فسيفوز في الانتخابات على أى مرشح غير وفدى ، فلم يشغل نفسه في التفكير في مدى صلاحية عباس حلمي للزعامة الجديدة ونادى به زعيما ، وعلى أنصاره المنتشرين في طول البلاد وعرضها أن يقبلوا هذا الوضع وأن يؤيدوه .

كان همس خافت يدور بين الذين بقى لهم ظل من رأى من الوفدين بأنه إذا كان ولا بد من زعامة للعمال فلماذا لا يكون زهير صبرى قائدهم وحبيبهم ؟ كان زهير صبرى قد طلع على الناس بتقليعة جديدة في زمن التقاليع ، كان يزعم أنه شيوعى ملكى ، أى أنه يؤمن بالشيوعية وفي نفس الوقت يدين بالولاء للملك فؤاد الأول .
وكانت الشيوعية بغیضة إلى قلوب شعب عرف التدين منذ فجر التاريخ ، فهى الكفر والإلحاد ولا شيء غيرهما ، لذلك أعرض عنه الناس بما فيهم العمال . وما كان أحد بقادر على أن يسخر من زعمه فما كانت مبادئ الشيوعية قد عرفت بين الجماهير ، وما كان أحد ليجرؤ على أت يهزأ بمن لاذ بعاهل البلاد .

وكان التمسح بالأعتاب الملكية الصفة المميزة لذلك العهد ، فرؤساء الاتحادات والأندية الرياضية والأندية السياسية من البيت الملكى الكريم ، وكانت القلوب تخفق بالبهجة والسرور إذا ما قام أحد السادة الأمجاد وخطب بلغة عربية مرغ فيها أنف سيبويه

فى التراب ، فى لفرحة المصرىين عئءما يسمعون أءءا من المتعالمين بءءهم بلفتهم وإن تءطمت على شفءفه .

قبل الناس زعامة عباس ءلهم للعمال ءون مناقشة ، ءتى الءىن كانوا ابءتمعون فى السلامك لم ببءوا فى ءلك شئنا غربفا ، إن الشىء الءى أغضبهم أن لقبوا عباس ءلهم « بالشرفف » فهو لفس من نسل النبى ، فالأشراف لا بء وأن يكونوا من نسل محمد صلى الله علفه وسلم ، وهؤلاء لهم سبءل فى وزارة الأوقاف ءبى على الفقراء منهم الأرزاق ، وعباس ءلهم لفس له ءكر فى ءلك السبءل الشرفف !

٦١

كنت أءرب عقب مباراة الكرة إلى مباءان الظاهر ، و كنت ألعب كل يوم مباراة فى أماكن مءفرقة : فى ءفنا .. فى الشرافة .. فى أرض قره مباءان فى القلعة .. فى سوق قلوب .. فى أرض العفون بالعباسفة الشرقة .. فى ناءى السكة الءفء . وما إن أسفر فى شارعنا ءتى ءبى إستر لءءق بى ، فكنا نبوس ءلال شوارع السكاكفنى أو نركب الترام إلى البزفة وما كنا نءب إلى السفنا أبءا فما كانت إستر ءب مشاءءفا .

وما كان فمر فوم إلا وألءقى أنا وهى ، وقء أءسست أنها ءلقت بى ولكنفا لم ءسءع أن ءفسل عن قلبى بصمات فورءفنفه ، فأنفى كنت أءاهء نفسى لكفلا أءب كل لفة إلى مءطة ترام الظاهر لأنظرها كما اعتءء أن أفعل من قبل . كانت معارك رهفة ءنشب فى وءءانى بفن فواءى وعقلى وكرامءى ، وكانت كرامءى ءءصر بعء بءاهءة ومعانة ومقاومة ءفار عواطفى . ولكى أكون صاءقا أقول إن ءفار مشاعرى قء انءصر مرات فءربء أرقب هبوطها من الترام مءلصصا ءفى إذا ما أقبلء نءوى هرءب من طرفها ءافق القلب مءعورا .

كانء علاءقى بفورءفنفه رفاضة لروءى وإراءءى . إنفى كنت أصلى لربى وما كانت صلاءى لضفط من أبى أو أمى بل كانت عن اقءناع . لقء كنت أرى الله فى كل ما أمء

إليه عيني ، ولكن كان لي قلب يهفو إلى الجنس الآخر فلم يكن طريق الفضيلة مفروشا بالورود ، إنه طريق شاق ليس فيه إلا مجاهدة وعنت وإرهاق .

إن الاستجابة لرغبات فورتينية أيسر من الصمود ، فما أسهل الهبوط وأيسر الاستسلام للإغراء ، وقد كدت أستسلم لها أكثر من مرة لولا ذلك الخجل العنيف الذي استشعرت به في ضميري ، فقد كنت في الجهر والخفاء أستشعر أن الله يسرى في مسرى الدم .

كنت في كل أطوار حياتي أهفو إلى السماء ، فإذا ما ارتكبت هفوة كان ضميري يعنفني في صرامة ، فكانت أية لذة عابرة لا تتساق مع ألم النفس والندم والعذاب . لذلك كنت أرتجف فرقا من أن يقودني ضعفى إلى الاستغراق في لذة محرمة تنخر في قلب وجودي وتسوقني إلى مسالك البوار .

أذكر أن أم فورتينية نادتنى أيام أن كانوا ساكنين أمامنا وطلبت منى أن أمكث مع فورتينية المريضة لأنها وحدها إلى أن تنطلق الأم إلى الصيدلية لتحضر لها الدواء ، فدخلت وجلست بجوار سريرها . فما إن خرجت الأم وأغلقت خلفها الباب حتى نهضت فورتينية ومالت على وأخذت تقبلني في سعار .

تدفقت الدماء حارة في عروقي وكدت أغيب في غيوبة النشوة ، وإذا بصرخة تنبعث من أعماق وجودي تحذرنى من عواقب ضعفى واستسلامى . إنها لحظة لذة في أعقابها شقاء طويل وألم عميق وحساب عسير .

واضطربت بين يديها ولفنى قلق حائر سرعان ما انقشع ، فقد اطمأن قلبي لما تذكرت الله وأحسست حرى تودعني تودعني بعد أن كدت أتردى في مهاوى عبودية جسدينا ، فأبعدتها عني في رفق ووضعيت رأسها على الوسادة ثم سحبت عليها الغطاء . كدت أسمع قهقهات الرذيلة تدوى في أرجاء المكان ساخرة من تصرفي الصبياني ، وقرأت في عينيها الضيق والاستخفاف بل والازدراء ، ولكنى كنت سعيدا سعادة حقة بانتصاري على ضعفى وعلى شيطاني الذي كان يزين لي الخطيئة ويوسوس في أغوارى أن الله فتح لعباده أبواب التوبة وأنه غفور ستار .

كانت فورتينية تبذل كل ما لديها من إغراء لتعصف بي ، وكنت أقاوم وأتألم وكان

الألم يردني إلى ذاتي ، فما كنت أريد منها ذلك الجسد المبذول لكل من يتصل بها بل كنت أريد منها أن أغذى ذلك السر الإلهي الذي يجعل روحا تهفو إلى روح .
لو كان الجمال هو الذي يأسرننا لوجدت في إستر عزاء عنها ، فهي أجمل منها ؛ ولكنني لم أكن أحس معها تلك الإحساسات العميقة المرفهة القادرة على تذوق الألم واللذة معا ، تلك المشاعر التي كانت تزيد في خصب ذاتي وتترك أثرا عميقا في وجداني .

تركت فورتينيه حيناً وسكنت مع أهلها في البكرية لا يفصل بيني وبينها إلا شارع الخليج المصري ، فكنت أذهب إلى محطة ترام الظاهر أنتظرها وأسير إلى جوارها مغتبطا حتى باب بيتها . وفي ذات ليلة أرادت أن تأخذني إلى سطح الدار وكدت أستجيب لها ، وبيننا كنا نصعد في الدرج المظلم إذا بصوت ساكنة تحت شقتها تقول في صوت مفزوع :

— مين ؟ .. مين اللى طالع ؟

وفي خضة قفزت الدرجات هاربا وأنا أسمع المشاجرة التي نشبت بين فورتينيه وبين جارتها . كانت فورتينيه تلوم جارتها لأنها تسأل عمن هناك كلما سمعت وقع أقدام ، وراحت غيرتي تؤكد لي أن فورتينيه قد اعتادت أن تأخذ عشاقها إلى السطح وأن الجارة تفسد تدبيرها في بعض الأحيان .

وبعد تلك الليلة أخذت أقاوم ضعفى فلم أعد أذهب لانتظارها في المساء وإن كانت كل خلجة من خلجاتي تهتف بي أن أنطلق لأسعد باللحظات التي أسير فيها إلى جوارها من ميدان الظاهر إلى بيتها ، وما كانت المسافة لتزيد عن مئات الأمتار !
كنت أقابل صديقها الجديد جارها الذي كان يستطيع أن يصافحها من شرفته إذا ما كانت في شرفتها المقابلة ، فقد كان الشارع الذي تسكن فيه ضيقا لا يسمح بمرور أكثر من سيارة في اتجاه واحد ، وكنا نكتفى بالتحية من بعيد . وكم كانت دهشتي عندما جاء إلى في السلامك يشكو مما شكاه منه محمود أبو شفاتير من قبل ، إنه يشكو منهما الذي لا يعرف الشعب .

لم أحس ارتياحا لحديثه وإن عجبت في قرارة نفسي من أنه يأتي إلى ليشكو من

جوعها الجنسي . لماذا أنا بالذات ؟! وانتابني ضيق وقلق واشمئزاز وقررت أن أقطع كل صلة بيني وبينها وأن أكبح جماح عواطفى ، وأن أدوس قلبى المجنون الذى كاد أن يمرغ كرامتى فى الأوحال .

وقد كان فلم أذهب لمقابلتها ولم أعد أزور أهلها ، حتى إننى لم أعرف أنهم قد تركوا الحى إلا مصادفة من يقال يهودى كنت أنا وهى نقف عنده نتحدث طويلا فى بعض الأمسيات .

٦٢

كان عيد الأضحى على الأبواب فكان حديث زوار السلامك الحج ومراسمه ، وشوق العم سيد الشامى إلى أداء الفريضة ، وقرار إبراهيم الشرى أن يحج فى العام القابل ، وتعليق الجميع على ذلك القرار وذكر بعض التف عن « شقاوة » الشيخ إبراهيم والتعقيب على مغامراته بأن الله غفور رحيم . وقد سكت أبى عما كابد من متاعب فى حجته ، ولا أدري أكان ذلك لأن ذكر المشاق التى يتحملها الحاج صده عن بيت الله أم لأن أبى بطبعه لا يحب أن يشكو أو يتململ ؟!

وكانت أصوات الخراف التى وضعت فى البدروم ترتفع بين آن وآن ، فإذا بأحدهم يلتقط من تلك الأصوات خيط الحديث فيتكلم فى الأضحى وحكمتها ، وما كنت قد عرفت بعد أن الشعوب البدائية كانت تتقرب إلى آلهتها بذبح الأبناء الأبقار وأن الله سبحانه وتعالى قد شرع ذبح الأضاحى نسخا لتلك العادة .

وانقضت ساعات السمر وانقضى السمر ودخلت إلى فراشى فإذا بى أحس أن حرارتى قد ارتفعت ، فرأيت بعد تفكير أن أكتم ما ألم بى حتى لا أحرم من مشاركة أهل الدار فى التهام اللحم المشوى صبيحة يوم العيد ولم يبق عليه إلا يومان .

ونمت ولم أستيقظ إلا بعد أن تسللت الشمس من نافذة حجرى وغمرت وجهى تلسعنى حرارتها ، فقممت وأنا أترنح أرد دوارى إلى حرارة الشمس وأنكر على نفسى مرضى ، فما أقدرنا على أن نكذب على أنفسنا وأن نصدق كذبنا !

ومر اليوم وجاءت لحظة استعدادنا للذهاب إلى ملعب الكرة القريب من دارنا ، فقد كانت هناك مباراة بيننا وبين فريق من فرق الأحياء المجاورة وما كان أكثرها في ذلك الوقت ، فتحاملت على نفسى ولبست ملابس اللعب وذهبت مع الرفاق وأنا أستشعر أن جسمى يحن إلى الأرض يريد أن ينقض .

وسمعت صفارة الحكم كطينين في أذنى ، ومددت عيني أنظر فإذا بكل شيء يتراقص فخطر لى أن انسحب من الميدان ، ولكننى نحيث ذلك الخاطر جانبا فما كنت لأترك فريقى يلعب ناقصا ، واستمررت في اللعب أجرى وأقفز وأهجم واتقهقر وإن كنت أستشعر أن قدمى أضعف من أن تحملانى .

وطال وقت اللعب وكان يمر قبل ذلك اليوم كلمح البصر ، فلما سمعت صفارة الانتهاء سرت بين الرفاق إلى البيت أسمع أصواتهم متداخلة لأدري ما إذا كنا قد انتصرنا أو هزمنا . وانسللت أتحامل على نفسى حتى وصلت إلى سريرى فتمددت فيه ألتقط أنفاسى ، أقاسى من النار التى اشتعلت في جسمى .

كان مرض الدنجى منتشرا في تلك الأيام ؛ إنه حمى قاسية تصيب الرأس بالدوار وتفكك الأوصال وترفع درجة الحرارة ، وقد قيل إنه يحدث انفجارا بالأذنين قبل أن يسوق فريسته إلى الموت ، وقد بت موقنا تلك الليلة أننى سقطت فريسة للدنجى .

أقول لأمى إننى مريض لتحرمنى من مشاركة إخوتى في أكل لحم الأضحية المشوى في الصباح الباكر ؟ وما فكرت طويلا فقد قررت أن أكرم أمر مرضى وأن آكل مع الآكلين وليكن بعد ذلك ما يكون . لم تغمض لى عين فالحرارة التى غمرتني أطارت النوم من عيني . وانتصف الليل وإذا بانفجار يدوى في أذنى فأرهفت كل حواسى ، بل أصبحت كتلة من الحواس وانتابنى ذعر شديد ، إننى أموت وحدى ، أصرخ ؟ وما فائدة الصراخ ؟ إننى أمسيت بين يدى الله . وفيه الهلع وقد انتهى كل شيء ؟ إن من الحكمة أن أودى حق الله ، أن أصلى له ، أن أسأله بدموعى أن يغفر لى ، أن أكون أهلا للحياة الجديدة التى سأقدم عليها .

وفي لحظة بات الكون كله أنا والله جل جلاله ، أنا شيء صغير قد استسلم لمصيره وتعلق كل رجائه بالحقيقة الكبرى ، بذى الفضل العظيم ، بالرءوف الرحيم ، بالغفور

الحليم ، بالحى القيوم ، بالسميع العليم ، بالرحمن الرحيم .
وأضاءت فى وجدانى عين صارت ترى أشياء جديدة ، أشياء لا تجسد ، بل أنوارا
تنتشر فى أرجائى تمنحنى أمنا وسلاما . ورأيت أن أتوضأ ولكن كيف أنهض إلى حيث
الماء وأنا على أعتاب الآخرة أطوى تجربة الدنيا لأدخل تجربة جديدة مثيرة ؟ ولمست
الجدار القريب منى وتيممت وأنا أعجب فى أعماق من ذلك الهدوء الذى لفنى ، وما
انتهيت من مسح قدمى حتى توجهت فى نومى إلى القبلة وصليت وأنا نائم ركعتين ،
كانت صلاتى مناجاة حارة لربى . وقد كنت خاشعا خشوعا مهيبا وكانت ابتهالاتى
مبللة بدموعى . وانتهيت من صلاتى وأنا أستشعر راحة لم أحسها لما صليت بعد ذلك
فى جوف الكعبة .

وانتظرت فى هدوء خروج روحى من جسدى لأخرج من سجن المادة وأبدأ
الرحلة الأبدية رحلة الخلود ، وإذا بأصوات فى الشارع تصل إلى مسامعى . إننى
أسمع ، كيف أسمع بعد أن انفجرت طبلى أذنى ؟ لعل أسمع من العالم الآخر !
وتحسست جسمى بيدي وعجبت لأنى أحس مرور يدي على وجهى .. على عنقى ..
على صدرى . إن روحى لا تزال تسرى فى بدنى . ورفعت رأسى وتحاملت فإذا بى
جالس فى فراشى . وزحفت حتى حافة السرير ثم هبطت قائما على رجلى وسرت إلى
البلكون وفتحتها ودخلت ، وما نظرت إلى مصدر الأصوات حتى وجدت أناسا
يتعاونون على استبدال عجلة سيارة بالعجلة الاحتياطية .

إن ما سمعته لم يكن انفجار أذنى بل انفجار كاوتش سيارة . وسرت فى بدنى رعدة
ودثرنى خوف وامتلات رعبا وعجبت للمشاعر التى مارت فى كيانى وثارت ثورة
بركان . كنت أحسب أن الفرحة ستعربد بين جنبى وأن الطمأنينة ستغمرنى لما
تأكدت أننى لا أزال على قيد الحياة فإذا بى أرتجف من الرأس إلى القدم ، وإذا بقلبى
يخفق فى وله قلق وما دريت كنه تلك المشاعر الغريبة . أكانت للتعبير عن الخوف من
أن حياتى كادت أن تطوى أم كانت للتعبير عن الخوف من أن الحياة لا تزال لها بقية ؟
وعدت إلى فراشى ونمت ، وفى الصباح الباكر استيقظت على رائحة شواء . إن
إخوتى قد بدأوا فى وضع أسياخ اللحم على مواقد الفحم ، فهبيت من نومى وأسرعت

إلى السطح فإذا بمن فيه من أهلى يتخاطفون ما يتم نضجه ويلقون به فى الأفواه ، فرحت أشق طريقى إلى حيث وضع الإناء الذى يوضع فيه اللحم المشوى ، وأخذت أخطف كالصقر كل ما يسلت من الأسياخ . وبعد أن أكلت حتى امتلأت أحسست الحمى تنقشع ، ومنذ ذلك اليوم وأنا أعالج الحمى بالكباب .

٦٣

فى الإجازة الصيفية عرف سعيد الرواية الإنجليزية المقررة على البكالوريا فى العام التالى ، كانت مسرحية « كريتون العجيب » ففاتح أحد زملائه فى أن يقوم بترجمتها . واختمرت الفكرة فى رأسيهما فأى عمل يقومان به خير من الانتظار فى البيت بلا عمل . وقام أحدهما بترجمة الفصل الأول والفصل الثالث وقام الآخر بترجمة الفصل الثانى والفصل الرابع .

وانتهيا من الترجمة وقامت فى وجهيهما العقبة التى تقوم فى وجه كل من يتدبّر الترجمة أو التأليف . أين الناشر الذى يقبل أن ينشر مسرحية مترجمة لمرجمين ناشئين وإن كان مقررة على طلبة البكالوريا ؟ وراحا يبحثان عن ناشر فى شارع الفجالة فى حى مكاتب الكتب المدرسية ، فوجدا ناشرا قبل تلك المغامرة واتفق معهما على أن يعطيها مقابل الترجمة مائتين من النسخ ، يقومان بتوزيعها وتحصيل ثمنها .

وابتدأت السنة الدراسية وعرفت الترجمة طريقها إلى الطلبة ، فإذا بذلك الرواج يفتح شهية سعيد والناشر معا ، فاتفقا على أن يقوم سعيد بجمع المحفوظات الإنجليزية فى كتاب ، وأن يقوم بشرحها وترجمتها إلى العربية وأن يشترك فى نصف التكاليف وأن يكون له نصف الأرباح .

وراح سعيد يغدو ويروح بين الناشر وبين المطبعة ، وفى أثناء تردد أخى على الناشر دار بينهما حوار ، لماذا لا يشتركان معا فى المكتبة كما اشتركا فى الكتاب ؟ ووافق الطرفان على الفكرة ولم يبق إلا التنفيذ .

وظهر كتاب المحفوظات الإنجليزية ، وأرسل سعيد السائق ليحضر له مائة نسخة

من الكتاب لأوزعها على رفاقي في المدرسة ، فعاد السائق بالنسخ . ثم أرسله مرة ثانية ليحضر مائة نسخة أخرى فسرعان ما عاد بها . ولما أرسله المرة الثالثة قال له الناشر إن نصيب سعيد قد سدد .

وغضب سعيد وثار ، ولكنه حمد الله أن كشف الله ذلك الناشر قبل أن يشاركه في المكتبة . وانطلق سعيد إلى الفجالة ليعاتب الرجل ويحاسبه ، فإذا به يجد عنده فتاتين ، فما إن رأى سعيد حتى قال له :

— تعال نخطف رجلنا للمطبعة بالحسين .

وذهب الجميع إلى المطبعة ، وما إن انتهى العمل بها حتى قال صاحب المكتبة :
— تعالوا نتعشى عند الدهان .

وذهبوا إلى الصاغة وصعدوا إلى إحدى الغرف المعدة للأسر المصونة ، وجلس الناشر وفتاة في ناحية وجلس سعيد في الناحية الأخرى ، وإذا بالفتاة الثانية تأتي لتجلس إلى جواره وابتسم الناشر في رضا ونظر إلى أخى نظرة تطمئنه أنه رجل لا يأكل حقوق الشركاء .

وطلب الناشر زجاجة خمر ووجد سعيد نفسه في مأزق ، وقبل أن يعتذر بأنه لا يشرب قيل للرجل إن المحل لا يقدم خمورا ما دام معهم نساء . ودار حوار ودارت أفكار كثيرة في رأس سعيد ، أينسحب ؟! أيفاتح الرجل في وقت مجونه في أمر كتاب المحفوظات ؟! أيستحق مثل هذا الماجن عتابا ؟! إنه ضيق الأفق طمع في مبلغ زهيد وأبى جشعه إلا أن ينفرد وحده بالكتاب وأرباحه وكان في مقدوره أن يترث وأن يجعل من ذلك الكتاب طعاما ليصطاد به كل ما سيدفعه سعيد لقاء أن يصبح شريكا في نصف المكتبة !

إن غباء الرجل ونهمه لأكل أموال الناس بالباطل قد كشفه من أول معاملة ، وقرر سعيد أن يكون ذلك اللقاء فراقا بينهما فما حدث إن هو إلا رحمة من ربه . إنه لا يزال حرا ولم يتورط في شركة ولم يدفع للرجل ما يندم عليه أو يقتل آماله ويحطم مستقبله . وجيء بالكباب وأكل الجميع ثم وضع العنب أمامهم ، فإذا بالفتاة تضع العنب في فم سعيد والرجل الآخر يبتسم في سعادة فقد حسب أنه قد طوى الشاب لما أراد أن

يضعه في أول الطريق الذي غالبا ما يفقد فيه كل شاب إرادته ويصبح عبدا لمن يسر له إطفاء شهواته ، فعقول أغلب الناس في فروجهم .

ونفض سعيد واستأذن في الانصراف قائلا إن في البيت من ينتظرونه وقد قال صدقا ، فإننا لم نكن لنستطيع أن نغيب عن موعد الغداء أو العشاء حتى بعد أن نتزوج إلا إذا اعتذرنا مسبقا ، وإلا فإن من في البيت ينتظروننا في ترقب وقلق .

وبعد أيام جاء إلى السلام ملك مدرس ممن له كتب مدرسية كثيرة وممن لدغوا مرارا من الناشر الذي ملأ بطنه من الحرام ، وراح الرجل يقدح في الرجل ويقول لسعيد في دهش واستغراب :

— بقي انت تشارك الرجل ده ؟!

وتحدث كثيرا ثم قال :

— إذا كنت عايز مكتبة ما عندك مكتبة مصر ، أصحابها عايزين يبيعوها ؟



— مكتبة مصر .. فين دى ؟

— فى شارع الفجالة .

وراح يصف مكان المكتبة وسعيد يظهر عجبه من أنه سار كثيرا فى شارع الفجالة ولم تقع عيناه عليها .

وفى الصباح ذهب سعيد إلى الفجالة ووقف يعاين المكتبة من بعيد . إنها مظلمة تحتاج إلى تغيير شامل . وراح يفكر فى ذلك التغيير ولم يدخل ليسأل أصحابها عما إذا كانوا يرغبون حقا فى بيعها ، فإننا جميعا نحجم عن أن نبدأ الناس بأسئلة قد يكون الرفض جوابها .

وأرسل سائق السيارة يسأل أصحاب المكتبة عن مدى استعدادهم لبيعها ، فإذا بالسائق يعود ليخبرنا أن الناس فى انتظار أبى وسعيد غدا عصر الجمعة ليناقشوا الموضوع .

وفى مساء يوم الجمعة عاد سعيد إلى البيت متفرحا ، إنه أصبح صاحب مكتبة وصار له عمل غير أن يكون زوجا ، وتفتحت أمامه آمال عريضة .

٦٤

كان أبى قد أصدر أوامره إلى السائق أن يغلق السيارة وأن يعود إليه بمفاتيحها إذا حاول أحدهما أن يسوقها . كانت أوامر صريحة لا لبس فيها ولا غموض ، وقد راودتنى مرارا فكرة أن أخالف تعليماته وأن أقود السيارة ولكننى فى أعماق ما كانت أحب أن أغضب أبى فى سبيل نزوة طائشة .

وحدث ذات يوم أن كان عندى مباراة فى نادى السكة الحديد فى جزيرة بدران ، وكانت مباراة هامة بالنسبة لى فقد كنت مرشحا للعب فى فريق النادى . وأمضيت النهار فى المدرسة مفكرا قلقا ، وقد زاد ضيقى أنى تأخرت فى الانصراف ولم يبق أمامى إلا نصف ساعة لأذهب من العباسية إلى شبرا وأرتدى ملابس اللعب وأتأهب للمباراة .

(هذه حياتى)

ولم يكن أمامي إلا أن آخذ السيارة وأنطلق بها إلى هناك ، فذهبت إلى الجراج وما كانت السيارة تحتاج إلى مفتاح خاص لإدارتها فجهاز الإدارة كان مثبتا بها ، يكفي أن تضغط عليه ليدور المحرك . وفي لحظات كنت خلف عجلة القيادة وانقشع ترددي وتركز كل انتباهي في القيادة فقد كانت هذه أول مرة أقود فيها سيارة ، وسرت في شارع الفجالة وقد أرهفت كل حواسي ، إن الترام يغدو ويروح في الشارع الضيق ولا يترك إلا طريقا بينه وبين الرصيف كأنه الصراط المستقيم .

وخرجت إلى ميدان محطة مصر بسلام ، ثم انحرفت بين الزحام لأرقى كوبرى شبرا . كان الترام يسير فوق الكوبرى ، ومن عجب أن محطته كانت في منتصف الكوبرى وأنه في سيره ينحرف نحو الرصيف كأنما يحن إلى الارتواء في أحضانه . وصعدت الكوبرى وقد اضطررت إلى أن أسير إلى أقصى اليمين ، حتى إن الإطار الأيمن الأمامي كان يحتك بالرصيف من وقت لآخر ، ووصلت إلى قمة الكوبرى وعنده محطة عديدة وراح الركاب يهبطون ويصعدون وأنا أتقدم بالسيارة في حذر ، وفجأة رأيت رجلا يهبط من الترام ليركب غطاء محرك السيارة !

وخرج السباب من فم الرجل في سرعة طلقات رصاص تخرج من مدفع ماكينة ، وتجمهر الناس وجاء شرطى أخيرا وقادنا إلى قسم الأزيكية وكان يفصل بينه وبين شارع الفجالة بضعة أمتار . ولا أدري كيف طار الخبر إلى أخى سعيد في مكتبته ، ولا أدري ما إذا كان سعيد قد اتصل بأبى في المحل أو بأخى محمد ، كل ما أحسست به أنى وجدت محمدا والسائق إلى جوارى في القسم ، فشد ذلك في أذرى وأحسست نوعا من الاطمئنان .

وظل الرجل يهددنى ويتوعدنى وكان يردد بين كل تهديد ووعيد :

— أنا ح اعرف ازاي أريك .

كان الرجل موظفا في الخاصة الملكية وكان مزهوا بوظيفته ، فالاعتداء عليه اعتداء على صاحب الجلالة الذى يتشرف بالعمل في خاصته . وبينما كان الرجل يرغى ويزبد إذا بساحة القسم تمتلئ بنسوة يقودهن رجال الشرطة .

وأطلق سراح النسوة في الساحة ، فكنا نحن وهن كحيوانات طليقة في قفص

سياحه رجال الشرطة ، وجاءت إلتى امرأة منهن تشكو قالت :
— جابونا من سرايرنا ، كنا نايمن فى أمان الله لا بينا ولا علينا .
وإذا بمخبر يرتدى جلبابا طويلا لا يخفى الحذاء الضخم الذى يصرخ بأن لابس مخبر
يأتى إلتى ويقبض على ياقة جاكسى بيد من حديد ويقول فى صوت مستفسر غاضب :
— انت معاها ؟

ولم ترتعد فرائصى بل أحسست بقهقهه ساخرة فى أعماقى وقلت فى هدوء :
— أنا هنا عشان دست واحد .

ودخل كل الذين ضبطوا فى بيت الدعارة إلى غرفة الضابط وبقيت أنا وموظف
الخاصة الملكية وأخى والسائق فى ساحة القسم نتبادل النظرات . وإذا بأخى محمد
يتقدم إلى الرجل ويحاوره ، كان يلتمس منه أن يتنازل عن شكواه ما دام سليما ، إلا
أن الرجل أصر على تأديبى .

وراحت الأصوات تأتى إلينا من غرفة التحقيق ، النسوة يحاولن التملص من التهمة
الموجهة إليهن والضابط يصرخ فيهن يأمرهن أن يلتزم الصمت وأنه لا يريد جوابا إلا
ممن يوجه إليها السؤال .

كانت الساعة السابعة مساء وقد لف الظلام الكون بعباءته السوداء مبكرا فقد كنا
فى الشتاء . وبدأت أستشعر بسرمان الرطوبة فى ساقى فوقفت أتململ ، فحسب أخى
محمد أننى خائف فجاء إلى يطمئننى ، وأتى السائق يخبرنى أن المحكمة لن تحكم على إلا
بغرامة بسيطة .

وأخيرا مثلنا أمام الضابط فراح يسأل الرجل ثم أخذ يستجوبنى . فلما انتهى من
كتابة المحضر طلب أن نذهب لمعاينة مكان الحادث ، فلما خرجنا من القسم أسرع
السائق ليقود السيارة فأمره الضابط أن يتنحى لى وطلب منى أن أذهب بهم إلى كوبرى
شبرا .

وجلست خلف عجلة القيادة هادئا ، بل إن ما يحيرنى الآن أننى شعرت فى تلك
اللحظة بسعادة فقد أتيحت لى فرصة رسمية لأتدرب على القيادة ! وانسابت بنا السيارة
فإذا بصوت الضابط يمس أذنى كلحن جميل قال :

— ما انت بتسوق كويس أهوه .

وزادنى ذلك ثقة فى نفسى فوصلنا إلى مكان الحادث بأمان ، فراح الضابط يصغى إلى رجل الخاصة الملكية وهو يهول فى الوصف وقد التزمت جانب الصمت ، ثم عدنا إلى القسم والضابط يمزح معى طوال الطريق .

واستأنف الضابط كتابة المحضر ، ثم التفت إلى رجل الخاصة الملكية وقال له وهو يضع أمامه على المكتب ورقة لم أدر ماذا كتب فيها :

— تروح بكره تكشف عشان يحددوا مدة علاجك .

وخرجنا من القسم وأخى محمد يحادث الرجل فى ود ، حتى إذا وصلنا إلى السيارة أصر محمد أن نوصل الرجل حتى داره ، وركب الرجل بعد إلحاح . وجلست مرة ثالثة خلف عجلة القيادة ، وكانت فرصة أخرى للتدريب . وانطلقت إلى عابدين وفى أحد الشوارع الجانبية هبط الرجل وما إن غاب فى بيته حتى قفز السائق إلى مكانه ليعود بنا سالمين إلى الدار .

وفى الطريق قال السائق : إن علاج الرجل لن يحتاج لأكثر من أيام ، وإن الغرامة لن تتجاوز جنيها ، وارتسمت على شفتى أخى ابتسامة انتصار حيرتنى ولكن الحيرة انقشعت لما تركنا السيارة . ورحنا نصعد فى درج منزلنا ، أخرج محمد من جيبه الورقة التى قدمت لرجل الخاصة الملكية ليذهب بها ليقعوا عليه الكشف الطبى ، وجدها محمد أمامه فمد يده وأخذها ودسها فى هدوء فى جيبه .

لن يذهب الرجل ليقع الكشف الطبى عليه ولن تكون هناك قضية !

٦٥

انتشرت ترجمة « كريتون العجيب » فى المدارس الثانوية بين طلبة البكالوريا وقد قاسيت من ذلك ، فما إن أكتب موضوعا إنشائيا وأحصل على أعلى درجة فى الفصل حتى يصيح زملائى فى صوت يهزنى ويضايقنى قائلين :

— أخوه .. أخوه .

وما كان سعيد يكتب لى موضوعات الإنشاء فإننى منذ قرأت المنفلوطى والمازنى وطه حسين وأنا فى السنة الرابعة الابتدائية وأنا أحصل على درجات عالية فى الإنشاء وكان زملائى فى الفصل يعرفون هذه الحقيقة ، ولكنهم ما كانوا يرضون أن يتركوا تفوقى عليهم فى مادة واحدة دون غمز وتجريح .

وجاء مدرس اللغة العربية وكان نفس المدرس الذى كان يدرس لنا فى السنة الماضية — وكانت صداقة قد توطدت بينى وبينه فكان لا يفتأ يمتدح أسلوبى فى الكتابة ، وكان يستعين بى إذا ما دخل الفصل مفتش من مفتشى اللغة العربية — وقال : — النهارده امتحان . ح يكتب كل واحد فيكو موضوع الإنشاء هنا فى الفصل .

والتفت زملاء نحوى وصاحوا مهللين ، وفهمها المدرس فقال :

— وح نشوف إذا كان أخوه اللى بيكتب له واللا هو اللى بيكتب ؟

ووقف عند السبورة وفى يده الطباشير وكتب : وردة على ساقها تتحدث ، وإذا بأصوات استنكار تنطلق من جنبات الفصل ، فالتفت الرجل إلينا وقال :

— الموضوع ده جه فى امتحان الكفاءة السنة اللى قاتت .

وأعرب الطلبة عن صعوبة الموضوع ، فراح المدرس يكتب لهم بعض العناصر على السبورة ولم تكن هناك صلة وثيقة بين العناصر والموضوع ، فلم ألتفت إلى ما كتبه وانكبت على كراستى أكتب موضوعا من وجهة نظر الوردية .

وصفت الندى الذى نزل على خدودى فى الفجر ، وتفتنت فى وصف الشروق ، ثم تحدثت عن عاشقين دخلا يتناجيان فى الحديقة ، وأظهرت سرورى لما هب النسيم فملت نحو العاشقين أشرق السمع إلى أحاديث الحب ، ثم وصفت الفرع الذى انتابنى لما جاء الجنائنى يقطف الزهور ، وعبرت عن خوفى ولوعتى لما قطفنى ووضعنى فى سلة مع رفاقى ، وأخيرا تحدثت عن وضعى فى وعاء تحته ماء يغلى ، ووصفت عملية التقطير وأنا أستغيث بأهل المروءة أن ينقذونى مما أنا فيه .

وجمع مدرس اللغة العربية الكراسات ، وانتابنى قلق ؛ ترى أيرضى الشيخ عن وصف الغزل الذى دار بين العاشقين اللذين دخلا إلى الحديقة ؟! أيرضى الشيخ الوقور عن تلك الجرأة التى عاجلت بها الموضوع ؟ واستولى على خجلى ولكن صوت الدفاع

هب يسخر من مخاوفي : ولماذا لا يرضى الشيخ وما كانت الموضوعات التى يشرحها لنا عندما يشرح النصوص تتعلق بمكارم الأخلاق ؟ إنها تغزل فى المذكر وفى الخمریات . وإن ما كتبه من حوار بين العاشقين لا يمكن أن يخذش الحياء .

ومرت الأيام ودخل مدرس اللغة العربية ومن خلفه الفراش الذى يحمل الكراسيات ، ولأول مرة أشعر بخوف حقيقى فقد أحسست أن شرفى أصبح فى الميزان . وراح المدرس يوزع الكراسيات على زملائى وانتهى من التوزيع ولم آخذ كراستى ، فإذا بطلبة الفصل يصبون أنظارهم إلّى ويقولون فى هزء ألمنى وجرح كرامتى ، قالوا :

— انكشف .. انكشف .

وتناول الأستاذ كراستى وطلب منى أن أقف ، ثم فتح الكراسية وقرأ فى زهو :

— عشرة من عشرة . انت يا بنى أديب .

ولم أشعر بزهو ، بل كل ما فعلته أن بلعت ريقى وحمدت الله أنه لم يتخل عنى . وراح الطلبة يعلقون تعليقات لا تخلو من وخز ، وقدم إلى الأستاذ الكراسية وطلب منى أن أقرأ الموضوع على زملائى .

كان مدرسو اللغة العربية فى مدرستى الابتدائية يطلبون منى أن أقرأ إذا ما جاء مفتش أو زائر كريم ، وقد حدث أن اختارونى لألقى كلمة الطلبة فى حفل أقامته المدرسة ، وكنت أقرأ الآيات القرآنية دون أن أتجلجج أو أتتبع ؛ فلما وقفت فى ذلك اليوم لأقرأ أول قصة قصيرة كتبتها فى حياتى — فقد كان علاجى للموضوع الإنشائى علاجاً قصصياً — إذا بمصمصات من الشفاه تنبعث من هنا وهناك ، وإذا بتعليقات ساخرة تنطلق من الأفواه أقسى من طلقات الرصاص ، فاهتزت ثقتى فى نفسى وأرهفت حواسى تلتقط الهمسات والزفرات ، وزاغ بصرى عن السطور التى كنت أقرأها ، وجعلت أتلقت حولى فى توسل كأنما أتمس من الزملاء أن يترفقوا بى . وفطن المدرس إلى ما أنا فيه من حرج فأمرنى أن أكف وأن أجلس وقد فعلت ، وما كان ذلك الحادث من الحوادث العابرة فى حياتى فقد حفر فى وجدانى بل سرى فى مسرى الروح ، فأصبحت إذا ما قمت بين الناس لألقى كلمة أو لأقرأ فى كتاب مسطور

أرتجف فرقا وأسمع أصوات السخرية من الحاضرين وإن لم تتحرك الشفاه .

٦٦

كانت الحياة تمضى فى طريقها ، فى السلامك يجتمع أبى وصحبه يقرعون الصحف الوفدية والمجلات التى كانت تهاجم حكومة صدق باشا هجوما قاسيا مريرا لرحمة فيه ولا هوادة ؛ وفى أيام الجمع نذهب مع أخى محمد إلى النوادى الرياضية لمشاهدة مباريات الكرة ثم ننطلق إلى سينما حديقة الأزبكية فى الصيف أو إلى مسرح من المسارح المنتشرة فى شارع عماد الدين .

كانت حياة أخى أحمد رتيبة لا إرهاصات فيها ؛ إنه يذهب فى الصباح إلى الدكان وبعد أذان العشاء يعود إلى البيت ، وفى أوقات فراغه كان ينظم الأزجال ، وكان يلقيها من محطة إذاعة أهلية كانت عند بداية شارع فاروق من ناحية العباسية . أما أخى سعيد فقد هبت على حياته عاصفة عاتية ، فقد أراد فى أول عهده بالمكتبات أن يصبح ناشرا كبيرا يشق طريقه مع قدامى الناشرين العتاة ، فراح يطبع كتاب « الامتحانات العمومية » كتاب يضم الأسئلة التى وضعت لامتحانات الكفاءة والبيكالوريا فى كل المواد . إنه كتاب ضخيم يتكلف كثيرا ولكن الطلاب والتلاميذ يقبلون على شرائه . فهو مرشدهم إلى نوع الأسئلة التى تأتى فى الامتحانات العامة . وانتهى طبع الكتاب ، وقبل أن يعرض للبيع تغيرت المناهج فإذا بالكتاب يفقد أهميته ، وإذا بكل الأموال التى أنفقت فيه تضيع على أخى ويصبح على شفا الإفلاس . ولولا أن أبى كان تاجرا يعرف تماما أن التجارة ربح وخسارة لأثرت تلك الصدمة فى الفتى الذى لم يألف بعد قسوة ظروف التجار ، فما كان قد ذاق حلاوة الربح ومرارة الخسارة !

و كنت أتدرب كل يوم فى فناء المدرسة على لعب الكرة بعد انتهاء الدراسة ثم أسير أنا وصديقى صلاح حتى بيتنا وبعد أن نتناول طعاما خفيفا نأخذ فى الاستذكار . وما كنا نسهر طويلا ، وكيف أستطيع أن أسهر بعد تدريب شاق أو مباراة رسمية فى النادى

أو في المدرسة ؟!

و كنت أسير مع صلاح في الليل حتى ميدان الظاهر فيذهب إلى بيته القريب وأعود وحدي في الطريق الذي تعجز مصابيح النور الخافتة أن تبدد ظلامه ، وبينما كنت عائدا ذات ليلة حوالى الساعة الحادية عشرة مساءً إذا بورقة مطوية تلقى من شرفة أمامي ، فانحنيت والتقطتها وبسطتها وحاولت أن أقرأها فلم أستطع من الظلام ، فذهبت حتى وقفت تحت مصباح من مصابيح الشارع فإذا مكتوب بخط جميل : « اصعد . الطريق خال » ونظرت إلى أعلى في عجب ودهش ، إنها دعوة جريئة ما كنت أنتظرها ، فإذا بشبح لم أتبين ملامحه في الشرفة ينتظر ، ولفنى اضطراب ووقفت لحظات وأنا حائر متردد ، وتغلبت حكمتي فانسبت في طريقى .

وفي النهار رحت أذهب وأجىء أمام تلك الشرفة أرصد من فيها ، فإذا بفتاة سمراء عرفت أنها مدرسة ، وإذا بأختها التى تصغرها فتاة مقبولة الشكل طالبة في الثانوى ترتدى على الدوام ملابس الكشافة ، ولم أكتشف أيتهما التى ألفت بالدعوة الجريئة . وفي ليلة كنت عائدا إلى البيت بعد أن سرت مع صلاح حتى ميدان الظاهر وإذا بورقة مطوية تلقى أمامي ، فالتقطتها وانطلقت إلى حيث النور لأقرأها ، فقرأت في اضطراب : « سأنتظرك الساعة الخامسة مساءً عند محطة على سلام يوم الخميس » . وفكرت في رفض تلك الدعوة ، ولكن ما وافت الساعة الخامسة من يوم الخميس حتى دفعنى فضولى إلى أن أذهب ، فإذا بالمدرسة تنتظرني مبتسمة . لم تكن جميلة ولكنها ممتلئة الجسم مفتولة العضلات ولا شك ، وإن كانت ملابسها الداكنة لا تكشف عن قوتها الجسدية . وجاء الترام المنطلق من السيدة زينب إلى العباسية فقفزت إلى الدرجة الأولى وصعدت خلفها متورطا ، وعند نهاية العباسية هبطنا وسرنا إلى الترام الأبيض الذاهب إلى مصر الجديدة .

وفي الشوارع الهادئة سرنا ، كانت تتحدث عن نفسها وأنا أكاد أنفجر من الغيظ ، وفي مكان حسبه خاليا مالت على وقبلتنى ، وإذا بصفاير تدوى من بيت قريب لم يكن قد تم بياضه ، وإذا بصيحات استهجان وسخرية تنبعث من كل النوافذ والشرفات لكأنما كل سكان البيت كانوا يترقبون تلك القبله .

وأحسست نوعاً من الرثاء لنفسى ، وسرت أوسع من خطوى لأصل إلى آخر محطة ترام مصر الجديدة وكانت فى ميدان الإسماعيلية ، وركبنا الترام وأخذت ترمينى بنظرات مدرسة إلى تلميذ خائب ، وما إن عدنا إلى الظاهر حتى أسرع إلى إستر وانطلقنا فى شوارع السكاكىنى نتحدث لأغسل الصدا الذى خلفته المدرسة فى وجدانى .

وجاء رمضان ، وما إن انتهينا من تناول الإفطار حتى جاء البواب وطرق الباب فأسرعته لأفتحه ، ولكن أبى كان أسرع منى ، فإذا بى أسمع البواب يقول :
— فى واحدة ست بتقول إن أخوها مستنى سى عبده فى الشارع اللى جنبنا .
وانبثق منى عرق الخجل ومارت فى جوفى مشاعر استياء وانتظرت أن يقول أبى شيئاً ، ولكنه لزم الصمت وسار إلى غرفة الجلوس . وخرجت مضطرباً إلى الشارع الذى يقع فيه بيتنا القديم فإذا بالمدرسة قد وقفت مع دكتورة سمراء قد عادت من إنجلترا حديثاً ، وقد وقفتا فى مدخل بيت الدكتورة وراحت المدرسة تحدثنى وتقنعنى أن أصعد معهما إلى شقة الدكتورة فقلت فى خوف وإنكار :

— فى رمضان ؟!

فقلت فى هدوء :

— لا تخف . ستعود إلى البيت قبل السحور .

وأبيت أن أستجيب لهما ودرت على عقبى وعدت إلى السلامك لأمضى السهرة مع أبى وصحبه .

٦٧

كنت أذهب إلى المدرسة مبكراً فقد تعلق قلبى برفقة من أصحاب وبلعب الكرة ، وبينما كنت أسير فى فناء المدرسة بين التلاميذ إذا بفتى يقترب منى بخطى ثابتة ويقول
دون لعثمة :

— خالتى بتسلم عليك .

ونظرت إليه مليا وفي استغراب ، ففطنت في لحظة أن حالته هي المدرسة العتيدة .
وفي مثل لمح البصر طاف بي خاطر حذر ، إنه سمع أننا التقينا وأنه جاء ليستدرجنى
فالتزمت الصمت ، فإذا به يقول في هدوء :
— هي قالت لي كل حاجة .

وارتفع حاجباى دهشة ، ماذا يعنى بقوله ؟ ولكنه لم يدعنى في دهشتى بل قال :
— أنا سبور ، أنا مستعد أعمل على إسعادكم .

ولم أطق أن أسمع منه أكثر من ذلك فهرته وطلبت منه أن ينصرف وأنا أرميه بنظرات
احتقار . كان في السنة الرابعة الثانوية ويفهم جيدا ما يدعونى إليه ، وما كان يخطر لي
على قلب أن فتى مثله يفعل ما فعل ولو انطبقت السماء على الأرض . ترى أيفعل ذلك
ثمنا لقيامها ببعض الواجبات المدرسية عوضا عنه ؟

وشغلنى الحادث حتى إننى كنت أحضر حصص اليوم بجسمى أما عقلى فقد كان
شاردا يقلب الأمر فلا يسعه إلا إنكار ما حدث . وأردت أن أنفـس عن صدرى بعض
الأثقال التى ألقاها عليه حديث الصباح ، فبينما كنت عائدا أنا وصلاح عند الغروب إلى
منزلنا لنبدأ الاستذكار هممت بأن أروى لصلاح ما كان ولكنى كبحت جماح نفسى ،
فما وقع فى الصباح عورة ينبغى على أن أسترها ، فهل هناك تشهير بشاب ، بل تشهير
بعضر أكثر من أن يكون فيه فتى يعمل قوادا لحالته ؟!

وسارت الحياة على سجيته ؛ لعب كرة ، واستذكار فى المساء وخروج مع إستر ،
فما كانت بالنسبة لى أكثر من صديق يثنى هموم يومه ، وما كانت الفتاة الوحيدة التى
أخرج معها فقد كنت أجوب شوارع الظاهر والسكاكىنى مع أكثر من فتاة .

وفي يوم ذهبت أنا وصلاح إلى المعرض فى الجزيرة ، وإذا بفتيات كثيرات يرتدين
ملابس الكشافة يمرحن هنا وهناك ، وبينما كنت أشق طريقى فى الزحام وجدت أخت
المدرسة أمامى فى ملابس الكشافة ، فلما رأتنى ابتسمت لى ابتسامة ود وأحنت رأسها
محبة ، فرددت على تحيتها بإيماءة من رأسى وإن أحسست ضيقا . كانت كل خلجاتها
تصيح لى : أنا أعرف كل شئ . ترى هل جمعت الأسرة وروت لها ما كان بيننا ؟ وماذا
كان بيننا ؟ شاب تورط فى الركوب مع فتاة حتى مصر الجديدة ثم دعتة للصعود إلى

شقة صديقة فرفض . هذا كل ما كان . أيستحق هذا أن يروى ؟!

وعدت من المدرسة عصرا وسرت في الشارع الذى يقع فيه بيتنا وبيتها ، وفيما أنا أقرب من منزلها وجدت الفتى والأخت الصغيرة ينتظرانى ويشيران لى أن أعرج إلى شارع جانبى بالقرب من دارهم ، فانحرفت إليه وسرعان ما لحقانى ووقفنا نتحدث .

قالت لى الفتاة التى كانت ترتدى ملابس الكشافة :

— هى بتشكرك إنه لما كلمك (والتفتت إلى ابن اختها) ما قلتش حاجة وأنكرت إنك تعرفها . بس هى كانت كلمته وهى اللى بعته .

وفى ملق ظاهر قالت وهى ترنو إليه بنظرت نفاق :

— هو شاب عصرى .. عقله كبير .

وهمت بأن أقول :

— دا يستحق قطع رقبته .

ولكن وجدت أن أتخلم حتى أعرف الدافع إلى هذه المقابلة ، ولم تتركنى الفتاة طويلا أخمن وأجهد ذهنى فقد قالت فى بساطة :

— هى عيانة ونفسها تشوفك .

وفزعت ، أينصبان لى شركا ؟ إنهما يدعوانى للصعود لعبادة مريضة . من أنا حتى أصعد أخترق رجالا ونساء لا صلة لى بهم حتى أصل إلى غرفتها ؟ واعترضت بأن لا صفة لى تؤهلنى لتلك الزيارة ، فإذا بهما يستخدمان كل لباقتهما لإقناعى . فلما لم أقتنع راحت الفتاة تتوسل إلتى أن زيارتى لأختها ستكون عاملا مخففا لمرضها ، وأن ما أقوم به إن هو إلا عمل إنسانى .

وزاد إلحاحهما فى ريتى فانسحبت وأنا أعدهما أننى سألقاها بعد ما تبرأ ، وكانت الطامة أنها أبلت من مرضها سريعا وكان على أن أفى بوعدى ، ولكنى تلكأت فإذا برسائلها تلاحقنى حتى بت أخاف من شبح ساعى البريد .

والتقيت بها مصادفة وأنا أسير فى ميدان الظاهر وإن كنت لا أدرى أكان ذلك اللقاء مصادفة حقا أم كان بتدبيرها ، وراحت تحادثنى وتلومنى على عدم السؤال عنها فى أثناء مرضها ، وقادتنى إلى محطة الترام وأنا أتعثر فى مشيتى وفى كلامى ، إنه قضاء نزل لى .

وأخذتني إلى طريق مصر الجديدة الهادئة ، كنا على مشارف المأظلة وهي تتحدث كمدرسة وأنا أصغى كتلميذ خائب . راحت تقص على كيف أن صديقاتها يلمنها لتعلقها بي ، فماذا يستطيع طالب أن يقدم لها ؟ إنها لو تعرفت برجل له عمل فإنه سيقدم إليها الهدايا من حلى وفاخر الثياب . ودوى في جوفى صوت ساخر : أنتظر منى ثيابا خضرا من سندس وإستبرق ؟! في الجنة ونعيمها إن شاء الله .

وكرهت في تلك اللحظة خجلي الذي يرغمني على أن أتحمل في صبر مضايقات الناس ، وضعفى المقيت الذي يجعلني أضطرب خوفا من أن أجرح شعور أحد ، ووددت لو أستطيع أن أقول لها في صراحة رأيي فيها وفي تصرفاتها التي لا تتفق مع كرامة أى أنثى ، ولو أن انتسابها للإناث فيه شك كبير .

وغابت الشمس وعوضا عن أن تتغلغل في الصحراء كما كانت تخطط وتشتهى سرت صوب ميدان الإسماعيلية وأنا أوسع من خطوى وهي تهول خلفي ، وقد قررت أن يكون لقاء اليوم فراقا بيننا ، وقد كان .

٦٨

أصبحت مباريات مدرستي في الكرة أهم ما يشغل حياتي ، فأني قد صرت هداف الفريق وأمل الطلاب الذين كانوا يأتون لتشجيعنا أينما ذهبنا . وأمست إذا ما أويت إلى فراشي لا أفكر في فورتينية أو إستر أو أى من فتيات اليهود اللاتي كان يغص بهن حينما وكن على استعداد دائما لتلبية رغباتنا ، بل كنت أجتر الأهداف التي أحرزتها في نشوة وانفعال . وكثيرا ما كنت أقيم في ذهني مباريات تجري حسب هواي فكان حماسي للمباريات الوهمية يرهف حواسي ويطرد النوم من عيني .

كنت ألعب وأتدرب لا هم لي إلا أنني أتقن لعبي ، وما جرى خيالي وراء شيء أبعد من حدود مدرستي . وكم كانت دهشتي وكم كان فرحي عندما أعلن في الصحف أسماء منتخب المدارس الثانوية فإذا باسمي بين أسماء كبار اللاعبين . كانت كل أسماء المنتخب من لاعبي أندية الدرجة الأولى ، بل كانوا أعضاء في فريق منتخب القاهرة ولعب

أكثرهم مباريات دولية ، وكنت وحدي اللاعب الذى لم يكن من لاعبي الأندية بل اللاعب الذى لم تكن له صداقات باللاعبين المعروفين .

ولعب منتخب المدارس الثانوية مباراة شائقة مع منتخب المدارس المتوسطة : تجارية وصناعية ، وكان الفريقان يضمنان خيرة لاعبي مصر . وبعد انتهاء المباراة أعلن أن منتخب المدارس الثانوية سيسافر إلى فلسطين ليلعب بعض مباريات في يافا وفي تل أبيب ، وكان تاريخ لعب تلك المباراة هو نفس تاريخ امتحان البكالوريا .

ولم أفكر طويلا ؛ سأسافر مع الفريق وسأدخل امتحان الدور الثاني . كان هذا قرارى ولكن القرار لم يكن لى وحدي فرحت أفاتح أبى فى الأمر ، فإذا به يرفض فى إصرار لأول مرة ذلك العبث ، وراح يقول لى فى إنكار : كيف أضيع مستقبلى من أجل لعب . فكنت أؤكد له أنني سأنجح فى الدور الثانى فيقول لى : إذا رسبت فى الدور الأول فى مادة فأمامك فرصة أن تنجح فيها فى الدور الثانى ، أما إذا رسبت فى مادة فى الدور الثانى ضاعت عليك سنة من عمرك .

ودار نقاش حاد وعنيف بينى وبين كل من فى بيتنا سواء أكانوا رجالا فى السلامك أم نساء فى داخل دارنا ، وإذا بالصحف تطلع علينا بأسماء الفريق المسافر إلى فلسطين ولم أكن فيه . رفعونى من الفريق ووضعوا لاعبا ممتازا من لاعبي النادى المختلط ومن فريق مصر الدولى كان قد ترك المدارس الثانوية !

كان ذلك فى مصلحة الفريق من غير شك ، فأين أنا من ذلك اللاعب المحنك ؟ . ولكن ذلك لم يدخل السرور على قلبى ، إنه تدليس .. إنه غش .. إنه ... وقد أراح ذلك القرار أبى فسأدخل امتحان البكالوريا ولن أضيع مستقبلى .

وفى غمرة الامتحان نسيت موضوع الكرة ، وما إن انتهيت منه حتى عدت إلى ملاعب الأحياء . وحن موسم الاستقالات وهو موسم دلال اللاعبين ونشاط سمسرة الكرة ، وكنت قد انضممت إلى نادى السكة الحديد ، ولكنى لم أواظب على التمرينات ولم أحاول أن ألعب فى النادى . فلما قدمت استقالتى جاعوا إلى وطلبوا منى أن أسحب استقالتى ، فقد عرفونى جيدا فى السنة الأخيرة ووعدونى أن ألعب فى الفريق الأول ، ولكنى كنت أتطلع إلى ناد آخر أكثر شعبية من نادى السكة الحديد .

وجاء إلى زميل كان من أفراد فريق منتخب ثانوى وعرض على أن أنضم إلى النادى الأهلى ، فرحبت وتواعدنا على اللقاء فى المساء لنذهب إلى هناك لأوقع لناديه . وقبل أن ينقضى النهار جاء إلى سماسرة نادى الزمالك وجعلوا يغروننى على التوقيع لناديتهم ، ولكنى اعتذرت بلباقة وأخبرتهم أننى وقعت للنادى الأهلى .

كانت الأموال تلعب دورها فى موسم الاستقالات ، بل إن بعض سماسرة الأندية كانوا يخططون كبار اللاعبين ويذهبون بهم إلى أماكن مجهولة بعيدة عن أعين سماسرة الأندية الأخرى . وعند الغروب كنت مع زميلى فى النادى الأهلى وقدم إلّى كشف كتبت فيه اسمى ووقعت ، وجلسنا فى حديقة أمام مبنى الإدارة وقد تواضع وجلس معنا باشوات النادى وبكواته وسألونى عما أريد أن أشرب ، وقبل أن أفتح فمى كان الجرسون يقدم إلّى كأس الجيلاتى .

وفى بساطة دار الحديث وتبودلت النكات ، كانت الجلسة أشبه بجلسة أسرة متحابة وقد تأثرت بذلك الجو الجميل ، ولكن ما انقضى موسم الاستقالات حتى عاد الباشوات والبكوات إلى مكاتبهم الفاخرة فى إدارة النادى ، وحتى قامت الحواجز بينهم وبين الأعضاء .

ورحت أتدرب مع الزملاء وعقب التدريب أنصرف إلى البيت . وما كان ذلك حال اللاعبين فهم يذهبون عند المساء إلى البار ثم يتفرقون جماعات ، بعضهم يلعب الورق والبعض الآخر ينطلق إلى ملهى ليلى .

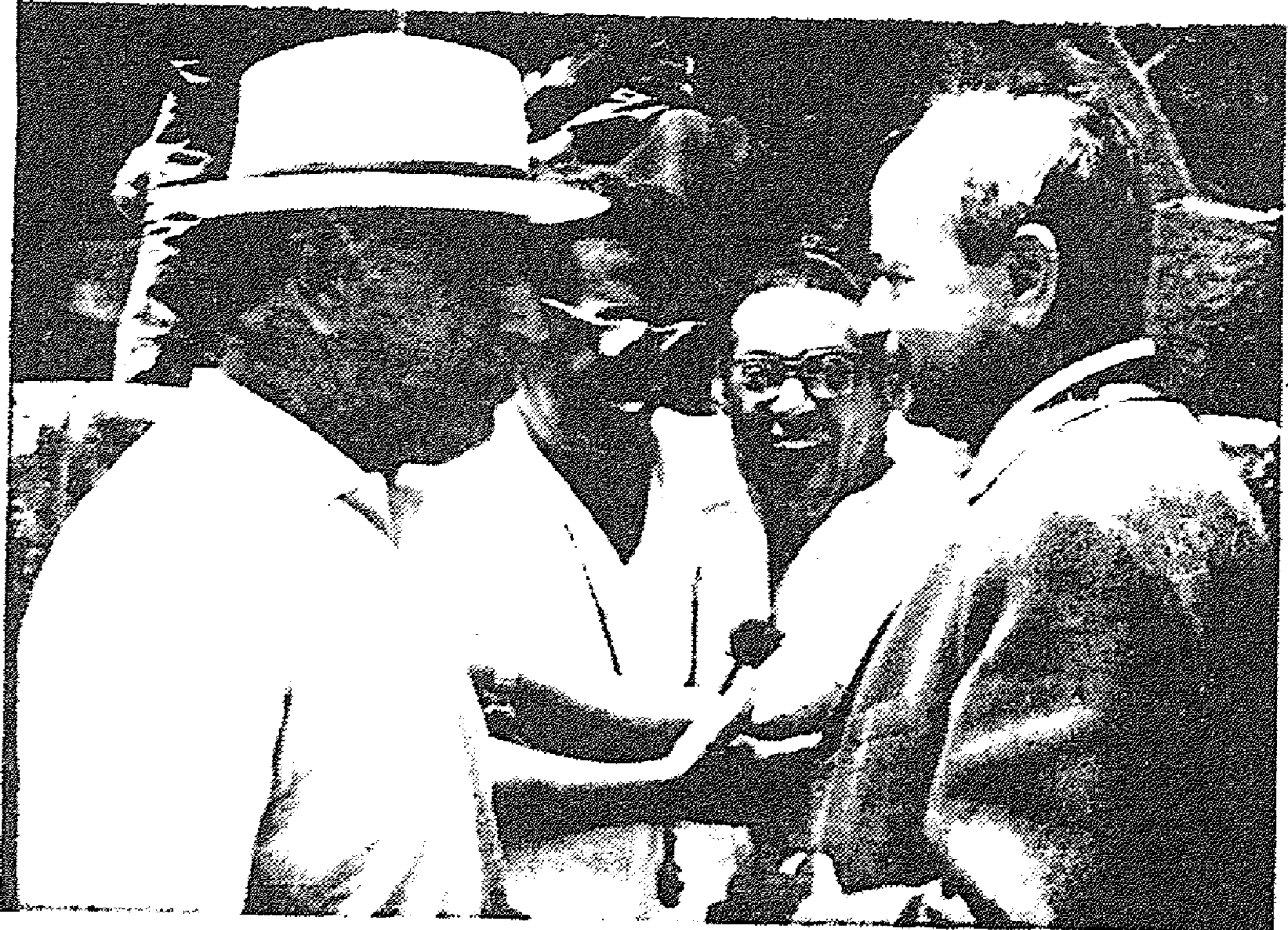
ولم أحاول أن أندمج فى ذلك الوسط الجديد الذى وضعت نفسى فيه ، فكنت إذا جلست فى حديقة النادى أجلس وحدى بينما كانت الشلل تلتف حول نضد مبعثرة هنا وهناك ، والقهقهات تدوى عقب أن يلقي أحدهم نكتة قديمة .

كانت عندى المواهب التى تمكننى من السيطرة على الجلسات البريئة ، فقد كنت قادرا على إلقاء نكات أكثر طرافة وأكثر جدة من تلك التى كانت تصل إلى مسامعى ، ولكنى كنت حبيس خجلى فقد كنت أتعثر فى مشيتى إذا أحسست أن أحدا يتبعنى بنظراته .

وعلى مر الأيام أحسست أنى غريب فى النادى ، فما كانت بينى وبين كبار

الإداريين أية صلة بيننا زملائي يتبادلون معهم حوارا فيه جرأة قد تصل إلى رواية نكات مكشوفة . وخطر على بالي أكثر من مرة أن أحمل ملابس الكرة وأن أنسل هاربا من النادي ، ولكنني كنت أطرده تلك الخواطر ، إلى أن ذهبت أصلى ذات يوم العصر في ركن بعيد من أركان النادي ورآني أحد الإداريين فقال لي ساخرا :
— أنت بتصلي ؟! إيه اللي جابك هنا ؟

وأحسست أنه جرح كبريائي فذهبت إلى غرفة الملابس وأخذت ملابس الكرة وانصرفت غير نادم ، وقد تيقنت أنه لن يكون لي مكان في أية لعبة أو عمل يعتمد على الشلية . وهل هناك أمل في أن يتكون ناد أو فريق أو جهاز لا تكون دعائمه من الصحاب والأنصار والأصهار والمنافقين وحارق البخور لكل صاحب نفوذ أو سلطان ؟!



لم تكن نتيجة البكالوريا قد أعلنت بعد ، وفيما كنت أفكر أنا وصلاح في الكلية أو المدرسة العليا التي ندخلها بعد حصولنا على الشهادة التي نختم بها مرحلة الثانوى ، إذا بضابط من مدرسة البوليس يطلب منى أن أذهب إلى المدرسة لمقابلة اليوزباشى المسئول عن فريق الكرة . وانطلقت إلى هناك وكم كانت دهشتى عندما أخبرنى اليوزباشى أن المدرسة ترحب بى بين المتقدمين ، ولم يكتف بذلك بل طلب منى أن أشارك مع فريق المدرسة فى المباريات الحبية التى تقام بين المدرسة والأندية فى الصيف . مدرسة البوليس ؟! وتخلت نفسى وقد ارتديت الملابس الداكنة ذات الشريط الأحمر على جانبيه البنطلون ، وفى أثناء خروجى من المدرسة وانطلاقى إلى شارع العباسية قفز إلى ذهنى كل ما سمعت من خيالات وأوهام عن طلبة البوليس . إن نساء من كرائم الأسر يقفن يوم الخميس بسياراتهن عند مدخل المدرسة ليلتقطن المحظوظين ، وإن الفتيات يشغفن حبا بأصحاب الأشرطة الحمراء . ودار رأسى فاستغرقت فى أحلام لذيدة ملأت صدرى بهجة ونشوة وانفعالا .

وذهبت إلى البيت أزف الخبر فلم يقابله أبى بارتياح وسرعان ما أظهر معارضته بطريقته اللينة الحكيمة ، قال لى فى هدوء :

— ح تعيش طول عمرك مع مين ؟ مع لصوص ومهرين وحشاشين وسكرية وناس بطالين ، تفتكر دى عيشة ؟!

وانصرف أبى ليقرأ فى المصحف وتركت المكان وقد أغلقت نفسى دون كل الأقوال ، وأخذت أطوف مع فريق مدرسة البوليس نتبارى مع الأندية ألعب ساعدا أيمن وإن كنت أفضل أن أكون قلب الهجوم ، وسارت الأمور حسب هواى ولم يكن هناك ما يحول بينى وبين أن أكون طالبا فى المدرسة إلا أن أحصل على البكالوريا . وفى فترة انتظار ظهور النتيجة ماتت أم صلاح فذهبت إليه لأواسيه . كانت أمه هى

كل شيء في حياته فأبوه قد تزوج سبع مرات وأنجب من كل زوجة سبعة أولاد ، وقد كان صلاح الابن التاسع والأربعين للأب الفحل ، فهو أصغر إخوته الأشقاء ، بل أصغر إخوته جميعا فهو آخر من ولد في القبيلة ، كان الحزن يعتصره بل كاد يموت كمدا ، فما كان يتصور كيف يعيش بلا أم ، كيف يفقد كل ما ينعم به من حنان ؟ إنه لا شيء بلا أمه . وحاولت أن أخفف عنه وإن كنت في قرارة نفسي أرتجف من هول المصاب .

وبعد الانتهاء من الجنازة عدت إلى البيت ورحلت أرنو إلى أمي والدموع تترقرق في عيني وهممت بأن أجهش بالبكاء . واستولى على خاطر بشع أخذت أحاول أن أطرده من رأسي ولكنه كان يفح فحيحا بغیضا في أرجاء وجداني . ستموت أمي يوما وأصبح يتيما بلا أم ، ولو أن ما توسوس به نفسي حقيقة لا ريب فيها ولكنني فزعت فزعا زلزلني زلزالا شديدا وانبثقت من كل حواسي مشاعر حانية وتملكني ضعف شديد . ولولا خجلي من نفسي لارتميت في أحضان أمي وانتحيت كما لم أنتحب من قبل .

ونكصت على عقبي وخرجت مطرقا حزينا وأمي ترقبني في إشفاق ، وتفسر ما أنا فيه من حزن ووجوم على أنه مشاركة في حزن صديق لم يفارقني منذ أن بدأنا نستذكر معا منذ أكثر من خمس سنوات .

وظهرت نتيجة البكالوريا فكان صلاح في الناجحين وكنت من الراسبين . فذهبت إليه لأهنته فإذا به يقول لي :

— كنت أتمنى إنك انت اللى تنجح . ما كانش ح يزعلنى السقوط عشان ما كانش فيه حاجة ح تزعلنى أكثر م اللى حصل .

كان يشير إلى أن حزن سقوطه سيكون أهون من الحزن الذى كابده لما ماتت أمه ، فأخذت أواسيه وأهنته وقد امتزجت عواطفى وتداخلت حتى إننى لم أكن أعرف حقيقة مشاعرى . وانطلقنا معا إلى المدرسة ليرى مجموعته ولأعرف فيم رسبت ، وما كان للمجموع أية أهمية في تلك الأيام فكانت الكلمة للوساطة ، فكلما كانت الوساطة ذات نفوذ وسلطان فتحت أمام المحظوظ أبواب الجامعة والمدارس العليا .

(هذه حياتى)

كان مجموع صلاح لا بأس به وكان مجموعى قريبا من مجموعه ولكنى رسبت فى الميكانيكا ، فراح صلاح يهون من أمر رسوبى ويعزىنى بأن امتحان الدور الثانى قريب وأننى أستطيع أن أعتبر نفسى منذ الآن من الناجحين .

وعدت إلى البيت وأعلنت رسوبى فى الميكانيكا فلم يعاتبنى أحد ولم ينبس أبى بكلمة وإن كانت كل النظرات تصيح لى : ماذا كنت ستفعل لو أنك سافرت مع فريق كرة القدم إلى فلسطين وأجلت امتحان البكالوريا إلى الدور الثانى ورسبت فى الميكانيكا كما قد حدث فعلا ؟ كانت السنة ستضيع هباء .

وعرف اليوزباشى الذى كان متحمسا لدخولى مدرسة البوليس أنى رسبت فى الميكانيكا فلم يثنه ذلك عن عزمه بل أصر على أن أستمرو فى التمرين مع طلبة المدرسة طوال الصيف ، فنجاحى فى الدور الثانى مضمون .

وتصرمت الأيام ودخلت امتحان الميكانيكا فإذا بى أجيب إجابة صحيحة عن كل الأسئلة ، فلما خرجت من اللجنة استقبلنى صلاح يسألى عما فعلت فأخبرته أنى سأحصل على الدرجة النهائية .

وظهرت النتيجة فكنت من الناجحين فهرعت أستكمل أوراقى بمدرسة البوليس وما تقدمت لكلية أخرى أو مدرسة عليا ، ولماذا التعب والتحاقى بمدرسة البوليس لا شك فيه ؟ ووافى يوم كشف الهيئة ومرض اليوزباشى الذى كان مشرفا على فريق كرة القدم فى ذلك اليوم بالذات ووقف المتقدمون صفوا واحدا ، فما كانت المدارس العسكرية فى ذلك الوقت تفتح أبوابها إلا لطلبة يعدون بالعشرات ، ووقفنا نحن اللاعبين متجاورين فقد صدرت إلينا التعليمات بذلك .

وجاءت لجنة الاختيار وراحت تشير للمقبولين أن يتقدموا خطوة ، كانت اللجنة أصبع القدر الذى يحدد مستقبلنا . ودنت اللجنة من صف لاعبى الكرة فإذا بها تشير لكل لاعب أن يتقدم خطوة حتى إذا ما وصلت إلى تركتى واختارت اللاعب الذى يلينى ، وكنت الوحيد من بين اللاعبين الذى لم يقع عليه الاختيار ! .

لماذا أهملتني اللجنة والأوراق الموجودة بالمدرسة تؤكد أننى سابع البكالوريا وأننى أطول من حقيقتى بخمسة سنتيمترات ؟ إن كل شيء كان قد رتب بمهارة لأكون من

المقبولين فما الذى أعمى اللجنة عني؟! إنه حظى . وعدت إلى البيت مطرقا حزينا ، وما إن سمع أبى أنى لم أقبل حتى انبسطت أساريره وإن لم يفصح لسانه عن حقيقة مشاعره .

وأرسلت شكاوى إلى إدارة مدرسة البوليس أن أحد لاعبي الكرة المقبولين سنة أكبر من السن التى يجب ألا يزيد عليها طالب المدرسة . إن السن القانونية هي ٢٢ سنة وقد احتال الطالب على ذلك ، إن المهتمين بالكرة فى المدرسة هم الذين احتالوا على ذلك فكتبوا إن سنه ٢١ سنة و ٣٦ شهرا . وأخرج الطالب من المدرسة بعد أن كان قد دفع المصروفات ، كان قدره يطارده وكان قدرى يرسم لى خط حياتى على الرغم منى .

٧٠

كانت فورتنيه تأتى إلّى حيننا بين الحين والحين فكان قلبى يحضنى على أن ألحق بها وأحبها ، ولكن عقلى كان يقاوم كل رغباتى ويشير السؤال الذى كان يقف على الدوام حائلا بينى وبينها : ما جدوى أى لقاء بينك وبينها ما دامت هى تريد لقاء جسديا وأنت تفزع من مجرد شبح ذلك اللقاء ؟ من أين جاءنى ذلك الهلع الذى يصيبنى إذا ما سرت فى طريق قد يقودنى إلى الزنا ؟ إننى مذ كنت طفلا صغيرا أجوب بيوت الأسرة وبيوت أنسابنا كنت أجد مقرئا يجلس على أريكة فى أفنية الدور يقرأ على الدوام سورة النور وكان يرفع صوته وهو يرتل : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » .

اقرن فى وجدانى الزنا بالجلد ، بالتشهير ، بغضب من الله ، فكنت أمتلى رعبا إذا هممت بمعصية . وكانت عواطف محمومة ورغبات مسعورة وشهوات طاغية تستبد بى فكنت أبدد طباقات جسدى فى لعب الكرة ، فما كان يمر يوم دون أن أنطلق هنا وهناك لأشترك فى مباراة عنيفة .

و كنت في أحيان متباعدة أضعف وأستجيب لنداء الجسد فأنا ابن آدم الذى لم يجد له ربه عزما ، فكنت عقب إحساسى بقمة النشوة أتردى في وادى الندم ، أتألم وأستشعر خجلا قاتلا أمام ضميرى وأكاد ألمس حقارة ما أقدمت عليه ، وأن الأسباب الطاهرة التى تربط بينى وبين الله قد تدنس ، فكنت أسير في الأرض ملتصقا بها مطرقا حزينا أحس ثقل البدن الذى عرف كيف يسرى في ملكوت الله وأن يتلقى الفيض من السماء .

كان قربي من فورتنيه يدخل على نفسى البهجة والسرور ، وكانت محاولاتها أن تحتوينى تفزعنى وتذكرنى بالآلام النفسية المبرحة التى تترقبني إذا ما استجبت لرغباتها ورغباتي ، فكان صراعا عنيفا يمزقني . فكنت وأنا إلى جوارها أتضرع إلى الله أن يحميني من نفسى .. من ضعفى .. فكانت وسوسات تنبعث من أغوارى تفح في وجداني أن قربي منها إن هو إلا صلاة . وخفت أن أركن إلى مثل تلك الهمزات فعزمت أن أفر منها وأن أتجلد حتى تنطفئ نيران الشوق المندلعة بين جوانحي .

تركت فورتنيه حينما فلم أحاول أن أعرف إلى أين انتقلوا ، وجاءت إلى شارعنا مرات فكنت أحاول أن أحطم قيودي التى كبلتنى بها خشيتي من الله وأن ألحق بها ، ولكن تلك القيود كانت أقوى من رغباتي ، وكان يعاونني على عصيان شهواتي ذلك الفرح الفياض الذى يملؤني كلما انتصرت على ضعف ذاتي . إن لذة ذلك الانتصار كانت تدوم طويلا بينما لذة الجسد سرعان ما تموت مخلفة الندم وقسوة الآلام وعذاب يوم الحساب .

وبينما كنت ذاهبا إلى المكتبة الإنجليزية بشارع عماد الدين لمحتها في محل باتا وقد انحنت تلبس إحدى الفتيات حذاء ، لم تعترني أية دهشة فما أكثر الأعمال التى مارسها . ولكن قلبي المجنون راح يخفق في شدة ووقفت أرقبها من بعيد ، فلما رفعت رأسها فررت خشية أن تراني فقد كنت موقنا في أعماقي أنني أمارس بمراقبتها عملا لا يقره ضميرى .

ماذا أريد منها ما دمت أفر مما تريد ؟ لن يذلني ذلك الفؤاد الأعمى الذى لا يستطيع أن يرى حقيقة من هفا إليها ، المزكوم الذى عجز عن أن يشم نتن غرائزها . وانطلقت

إلى المكتبة ووقفت أقلب في الكتب وأنا شارد ، فما تزال صورتها مطبوعة في خيالي . وأصبحت كلما كنت قريبا من شارع فؤاد أمر متلصصا أمام محل باتا وأمد نظري إلى الداخل في خوف وتردد ، فما أسرع ما كان ينشب في أغوارى صراع بين شيطاني وضميري ، شيطاني يهفو إلى أن أملأ عيني منها وضميري يصرخ في أن أغض الطرف وأن أدور على عقبي وأن أنكص وأن أنصرف . فكنت أقف لحظات متلكئا أنعم بالنشوة التي تمور في وجداني . آه من خائنة الأعين ! .

وكنت إذا لمحتها واقفة أمام المحل أفر مفزوعا خشية أن تراني ، فما كنت أحب أن تكشف عن موطن من موطن ضعفى . وهل هناك أسوأ من أن تتيقن من أنى أسير هواها ؟ إنها حاولت بكل ما تملك من إغراء أن تنتزع منى كلمة حب ، ولكنى أطبقت شفتى ولم أنبس بالكلمة التي تريدها ، فأنا منذ أن فهمت الحياة أو خيل إلى أنى فهمتها كنت أومن أن اللسان أضعف وسائل البيان للتعبير عن الحب .

واستيقظت ذات صباح وخرجت إلى الشرفة ودرت بعيني في المكان ، فإذا بقلبي يقفز بين ضلوعى في جنون وإذا بخوف يغمرنى وإذا بمشاعر متباينة معقدة تندفع إلى صدرى : إحساسات بالرهبة والفرح والدهشة والاضطراب والانفعال واللذة والألم تعربد في أعماقي وضباب كثيف يغلف تفكيرى ، كانت فورتينية وأخوها ألبير وأمها وأبوها في الشرفة العليا للبيت الذى يلى بيتنا ، إنهم قد عادوا إلى الحى بعد أن غادروه ، بعد أن نسى الناس أن خطبة فورتينية قد فسخت ، فإن كان الناس قد نسوا فإنى لم أنس .

وتبددت كل المشاعر ولم يبق إلا خوفى ، فمعركة عنيفة ستتشب بين رغباتى وشهواتى وبين ذلك الوازع الدينى الذى غرس فى أعماق أعماقي فأرهف ضميرى . وبعد تفكير وإمعان الفكر استقر رأبى على أن أفر منها ، أن أأزم أبى ، أن أدور معه حيث يدور بسيارته على المساجد وأن أبتهل إلى الله أن ينصرنى على ضعفى وأعوذ به من شر نفسى .

وبدأت رحلتى إلى الله بالصلاة فى المساجد ، ولم تكن فى الحقيقة بداية بل استئنافا لرحلة كانت قد انقطعت بعد أن غادرت فورتينية حينما . وعاد شيطاني يوسوس لى أن

وجودها بالقرب منى إن هو إلا صلاة ، إنه يشعل إيماني ويزيد في أنوارى الباطنية . ولم يكتف بذلك بل راح يزين لى الخطيئة بحجة أن التوبة النصوح بعد الخطيئة تجعل المرء أكثر شفافية وأكثر قربا من الله . إن مجرد الخوف من الوقوع فى الخطيئة يمد المرء بحرارة فى الدعاء فما بالك لو أخطأ وأناب ؟!

وجاهدت نفسى وإنه لجهاد قاس مرير ، وبينما كنت منطلقا فى الظهر إلى شارع فاروق لأركب الترام إذا بها قادمة فى نفس الطريق الذى أسير فيه . وخفق قلبى فى شدة ودثرنى خوف . أأبدؤها بالسلام فيتصل بذلك ما انقطع أم أتجاهلها كأن لم يكن بينى وبينها صلة ؟ وأخذت المسافة التى تفصل بينى وبينها تضيق والانفعالات تنفجر بين جنبى . والتقت عيناي بعينيها وهمت شفتاى أن تنفرجا عن ابتسامة وأن يومئ رأسى بتحية ، بيد أن كبريائى انتصر فظلت ملامحى جامدة ، ومررت من جوارها دون أن تنبسط أسارىرى أو تخدعنى عيناي . وتهللت بالفرح وسرعان ما تذوقت لذة الانتصار .

٧١

سيطر حديث السياسة على السمار فى السلامك ، فصدقى باشا قد قدم استقالة وزارته لأن الوثام بين الوزراء قد أصابه شئ من الوهن ، وقد كلف الملك فؤاد فى نفس اليوم الذى قبل فيه استقالة الوزارة رئيس وزرائه إسماعيل صدقى باشا بتشكيل وزارته الثانية ، فاشتد الهجوم من جانب الصحف الوفدية والمجلات التى تدين للوفد وللأحزاب الأخرى التى أبت أن تشترك فى الحكم مع صدقى باشا . ولو أن صدقى قد احتفظ لنفسه بوزارة الداخلية ولكنه لم يصادر حرية الرأى . كان الهجوم عليه قاسيا بل كان فى بعض الأحيان ظالما ، وكانت الرسوم الكاريكاتورية تسخر منه ومن وزرائه ومن مشروعاته ، وكانت السخرية فى كثير من الأحيان تصل إلى تجريحه واتهامه فى نزاهته ، فكان يلجأ إلى القضاء ليفصل بينه وبين خصومه ، لم ينصب نفسه خصما وحكما فى نفس الوقت .

وسرعان ما استقال وزير الزراعة ووزير الأوقاف ولما يمض على تشكيل الوزارة الجديدة شهران ، والتمس صدق من الملك إعفائه من وزارة الداخلية فكان ذلك مثار تعليق الصحف الحزبية والإفاضة في نقد الوزارة وزعزعة دعائمها .
وسافر صدق باشا إلى مصيفه في الخارج ولم يكن في ذلك ما يدعو إلى الدهشة أو الانتقاد ، فقد كان من عادة عليّة القوم لا فرق بين وفدين أو أحرار دستوريين أو اتحاديين وطنيين أو شعبيين أن يقضوا الصيف في مصايف أوروبا ، فأبناء الفلاحين الذين ارتفعوا إلى أن أصبحوا حكاما ، بالحق أو بالباطل ، صاروا لا يحتملون قيظ صيف بلادهم !

لم ينتقد أحد سفر صدق باشا إلى مصيفه في أوروبا ، بل كثرت التكهّنات بأنه سيقدم استقالته بعد أن يعود . وقد تحقق ذلك الظن فإنه قبل أن تفتح المدارس أبوابها وقبل أن ينظم الوفد مظاهرات الطلبة قدم استقالته ولم ينس أن يذكر فيها حزب الغالبية البرلمانية الذي يتشرف برئاسته : حزب الشعب .

وكان كتاب الاستقالة مثار سخرية وتعليقات سياسية ، وكان رواد السلامك يلتهمون ما تكتبه الصحف التهاما . كانوا مشغولين باستقالة صدق واحتمال عودة الوفد كأنما قد صار الحكم هو القضية ، أما وجود الإنجليز في ثكناتهم المطلة على النيل ، أما قصر الدوبارة مقر المندوب السامي البريطاني الذي يحكم البلاد من وراء ستار ، أما الخيرات التي ينهبها جيش الاحتلال ، فما كان شيء من ذلك يثار إلا في المظاهرات ! كنت قد تعلمت مما أقرؤه وأسمعه أن الصحافة أقوى من الحق ، فلم أكن أصدق كل ما تلصقه برجال السياسة من اتهامات ؛ فالحزبية قد لطخت وجه جميع الساسة المصريين ، فرحت أتلمس بين ركام الاتهامات ما أداه صدق باشا لبلاده . إن الرجل قد نجح في أن يقى مصر شر أزمة مالية طحنت كل بلاد العالم وأنشأ بنك التسليف الزراعى والبنك الزراعى العقارى ، وإن لم يكن له من حسنة سوى إنشاء كورنيش الإسكندرية لكفاه ذلك . إن الخصوم قد خاضوا في مناقشة مناقصة الكورنيش واتهموا المهندس الفرنسى في ذمته وقالوا كثيرا وأعادوا أكثر ولم يرتفع شيء مما قالوه إلى مرتبة الحقيقة ، ولكن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن كورنيش الإسكندرية قد

خلق الإسكندرية خلقا جديدا . ليت صدق باشا قد جعل اتساعه ضعف اتساعه الحالى وإن أنفق عليه ضعف ما أنفق ، وإن وصلت السرقة فيه ضعف ما زعمه الزراعمون .

وبينا كان الناس مشغولين بالسياسة كنت أبحث عن مدرسة عليا ألتحق بها ، فما كنت قد حاولت أن ألتحق بأية مدرسة فقد كنت واثقا من دخولى مدرسة البوليس . أما وقد خاننى حظى — وإن اتضح بعد ذلك أنه خدمنى — ولم أوفق فى كشف الهيئة ، فكان على أن أسعى فى المدة الضيقة الباقية على افتتاح الكليات والمدارس العليا .

زينوا لى أن ألتحق بمدرسة الزراعة العليا فقابلت ذلك الاقتراح بالسخرية ، فما كنا نملك أورااد الأطيان التى تؤهل الطالب للالتحاق بتلك المدرسة ، وما كنت أستطيع أن أفرق بين الأرز والقطن فى الحقول ، فنحن تجار من سكان القاهرة ، وما رأيت المزروعات إلا فى أثناء عبورى الطريق الزراعى إلى طنطا أو الإسكندرية .

وعلى الرغم من رسوبى فى الميكانيكا فى الدور الأول أشاروا على أن ألتحق بالهندسة وقالوا لى إن الواسطة قادرة على كل شىء ، ولو كانت الواسطة قادرة حقا على كل شىء فأين هى تلك الواسطة ؟ إن جميع رواد السلامك من البسطاء المشغولين بقراءة السيرة النبوية أو بعض القصص أو الخوض فى السياسة ، وما أحسب أن أحدا منهم قابل باشا فى حياته اللهم إلا فى مواسم الانتخابات !

إن سى عبد المجيد كاتب الحسابات فى محلنا قد شغل نفسه كثيرا فى البحث لى عن واسطة . إنه كان من الرجال الأفاضل المخلصين الذين يهتمون بمشاكل الغير أكثر من الاهتمام بمشاكلهم . وقد عصر فكره وأجهد نفسه وأخيرا عثر على الضالة المنشودة ، فى فنان تشكيلي يسكن فى منزل ألى فى شارع محمد على ويعمل بالتدريس فى مدرسة الفنون ، وإن للرجل اتصالات . واتصل ألى بالرجل ولكن ماذا يستطيع أن يفعل فنان لطالب راسب فى الدور الأول فى الميكانيكا وعلى الرغم من ذلك زين له أن يلتحق بمدرسة المهندسخانة ١٩

أغلقت فى وجهى كل المدارس العليا ولم يبق أمامى إلا أن ألتحق بمدرسة التجارة العليا فى فترة بعد الظهر . وذهبت لأقدم أوراقى وإن كان فى ذلك حرمانى من لعب

الكرة لفريق مدرستى كان ذلك الخاطر يحزننى . أما من حل يمكننى من الانتظام فى دراستى وممارسة هوايتى ؟!

وذهبت إلى رئيس فريق الكرة بالمدرسة وكان طالبا مخضرمًا أمضى أكثر من سبع سنوات فى المدرسة وما استطاع أن يحصل على شهادتها ، فلما أخبرته أننى سأدخل فترة بعد الظهر ولن أعب معهم نظر إلى وابتسم ساخرًا منى وقال لى :
— هات المصاريف .

وأخذها منى وذهب إلى سكرتير المدرسة وسددها على اعتبار أننى من الطلبة المقبولين فى الفترة الصباحية . وبعد أن دفع السكرتير إلى بالإيصال وتناول كشوف الطلبة المقبولين فى الفترة الصباحية ليضع أمام اسمى علامة أننى سددت المصروفات قال رئيس فريق الكرة فى هدوء :

— اسمه مش فى الكشوف دى ، اسمه فى كشوف المقبولين بعد الظهر .
وأرغى سكرتير المدرسة وأزبد ولعن رئيس الفريق وصب على رأسه السباب والشاب يضحك ضحكات انتصار ، وتصحيحًا لما تورط فيه السكرتير نقل اسمى من كشوف المقبولين بعد الظهر إلى كشوف المقبولين فى الصباح وصاح فى الفراشين :
— حطوا له تحتة فى أى فصل .

وعدت إلى البيت منشرحًا فقد أصبحت بفضل الكرة طالبا فى مدرسة التجارة العليا فى فترة الصباح ، وكان سبب انشراحى الحقيقى أننى التحقت بمدرسة عليا دون وساطة أحد من الباشوات أو من أعضاء الشيوخ أو النواب أو من الحزبيين الذين كانوا يملكون مصائر الناس .

جاءت إلى إستر وفي عينيها دموع ، فرحت أرمقها في دهش وقلت لها :
— مالك ؟

فقلت في انفعال :

— أمي عايزه تجوزني .

— ما هو لازم ح تتجوزي يا إستر .

— ما باحبوش .

وراحت تجهش بالبكاء فلزمت الصمت ، فما كنت أدري ماذا أفعل وماذا أقول

وإن أحسست قرب هبوب عاصفة ، وقالت إستر بصوت مخنوق :

— أمي عرفت إني ماشية معاك صمتت إني أجوز على طول .

وعاد الصمت بيننا وانتهت لحظات انفعالها الشديد ، فقلت في شيء من الهدوء :

— انت لو اشتغلت النهارده تاخذ كام ؟

— ستة جنيه .

— وانا باشتغل بتلاثة جنيه . نقدر بتسعة جنيه نعيش .

وأحسست كأنني فأر يقاد إلى مصيدة ، فقلت في هدوء وإن كان الخوف بدأ

يتحرك في أعماقي :

— اعقلي يا إستر .

فقلت في حماس :

— فيها إيه لو نجوز ؟!

— انتي ناسية أنا إيه وانتي إيه ؟

— إيه يعني .

— وأهلك ؟

— ما يهمنيش أهلى .

— انتى بتكرهيه قد كده .

— ما بطقهوش .

— عشان بتكرهيه عايزه تتجوزينى ؟!

— انت عارف معزتك عندى قد إيه .

— إستر ، بلاش تنهور . اسمعى كلام امك .

فظهر الغضب فى وجهها وقالت فى انفعال :

— قول انك ما بتحبينش .

وانصرفت وهى حانقة وأنا أرقبها فى إشفاق وإن كنت فى قرارة نفسى أستشعر راحة ، فما كنت أقدر أن سياأتى يوم تفكر فيه إستر أن ما بيننا يمكن أن يصبح زواجا . إنها كانت تتهلل بالفرح كلما التقينا أما أنا فكنت أداعبها وأنا مسيطر على كل حواسى ، فما أذكر أن قلبى قد خفق وأنا معها بمثل ذلك الخفقان الذى يضطرب به إذا ما لمحت فورتيه فى شرفتها أو التقيت بها مصادفة فى الطريق .

ولم أعد ألقى إستر ؛ سمعت أنها تزوجت فصرت أخرج كل يوم كما كنت أفعل من قبل وأدور حول جامع الظاهر وفى شوارع السكاكينى وحدى ، أحسست أن هناك فراغا فى حياتى ولكنى لم أشعر بخين إلى إستر ، بل وجدت نفسى أسبح لله وأناجيه وأمد بصرى إلى الأشجار على جانبي الطريق وإلى القمر فى السماء وإلى كل ما حولى ، إن ما أراه ليس هو الوجود ، فالوجود شىء أسمى مما تدركه حواسنا . إننى أكاد أن أرى فى الظلام بعين بصيرتى أنوارا تشيع الطمأنينة فى وجدانى ، وإذا بطاقات الشهوة والنزوات تتحول إلى حب صوفى يهدينى إلى الجمال فى كل ما فى الوجود من صنع الله الذى أتقن كل شىء ، بديع السموات والأرض .

لم يعد هناك انقسام فى ضميرى ، وأصبح شعور أخلاقى يسيطر على ذاتى ، وصرت أتوكل على القدرة الإلهية المطلقة فإذا بضباب حياتى ينقشع ، وإذا بى أرتفع فوق حواجز الدنيا وعقباتها ، وإذا بنفسى تتغذى بالحب وتشرئب بعنقها إلى الفناء فى روح الكون ، إلى الخلود .

كنت أصلى وأناجى ربي وأقابل الفتيات . أما وقد قطعت شوطا في طريق تطوري الروحي فقد صارت رفقتي لله تغنيني عن رفقة من سواه . لم أعد أنقاد لحنيني إلى الجنس الآخر وإن كان حيننا زائرا بالفتيات اللاتي يرحبن بالصدقة وبما هو أدنى من الصداقة .

وأمسيت أقضي بعض أوقاتي في حوار مع حايم ، وهو يقال يهودي متدين ، كان يمسك مرآة في يده ويخلق ذقنه بما كينه حلاقة ، وما كان يستعمل الموسى أبدا وكان يقول لي : إن حلق الذقن بالموسى حرام . وكان حايم يقال يقص على أقاصيص التوراة ويشرح لي الشريعة اليهودية ، وكان ذلك أول عهدي بالتوراة .

لم يكن حايم قد قطع أية مرحلة من مراحل التعليم ، فهو يهودي بسيط ولكن تمسكه بدينه كان يجعله يحس أن له قيمة ، وأنه وريث علم ، وأن إيمانه يشعره بالتكامل والتوازن والانسجام والتوافق .

كان حايم يريد الخير لا ليقوده إلى حياة أبدية خالدة بل ليجزيه الله خيرا في الدنيا ، فما كان اليهود يؤمنون ببعث ولا نشور ولا حساب في الآخرة ، فجزاء الصالحات عندهم جزاء أرضى . وعلى الرغم من إيمانه العميق ، كانت تفلت من بين شفثيه عبارات شك كانت تنزل السكينة على قلبي .

كان يتساءل أحيانا : لماذا يغدق الله في الدنيا على العصاة والخطائين ويرزقهم من الطيبات ؟ ولم يجد جوابا في تعاليم دينه فكان يقول في انكسار : حكمته . إنه تسأول ليس له جواب عنده إلا الكفر بتعاليم دينه ، وما كان لديه الشجاعة ليكفر بها وإن وجد بعده علماء من اليهود كفروا بها ونشروا في الدنيا الكفر والإلحاد .

و كنت أقول له : إن الإسلام فيه جواب لحيرته فالله يقول : « أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون . إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » .

كان يصم أذنيه عن قولي فما كان يحب أن يسمع شيئا عن الإسلام أو عن أي دين

آخر غير اليهودية . فقد لقن منذ نعومة أظفاره أن اليهود وحدهم البشر وأن من سواهم كلاب البشرية ، ما خلقوا إلا ليعدموا شعب الله المختار ، فكان ذلك الزعم يجعله يستشعر امتيازته وإن كان لا يكاد يذكر بين البشر .

و ذات مساء بينما كنت أصغى إلى حاييم جاءت فورتينية وقالت تخاطب الرجل وإن كانت تريد أن تسمعنى كلامها :

— احنا ح نعزل ، ما حدش عايزنا هنا ؟

وتظاهرت بأننى لا ألتفت لكلامها وإن كان صراعا قد نشب فى أغوارى . إنها تلفتت إلتى كأنما تقول لى : انطق . وإن لسانى ليكاد أن يستجيب لندائها ولكنى كنت أستشعر خجلا أمام ضميرى ، فإننى منذ لحظات كنت بين يدى الله أصلى العشاء . إننى كنت سعيدا لأننى بعدت عن مصاحبة الجنس الآخر وصرت أسير متهللا بفرح فياض لأننى أصبحت على الدوام فى صحبة الله . أحداثها وأعود إلى النفاق ؟ ولكى أحسم المعركة التى بدأت تنشب بين جنبى انسللت من دكان حاييم وعرجت إلى السلامك أشارك السمار سمرهم وقد غابت فورتينية عن عينى وعن ضميرى .

٧٣

كنت أخرج أول الليل إلى ميدان الظاهر فى رفقة إستر ، وكنت الملح الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى بمحل حلوانى النجمة بالقرب من محطة الترام بدير عينيه فى اليهوديات العائدات من المحال التجارية ، فكنت أرقبه وهو شارد بعد أن يملأ بصره من الرائحات الغاديات ، الهابطات الصاعدات فى الترام ، فكنت أحزر أنه يبحث بينهن عن بطلات لقصصه .

كان أثر تلك الجلسة يظهر فيما يكتب فى الصحف والمجلات ، كان يعيش بين اليهود ويتأثر بتحررهم فكان كثيرا ما يصور الفتاة المصرية أكثر تحررا مما كانت عليه فى ذلك العصر . كان المازنى يخرج إلى الطريق كل مساء ليجمع مادة قصصه ، وكان من عادته أن يبدأ من تقع عليه عيناه بالتحية ، وقد حيانى أكثر من مرة .

وفي ذات ليلة انطلقت خلف إستر لألحق بها ، والتفت حولى فى انطلاقى فلمحت المازنى يسير بالقرب منى ، ففجئت من نفسى وخفت من خطوى . وفطن إلى ما اعترانى فابتسم وأشار إلى يدعونى أن ألحق بها فرفت على شفتى ابتسامة ووسعت من خطوى ولحقت بها .

كنت أخرج فى رفقة إستر ولكن إستر قد تزوجت فصرت أخرج وحدى أدور حول جامع الظاهر أناجى ربه بلسانى مرة وبجوارحى ووجدانى مرات ، فيزداد إحساسى بالوجود ويقوى شعورى بنفسى وأستشعر غزارة حياتى الباطنية . وكان المازنى يجلس بمحل حلوانى النجمة ولكن المحل قد أغلق فانتقل إلى محل أسترا الذى يطل على شارع الخليج عند غمرة وشارع السكاكينى عند محطة الترام ، ليتفرس فى الهابطين منها والصاعدين ، ويطلق لخياله العنان ليجمع من ضباب ما يتولد فى ذهنه مادة للكتابة .



و كنت فى كل صباح أنطلق إلى شارع فاروق لأستقل الترام إلى العتبة ومنها إلى مدرسة التجارة العليا بالقصر العینى ، وكان المازنى يشق نفس الطريق بسيارته فى طريقه إلى جريدة البلاغ وكان يعمل محررا بها . فلمحنى مرة وأنا أغدو وأروح على رصيف المحطة فى انتظار الترام فدعانى للركوب معه ، فركبت إلى جواره وتجاذبا الحديث فإذا بسعادة تغمرنى . إنها أول مرة فى حیاتى أتحدث فيها إلى كاتب كبير ، وكان إلى جوار ذلك بسيطا مرحا لا يشبع المرء من حديثه .

و طلبت من الأستاذ أن أهبط عند جريدة البلاغ وكانت على بعد خطوات من مدرستى ، ولكن كرمه أئى إلا أن ينطلق بى حتى الباب ، فنزلت وذهبت لأتسلم كتبى ، فإذا من بينها كتاب إنجليزى ضخمة ، فقرأت عنوانه « قصتى المفضلة » فأحسست شيئا من الراحة ، فقد كنت أحب قراءة القصص ، وهاهى ذى بين يدى مجموعة أقاصيص لأشهر الكتاب الإنجليز . إننى سأتعب فى استخراج معانى الكلمات الإنجليزية التى لا أعرفها — وما أكثرها — ولكنه تعب لا شك لذيد .

إننى قرأت فى المدرسة الثانوية مسرحية : « إبراهيم لنكولن » ومسرحية « كريتون العجيب » وقصة « جزيرة الكنز » ولكن تلك القراءة لم تكن محبة إلى قلبى فقد اكتنفها كثير من التعقيدات المدرسية ، لذلك عزممت على أن أقرأ مجموعة « قصتى المفضلة » وحدى دون أن أنتظر شرح الأستاذ الإنجليزى ، فكانت هذه أول خطوة أخطوها نحو الاعتماد على نفسى فى الدراسة والبحث والتنقيب .

و ذهبت إلى المدرج الكبير مع الزملاء لتلقى محاضرة فى « إدارة الأعمال » فراح الأستاذ يلقي ما عنده ، وفى أثناء انهماكه فى الشرح لمحنى أحادث جارى فأشار إلى وقال :

— انت يالى بتكلم مع جارك قوم اقف .

فوقفت فقال لى :

— كنت باقول إيه ؟

فأخذت أعيد ما قاله كلمة كلمة ، فشرذ قليلا ثم قال :

— أهو أنتوزى البغبغانات .

ولم أسكت ، إنه قد وجد أنى كنت حاضرا معه بكل ذهنى فأراد أن يهزأ بى لأنى تحدث مع جارى ، ولما كان أكبر عيوى أنى لا أسكت على تحد ولا أزدرد ما يخيل إلى أنه إهانة فقد قلت :

— أنا مستعد انى أحضر المحاضرة الجاية .

فقال الأستاذ فى ضيق :

— اقعد بلاش غلبة .

وانتهت المحاضرة فانطلقت منفعلا إلى مكتبة المدرسة وأخذت أبحث عن كتب إدارة الأعمال ، كانت كلها باللغة الإنجليزية فرحت أقلب فيها حتى عثرت على كتاب منها فيه نفس المحاضرة التى ألقى علينا اليوم .
إن الأستاذ لا يعتمد فقط على هذا الكتاب فيما يعتمد عليه عند إعداد محاضراته ، بل إنه يترجمه سطرًا سطرًا .

واستعرت الكتاب وعكفت على ترجمة المحاضرة التالية فإذا بى أستشعر لذة جديدة لم أكن أعرفها ، لذة التنقيب فى الكتب واستيعاب ما فيها . كانت هذه أول مرة أقرأ فيها كتابا علميا ليس من الكتب المقررة على . إن قراءة هذا الكتاب قد فتحت أمامى آفاقا كانت مغلقة ، إنه أقنعنى أننى أستطيع أن أقرأ فى الإنجليزية وأن أفهم بل إننى أستطيع أن أنقل ما أقرؤه بالإنجليزية إلى لغة عربية سليمة .

وانتهيت من ترجمة المحاضرة وانتظرت فى لهفة موعد تلقى المحاضرة الثانية فى إدارة الأعمال ، وما إن حان موعد دخول الأستاذ حتى أخذت أرقب دخوله إلى القاعة فى قلق ، فلما رأيته يسير إلى المنصة إذا بقوة خفية تدفعنى لأنطلق إليه ، وتقدمت منه كالمسحور وقلت فى هدوء وأنا أقدم إليه ما ترجمته :

— محاضرة النهارده أهه .

ومد الأستاذ يده بحركة غير إرادية وتناول منى الأوراق ، وكأنما قد أفاق من ذهوله فجأة فراح يرقبى فى غضب ثم قال فى انفعال :

— أنا مش عايزك تحضر لى ولا محاضرة .

فقلت فى برود :

— ونسبة الحضور ؟

— ح اديها لك .

وخرجت من قاعة المحاضرات مطرودا ولكنى عرفت طريقى إلى المكتبة .

٧٤

راحت الأيام تمر وأنا لا هم لى إلا لعب الكرة مع فريق ضعيف ومصاحبة أناس لأستعيبهم عن أصدقاء مدرستى الثانوية الذين تبعثروا فى كليات الجامعة والمدارس الثانوية ، فأنا لا أسيغ الحياة إذا خلت من الأصدقاء . وكان صديق طفولتى صلاح قد التحق بمدرسة التجارة العليا فاستمرت العلاقة بيننا كما كانت . كان يذهب معى إلى ملاعب الكرة ثم يعود معى إلى بيتنا لنستذكر ما كنا نكتبه فى أثناء المحاضرات .

لم تختلف الحياة كثيرا فى مدرستى العليا عن مدرستى الثانوية ، فالمشرف على فريق الكرة هناك كان مدرس الحساب والمشرف على الفريق هنا هو مدرس المحاسبة ، ولم أستشعر بفرق بين الدراسة فى الثانوى والدراسة فى مدرستى العليا ، فالأساتذة هنا وهناك يحولون وقت الدرس إلى حصص فى الإملاء . إنهم يتعمدون إلقاء الدروس أو المحاضرات فى بطاء لنتمكن من كتابة كل كلمة تخرج من أفواههم .

وأجريت بعض الامتحانات قبل نهاية السنة فكانت لا تخرج عن أسئلة تقليدية القصد منها اختبار مقدار ما حفظناه عن ظهر قلب من دروسنا ، فما كانت الأسئلة تحاول أن تكشف عن ملكاتنا أو طرق تفكيرنا .

كان الاقتصاد السياسى والمذاهب الاقتصادية تستهوينى ، وقد كتبت مقالا مستعينا بالكتاب الذى ألفه الأستاذ فى هذه المادة وبعثت به إلى الأهرام فإذا بالمقال ينشر وكان هذا أول صلة بينى وبين النشر . وقد شجعنى ذلك على أن أعاود التجربة فترجمت بعض مقالات لكتاب إنجليز أو بالحرى استعنت بها لكتابة مقالات مشوهة عن أصول رائعة وبعثت بها إلى الأهرام فإذا بها تنشر جميعا ، فقد كانت الصحف كلها فى ذلك الوقت تفسح صدرها للمقالات الأدبية .

(هذه حياتى)

لماذا الأهرام بالذات الذى أرسلت إليه أول ما كتبت فى حياتى مع أننى كنت معجبا بجريدة السياسة الأسبوعية ؟ لست أدرى . إنها الصدفة فما دام أول مقال قد نشر فيها فقد داومت على إرسال مقالاتى إليها .

و كنت أصغى إلى المحاضر الذى يلقننا محاسن الاستعمار وأنا فى دهش من أمره . إنه يزعم فى ثقة أنه لولا الاستعمار لظلت الدول المستعمرة متخلفة ، لما سار الترام فى شوارعها ، ولما امتدت أسلاك البرق والتليفون والكهرباء ، وما كان يحدثنا أبدا عن نهب الخامات الأولية وإفساد الأخلاق ، ورحت أسأل عنه فعرفت أنه متزوج من إنجليزية وأنه سعيد بذلك الاحتلال .

وكان أن التحق بفترة الصباح وفترة المساء فى مدرستنا ما يقرب من ألف طالب ، وكان ذلك العدد يفزع الطلبة إذا ما فكروا فى مستقبلهم ، أحتاج مصر إلى مثل ذلك العدد من خريجي التجارة ؟ وما كان أمر المستقبل يعنينى فى كثير أو قليل ، فقد تيقنت طوال حياتى التى عشتها أن المستقبل بيد الله يصرفه حيث يشاء ، وأن علينا أن نعمل وأن نترك ما لله لله .

وحدث أن تقرر إقامة مباراة فى كرم القدم بين منتخب مدارس القاهرة ومدارس الجيزة ، فإذا بى أنتخب للعب لمدارس القاهرة . وقد أغضب ذلك لاعبى مدرسة فؤاد الأول ، مدرستى السابقة ، لأنهم كانوا يفضلون أن يلعب مكافئى لاعب منهم يلعب لنادى الزمالك ومرشح لمنتخب القاهرة .

وجاء يوم المباراة فإذا بلاعبى فؤاد الأول الذين كانوا فى المنتخب يتغيبون احتجاجا ولعب الاحتياطى معنا . وما إن بدأت المباراة حتى تمكنت من تسجيل الهدف الأول لمنتخب مدارس القاهرة ، وبعدها مباشرة مررت الكرة من منتصف الملعب إلى الجناح الأيمن فسرعان ما سجل الهدف الثانى ، وتوالت الأهداف فإذا بنا نهزم مدارس الجيزة والجامعة ستة أهداف نظيفة .

وأقبل على الضابط الذى كان مشرفا على فريق مدرسة البوليس والذى اختارنى فى الإجازة الماضية للعب معهم تمهيدا لالتحاقى بالمدرسة ، وراح يعتذر لى عما حدث يوم الاختيار ويغرينى أن أقدم أوراقى فى السنة المقبلة إلى البوليس وهو يعدنى أننى سأكون

من المقبولين في هذه المرة ، ولكننى اعتذرت وقلت له إننى رضيت بما اختاره الله لى وإننى لا أحب أن أجرب حظى فى شىء واحد مرتين .

ووزعت علينا الميداليات ، فأخذت ميداليتى ولم أكرث بها ، فالزمن كفىل بأن يسحب ستائر النسيان على كل شىء . إنها بعد أيام لن تزيد على قطعة من المعدن حفر فيها ما يحفر على شواهد القبور ، فأنا على الرغم من مرخى لا أفرح بما يأتينى ولا أحزن على ما يفوتنى ، فما الدنيا إلا ممر إلى مقر ، فالسعيد حقاً من أخذ من ممره لمقره ، وما من أحد أخذ معه جوائزه أو ما فى الأرض من حطام .

وتعودت أن أشتري بعض الصحف التى تصدر بالإنجليزية فى مصر وكانت تلك الصحف تجد رواجاً بين الأجانب الذين يقبضون بيد من حديد على المراكز الهامة فى البنوك وفى التجارة وبين قوات الاحتلال ، وكنت أقرأها لأتقوى فى اللغة الإنجليزية ، فعثرت بين موادها التى كانت تهتم بالسياسة والاقتصاد على مقال يصف « نعمة الضوضاء » ، فعكفت على ترجمة المقال ، ولما انتهيت منه بعثت به إلى جريدة المقطم وكنت قد بعثت إليها ببعض المقالات كأنما لم يعد الأهرام يكفينى ، فإذا بالمقال ينشر فى الصفحة الأولى مع مقالات المقطم الرئيسية التى كان يكتبها كريم ثابت وفارس نمر وغيرهما من كبار محررى الصحيفة .

اشتريت الصحيفة فى أثناء عودتى من الكلية وهبوطى فى ميدان العتبة لآخذ ترام العباسية السارى فى شارع فاروق ، وما إن رأيت مقالى فى الصفحة الأولى حتى خفق قلبى فى شدة وغمرنى سرور فياض ، ورحت أقطع ميدان العتبة وأنا منهمك فى القراءة لا أحفل بالسيارات أو الحناطير التى تغدو وتروح ، فما كانت بالكثرة التى تفرع من يقرأ صحيفة أو يقلب صفحات مجلة فى عرض الطريق .

وعدت إلى البيت وصعدت فى الدرج قفزاً ، وما إن دلفت إلى شقتنا حتى وجدت أبى قد جلس وإلى جواره إبراهيم الشرى وقد راح يقرأ المقال والحاج إبراهيم يصغى مطرقاً ويردد بين فقرة وفقرة :

— جميل .. جميل .

وتسمرت فى مكانى لحظة وقد لفنى خجل شديد ، وسرعان ما انسحبت لأغيب فى غرفة بعيدة فأنا لا أحتمل أن أرقب أناساً يقرءون ما كتبت ، فإن تهريج زملائى

الطلبة في مدرسة فؤاد الأول الثانوية يوم أن قمت لأقرأ موضوع الإنشاء الذي حصلت فيه على الدرجة النهائية ترك في أغوار نفسي جرحا ما أيسر أن ينتكس إذا قمت لأقرأ أو وقعت عيناى على أى إنسان يقرأ أى شىء كتبته ، حتى لو كان ما كتبته عنوان دار .

٧٥

أوشكت السنة الدراسية على الانتهاء فكنت أواظب على حضور المحاضرات لأنى كنت أعتقد أن الأساتذة يحومون حول أسئلة الامتحان . وذات يوم عندما هممت بركوب ترام رقم ١٥ الذى يربط بين العتبة والجيزة ويمر بالقصر العينى ، إذا بصوت ينبعث من حطام امرأة تسربت بالسواد قائلا فى صوت خافت :
— ركبونى .

فحملتها حملا حتى صعدت بها إلى الترام ووقفت إلى جوارها فى الفسحة التى تقود إلى المقاعد ، وخجلت أن أتركها وحدها وأذهب إلى الدرجة الأولى فقد كان اشتراكى يعطينى هذا الحق ، فإذا بها تقول فى صوت مرتجف :
— قعدونى .

وتلفت فلم أجد مقعدا خاليا ، ووصل صوتها إلى مسامع شاب قريب فنهض وترك لها مكانه فأجلستها فيه فى رفق كأنما كانت قارورة يخشى تحطيمها ، وما إن استقرت فى مكانها حتى راحت تشمشم بأنفها وتقول :
— ريحة سجائر .. أنا خرمانه .. ادونى سيجاره .

انى لا أدخن ولم يكن معى سيجارة فارتبكت ، وإذا برجل يقدم إليها سيجارة فأخذت تشد منها أنفاسا وتنفث الدخان فى الهواء وقد نزلت بها سكينه وهدوء ، وإذا بالكمسارى يأتى يضرب بقلمه قطعة الخشب التى ثبتت فيها التذاكر ويقول :
— تذاكر .. الأبونيات .

فأخرجت له الاشتراك فأشار إلى غرفة الدرجة الأولى وقال لى :
— اتفضل .

— معلىش .

واقرب الكمسارى منها وقال لها :

— تذاكر .

فاذا بها تقول فى هدوء وثبات :

— ادفعولى .

ودفعت إلى الكمسارى بست مليمات ثمن التذكرة وأنا أقول :

— اسمح لى أنزل قبل ما تقول جوزونى .

وقفزت من الترام وهو منطلق لأستقل تراما آخر .

وفى العصر خرجت أتمشى فى شارعنا لأقابل صلاح وهو قادم من بيته لنستذكر معا ، وفيما أنا سائر إذ بى أرى إستر وهى واقفة تحدث إحدى صاحباتها ، إنها حامل قد غاض جمالها ونفرت العروق الزرقاء فى ساقها وترك البؤس بصماته على وجهها . أين هذه الذابلة من تلك الناضرة التى كان صديقى فريدون يتمنى أن يرسمها ؟! وأحسست رثاء وإشفاقا ورحت أفكر فى إستر وما اعتراها ، وإذا بى أجد أن هذا هو حال كل بنات اليهود اللاتى تزوجن . نضارة قبل الزواج وذبول رهيب بعده . وطاف بذهنى أن أسأل العم سيد الشامى فى هذه الظاهرة فعنده تعليل طريف لكل ما يحيرنا من ظواهر .

وفى جلسة من جلسات المساء فى السلامك سألت العم سيد :

— ليه بنات اليهود يبقوا حلوين قبل ما يجوزوا وتو ما يجوزوا يدبلوا ؟

فقال العم سيد فى ثقة دون أن يتعب نفسه بالتفكير :

— لأنهم جاين من ميتة .

وفطن إلى أننا لم نفهم قصده فراح يشرح ، قال :

— اختار موسى عليه السلام سبعين رجلا من قومه وصعد بهم فى جبل سيناء ،

وأرادوا أن يسمعوا الله وهو يوحى إلى موسى فأخذتهم الرجفة فماتوا جميعا . فراح

موسى عليه السلام يتضرع إلى الله أن يعيد إليهم الحياة فإذا بالموتى تدب فيهم الروح ،

ومن الموتى دول جم اليهود .

وراح كل من في السلامك يتحدث في الموضوع على قدر علمه واجتهاده ،
وتشعب الحديث وكأنما أراد العم سيد الشامي أن يفصل في الموضوع فقال متسائلا :
— ليه الراجل كل ما يكبر بيحلو وتزيد هييته ، وليه المرأة كل ما تكبر بتدبل
وتوحش ؟

وراح كل منا يدلي برأيه ولم تكن أى من إجاباتنا شافية ، فقال العم سيد في هدوء :
— عشان الرجل اتخلق من طين .. والطين كل ما يعيش يحسن .. يزهو ؛ أما المرأة
اتخلقت من لحم واللحم كل ما يمر عليه الزمن يفسد .
وصاح الحاج إبراهيم الشرى :
— يتتن .

وتحرك شيطاني يغريني أن أنقل ذلك الحوار إلى النساء حيث يجتمعن عند جدتي ،
فتركت السلامك وذهبت إلى حيث كانت أمي وعمتي وامرأة عمي ونساء إخواني ،
وكن يخضن في أحاديث شتى . وهممت أكثر من مرة أن أنفس عما في صدري وأن
ألبى نداء شيطاني ولكنني وجدت أن ما سأقوله سيجرح شعور الجميع وقد يثير زوبعة
تصل أنباؤها إلى أبي فيغضب مني ، وكنت أرتجف فرقا من مجرد فكرة أن أرى أبي يوما
يشيح بوجهه عني .

كان أبي بالنسبة لي هو كل شيء في حياتي ، كنت لا أتناول غذائي أو عشائي إلا
معه ، وكنت أأزمه في غدوه ورواحه وأنا سعيد . فإذا خرج لنزهة خرجت معه ،
وإذا ذهب للصلاة في مسجد من المساجد ذهبت معه ، إنه كان يتبسط معي
ويستشيرني في بعض شئونه فكان يشعرني بأهميتي .

استيقظت ذات ليلة على حركة غير عادية في البيت ؛ كان الجميع يتجهون إلى شقة
أبي فهرولت مفزوعا لأرى ماذا هناك ، الجميع يتجهون إلى شقة أبي فهرولت مفزوعا
لأرى ماذا هناك ، فإذا بأبي في سريره قد جلس ذابل اللون يلتقط أنفاسه في جهد
وصدره في علو وانخفاض ، فرحت أنظر إليه وأنا أستشعر أن قلبي يتمزق وأن نارا
تشوى جوفي . ماذا أستطيع أن أفعل لأحمل عنه ما يتحمل من كرب ؟ كنت أعجز من
أن أفعل شيئا غير التطلع إليه وذرف الدموع في صمت .

وزاد انفعالي فاذا بي أجهش بالبكاء ، ووصل صوت بكائي إليه فراح ينظر إلي وهو يحاول أن يخفي آلامه لأكف عن البكاء . ومرت الأزمة وتمدد لينام وطلب منا أن نذهب إلى فرشنا فذهبت وأنا حزين أكاد أن أموت كمدا .
وفي الصباح علمت من الحديث الذي دار بين أمي وجدتي أن هذه النوبة تأتيه بين وقت وآخر ، وأنه طلب أن لا يخبرني أحد إذا ما عاودته في الليل فبكائي يؤذيه .

٧٦

أوشكت السنة على الانتهاء وكنت أنا وصلاح نتوقف عن استذكار دروسنا قبل منتصف الليل ، فكنت أخرج معه إلى ميدان الظاهر ثم أعود لأنام . وكنا نسمع من زملائنا أنهم يسهرون في الاستذكار حتى الصباح فاتفقت معه على أن نجرب ذلك مرة .

كان مكتبي في غرفة تدلف إليها من السلم مباشرة بين شقة أبي وشقة أخى أحمد ، وكان لها بابان داخليان يلفظان إلى الشقتين ولكنهما مغلقان تماما . فكانت غرفة منفصلة ليس لها إلا باب السلم ، فكنا نصعد إليها أو نهبط منها في أى وقت .
وذكرت لأبي وأمى أنني أنا وصلاح قررنا أن نسهر حتى الصباح فراحا يعدان لنا الطعام والشراب في الغرفة كأنما كنا مقبلين على سفر . وجاء صلاح وعكفنا على كتبنا وإن كنا بين وقت وآخر ننظر إلى الصينية التي كانت تحمل ألوانا من الجبن والزيتون وعسل النحل والخيار .

وقبل أن يدخل أبى إلى شقته بعد أن غادر السمار في السلامك طرق باب مكتبي في رفق ، فلما فتحته سألتنا إن كنا في حاجة إلى شيء قبل أن نقطع عن كل من في البيت فشكرنا له ذلك ، ولما اطمأن إلى أن عندنا كل ما قد نحتاج إليه ذهب إلى شقته وأغلق بابها خلفه .

وراح الوقت يمر بطيئا حتى إذا ما انتصف الليل قمنا نتناول عشاءنا ونطل من الشباك الكبير ، فلمح صلاح جندي المرور يغدو ويروح وحده في الظلام فصبوب إليه

قطعة من الخيارة التى يقضمها فإذا بالجندى يفرع ، ودهش صلاح لفرعه ولصوته الخائف الذى كان يتعوذ بالله من الشيطان ورحلت أعلل لصلاح سبب فرعه . قلت له إن امرأة قد احترقت منذ أيام فى البيت الذى يقف الرجل عنده وقد ماتت ، فالرجل يحسب أن عفريتها هو الذى يشاغبه .

وأعجبنا باللعبة فأطفأنا نور الغرفة وأخذنا نتابع الجندى بأعقاب الخيار وهو يترقب فى خوف وفرع ونحن نكتم ضحكات تود أن تنطلق حتى لا يكتشف أمرنا ، وغادر الرجل المكان فعدنا لنستأنف ما كنا فيه .

راح النوم يغالبنا وأخذنا نقاومه ونحن نجاهد لنقرأ وما كنت أستوعب شيئاً مما نقرأ ، وطار النوم من أعيننا وتصفحت رأسانا وبدأ الملل يتسرب إلينا . إنها تجربة لم تؤت ثمارها ، فما استفدنا شيئاً بعد الوقت الذى اعتدنا أن نتوقف عنده . وفى سكون الليل قال صلاح :

— هو الفجر لسه ما ادنش .

فقلت له وقد اتسعت عيناى بعد أن ذهب موعد نومى وأحسست أن غنى أصبح

يترجرج فى جمجمتى :

— لسه .

فقال صلاح لنفر مما نحن فيه من ملل وضيق :

— تعال نطلع السطح نتوضأ ونستنى لما الفجر يدن .

وصعدنا إلى السطح وأسبغنا وضوءنا وأخذنا نعدو ونروح نترقب الفجر ونستمع بالهواء المنعش الذى يصفاح وجهينا . وفيما نحن ننظر إلى الطريق وجدنا أن الجندى قد عاد ليقف عند البيت الذى احترقت المرأة فيه ، فرحنا نتسلى بتصويب بعض الحجارة إليه ونحن نفرح لفرعه ولم ينهنا وضوؤنا عن مشاكسته .

وأذن المؤذن بالفجر ، فقمنا نصلى ، ولما قضيت الصلاة هبطنا إلى الشارع وسرت مع صلاح حتى ميدان الظاهر ثم عدت مسرعاً لأنام ، ولكن النوم خاصمنى وراحت كل عروقى تنبض فى شذو وأحسست صداً شديداً فى رأسى .

وفى الصباح ذهبت إلى المدرسة وأنا أترنح ، وقابلت صلاح فأخبرنى أن أخاه الأكبر

ثائر لأنه بات خارج البيت ، فلما سألته عما إذا كان قد استأذن من أهله فأخبرني أنه لم يفعل ، فقلت له إن ثورة أخيه على حق ، فقال لي إنه لم يعد طفلاً .

وعدت من المدرسة وحاولت أن أنام دون جدوى ، وعند الغروب جاء أخو صلاح الأكبر وقابلني في السلامك وراح يقرعني لأن أخاه قد بات عندي وكان يقول بين كل عتاب وعتاب :

— هو عشان أمه ما ماتت يبقى مالوش أهل يسألوا عليه ؟!

ولم يكتف بعتابي وتقريعي بل جاء إلى أبي يشكو إليه مما فعلنا ، فلما قال له أبي إن الواجب على صلاح كان أن يخبرهم بمبيته خارج البيت قال الرجل في انفعال : لو كان أخبرنا ما كنا نوافق على ذلك .

ومر أسبوع ولم يأت صلاح لنستذكر معا ، ولو كان قد جاء فما كنا بقادرين على أن نقرأ شيئاً فإن سهر تلك الليلة قد أثر على تأثيراً سيئاً ، فقد ظللت مصدعاً مشتت الفكر أكثر من سبعة أيام ، ورب سهرة تحرم سهرات .

وبدأت الامتحانات الشفهية وكنا نمتحن شفاهة في كل المواد حتى الحساب التجارى ، وصرت أنتقل من لجنة إلى لجنة ، فلما هممت بالدخول لتأدية امتحان إدارة الأعمال إذا بأحد الزملاء يهرع إلى ويقول :

— استنى . ح ادخل معاك .

كأنما ساقه قدره في تلك اللحظة .

ودخلت وحييت الأستاذ ، فلما نظر إليّ فطنت إلى أنه عرفنى فقد حرمنى من حضور كل محاضراته منذ أول العام الدراسى ، إنه لم ينس وقال فى نبرة ساخرة :

— اتفضل .

وجلست وسألنى سؤالاً أجبت عنه كما هو مكتوب فى كتابه ، فقال فى سخرية :

— بس كده .

— ده اللي مكتوب فى الكتاب .

— مفروض انك تقرا كتب تانية غير الكتاب المقرر عليك .

وعرفت أنه يتربص بى فقلت :

— يعنى هو ضاق المقرر مالفيتش إلا السؤال ده .

وإذا بالزميل المسكين الذى دخل معى يضحك ، فالتفت الأستاذ إليه غاضبا وقال :

— أظن ما قال لك تعال معايا شوف انا ح اعمل إيه؟ اتفضلوا... صفر انت وهو . كانت درجة الشفهى خمس درجات ، فبذلت كل جهدى لأعوضها فى التحريرى ، وانتهى الامتحان وظهرت النتيجة فإذا بزميلى المسكين يرسب فى إدارة الأعمال ويعيد السنة لأن حظه السيء قد قاده فى طريقى .

ولم يغفرها لى الزميل فكان يقرعنى لأننى تسببت فى ضياع سنة من عمره ، وكان لا يفتأ يذكر ذلك حتى ضاع كل عمره .

واجتمع فى السلامك كل أصدقاء أبى وتعلقت كل أعينهم بجهاز الراديو ، كانت الليلة ليلة افتتاح محطة ماركونى المحطة الحكومية ، وكان قد أعلن أن أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب سيحييان حفلة الافتتاح .

امتلأ المكان بدخان السجائر فأمر أبى بفتح كل الشبابيك فهو لا يطيق رائحة الدخان ، ودارت الأحاديث حول عبده الحامولى وألظ محمد عثمان والشيخ المنيلوى ، وإذا بأحدهم يحلل صوت منيرة المهدية ويتحدث عن خامته وقوته وإذا بآخر يقاطعه قائلا :

— فىن صوت منيرة من فن أم كلثوم ؟

ومر الوقت الذى ينصرف فيه أبى وهو يتكئ على وسادة من وسائد الكنية الاسطمبولى التى يجلس عليها ، فبدا أنه لن ينصرف قبل أن ينتهى الحفل ويسمع أم كلثوم وعبد الوهاب .

وبدأت الأصوات الجميلة تشدو ، فإذا بالذين كانوا يتحاورون فى صوت عال أقرب إلى الصراخ يصمتون ، وإذا بالرءوس تتمايل فى نشوة . ورحت أرقب أبى فرأيت هائما مع الألحان وقد أدهشنى ذلك فقد كنت أحسب أن الرجل التقى لا صلة بينه وبين الطرب .

الحاج إبراهيم الشرى ينقر على بطن قدمه فقد كان مضطجعا فى جلسته وكان قد

أركب ساقا على ساق ، والعم سيد الشامي يهز رأسه فيهتز طربوشه. في تناسق مع الألحان ، وآهات إعجاب تفلت من بين الشفاه هنا وهناك فإذا بايد ترتفع لتشير بالصمت ، كانوا جميعا في هيام .

وانتهى الحفل وظلوا جميعا جالسين لا يتحركون كأنما كانوا يخشون أن يستيقظوا من حلم جميل ، وما إن راح الحاج إبراهيم يتحدث عن « الطاوور » الذي كان يغنيه عبد الوهاب حتى قام أوى وانصرف ، فإذا بالآخرين ينصرفون وهم مسحورون . كانت ليلة من ليالى السلامك لا تنسى .

٧٧

بدأت السنة الدراسية فأسرعت لألتقى بأصدقائى الذين ظلوا فى المدرسة من فريق كرة القدم ، فبعض أعضاء الفريق قد خرجوا إلى الحياة العملية بعد أن نالوا شهادة التخرج . وأخذنا نتدارس فى اهتمام شئون الفريق وطلبنا أن تكون لنا حجرة خاصة نجتمع فيها فاستجابت إدارة المدرسة إلى ذلك الطلب ، فإذا بتلك الغرفة تصبح ناديا نجتمع فيه لنستمع من أحد أفراد الفريق إلى أحدث أغاني عبد الوهاب ، ومن لاعب آخر إلى أحدث أغاني أم كلثوم ، فكانت منافسة بين الزميلين استمتعنا بها ، بل كانت المحرض الأول على عدم انتظامنا فى دراستنا .

كنا نتحدث فى الرياضة وفى الفن بينما كان الطلبة يخوضون فى أحاديث السياسة ، كانوا حزبيين وكنت أمقت الحزبية فما كنت أشارك فى الحوار المشبوب بين الوفدين والسعديين وأنصار كل حزب يصل إلى الحكم ، فما كنت على استعداد لأبيع نفسى لأناس يتطاحنون على كراسى الوزارة ، وكنت أعتقد أن من السفه أن نختلف وعدونا الأكبر قابع على أنفاسنا فى كل مكان فى ثكنات قصر النيل وفى قصر الدوبارة ، بل وفى المواخير والملاهى الليلية .

وما انقضى على انتظام الدراسة أسابيع حتى استقالت وزارة عبد الفتاح يحيى باشا وشكلت وزارة توفيق نسيم الثالثة ، وإذا ببعض الصحف ترحب بها لأن سياستها

كانت تقوم على إلغاء دستور ٣٠ دستور صدق باشا ، وكانت تلك الصحف تأمل في أن يعود دستور ٢٣ ، ولكن البلاد عاشت بلا دستور تحتكم إلى القضاء المختلط في مسألة الدين العام الذى كان ينقض ظهرها .

وما كان من في السلامك يختلفون كثيرا عن كل المصريين الذين يتغذون بالسياسة ، فكانت أحاديث سمار الليل تدور حول الوزارة التى ذهبت والوزارة التى جاءت وتمنى عودة الوفد إلى الحكم فكنت أضيق ذرعا بتلك الأحاديث . ولم أجد لي ملاذا منها بعد أن تركت فورتينيه حينما وبعد أن تزوجت إستر وبعد أن أعرضت عن تلك الصداقات العابرة التى كنت أعقدها بينى وبين فتيات اليهود اللاتي يقطن حينما . إلا أن أمضى الليل بين سيدات بيتنا أصغى إلى أحاديثهن ، وكانت أحاديثهن ممتعة وكان أمتعها ذكريات جدتي عن حياتها مذ دخلت أسرتنا إلى ذلك اليوم الذى كنت ألقى إليها فيه سمعى .

كنت أحس نشوة وأنا أصغى إليها ، وكنت أكثر من أسئلتى وكانت إجاباتها طريفة تحرك خيالى وتختزن في وجدانى . وما دار بخلقى في تلك الأيام أن ذكريات جدتي ستكون مادة رئيسية لأول قصة طويلة أكتبها في حياتى بعد ثلاث عشرة سنة من اللحظة التى نفرت فيها من سمار السلامك ومن حديث السياسة .

كانت جدتي بسيطة غاية البساطة تمتاز بقلب من ذهب ، وكانت تحب أن تسمعنى وأنا أغنى منولوجات الزعنى ، فإذا ما قلت بصوت قبيح منغم :

— وقع المقدر يا سيدى ولبسنا البرنيطة .

كانت تطلب منى أن أعيد المنولوج كله ، وقد لاحظت أنها تحب أن تنصت إلى الراديو وكانت تقلب وجهها فيه في دهش فما كانت بقادرة على أن تتصور كيف أن جهازا صغيرا يستطيع أن يغنى وأن يقرأ القرآن وأن يلقي الأحاديث .

كانت جدتى أم عبد الغنى ترى أن الراديو « شغل شياطين » ، وفي ذات ليلة قال

المذيع :

— تسمعون الآن عبد الغنى السيد .

وإذا بجدتى تقول في دهشة واستغراب :

— مين اللى قاله على اسمى ؟!

ونظرنا إليها جميعا وإذا بها تقول فى عتاب :

— يقول لى : يا ست ام عبد الغنى ازيك .

وضحكنا من أعماقنا وما أكثر ما ضحكنا من صراحتها وبساطتها وسلامة طويتها . كنت آخذ الحياة من الناحية المرحية ، وإن كانت نفسى إذا ما انفردت بى تحاول أن تقودنى إلى مسالك الأحزان . كانت تهمس فى أعماقى أن كل يوم يمر فهو يقربنى يوما إلى نهايتى ، فانقضاء الأيام إن هو إلا دنو أجل بمقدار ما تسرب من عمرى . كانت تلك الخواطر تثير مخاوفى فى أول الأمر ، ولكنى نجحت فى رياضة نفسى على الحقيقة التى لا شك فيها بلا خوف ولا فرع ، بل فى رضا واستسلام وإيمان .

كانت ضحكاتى تجلجل فى كل مكان ، وكان مدرس المحاسبة يحب النكتة وكان يثيب عليها ، كان يعطى قرشا لمن يقفش قفشة فى أثناء المحاضرة يضحك لها . وقد فزت فى إحدى محاضراته بعشرة قروش ، وقد استدعانى بعد المحاضرة وسرنا حتى غرفته جنبا إلى جنب يحاول أن يخرجنى من لعبته ويقول وهو يضحك :

— انت عايز تاخذ ماهيتى على آخر الشهر ؟!

كان مرحا على نقيض مدرس الحسابات المالية ، فقد كان جادا من أصل شامى ، لا تتخلل محاضراته أية أحاديث خارج الدرس . طلب منا ذات يوم أن نحول كسرا اعتياديا إلى كسر عشرين فلما وصلت إلى الرقم الخامس جبرته ، أى أضفت إليه واحدا من مائة ألف ، فلما جاء إلى ورأى ذلك ثار وقال :

— لو كان الكسر ده فائدة الجنيه فى السنة ، تبقى حضرتك فلست البنك اللى

بتشتغل فيه .

وذهب منفعلا إلى السبورة وتناول إصبع الطباشير وراح يكتب فى غضب الكسر

الذى قربته ويضربه فى ملايين ويقول لى :

— شفت حضرتك فلست البنك ازاي ؟

وسرحت مفكرا فيما يقول وأنا أعجب من ثورته ، فمن أين لنا نحن المصريين أن

نعمل فى بنك ؟ ومن قال له إتنى سأعمل فى بنك ؟ إتنى لا أحتمل عمليات الجمع

والطرح والقسمة والضرب ، ولو كتب الله على أن أعمل في بنك فقد كتب على الشقاء .

وانتهت ثورة الأستاذ بانتهاء المحاضرة وذهبنا إلى المدرج الكبير ونحن نتسامر بما حدث ، وما إن دخل المحاضر وبدأ يحاضرنا في القانون التجارى حتى غفوت ولم أنتبه إلا على جارى وهو يلكنزنى ويدفع إلى فى الخفاء كتابا وهو يتسم ابتسامة خبيثة ، فلما قرأته وجدته كتابا جنسيا رخيصا من تلك الكتب التى كانت تطبع لجنود الاحتلال ، فلما انتهيت من قراءته قلت لجارى :

— القصص دى أسهل القصص اللى تنكتب . أنا مستعد أكتب لك قصة أفصح منها دلوقت .

وتناولت نوتة المحاضرات ورحت أكتب أول قصة فى حياتى ، قصة مكشوفة يسيل منى عرق الخجل كلما تذكرتها . وانتهت المحاضرة وانصرف الطلاب وبقيت وحدى أكتب من وحى شيطانى ، حتى إذا ما انتهيت من الكتابة ذهبت إلى جارى ودفعت إليه بما كتبت وقد حسبت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد . وكم كانت دهشتى عندما دفع إلى جارى فى المحاضرة بعد أشهر قصة جنسية لأقرأها فإذا بها قصتى قد كتبت على الآلة الكاتبة وأضيفت إليها أوصاف لتزيدها فحشا وزينت برسومات لتزيدها تشويقا .

٧٨

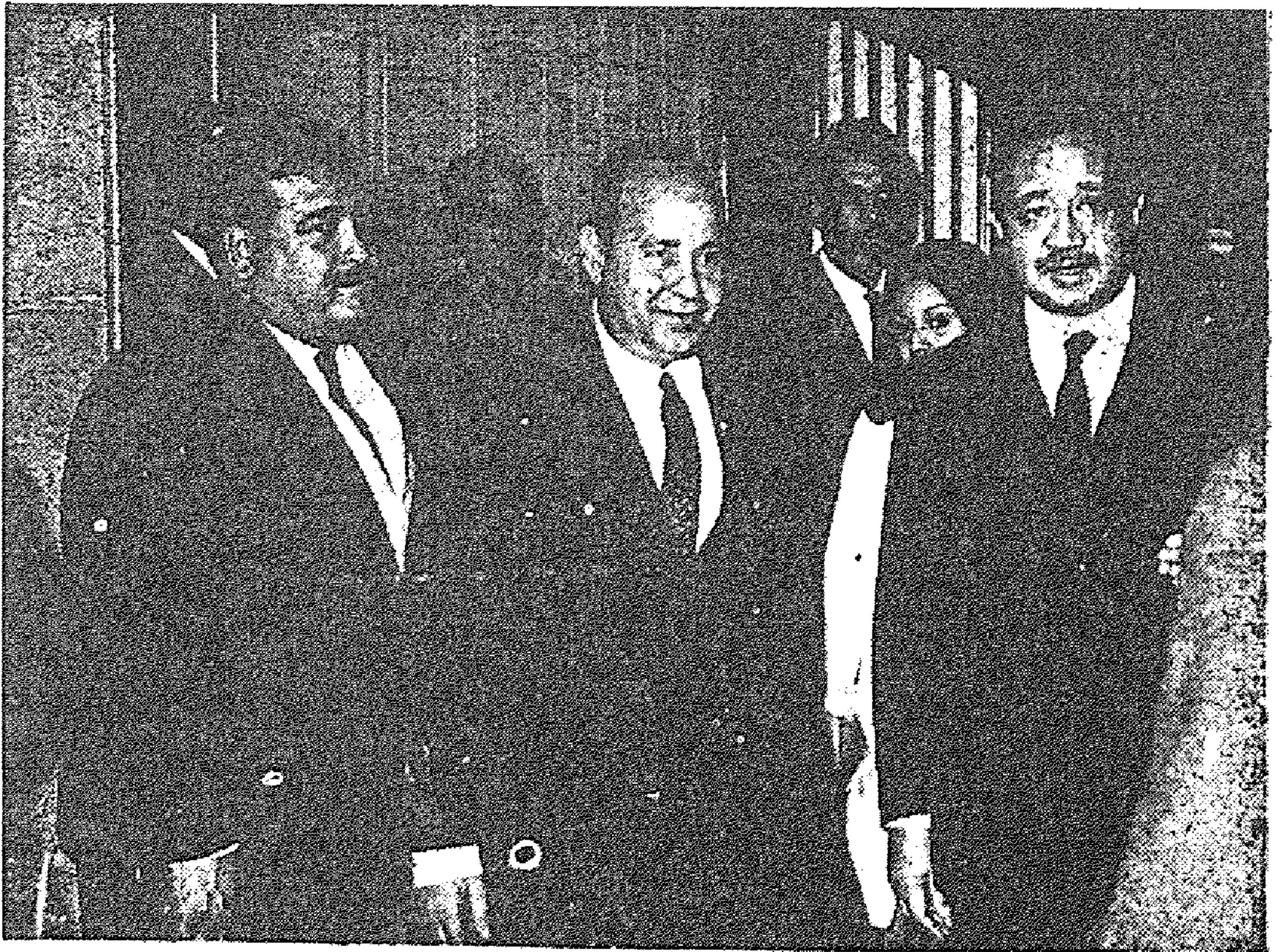
جلست بالقرب من شباك مكتبى أستذكر دروس اليوم ، فلما غاب النهار فى كهف الليل قمت وأدريت الزر الكهرى فإذا بالنور يغمر الغرفة ، وقبل أن أعود إلى مكافى إذا بالنور يضاء فى أعلى شرفة فى البيت المقابل لنا فى الشارع الموازى لشارعنا ، وكنت أراها فى وضوح من خلال الأرض الفضاء التى تركت بين البيتين المواجهين لبيتنا ، وإذا بفتاة تعود إلى كرسيها وتتناول كتابها وتنهمك فى القراءة .

كان ذلك شيئا طبيعيا لم يخطف انتباهى ، واندجت بكل حواسى فيما كنت أقرأ حتى إذا ما أحسست بالجوع قمت لأذهب إلى شقتنا لأسكت صراخ بطنى ، فذهبت

إلى الزر الكهربى وأدركته ففرقت غرفة مكتبى فى الظلام ، وسرعان ما أطفئ النور فى الشرفة التى كانت الفتاة تقرأ فيها . وقد لفت ذلك انتباهى ولكن لم أطلق العنان لخيالى فلعل ما حدث لا يزيد على أن يكون مصادفة .

وتناولت عشاى وسرعان ما عدت إلى غرفة مكتبى أتأهب لاستقبال صديقى صلاح لنستذكر دروسنا معا ، فما إن أدركت الزر الكهربى وبدد النور ظلام الليل حتى أضئ النور فى شرفتها واتجهت إلى كرسيها وتناولت كتابها .

ووقفت أرنو إلى الشرفة طويلا . إن ما يحدث الليلة لا يمكن أن يكون مصادفة . إنها تتعمد أن تجذب بصرى إليها وقد نجحت ، فماذا تريد منى ؟ إننى بكل كيانى أتوق إلى مصادقة الجنس الآخر ، ولكنى قد أغلقت نفسى دون كل أنواع العبث . كانت صداقات فتيات اليهود فى حيننا مبذولة وقد أعرضت عنها ، زهدت فى اللذات العابرة ووجدت لذى الدائمة فى مصاحبة أبى والذهاب معه إلى أماكن العبادة ، فكنت أحس أن روحى قد صارت مهفهفة مجنحة وأنها تشف على مر الأيام ، فصرت أخشى



أن تغلظ وأن تتردى فى الظلمات إذا ما استجبت لنداءات رغبات الجسد .
وفى الصباح ذهبت إلى شارع فاروق لأستقل الترام إلى العتبة الخضراء فإذا بها واقفة هناك تلتفت فلما رأتنى تظاهرت بأنها ترصد مقدم الترام . كانت فتاة بيضاء البشرة شعرها يميل إلى الصفرة ، لها عينا زرقاوان ، قصيرة القامة يميل جسدها إلى الامتلاء ، وترتدى مريلة فى لون سن الفيل وقد أسندت حقيبة كتبها على أعلى عجزها فى رشاقة . إنها أخت أحد زملاء الحى ، ليس له سواها وليس لها سواه . ماتت أمها بعد أن مات أبوها فراح يرعاها ويغذيها بعطفه وحنانه .

وسولت لى نفسى أن أبدأها بالتحية إلا اننى أحجمت ، فقد رأيت فى التودد إليها ومسايرتها فى أهوائها خيانة لرفيق من رفاق الصبا وإن لم يكن صديقا .

وجاء الترام فصعدت رشيقة إلى غرفة الحريم ، وتوجهت إلى غرفة الدرجة الأولى . وفى ميدان العتبة الخضراء وقفنا جنبا إلى جنب ننظر ترام الجيزة المنطلق إلى القصر العينى ، فلما أقبل رحلت أرقبها بطرف عينى فإذا بها تنظر نحوى بعينين ثابتتين ، فقفزت إلى الترام وجعلت أرصد الطريق لأعرف أين ستهبط .

وفى المحطة الواقعة بين ميدان الأزهار وميدان قصر النيل (ميدان التحرير الآن) هبطت فى رشاقة واتجهت إلى شارع جانبى تقع فيه مدرسة الليسيه ، إنها طالبة فى تلك المدرسة . وانتقلت إلى الجانب الآخر من الترام وجعلت أتبعتها بنظرى حتى غابت عن عينى .

وانساب الترام فى شارع القصر العينى وقد شغل كيانى سؤال حيرنى : ماذا أريد منها ؟ صداقة بريئة ؟! وهل هناك صداقة بريئة حقا بين فتى قد تخطى العشرين من عمره وفتاة متفتحة كالورود ؟ صداقة غير بريئة ؟! وفيم كان نفورى من فورتينيه ؟! إننى أرتجف فرقا إذا ما ضعفت وصرت عبدا للشهواتى وتسيل دموع الندم على خدى . أأشتهى ذلك العذاب ؟ ولكن حياتى بدون الجنس الآخر قد صارت خواء .

ووصل الترام إلى محطة مدرسة التجارة العليا فهبطت منه وهرعت إلى أصدقائى لأفزع إليهم من وحدتى التى كانت تثير أشجائى ، وتوقظ ضميرى الذى لا يتعب أبدا من محاسبتى حسابا عسيرا على كل ما أفعل ، بل على مجرد ما يطوف بذهنى من

خطرات .

وفي صبيحة اليوم التالي وقفت في شباك مكتبي فإذا بها هناك في شرفتها تمد عينيها إلى ، فلما حملت كتيبي وتحركت لأهبط إذا بها تتحرك للهبوط . وتلكأت متعمدا ثم سرت صوب شارع فاروق ومن مكان منعزل رحت أرقبها وهي واقفة تتململ . وجاء الترام وكان خاليا — فما أندر أن يكون الترام مزدحما في تلك الأيام — وتركته يمر دون أن تستقله ، ثم جاء ترام آخر ومر كما مر أخ له من قبل وقد لوت عنقها ترصد الطريق الجانبي الذي سأقدم منه .

أرضى ذلك غروري فخرجت من مكمنى وتقدمت إلى محطة الترام في ثقة . إنها تنتظرني ولا ريب ، فلو بدأتها بالتحية فقد تتظاهر بالخشجل وتطرق برأسها أو ترد تحيتي بصوت خافت . ولكنى لم أفعل ووقفنا جنبا إلى جنب . آه من خائنة الأعين ! لم أستطع أن أكنم أنفاس رغباتي فكنت أفرها بنظرات مختلصة من الرأس إلى القدم وكانت ترسل ما في عينيها من نداء .

وركبت الترام وأطلقت لخيالى العنان . إننى أعرف البداية جيدا ويا طالما مارستها مع فتيات الحى أن أبدأ بالتحية ثم نسير جنبا إلى جنب نتسامر في أشياء عادية ثم تكون ألفة ، ثم لقاء كل يوم . ولكن ما مدى الشوط الذى سأقطعه معها أنا الذى صارت قرعة عيني في الصلاة ١٩

٧٩

كانت الأمة تزجر بالغضب وتشتعل بالثورة ، فوزارة نسيم باشا قد ألغت دستور صدق ، دستور ١٩٣٠ ولم تعد دستور ٢٣ . وزاد الأمر سوءا أنها استكانت لسلطات الاحتلال بل راحت تيسر لها كل ما تطلبه تمكين بقائها والحفاظ على سلامة جندها ، وقد خرج مستر هور على المصريين بتصريح ردا على الجبهة الوطنية التى كانت تطالب بمفاوضات لإبرام معاهدة تحقق بعض مظاهر الاستقلال ، أحسنى كل المصريين ، فخرجت المظاهرات تهتف بسقوط وزير خارجية الإمبراطورية التى لا (هذه حياتى)

تغرب عنها الشمس ، وارتفعت الهتافات في شوارع القاهرة : يسقط هور ابن الطور . كانت مدرسة التجارة العليا في شارع القصر العيني ولم يكن هناك سواها وسوى كلية الطب ، وقد حاصرهما البوليس وما كان في أيدي الطلبة إلا الطوب الذي نفذ فراحوا يخلعون بلاط الممرات ويكسرونه ويلقون به على الرجال المساكين الذين تسلحوا بالخوذات والتروس والعصى وصدرت إليهم الأوامر ليقفوا في وجه الشعب الثائر .

كان المصريون يصطدمون بالجنود المصريين وكان الإنجليز في قصر النيل يتبعون أنباء المتظاهرين في مكائهم وهم آمنون ، وكانت بعض التعليمات تصدر مباشرة من دار المندوب السامي إلى الضباط البريطانيين الذين يعملون في وزارة الداخلية فكانوا ينفذونها دون أن يلتفتوا إلى رؤسائهم من المصريين أو يبلغوهم بها ، فكانت إجراءات قمع المظاهرات من أقسى ما شاهدت البلاد .

وقفت أنظر إلى الطوب الذي يلقي من وراء الأسوار على الجنود المصريين ، وإلى مياه خراطيم الحريق التي كانت تنطلق لتغرق رجال البوليس ، فألفت أننا محاصرون لن نستطيع أن نخرج من مدرستا في مظاهرة تعلن عن الغضبة الحية في الصدور ، فقررت أن أذهب إلى الجيزة لأنضم إلى المسيرة الكبرى ، مسيرة الجامعة المصرية إلى مجلس الوزراء وإلى قصر الدوبارة وإلى قصر عابدين .

وفي طريقى إلى الجيزة مررت على القصر العيني فإذا بالزجاجات التي عثت في معامل كلية الطب تلقى على البوليس السياسى الذى كان يوجه الجنود المسلحين بالبنادق والخوذات والعصى والدروع ، وإذا بهتافات بحياة الدستور وبسقوط الخونة والمستعمرين تزجر كأنها هزيم الرعد ، فأحسست راحة وملكت حماسا فرحت أعدو خلف الترام الذى سيحملنى إلى الجامعة .

وبلغت ساحة الجامعة فإذا بكتل بشرية استحالت إلى حناجر تطلق هتافات صادقة من قلوب زكية لم يلفها المرض ، وإذا بتلك الكتل تنساب كالطوفان في شوارع الجيزة ، وإذا بالناس على جانبي الطريق يحبون الطلبة أحسن تحية ، وإذا بمن أخذه الحماس منهم يندفع كل شعوره مع التيار يهتف لمصر ولدستور مصر وللحرية .

ووصلنا إلى كوبرى عباس فإذا به مفتوحا . حسبوا أنهم قد وضعوا عقبة في سبيل تقدم الشباب الثائر ولكن متى وقف شباب صادق النية مكتوف اليدين أمام ما يوضع في سبيله من عراقيل ؟ هرع بعض شبابنا إلى أسفل الكوبرى وراحوا يديرون عجلات إدارته ، فلما رأينا الكوبرى يتحرك زادنا ذلك تصميمًا فأخذنا نهتف هتافات انتصار ونسرع إلى الجزء المتحرك ، وقبل أن يلتصم الجسر نقفز إلى جانبه الآخر وإذا بكوكبة من الفرسان قد اصطفت عند نهاية الكوبرى ، كانوا في انتظارنا .

ولم يمش الخوف بيننا بل انتظرنا حتى اكتمل عقدنا ، ثم استأنفنا السير ونحن نهتف لمصر ولدستورها . وتحت ضغط اندفاعنا فتحت فرجة في صفوف الفرسان وإذا بالجنود المصطفين خلفهم ينقضون علينا بالهراوات . ولما كنا عزلا من أى سلاح حتى سلاح الطوب فقد هرعنا إلى جانبي الطريق نبحث عما نرد به الاعتداء وندافع به عن حياتنا .

وبينما كنت أسرع إلى جانب الطريق إذا بهراوة ترتفع وتهوى على شاب كان يجرى بجوارى وإذا به يترنح ، وقبل أن يسقط على الأرض كنت قد حملته على ظهري . كيف حدث كل ذلك في لحظة بصر ؟ لست أدري . كل ما أعرفه أنني سرت به إلى أقرب بيت ورحت أصعد به في الدرج وأنا لا أدري إلى أين أسير .

كدت أنوء بحملى ، وإذا بباب شقة يفتح وإذا بيد تمتد وتجذبني . فلما صرت في الداخل ، أغلق الباب في سرعة وإذا بأيدي تمتد وترفع في رفق الشاب الذى أحمله وتمدده في حنان على الأرض .

ولأول مرة استطعت أن أرى في وضوح ما أمامي ، إن منقذتى سيدة في مثل سن أمى ترتدى مثلها السواد وتغطي رأسها مثلها بطرحة سوداء ، وقبل أن أفتح فمى بكلمة شكر كانت قد ذهبت وعادت بكوب ماء وقدمته إليّ وقالت :

— اشرب .. خضوكو .

— متشكر .. أنا صايم .

كنا في رمضان وكنت صائما ولم أكن على استعداد لأن أفطر ، وبدأ الزميل الممدد

على الأرض يتحرك ويتأوه :

— يا بوى .. يا بوى .

فملت نحوه وأخذت أخلع عنه جاكته فإذا تحت الجاكتة جرس من الصوف ،
فخلعته عنه ثم القميص فظهر صديري من صوف بذلته وتحت الصديري قميص آخر ،
كان أشبه بالكرنبة ، وكنت كلما خلعت عنه قطعة يتأوه في صوت خافت مشحون
بالألم :

— آه .. آه يا بوى .

ودنت مني السيدة الفاضلة وقالت لي :

— كفايه ليبرد .

فاعتدلت وقد تركته ممدودا على الأرض يتأوه ، والتفت إلى السيدة وقلت لها :

— آسف .. أزعجناك .

فقالت السيدة في حنان :

— أبدا يا بني . أنا اولادى زيكم . مين عارف هم فين دلوقت .. فوق سطح في

البرد ده واللا اتقبض عليهم .

وساد الصمت بيننا حتى قطعته السيدة لما قالت :

— زمان أهلك قلقانين عليك . ح تروح ازاي ؟ البيت محاصر والعساكر بيقفشوا

الى فوق الاسطح .

وأطرقت السيدة مفكرة ثم انبسطت أساريرها فجأة ، فمدت يدها وتناولت

صحيفة ثم قدمتها إلى وهى تقول :

— امسك دى في إيدك ، أنا أخرج معاك . امشى جنبى ثابت . كلمنى وانا

اكلملك لغاية ما افوتك م الحصار .

والتفت إلى الفتى الذى كان يتأوه وفطنت إلى نظراتي ، فقالت لي في بساطة :

— ما تعتلش هم .. سيهولى .

وطلب الفتى منى أن أخطر أخاه وأعطاني رقم تليفونه ، وغادرت أنا والسيدة

البارة الشقة وهبطت الدرج ثابت الجنان ، كنت أستمد الشجاعة منها ، كانت تسير

ثابتة لا يهتز لها رمش . وخرجنا إل الطريق فإذا بالجنود وعلى رؤوسهم الخوذات وفي

أيديهم المتارس والمراوات يحاصرون المكان ، وإذا بضباط إنجليز يشرفون على تحريك العساكر المصريين للقبض على الطلبة المصريين .

وسرت والصحيفة مطوية في يدي وحديث يدور بيني وبين السيدة ؛ كانت تعلق في سخرية على القوة الغاشمة التي تريد أن تكتم أنفاس حرية الشعوب ، سارت إلى جوارى لحظات ولكنها لحظات خالدة حفرت في أعماق أعماقي .

وخرجنا من الحصار وبعدنا عنه قليلا ، فإذا بالسيدة المجهولة تقول لي في رقة جعلت الدموع تطفر إلى مقلتي :

— مع السلامة يا بني .

ووسعت من خطوى حتى بلغت كوبرى دير النحاس ، ومن هناك أخذت الترام إلى العتبة الخضراء ، ومنها الترام المنطلق إلى شارع فاروق ، وقيل مدفع الإفطار وصلت إلى البيت فإذا بأبى وإخوتى محمد وأحمد وسعيد في انتظارى في قلق كانت أنباء المظاهرات قد بلغتهم وكانوا على اتصال بالأقسام والمستشفيات . وترقت أن يعاتبني أبى ، ولم كانت دهشتي لما لزم الصمت كأنما كان يبارك بصمته ما قمنا به .

وبعد ذلك الحادث بأسبوع خرجت من الجامعة المصرية مظاهرة أخرى ودارت عند كوبرى عباس معركة بين البوليس والطلبة قتل فيها عبد الحكيم الجراحى ، وقد أثار مقتله كل النفوس فكانت جنازته مظاهرة وطنية اشترك فيها كل الشعب ، مظاهرة استطاعت أن تنتزع دستور الأمة من كل السلطات التي يعشى أعينها نور الحرية .

٨٠

أمست جلسة الليل بين نساء البيت تجذبنى ، فما كان النسوة يجدن حديث السياسة فحديث السياسة فى أى مجتمع كان يخفقنى ، فما كنت أسيع التطاحن بين الأحزاب وما كنت أفهم له معنى ما دام الإنجليز يطئون بأحذيتهم القدرة أرض بلادى الطاهرة .

كنت من فرط سذاجتى أضيق بزعماء كل الدول التى يحتلها جنود الإمبراطورية

التي لا تغرب عنها الشمس ، فقد كنت أتصور أن حل المشكلة لا يقتضى أكثر من أن يجتمع هؤلاء الزعماء فى مكان ما وأن يقرروا العصيان المدنى أو الثورة فى يوم واحد فيتصدع بناء الإمبراطورية التي تعيش على امتصاص دماء الشعوب التي استسلمت للذل والهوان .

كنت ساذجا لا أفهم لا كثيرا ولا قليلا فى السياسة ، ومن أسف أن تلك السذاجة لازمتنى طوال أيام حياتى ، ومما لا شك فيه أنها ستقبر معى يوم يحين الحين لأتخلص من سذاجات كثيرة كانت تتردد فى جنباتى تردد أنفاسى .

كانت جدتى لا تفتأ تتحدث عن زواج أحفادها الذكور من حفدتها الإناث ، وما كانت تهتم كثيرا بفارق السن أو الثقافة ، أما مسألة التكافؤ فما كانت تخطر لها على بال ، فما كانت تتصور أن فتاة ما تعز على أى رجل . وكانت تبذل كل جهدها لتربط أبناءها بروابط المصاهرة ، إنها ولا ريب باركت زواج أخى محمد من ابنة عمته ، وباركت زواج سعيد فقد تزوج ابنة عمته أيضا ، ولم يغضبها زواج أحمد من ابنة خاله فجدة العروس لأبيها كانت أختها ، واقترحت أن تزوجنى من كل بنات أعمامى اللاتي كن لم يتزوجن . ومن حسن حظى أنهن كن فى مثل سنى وتزوجن قبل أن أتم دراستى .

وفى أثناء حديثها الذى ما كان يدور إلا حول توفيق رأسين فى الحلال رأت أن تزوجنى من صغرى بنات عمى محمد ، كانت غاية أمانها أن تربط الأسباب بين أبى وعمى وقد أخفقت ذات مرة فى أن تزوج واحدا من إخوتى من ابنة عمى محمد التي كانت فى مثل سنى أو على التحديد كانت تصغرنى بعام . واقترحت فيما اقترحت أن تزوجنى بها ولكنها تزوجت بعد أن قطعت أولى خطواتى فى مدرستى العليا .

إنها فى هذه المرة لا تلمح تلميحا بل أمست تردد ذلك كلما جمعتى بها مجلس ، ولم تنفرد جدتى بالحديث بل راحت أمدى تحبذ الفكرة . ولم تكتفيا بذلك بل كانتا تطلبان منى كلما جاءت ابنة عمى لزيارتنا أن أرافقها فى العودة لكيلا تعود وحدها فى الظلام إلى شارع النزهة ، وكانت عادة تنصرف قرب غروب الشمس ، وما كانت المسافة بين دارنا ودار عمى تحتاج لمن يقوم بدور الحارس . وللحقيقة ما كان يسمح لفتاة من

أسرتنا أن تخرج وحدها لأي سبب من الأسباب .
كانت ابنة عمى فى الخامسة عشرة وكانت لا تجرؤ فى تلك الأيام على أن تخرج سافرة الوجه ، فكانت تغطى وجهها بغلالة رقيقة جدا لا تكاد تحجب شيئا من ملامحها ، وكانت ترتجف فرقا من أن يلمحها أبوها حاسرة الوجه حتى فى الطريق الضيق الذى يقود إلى بيتهم وما كان فيه سوى أربعة بيوت .

كان عمى محمد شريك أى فى تجارته فى مطلع شبابهما ، وكان يميل إلى مغازلة كل سيدة أو فتاة تأتى إلى الدكان ، وكان ذلك يجرح حياء أى فكان يترك الدكان ويعكف فى المسجد القريب وهو ضيق الصدر بأفعال أخيه .

وكان عمى يعشق الجمال فلم يتزوج كما تزوج أى من ابنة خالته ، بل ظل يبحث وينقب حتى تزوج شر كسية من الجوارى البيض ، وما أظن أنها أشبعت نهمه للجنس فقد ظل يعنى بمظهره ويخرج كما يخرج أعيان الأحياء الوطنية كل يوم خميس على ظهر حماره المطهم إلى المحمدى . يتبختر ويغدو ويروح مستعرضا شبابيه ، ولا أعدو الحقيقة إذا قلت إنه كان جميلا يأخذ منظره العين .

وكان عمى من هواة الحمام ، فإذا ما عاد إلى بيته انطلق إلى غية الحمام قبل أن يذهب إلى شقته . كانت غية الحمام مكانه المفضل فى الدار ، وبعد أن مات جدى ذهب عمى إلى دكان أبيه ليديره وكان فى مواجهة الدكان حمام للسيدات ، فكان يأخذ كرسيًا ويجلس بالقرب من مدخل الحمام ويصوب نظره إلى كعوب النساء ، وكان يزعم أنه يستطيع أن يعرف محاسن المرأة من مجرد النظرة إلى كعبيها .

والظاهر أن رأيه السيئ فى النساء كان له أثر فى معاملته لأهل بيته ، فقد كانت نسوة البيت لا يجرؤن على التطلع من الشبايبك أو الخروج إلى الشرفات ، وتاويل من يلمحها فى الشرفة فى أثناء عودته من عمله للراحة أو لرعاية الحمام .

كانت ابنة عمى التى ترشحها جدتى زوجة لى تلميذة فى المدرسة الإسرائيلية، فقد كانت أقرب مدرسة إلى البيت. وفى ذات يوم قابل عمى جار يهودى وقال له فى زهوه:
— يا سلام يا محمد لو شفت بنتك وهى لابسة أبيض فى أبيض وماسكه بساط

الرحمة كانت زى ولاد اليهود تمام .

وعاد عمى إلى البيت غاضبا مزجرا ونادى فى عنف على ابنته ، فجاءت إليه ترتجف فسالها عما فعلته فقالت فى صدق إنها خرجت مع فتيات المدرسة لتشجيع ميت يهودى ، فقال وهو ينهرها :

— ميت يهودى يا بنت الكلب ! والله ما انتى خارجة م البيت ولا رايحه المدرسة بعد كده .

وقد كان .. هذا هو عمى الذى تريد جدتى أن أصبح صهره ، وهذه هى ابنة عمى التى يراد لى أن أتزوجها . وسخرت فى قرارة نفسى من كل المحاولات الساذجة التى كانت تبذل للربط بينى وبينها العمر كله .

وخرجت كالعادة فى الصباح لأركب الترام فى طريقى إلى مدرستى ، فألفت فتاة الليسية هناك تلتفت . إنها ترصد مقدمى ولا ريب وإذا بخاطر الزواج يطوف لى ، إذا كان على أن أتزوج ولا بد أن سيأتى يوم أتزوج فيه فلن تكون زوجتى إلا هذه الفتاة الواقفة إلى جوارى على رصيف الترام . إنها تستطيع أن تقطع على مشوار الحياة الطويل الشاق ، سأفهمها وتفهمنى وسيكون هناك بينى وبينها شىء مشترك يخفف من وطء قسوة الأيام .

وما إن استولى على ذلك الخاطر حتى قررت أن يكون سلوكى مع فتاة الليسيه يليق بفتاة ستصبح زوجتى ذات يوم . طارت من رأسى فكرة أن أستجيب لها لنصبح صديقين وتبخرت كل خاطرة تحرضنى على أن نغتنم أيام شبابنا ، فكنت كلما أصبحت أمامها وجها لوجه أحاول أن أتحكم فى أسارى حتى لا أفضح خبيثة نفسى .

وفى ذات ليلة بينما كنت عائدا فى شارع غمرة إذا بى أنا وهى وحدنا فى الطريق ، كانت تخفف من خطوها لألحق بها ، ولكنى تحكمت فى مشاعرى وكتمت أنفاس كل عوامل الإغراء التى عربدت فى جنبائى ، فقد عزمت على أن لا اقترف أية هفوة قد تعكر فى المستقبل صفو حياتنا الزوجية .

كانت جبهة وطنية من الزعماء والساسة قد طالبت من الحكومة البريطانية إجراء مفاوضات بين المصريين والإمبراطورية العاتية التي تحتل البلاد ، فجاء رد الحكومة البريطانية بالموافقة على الدخول في المفاوضات حالا للوصول إلى معاهدة بين مصر وإنجلترا ، فإذا بموجة من الفرح تجتاح البلاد ، فوزارة نسيم باشا ستقدم استقالتها وستولى وزارة أخرى إجراء انتخابات حرة ، يعود بعدها الوفد إلى الحكم ويعود للأمة دستورها ، دستور ١٩٢٣ .

واجتمع رفاق السلامك وقد ران عليهم الحزن ، لم يخوضوا فيما كانت البلاد كلها تخوض فيه من آراء ، فقد شغلوا بمرض العم سيد الشامي .
راح أبى يتحدث في أسى عن زيارته إياه ، قال إن العم سيد كان يقاسى من ورم في رجله ، وأن الرجل الغامض قد كتب على رجله بعض ما كان يعلم من أسرار الأدعية فإذا بالورم يزول . وتحدث الشيخ إبراهيم الشرى عن ضعف عينيه وعن أنه أصيب بماء أزرق فيهما ، وقال إن هناك إعلانا في جريدة الأهرام عن دواء في الهند يشفى مثل هذه الحالات وقدم إلينا قصاصة فيها العنوان والتمس منا أن نكتب مستفسرين عن كيفية حصوله على ذلك الدواء ؟

الهند ؟! أين نحن من الهند ؟ كنت أحسب أن الاتصال بالهند ضرب من المحال ، فإذا كان الزعماء الهنود الذين يحتلهم بضعة نفر من الإنجليز لم يستطيعوا أن يتصلوا بالزعماء المصريين والسودانيين وزعماء الدول الأخرى التي رضخت في ذل للاستعمار البريطاني ، لينظموا ثورة تهب في يوم واحد يتفقون عليه في وجه الأسد البريطاني ، أياكون من الميسور على أناس بسطاء من أمثالنا أن يتصل بعضهم ببعض وأن يطلب أحدهم من الآخر أن يرسل إليه دواء أو شرحا عن ذلك الدواء ؟!

كنت على الرغم من أننى طالب في السنة الثالثة بمدرسة عليا أجد أن الكتابة

(هذه حياتى)

للاستفسار وانتظار الرد ضرب من الأوهام ، فساسة الدول الكبيرة الذين استكانوا للمندوبين الساميين الذين كانوا يمثلون الأسد البريطاني قد زرعوا في قلوبنا اليأس . والظاهر أن أخوى أحمد وسعيد لم يتحمسا مثل لفكرة الكتابة إلى الهند للسؤال عن الدواء الذى يزيل المياه الزرقاء من الأعين ، فظل الشيخ إبراهيم يتوكأ على كتف ابن من أبنائه ، وكان الابن راضيا عن ذلك فقد أتاحت له فرصتان ، فرصة الجلوس مع الكبار وفرصة الزواجان من المدرسة .

ومرت ثلاثة أيام والجلسة فى السلامك لا تطول كثيرا لكأنما كان أبى يفتقد العم سيد الشامى فيترك الضيوف مبكرا ، فسرعان ما ينفض السمار ويعود كل منهم إلى داره ، وفى اليوم الرابع خيم على السلامك وجوم شديد ، إن العم سيد الشامى قد مات ونزل بأبى حزن عميق حتى إنه لم يذهب إلى المأتم للتعزية ، بل بقى فى السلامك ينتظر من يفدون إليه ليعزوه فى جاره فى الدكان وصديقه الذى كان ألزم له من ظله ، فإذا كان الظل يلزم المرء فى النهار فى اليوم الذى تسطع فيه شمس ، فإن العم سيد كان يلزم أبى فى النهار المظنم والنهار الرائع والليل البارد والليل الحار .

وتأهبت للسفر إلى المنيا وأسيوط للعب مع منتخب الجامعة والمدارس العليا هناك ، وقابلت لأول مرة الدكتور محجوب ثابت فقد كان طبيب الجامعة وكان مرافقا للمنتخب ، فالرجل يحب الرياضة ويشرف على التدريب العسكرى فيها ، فقد كان متشبعا بروح النهوض .

كان رجلا شاب شعر رأسه وشعر لحيته التى اتصلت بشاربه ، إلا أنه ظل فتى القلب خفيف الظل يحب الضحك والإضحاك . ولم يكن الهزل بضاعته فهو لا يفتأ أن يفيض بكنوز قلبه ، فهو عالم ووطنى وخطيب ومحاضر ولكن خفة روحه طفت على كل مواهبه ، فما كانت المجلات فى ذلك الوقت تقص عنه غير نوادره الفكهة ، فانطبعت فى أذهان الناس صورته وقد امتزجت بصورة مهرج السيرك !

كنا منذ أن بدأنا تناول طعام الإفطار نعابه ، فكانوا جميعا يشاكسونه وبقيت وحدى صامتا أنظر ، فراح يمتدح أدبى وسرعان ما ركبت بدعابة لاذعة فإذا به ينهض وهو يلوح نحوى بعصاه ، فعدوت وراح يعدو خلفى وهو يقول :

— حتى أنت يا ملعون ؟!

وضحكنا من أعماق قلوبنا حتى حان موعد المباراة ، فنزلنا إلى أرض الملعب فإذا بالنيا كلها قد جاءت تستمتع بحدث قلما كان يحدث في المحافظات . وبعد دقائق قليلة من انطلاق صفارة الحكم أحرزت الهدف الأول ، وسرعان ما أحرز زميل آخر الهدف الثاني ، وأضفت إلى رصيد أهدافنا الهدف الثالث ، وأحرز الزميل الهدف الرابع ، وانتهى الشوط الأول فإذا بالدكتور يأتي إلينا متهللا يزهو بأولاده أبناء الجامعة . وفي بداية الشوط الثاني أحرزت الهدف الخامس ، وما استأنفنا اللعب حتى أحسست بحذاء يرتطم بفعى فسقطت على الأرض ، وإذا بي أحمل إلى الخارج . واقترب مني اثنان من طلبة الطب كانا ضمن احتياطي الفريق ، فسمعت أحدهما يقول :

— عايزين برمنجنات درجة حرارته ٥٠ .

وإذا بصوت الدكتور يرتفع ساخرا :

— درجة ٥٠ ؟ افرض مامعناش ترمومتر ؟! إذا وضعت إصبعك في الماء وطقت

حرارته فهو في درجة ما بين الـ ٥٠ والـ ٦٠ ، وإذا لم تطقه فهو في درجة ...

وقامت مناظرة علمية بين الدكتور والطلبة وأنا ملقى على الأرض والدم يتزف من شفتي ، فقد انغرزت فيها إحدى أسناني وثقت فيها ثقباً ، ووجدت أن المناظرة قد طالت فصرخت فيهم :

— أنا هنا !

وأمر الدكتور أن أحمل فوراً إلى المستشفى وأصر أن يذهب معي ، وفي المستشفى أمر أن أحقن حقنة ضد التسمم وأن يضمد جرحي .

وعدنا إلى الملعب نشاهد باقى المباراة التى انتهت بفوز المنتخب بستة أهداف نظيفة ، وذهبنا إلى الفندق لنستريح ونتغامز على الدكتور الذى كانت النيا كلها تنتظر محاضراته فى المساء . وجاء الليل وحاول بعضنا أن يروغ من المحاضرة ولكننا وجدنا أن ذلك يتنافى مع أبسط واجبات الذوق ، فالرجل كان سعيداً بنا حقاً ، لا يمل الحديث عنا وعن الآمال المعقودة علينا .

وانطلقنا إلى القاعة التى أعدت للمحاضرة فإذا بها غاصة بالناس . وبدأ الدكتور

يتحدث ، إنه يتدفق ، إن الأفكار تتزاحم في رأسه فيعبر عنها في لباقة ويسر ، فإذا بي أصمت في إعجاب وألقى إليه سمعى في ذهول ، فما كنت أعرف الدكتور جيدا ، وقد انتابنى شعور من عثر على كنز فجأة ، فالرجل المرح الذى يحب الهزل وطنى صادق الوطنية ، يتحدث عن وحدة وادى النيل فى حماس وما كنت قد عرفت بعد أنه نذر نفسه لمصر وسودانها .

والثقينا بعد المحاضرة فتقدمت إل الرجل أهنته فى حرارة وصدق ، فإذا به يتהלل سرورا ، وجاء سبنكس باشا قائد الجيش المصرى وقدمنى إليه الرجل قائلا : إننى بطل الجامعة ، وراح يصف له الأهداف الثلاثة التى أحرزتها .

وسافرنا إلى أسيوط وذهبنا إلى فندق هناك لنستريح ، فلما كان الصباح وجدت أن الجرح الذى فى شفتى السفلى قد تورم ، وكان أن رؤى عدم اشتراكى فى المباراة . وعند الظهر طلبت أن أذهب إلى المسجد لأؤدى صلاة الجمعة فإذا باثنين من الزملاء يتطوعان للذهاب معى ، ناديا على حنطور وطلبا منه أن ينطلق بنا إلى مكان لا أعرف عنه شيئا ، فقد كانت هذه أول مرة أذهب فيها إلى أسيوط .

ووقف الحنطور وطلبا منى أن أنزل ، فنزلت وأنا أتلفت فلم أجد أى أثر لمسجد ، فقلت للصديقين :

— الجامع فىن ؟

— ادخل بس .

فصعدت بضع درجات فإذا بى بين نسوة ساقطات ، لقد قادانى إلى منطقة البغايا فقد كان البغاء العلنى معترفا به فى مصر بلد الأزهر . وأشار الزميلان إلى إحداهن إشارة خفية لتسخر منى فإذا بها تحاول أن تعترض طريقى وتسمعنى ألفاظا فاحشة ، فانسحبت فى هدوء والزميلان غارقان فى الضحك ، وسرعان ما وسعت من خطوى أبحث عن جامع فى لهفة لكيلا تفوتنى الصلاة .

وبعد الظهر قامت مباراة بين المنتخب وأسيوط انتهت بتعادل الفريقين ، فإذا بالدكتور محجوب يعلل سبب عدم انتصارنا بغياى عن الفريق ، وإذا بالزملاء يتخذون ذلك مادة للتهرىج .

وفي المساء دعينا إلى منزل أحد باشوات أسيوط لتناول العشاء ، وكانت الموائد عامرة بالخراف المشوية والديوك الرومية والحمام وما لذ وطاب من الأطعمة وألوان الحلوى والفواكه . وجلسنا نأكل مع أعيان أسيوط ، وفي ركن من المائدة جلس الباشا يتناول بعض لقيمات من قديد الخبز والجبنة القريش ، ونظرت نحوه في إشفاق وإذا بخاطر يطوف بي : ما قيمة ما يملكه من حطام الدنيا ما دام قد حرم من الطيبات ؟! وفي الليل ركبنا قطار الصعيد واندفعت إلى ديوان لعلى أستطيع أن أنام بعد يوم كله تعب واستقبالات واحتفالات ، وإذا بكبار لاعبي المنتخب وكانوا من كبار لاعبي الأندية يدخلون ثم يتأهبون للعب الورق ، فالتفت إليهم في استعطاف وقلت لهم : — عايز استريح .. عايز انام .

فأشاروا إلى رف الحقائق العلوى وقالوا : — اطلع نام .



وصعدت ونمت فوق الرف ولم يستقر لى جنب طوال الليل ، كنت كأنما أتقلب على جمر ، فالشبك الحديد الذى صنع منه الرف كان يؤلمنى ، ولولا شدة التعب ما غفوت لحظة .

وعند الفجر رأيت أن أهبط إلى حيث كان الزملاء ، وكانوا لا يزالون غارقين فى لعب القمار . فجلست أفرس فى وجوههم الذابلة وأنا أعجب كيف استطاعوا أن يصلوا النهار بالليل بعد ما لعبوا وأكلوا وشربوا ما شربوه فى حانات أسيوط المتواضعة ؟!

وفى الصباح انطلقت إلى دارنا وقد تورم وجهى ولفائف الشاش قد اتسخت ، فلما اقتربت من البيت خفق قلبى رهبة . كنت أخشى ما سوف ينزل على من تقرع من أبى . وتقدمت فى وجل أطرق باب شقتنا فى رفق ، فإذا بأبى يفتح لى الباب ويتفرس فى قليلا ثم يفسح لى الطريق دون أن ينبس بكلمة ، وجاءت أمى فلما رأت لفايف الشاش وقد تغير لونها قالت فى هدوء :

— خش اغسل وشك وغير الشاش الوسخ ده .
ودخلت الحمام وأنا أتنفس الصعداء حمدا .

٨٢

كانت اللافتات تملأ شوارع القاهرة فوزارة على ماهر باشا قد فتحت باب الترشيح للانتخابات ، وكانت حوائط الدور قد شوهدت بالمصقات وبالخطوط التى تدعو إلى انتخاب فلان أو علان ، وطافت فى الشوارع سيارات قد غصت بأنصار المرشحين تهتف بحياة المرشح وتدعو الناس إلى انتخاب « ابن الدائرة » . ونصبت فى الدوائر سرادقات تلقى فيها الخطب تأييدا لمرشح الوفد أو مرشح الأحرار الدستوريين أو مرشح الحزب الوطنى ، أما حزب الشعب فقد انفرط عقده بعد أن استقال صدقى باشا وأقيل عبد الفتاح يحيى باشا الذى خلف صدقى باشا فى رئاسة الوزارة ورئاسة حزب الشعب ؛ فقد أوفدت إنجلترا موظفا إسرائيليا بوزارة الخارجية البريطانية اسمه

مستر بترسون كنائب لمدوبها السامى فى مصر « السير برسى لورين » ، الذى اختلف مع حكومته فى تنفيذ تعليمات صدرت إليه .

كلف برسى لورين بالقيام بالإجازة ، وجاء مستر بترسون وذهب إلى السراى وبلغ المسئولين تبليغا شفويا يفضى بوجوب إقالة عبد الفتاح يحيى باشا . فاستقال عبد الفتاح يحيى وقد أثبت فى وثيقة استقالته : « أبلغت رغبات الحكومة البريطانية ولا يسعنى قبولها دون التفريط فى حقوق البلاد » .

كان التطاحن على كراسى الحكم رهيبا ، وكان الناس جميعا يتوقعون فوز حزب الوفد بالأغلبية إذا ما صدق فعل على ماهر وزير الداخلية قوله وكانت الانتخابات حرة .

ووجد أخى أحمد فى السراى الدقات المنبثة فى كل مكان منفسا لهوايته . كان يكتب زجلا رقيقا فيه خفة روح ، فكان يلقي ما ينظمه فى السراى الدقات فصار سمة من سمات الانتخابات ، وما كان سراى من سراى الدقات باب الشعرية إلا ويسعد بوجوده بين فطاحل رجال السياسة والخطباء والشعراء .

كان الناس مشغولين بالانتخابات وكنت مشغولا بالاستذكار فالامتحان على الأبواب . وبينما كنت واقفا على رصيف الترام أنتظر إذا بفتاة اللبسية تحدث إحدى صواحبها بصوت عال وتقول إنها ذاهبة إلى سيدى بشر عقب الانتهاء من امتحانها ، ففطنت أن ذلك تبليغ لى وأنها دعوة لألحق بها .

وقد كان . فما انتهيت من الامتحان حتى كنت أنا وأخى محمد فى طريقنا إلى الإسكندرية . كانت جميع المجلات قد أفاضت فى الكتابة عن شواطئ استانلى ، وقد ألقت المنولوجات والأغاني الخفيفة عن الشاطئ الجديد . فلما وصلنا إلى محطة سيد بشر كان أول ما فعلناه أن ذهبنا لمشاهد الحدث الجديد الذى أجرى الأقلام بالتغنى بعروس البحر الأبيض .

وقفنا على الكورنيش ننظر إلى طبقات « الكبائن » فى دهش وإعجاب ، وإلى المظلات التى كادت أن تتعاقب على الشاطئ فى زهول ، فما كان للإسكندرية من قبل مثل هذه الروعة وهذا الجمال . وما كان لنا إلا أن ننظر من بعيد فالشاطئ قد خصص

لأصحاب الكبائن ، وما حصل على كايينة إلا صاحب نفوذ وصاحب مال .
وانسحبنا إلى شاطئ سیدی بشر ، وسرعان ما خلعت ملابسی ولبست المايوه
ونزلت إلى الماء . وما كدت أشق طريقى حتى رأيتها بجسمها الممتلئ البض ؛ كانت
تعم مسافة قليلة ثم تقف منتصبة على قدميها وهى تهلل وتضحك فى فرح أشبه بفرح
الأطفال .

واقتربت منها والتقت عيناى بعينيها ، وقبل أن ألقى عليها التحية وقعت عيناى على
صدرها العارى . إن ثديها يكادان أن يفرا من عقالمها ، فإذا بالابتسامة التى كادت
أن تولد تموت على شفتى ، وإذا بإحساس غريب يملكنى . أهى الغيرة ؟ ربما فالغيرة
دليل الحب .

وخرجت من الماء وتناولت منشفة راحت تجفف بها جسمها . كان ساقاها
متسقتين وكانت أردافها ممتلئة ، وإذا بسؤال يثور فى نفسى : ماذا بقى لأراه مما لم يره
الناس ؟ وإذا بعقلي يحاول أن يخفف عنى مرارة السؤال ؛ إن الإنسان بين جوانحي الذى
حاول أن يتحضر وأن يجارى العصر الذى يعيش فيه أراد أن يقبل ذلك الواقع . ولكن
نشأتى وبيئتى بكل تقاليدها تمردت على وإذا بى أصبح فريسة لصراع مرير .

وفى الليل حاولت أن أنام ولكن صدرها العارى الممتلئ أطار النوم من عيني . لم
أكن لأفكر فيه متشهيأ بل كنت كالغاضب المحموم ، فرحت أثقلب فى الفراش وصور
جسدها تطرق رأسى طرقاً يخز روحى وخزلاً لا أستطيع أن أتوقاه .

وتذكرت صورة لفورتييه كانت ضمن مجموعة صور لمصور فوتوغرافى بشارع
محمد على . إن تلك الصورة قد عكرت صفو حياتى مدة لأن الأخدود الذى بين نهديها
قد ظهر عارياً فى الصورة ، وراح عقلى يعقد المقارنات بين فتاة الليسيه وبين فورتييه ،
فزاد ذلك فى إيلاى النفسى حتى كدت أحس وجدانى يدمى .

وفى الصباح رأيتها تتحدث بالفرنسية مع بعض صديقاتها ، إنها حلوة رقيقة ولم
تكن وحدها التى ترتدى المايوه على الشاطئ . وقبل أن تصفو نفسى إذا بذلك الخشن
النافر القابع فى أغوارى يقول فى سخرية :

— أتريد زوجة لك وحدك أم تريد مضيعة لبقة فى طائفة الحياة ؟ !

وبدأت أفكار الرفض تترادف على رأسي . ماذا يفعل من كان مثلي بزوجة تجيد لقاء أصدقائي وتكون زهرة في أي حفل من الحفلات ؟ إنني لن أكون أكثر من تاجر ليس في حاجة إلى زوجة تأخذ بيده في مجتمع بدأت المرأة تلعب فيه دوراها ما قد يدفع بزوجها إلى أعلى الدرجات ، فما كان في أسرتنا كلها من طرق أبواب وظائف الدولة ، وما خطر لي على قلب أنني سأكون من كبار الموظفين أو من صغارهم . وعلى رمال الشاطئ أخذت قرارى . إننى سأستجيب إلى رغبات جدتى وسأتزوج ابنة عمى من نشأت في مثل بيتى وإن لم تتح لها الظروف أن تواصل تعليمها . فليست في حاجة إلى زوجة لبقة تحسن استقبال أصدقائي ؛ فما كان أحد من أصدقائي في تلك الأيام ليجرؤ أن يطأ عتبة باب بيتنا ، فالبيت لنا والسلامك للجميع .

٨٣

كانت جدتى أكثر أهل البيت فرحا بقرارى ، فقد نجحت أخيرا في أن تربط بين ولديها برباط المصاهرة . وما أسرع أن أوفدت رسولا إلى بيت عمى يزف إليهم نبأ مقدمى أنا وأبى لنقدم الشبكة لابنة عمى التى كانت لم تبلغ السادسة عشرة . كانت نتيجة الامتحان لم تظهر بعد ولكننى كنت واثقا من نجاحى . إنها سنة واحدة ثم أخرج وبعدها أتزوج . كان هذا هو تقديرى ولكن الظروف كانت تعمل على تعجيل ذلك الزواج ، فابن عمى البكر كان يسخر من أبيه لأنه كان يسمح لى أن أخرج مع ابنة عمى التى خطبتها قبل أن يتم العقد ، وكثرت تهكمات عجائز الأسرة . وحدث أن مات الملك فؤاد وتقرر أن يسير موكب جنازته في شارع محمد على في طريقه إلى جامع الرفاعى حيث يقبر هناك . ولما كان أبى يملك بيتا في نفس الشارع ، ولما كانت أمى وزوجات إخوتى قد عزمنا على الذهاب إلى هناك لمشاهدة الجنازة الملكية ، فقد ذهبت إلى بيت عمى وأخذت خطيبتى وانطلقنا لنلحق بهن . ووقفت خطيبتى مع أمى وزوجات إخوتى في شرفة ، ووقفت مع أبى وإخوتى فوق سطح البيت نرقب الموكب . فلما انتهى العرض وتفرق الناس ركبت أنا وابنة عمى مع

أبى فى سيارته التى انطلقت بنا إلى بيت عمى .

وثار ابن عمى وقال إنه يجب وضع حد لذلك الاستهتار . ووصلت إلينا أنباء ثورته مبالغافها كما هى العادة فرؤى التعجيل بالعقد . فما إن أتمت ابنة عمى السادسة عشرة حتى كان المأذون يضع يدى فى يد عمى ليعقد بينى وبين ابنته ، وما كاد المأذون ينصرف حتى راح ابن عمى يقول :

— تعالوا يا ناس شوفوا الى انكتب كتابها وفاضل عشر تيام على ما يبقى عندها ستاشر سنة !

كان ابن عمى على الرغم من أنه رجل كبير يحب المشاكسة ، فلا أذكر أننى رأيته أبدا موافقا على رأى يديه آخر . إنه كىاد بطبعه لكأنما يسره أن يرى الآخرين يتمزقون غيظا ، أو يستشعر سعادة على قدر ما يسبب للآخرين من نكد . ولولا أننى كنت خبيرا به لحسبت أنه يريد لأخته زوجا أفضل منى .

ولم تسلم مسألة زواجى من الاستفهام والتعجب فما أكثر القائلىن : كيف قبل عمى أن يزوج ابنته من تلميذ ؟ وما أكثر المتعجبين من تلميذ ليست فى يده شهادة أو صنعة يقبل فى جرأة على الزواج ؟ وكانت الإجابة التى تخرس كل الألسنة :

— البركة فى الحاج جوده .

وفى يوم كنت فيه فى زيارة بيت عمى ، أو بالأحرى زوجتى التى فى بيت عمى ، قال لى عمى :

— أنا ماليش فى الجهاز يا بنى ، اختار الى انت عايزه وانا احاسب والدك . كانت الشقة التى تزوج فيها أخى سعيد خالية ؛ إنها فى الدور الخامس أمامها السطح . وما كنت فى ذلك الوقت أحسب حسابا لعدد السلام فرحت أزيها ؛ أشتري ورق الحائط من دكاكين شارع الأزهر وأورق كل الغرف ، وكانت الغرفة تتكلف ورقا ولصقا ما بين ستين وثمانين قرشا ، وإنه لمبلغ لو تعلمون عظيم ! ورأيت أن أوسس الشقة وأجهزها حتى إذا ما حصلت على شهادتى العليا كونت عشا هادئا ، وما كنت أطمع فى دنياى بأكثر من حياة بسيطة لا ترف فيها ولا آمال عريضة . وكان أول ما تعاقدت على صنعه مع صانع الموبيليا غرفة المكتب ، لماذا غرفة

المكتب بالذات ؟ لست أدري . كل ما أستطيع أن أقوله بعد أكثر من ستة وثلاثين سنة من تاريخ تعاقدى على غرفة المكتب التى أكتب فيها الآن ، أننا لا نخطط طريق مستقبلنا بل هناك قوة عليا تدفعنا دفعا إلى السبيل .

وانتهيت من تأسيس أربع غرف وصالة ، وكانت أمى تقول لى وهى تبتسم :
— ما شفتش طول عمرى عريس بجح زيك .

وخرجت مع أوى لصلاة العصر فى السيدة زينب ، وبعد أن قضيت الصلاة خرجنا نتجول على الأقدام فى حى السيدة انتظار لأذان العشاء ، وفيما نحن نتحاور قال لى أوى :

— الشقة جهزت . مستنى إيه ؟

— لما أخلص المدرسة ، كلها سنة .

— ستك كبرت والأعمار بيد الله ، إن لا قدر الله حصل لها حاجة ، انت عارف العيلة وتقاليدها ح تستنى سنه . من عارف فى السنه دى ح يحصل إيه ؟
— لما اخلص السنة اللى فاضلة .

— يعنى لما ح تاخد الشهادة ح تتوظف ؟! وان اتوظفت ح تاخد كام ؟

وأقنعنى أوى بأن خير البر عاجله . وما كان أوى ليشغل باله برزقنا ؛ إنه يؤمن إيماننا

لا يتزعزع بأن فى السماء رزقكم وما توعدون .

وفى حفل بسيط تم زواجى ، وحاول نساء الأسرة أن نحى الليلة « عالمة » ولكنى

أبيت ، فلما وافت الساعة العاشرة مساء قاذ بعض النسوة العروس إلى شقتنا ليزينها ،

فما كان منى إلا أن دخلت وطلبت من الجميع أن ينصرفن إلا زوجتى طبعاً ، وما

غادرن باب الشقة حتى أغلقته بالمزلاج .

وكانت أول ليلة فى حياتى الزوجية .

تزوجت في الإجازة الصيفية في شهر يوليو من عام ١٩٣٦ على التحديد ، فكنت لا أغادر شقتي إلا لصلاة الجمعة أو لأشارك جدتي ونساء البيت جلستهن الليلية ساعة أو بعض ساعة مجاملة لأهل البيت . وسرعان ما أصعد إلى شقتي لا أغادرها حتى ليلة اليوم التالي . وما كنت أذهب إلى السلامك ، وما كنت أقرأ الصحف ، فانقطعت كل صلة بيني وبين العالم الخارج عن عشي الجديد .

وفي اليوم السابع من زواجي نهضنا لتأهب لاستقبال المهنئين ، فإذا بي أفاجأ بالدموع تجري على خدي زوجتي فغاص قلبي في قدمي . أسئمت ابنة عمي الحياة الزوجية هكذا سريعا ؟! أقدر لزواجنا الإخفاق ولما يبدأ بعد ؟! فاقتربت منها وقلت لها وأنا أستشعر خوفا ورهبة :

— مالك ؟.

فقلت وهي تجهش بالبكاء :

— وحشني بيتنا ؟

لم يكن بيتهم يبعد عن بيتنا أكثر من الشارع القصير الضيق الذي يلفظ إلى شارع الأمير فاروق . الأمير فاروق ؟! إنه لم يعد أميرا إنه صار ملك البلاد بعد أن مات أبوه . إنه عاد من إنجلترا وخرج الشعب كله لتحيته . كان فتى وسيما لم يبلغ سن الرشد بعد فعين مجلس وصاية يدير شئون البلاد حتى يلع الفتى السن التي تؤهله ليرث السلطات الملكية .

أنه بهر الناس بمظهره ، وزاد في تأثيره على القلوب أنه عائد من بلاد الغرب بعد أن مات أبوه دون أن يراه . كان الرجال متفائلين به يرجون أن يكون أفضل من أبيه ، أما النساء فقد أشفقن عليه إشفاق الأمهات ، بينما أدار رعوس الفتيات حسنه حتى إن بنات اليهود كن يتغزلن في جماله من الشرفات دون حياء ، وقد وصل بإحداهن الخيال

أن قالت بصوت عال لأخرى فى بلكونة بعيدة وهى تصف لها موكبه :
— يا ريت يتجوزنى !

كان ذلك قبل أن أتزوج بشهرين ، وقد شغلت الصحف والمجلات بالحديث عن الشاب الذى عاد إلى شعبه . وكنت أقرأ كل ما يكتب عنه فى شغف واهتمام وأضع أصابعى فى أذنى إذا ما تحدث أحدهم عما كان بين مرافقيه من منازعات على تنشئته : عزيز المصرى يريد أن يقوم لمصلحة البلاد ، وأحمد حسنين يطلق له الحبل على الغارب ويطلق لشهوات الفتى العنان ليحوز على رضاه لمصلحة ذاتية وإن تعارضت تلك المصلحة مع مصلحة البلاد . كنت أشيح بعواطفى عن مثل ذلك الكلام حقا ، فقد كنت لا أصدق فى شبابى أن هناك من يفسد ملكا ليقوده بعد ذلك كيفما يشاء ؟! وتزوجت ولم أعد أهتم بالصحف والمجلات إلى حين ، وشغلت فى اليوم السابع من زواجى بتلك التى أوحشها بيتها فرحت أبذل كل ما فى طاقتى لأحول حنينها إلى بيت أهلها إلى حب لبيتها الجديد ، وأظن أننى نجحت فى ذلك فما ذرفت دمعة بعد ذلك على دارها التى غادرتها .

وانقضت الأيام ومضى الشهر الأول ، وما استطعت أن أنفق خلاله أنا وزوجتى ثلاثة جنيهات . كنا نعيش فى بحبوحة من العيش لا نأكل إلا حماما مشويا أو لحم الضأن ، وما كنا نعتمد فى شىء على الخيرات التى كانت فى شقة أبى فقد كان كل منا أنا وإخوتى يحيا حياة مستقلة ، ينفق كيفما يشاء ويشتري ما يشاء .

كان زوج الحمام بأربعة قروش ، وكان رطل اللحم الضأن بثلاثة قروش ونصف القرش ، وكنا نشترى عشر بيضات بقرش صاغ ، وقد ذكرت لى زوجتى ذات ليلة أن جاراهم قد عاد من إنجلترا بعد أن تزوج إنجليزية وأنجب منها طفلة ، وأنه كلما قُدم إلى الطفلة بيضتان أو ثلاث تفزع الزوجة الإنجليزية لأن سعر البيضة عندهم قرشان ، فهى تحسب أن ابنتها تأكل كل يوم بستة قروش بيضا ، أى أنها تأكل فى الشهر بيضا يكفى ثمنه للإنتفاق على غذاء أسرة لشهر كامل . ولا غرو فقد كنا نشترى بنصف القرش ما نحتاج إليه من خضر ، وأما مكونات السلطة الخضراء فقد كنا نحصل عليها بلا مقابل فهى هدية من الخضرى ما دمنا من زبائنه !.

كانت الحياة سهلة ميسورة فما كنا نستشعر خوفا من المستقبل وما كنا نلمس حقد طبقة على طبقة . ترى أكان ذلك كذلك أم أنني كنت أرى الدنيا من خلال عيشة مستقرة ؟ إننى فى لحظات تأملى كنت أتذكر ذلك التلميذ الذى كان معى فى الفصل وطرد من المدرسة لأن أهله لم يستطيعوا أن يسددوا للحكومة المصاريف ، وكانت ستة جنيهات !

كانت دنيائى حتى ذلك الوقت لا تتعدى البيت وملاعب الكرة والمدارس التى تعلمت فيها ودور السينما والسلامك ؛ فلم أكن قد شاهدت من مآسى الحياة إلا تلك التى كانت تقع فى أسرتى أو فى حيننا أو لأحد من زملاء الدراسة . وكان الموت هو مأساة أسرتى فكنت منذ نعومة أظفارى أتأهب لاستقباله ، فكان هو الباعث الأول لكل تصرف من تصرفاتى وكان ما سواه مما يقع للأفراد فى دنياهم يحركنى إلى حين . ولولا أن دينى الذى أؤمن به يحض المؤمنين على السعى والعمل لا عتكفت وأعرضت عن الدنيا ، وما كنت أول من فعل ذلك فى أسرتى فما أكثر من أعرض منهم عنها ! وانقضت الإجازة الصيفية وتأهبت للذهاب إلى المدرسة . إنها لم تعد مدرسة عليا بل ضمت إلى كليات جامعة فؤاد الأول وأصبحت كلية التجارة . وسنكون أنا وزملائى أول دفعة تحصل على البكالوريوس منها .

٨٥

كانت جدتى تشغل بال أى فبات يفكر فى بناء مدفن جديد ؛ لأن مدفن الأسرة الذى يقع خلف الزلاقة فى حى الحسينية قد غص بالأموات وأضحى ملكا لكل فرد من نسل جدى الأكبر ، فصار مشوى للأجيال .

كان أبى يريد أن يكون له ولذريته من بعده قبر غير تلك القبور التى يتجمع عندها فى المواسم رجال ونساء وإن كانوا يحملون اسم الأسرة ؛ إلا أن بعضهم أصبح لا يكاد يعرف الآخر .

وراح أبى يبحث عن قطعة أرض يبنى عليها المدفن الجديد ، فجعل يبحث فى نفس

المنطقة التي يقع فيها مدفن الأسرة لأنها قرية من مسكنتنا ، ومن عادة أسرتنا أن تكون منازل آخرتها على بعد خطوات من منازل دنياها . ولو كانت الدولة تسمح بإقامة مقابر في الدور كما كان الحال لدى البابليين لكانت أفنية دور أسرتنا مدافن فاخرة لا تغادرها أبدا نسوة لا يعرفن وسيلة من وسائل التسلية والترفية غير الجلوس عند المقابر وترجية الوقت في نتف وبر الأقارب والأبعاد .

واشترى أبى قطعة أرض في جبل يطل على شارع ضيق يخترق القبور يربط ما بين باب النصر وبوابة الحسينية أو كان يربط بينهما ، فقد أزيلت بوابة الحسينية بعد أن اتسع العمران وامتدت المباني إلى العباسية ، وهدم سبيل أم عباس وأعيد تخطيط ميدان الحسينية الذى صار فيما بعد ميدان فاروق .

سبيل أم عباس ؟! يا للذكريات ! فلطالما سعدنا أنا وأخوای أحمد وسعيد ثلاث درجات لنشرب منه ، نفترق من مائه من الطاسات النحاسية التي ربطت بسلاسل شدت إلى أعمدة السبيل التي كانت تحجز بين حوض الماء وبين الناس ولا تسمح إلا بدخول الطاسات فارغة وخروجها بماء عذب فرات لذة للشاربين .

أم عباس ؟! إننى وأنا صغير كنت أعجب كيف أن أم عباس الندابة قد استطاعت أن تبني ذلك السبيل ! فلما بعدت عن دائرة تأثير أم عباس الندابة واتسعت مداركى عرفت أن التي بنت السبيل هي أم الخديوى عباس أم المحسنين !

كانت قطعة الجبل التي اشتراها أبى على بعد يسير من السبيل ، فأمسى حديث الليل فى السلامك كيف ينقل الجبل وتمهد الأرض للمشروع فى البناء . وجاء إلينا رجال آخرون غير السمار الذين اعتادوا أن يأتوا كل ليلة ؛ كانوا يتحدثون عن الأسعار التي يقبلونها لنقل متر التراب والحجارة . وانتهت المشاورات بأن أسندت العملية إلى أحدهم .

و كنت أذهب بين الحين والحين مع أبى لنباشر العمل ؛ إن أكوام التراب تختفى فى المقاطف فى بطون العربات التي تحولت إلى صناديق ، وراح الجبل ينهار وينكمش تحت ضربات السواعد القوية ، وتلقنت درسا عمليا : إن العزم والتصميم والإرادة قادرة على قهر الجبال .

وكان أبى قد هدم الدكان وأعاد بناءه وأدخل فيه دكان العم سيد الدخاخنى وبنى فوقه بيتا صغيرا ، وكان الذين قاموا بالبناء وأعمال النجارة والبياض هم نفس الرجال الذين بنوا بيتنا فى شارع سكة الظاهر . ولما كان أبى محافظا فى كل شىء فقد أسند بناء المدفن إلى نفس البنائين والنجارين ؛ ومن عجب أن كل ما قام به أبى من تشييد لم يصممه مهندس معمارى بل كان من تصميم رجال يرتدون جلابيب داكنة وعمامات ، قلما يستعملون المتر فى القياس وغالبا ما يلجئون إلى الفتحة بين القدمين وما اكتسبوا من خبرة على مر الأيام .

وقد صرت لا أخرج مع أبى فى جولاته وطوافه على المساجد بعد الزواج واقتصر خروجى معه على يوم الجمعة . وفى ذات مساء بينما كنا نتجول فى حى السيدة إذ راح أبى يحدثنى ويقول إنه يريد أن يترك الدكان لمحمد وأحمد وأن يستريح فدخله من إيجارات البيوت يزيد على المائة جنيه وهو يكفيننا وزيادة .

كان مرتب الوزير فى ذلك الوقت لا يزيد كثيرا على هذا الدخل . إنه دخل يضمن لصاحبه حياة مستقرة . ولكن هل يستطيع أبى حقا أن يستريح وهو الذى اعتاد أن يكون حركة دائبة ؟ ويستريح من ماذا ولماذا ؟ إنه لم يبلغ الثانية والخمسين بعد وإنه موفور النشاط .

وألقيت إليه سمعى دون أن أنبس بكلمة ، واستمر فى حديثه فقال لى إن هناك مصنعا للصابون فى الجمالية يريد أصحابه أن يبيعوه ، وإنه ينتظر حتى إذا ما تخرجت فى الجامعة ليشتريه لى . فلما قلت له إننى لا أعرف شيئا عن صناعة الصابون قال لى فى بساطة : — خليها على الله .. ح اقف معاك لغاية ما تعرف كل حاجة .

وارتفع صوت المؤذن يؤذن بالعشاء فأسرعنا إلى المسجد لنصلى مع الناس .

كنت رئيس فريق الكرة بالكلية ، وفي العادة أن يكون الكابتن أقدم لاعب في الفريق ، ولكنني لم أكن كذلك . فبعد أن لعبت سنة واحدة للفريق التفت حولي اللاعبون وطالبوا بأن تكون الرئاسة بالانتخاب .

راح المشرف على الفريق يحاول إقناع المتمردين بأن ما يلتمسونه لم تجربه عادة في أى مكان ، فتقاليد الكرة تحدد طريقة اختيار الكابتن . كان كلامه منطقيا يتفق مع العرف السائد في كل فرق الأندية والمدارس والمعاهد والكليات ولكن اللاعبين أصروا على مطلبهم وأعرضوا عن صوت المنطق والعرف والتقاليد . وتعب الرجل من الحوار فنزل على حكم أبنائه وقبل أن تجرى الانتخابات بينى وبين أقدم لاعب في الفريق . وبدئ في توزيع الأوراق للتصويت فانزويت بعيدا وأنا أحس خجلا وإشفاقا على الزميل صاحب الحق الطبيعي . إننى وقفت بكل ما أملك من منطق إلى جوار المشرف وهو يسوق حججه القوية ، إلا أن زملاء نحوى بعيدا زاعمين أنه لا يجوز لى أن أدلى برأى في موضوع شخصى !

وتم فرز الأصوات وإن كانت النتيجة معروفة قبل إعلانها ، فقد حصلت على الأصوات كلها ما عدا صوت الزميل الذى سلبت منه حقه . لماذا قبل الزميل مبدأ إجراء انتخابات ليس لها سند من قانون أو عرف ؟ لست أدرى . لماذا لم ينسحب قبل الانتخاب وأنسحب بعده ؟ هل استجاب لصوت العقل ؟ ومتى قادنا العقل المتزن إلى نتيجة طيبة في دنيا تتحكم القوى فيها وتجننى المغامرات ثمرة طيشها ؟!

وصرت بعد سنة واحدة لعبتها لمدرستى كابتن فريقها والممثل لها في اللجنة الرياضية لاتحاد الجامعات والمدارس العليا ، فأتيحت لى فرصة العمل مع المسؤولين عن الرياضة في الجامعة وكانوا جميعا يعرفوننى مذ كنت لاعبا في المدارس الثانوية . ذهبت إلى الكلية في بداية العام الدراسي الرابع والأخير ، فلما عرف أعضاء الفريق

أنى تزوجت فى الإجازة دون أن أدعو أحدا منهم أصروا على أن أعد لهم وليمة ، فدعوتهم للغداء وحددت لذلك يوما ، فراح كل من فى البيت يعاون زوجتى لإعداد طعام لفريق الكرة والأستاذ المشرف وبعض الأساتذة من مشجعى الفريق .

كانت أمى تقوم بإعداد الفطير وإرساله على صاجات إلى الفرن ؛ وفى شقة أخى محمد أعد السمك ؛ وفى شقة أخى أحمد أعدت بعض ألوان من الحلوى ؛ وقامت زوجة أخى سعيد بتجهيز اللحوم ؛ واهتمت زوجتى بالحمام والدجاج . وفى اليوم الموعد كان أعضاء الفريق وبعض الأساتذة يهرولون فى الدرج وهم يسرون إلى السماء فقد كانت شقتى فى الدور الخامس .

واستراحوا قليلا فى غرفة الاستقبال وقمت لألقى نظرة أخيرة على المائدة فإذا بها عامرة بالفطائر واللحوم والطيور والأسماك والتفاح والموز وألوان من الحلوى ، فعدت إلى الصحاب أدعوهم للغداء .

وأكلوا وتبادلوا النكات وضحكوا وجلجلت ضحكاتهم فى أرجاء البيت ، وبعد أن شربوا القهوة والشاى انصرفوا وهم يهتئوننى ويطلبون منى أن أبلغ تهانيمهم وشكرهم للعروس ، فما كان النسوة فى بيتنا يظهرن أبدا أمام الغرباء .

وجاء كل من فى البيت ليعاونوا زوجتى على رفع أنقاض الوليمة وغسل الصحاف وإعادة تنسيق الشقة . وكانت وليمة يشيد بها الزملاء كلفتنى مائة وخمسين قرشا ، نصف ما أنفقه فى شهر !

ولم أعد أهتم بالتدريب على لعب الكرة بعد أن تزوجت ، وكان ذلك يضايق أخى محمد فقد اندمج فى أوساط الأندية وكان يحب أن يرانى لاعبا فى فريق الترسانة أو المختلط ، إلا أنى زهدت فى الكرة وفى الأندية وفى ألاعب المشرفين عليها .

وتقرر إقامة مباراة بين منتخب الجامعة ومنتخب البوليس والحربية ورشحت قلب هجوم للمنتخب ، ولا أدرى لماذا رشحت وقد زاد وزنى وبرزت كرشى . وأقيمت المباراة وأحرز منتخب البوليس والحربية هدفه الأول ، فأشعل ذلك حماسنا وهجمنا وشددنا الهجوم وإذا بكرة ترفع من الجناح الأيمن لتصل إلى وأنا فى حلق المرمى . لم يكن الأمر يحتاج منى إلا أن أسند الكرة بصدرى لنحرز هدف التعادل ، ولكننى أردت أن

أمزق الشبكة فاستقبلت الكرة بقدمي اليمنى فإذا بها تمر من فوق العارضة .
وانتهت المباراة بفوز منتخب البوليس والحربية . وبعد أن أطلقت صفارة الانتهاء
جاء إلى لاعب دولي قديم وقال لي إنه على ابتعداد لأن يدفع لي عشرة جنيهات إن
استطعت مرة أخرى أن أستقبل الكرة التي رفعت من الجناح الأيمن ووصلت إلى وأنا
في حلق المرمى وأبعدها عن الهدف !

ومرت شهور وأعلن أن منتخب الجامعة في كرة القدم سيشارك في دورة باريس
وأنتى رشحت للسفر . فعزمت على أن أتدرب حتى لا أضيع هذه الفرصة فما كنت
أحلم أن ستتاح لي رؤية باريس في يوم من الأيام .

وقامت عقبة فموعد السفر هو موعد عقد امتحان البكالوريوس . وفكرت ولم
يطل تفكيري فقد عزمت على السفر وأن أوجل دخول الامتحان إلى الدور الثاني .
فالسفر إلى باريس يستحق تأجيل الامتحان من مايو إلى سبتمبر .

وخطر لي خاطر : هل يرضى أبى عن ذلك ؟ وقررت أن أطوى سرى في صدرى
حتى إذا ما حان موعد السفر وضعت أهلى أمام الأمر الواقع . إنها لحظات عتاب ثم
أكون بعدها في باريس مدينة النور .

٨٧

كان أبى يذهب إلى المتجر في الصباح ويعود عند الظهر إلى البيت ليتناول غداءه
ويستريح قليلا حتى إذا ما صلى العصر خرج ثانية إلى المتجر ، وقبل أن يؤذن المؤذن
للعشاء يعود هو وأخوإى محمد وأحمد . وكنت قبيل الظهر أقف في الشرفة أرقب
الطريق ، فإذا ما لمحته قادمًا يحمل بعض الطيبات هبطت في الدرج مسرعا لأستقبله في
الشارع وأحمل عنه ما يحمله وأسير إلى جواره متهللا الفرح ، فقد كنت أسعد بالقرب
منه وأستشعر نشوة كلما جرى بيننا حديث .

كان ذلك قبل أن أتزوج ، أما وقد تزوجت وانشغلت بالذاكرة فقد كنت أهبط
لأشارك سمار السلامك بعض سهرتهم ولأطفيء شوقى إلى أبى فما عديت ~~لأشرككم في~~



الغداء والعشاء .

وكان زميل الدراسة صلاح يأتي كل يوم لنستذكر دروسنا معا ، فكانت زوجتي تنزل إلى حيث يجتمع نساء الأسرة عند جدتي ؛ فكنيت إذا ما انتهيت من المذاكرة ذهبت إلى شقة جدتي وشاركت من هناك في جلستهم حتى إذا ما انصرف أبى إلى شقيقته انطلقت أنا وزوجتي نخرج في الدرج حتى الدور الخامس .

كان من حسن حظي أنني تزوجت وأنا طالب ، فزوجتي منذ أن دخلت بيتي قد ألفت أن أدخل مكتبي أقضي فيه الساعات وقد أغلقت على نفسي الباب ، فلم تشعر بغيره من مكتبي ، ولم تشك في أنني أتركها وحدها وألوذ بمكتبي ، وأوراقى ، ولم ترفى ذلك اعتداء على حقوقها ولم تهمنى بالأنانية كما حدث لبعض زملائي الكتاب ، فزوجتي لا تزال تعتقد حتى الآن أنني لا أزال أذاكر وأن مذاكرتي لن تنتهى حتى أحصل على شهادة الوفاة .

و ذات يوم لاحظت أسمى يكسو وجه أمى فأردت أن أعرف السبب ، فإذا بى أكتشف أن أبى يشكو من أنه بات يحس كآبة ويضيق صدره كلما اقترب من بيتنا . أمسى البيت بغیضا فى عينیه . وشغلنا كلنا بحالة أبى وراح كل من يحتكون به يقترحون علاجا . وكانت جدتي قلقة ف راحت تقول لأبى :
— إذا كان البيت يضايقك سبيه .

وتناثرت أقاويل من كل جانب : « البيت اتحسد » . « اتعمله عمل » . وصار البخور يعبق فى أرجاء البيت . ولم يطرأ أى تحسن على أبى فكان القرار الأخير أن نترك البيت إلى بيت آخر .

ووجد أبى بيتا خاليا فى شارع السرجانى بالعباسية الشرقية وقد نزع صاحبه السلام الرخام وباعها ، فأجره أبى على أن يصلحه ويركب له سلام جديدة . وراح العمال يعملون فى تقسيم الشقق الواسعة إلى شقق تتسع لأبى وإخوتي محمد وأحمد وسعيد وجدتي .

وأعد البيت الجديد لاستقبال الأسرة فإذا بكل من فى بيتنا ينتقلون إليه . ولم يطق عمى حنفى البعد عن أبى فأجر شقة تطل على السكن الجديد ، وبقيت وحدى فى بيتنا

القديم الذى أصبح خاليا إلا منى ومن زوجتى .
وما كان أبى ليتركنى بعيدا عنه فراح يبنى لى شقة فوق البيت الذى اكتراه وراح
يكسو حيطانها بالورق إكراما لى . وفى أثناء تجهيز الشقة أصبت بأنقلونزا فأرسل إلى
السيارة وحملنى أنا وزوجتى إلى شقته وأصر أن أبقى ضيفا عنده إلى أن أبرأ .
ومرت الأيام وانتقلت إلى الشقة الجديدة وسرعان ما سرى فى الحى قصة الطالب
المتزوج . فكنت إذا ما خرجت أنا وزوجتى أو عدنا سيرا على الأقدام كانت الشبايك
تفتح ويطل النسوة والفتيات علينا كأنما كنا شيئا عجيبا . فإن كانت شهرتى قد أفلت
أو كادت فى ملاعب الكرة فقد تألفت فى شارع الجزورى والعباسية الشرقية !
وجاء الشتاء وانهمرت الأمطار غزيرة ؛ فاستيقظنا على صوت الرعد الذى كان
يزجر كطلقات مدافع متتالية ، فما إن نزلنا من فوق السرير ولمست أرجلنا الأرض
حتى انتابنا فرح . كانت غرفة النوم أشبه ببركة ماء ، فهرولت زوجى إلى غرفة
الصالون فإذا بالسجاجيد تطفو فوق الماء . ولحقت بها فرأيت السقف كالمصفاة
والورق المزخرف قد نفر من الحائط وتدلى كأنما قد تأهب ليقفز ليشارك فى السباحة .
كادت الدموع تطفو من عيني زوجتى فهى تهتم اهتماما خاصا بالأثاث لا لتحمل أن
ترى فيه خدشا ، ولكن لم يكن هناك وقت للبكاء فقد راحت تحاول أن تنتشل
السجاجيد وأن تنقذ ما يمكن إنقاذه . ولولا أن أهل البيت جميعا قد هرعوا إلينا
ليساعدونا فى نزع الماء وفى تغطية الفراش والأثاث بملاءات لانهارت زوجتى من التعب
والغيظ والكمد .

وصفت السماء وصعد أبى ووعد بإصلاح كل ما أصابه التلف ، وما إن خرج
حتى أرسل من يغطى سطح شقتنا بالبلاط . ولم تسترح زوجتى لكل ذلك فمعنى
الإصلاح أن نستمر فى تلك الشقة التى ما كانت تصل إلى فخامة الشقة التى تركناها .
وراحت الأيام تترادف وإذا بخبر إلغاء مباريات الكرة فى دورة باريس يصل إلينا ،
فاختلطت على مشاعرى لا أدري أحزن أم أفرح . ولما كنت قد روضت نفسى على
قبول الواقع فسرعان ما رددت إلى طبعى ورأيت فيما حدث مصلحة حقيقية لى . لم
يشأ الله أن أضيع مستقبلى بيدي فلن أوجل دخولى لامتحان البكالوريوس ، وقد

علمتني الأيام أن ما يختاره الله لي خير مما أختاره لنفسى . كنت قد صممت على السفر مع منتخب المدارس الثانوية إلى فلسطين وتأجيل امتحان البكالوريا ولكن اختاروا غيرى في آخر لحظة من لاعبي الأندية من غير طلبة المدارس الثانوية لأجتاز عقبة البكالوريا ، وكنت قد رتبت حياتى على الالتحاق بمدرسة البوليس ولكن الله قد اختار لي طريقا آخر ، فسقط الرجل الذى كان قد اختارني مريضا يوم كشف الهيئة لأتجه وجهة أخرى ، نحو قبلة أخرى . وكنت قد عزمتم على السفر إلى باريس وترك امتحان البكالوريوس ، وما هي ذى كرة القدم تلغى من الدورة . إننى أحاول أن أفسد مستقبلى ولكن الله يأبى إلا أن أسير في طريقى المرسوم ، وعلمتني الأيام ألا أصرع قدرى .

٨٨

خرج الناس من البيوت إلى الحدائق فقد كان أول مايو عام ١٩٣٧ يوم شم النسيم وبقيت في غرفة مكتبى أستعد لامتحان البكالوريوس الذى لم يبق عليه إلا بضعة أيام . وانقضى النهار وعاد أبى إلى البيت فهبطت لأشاركه ليلته وأستريح من الاستذكار . قام أبى وصلى العشاء فى تؤدة ، وما انتهى منها حتى أقبل على يحادثنى . وبعد قليل استأذنت لأخرج أتمشى فى الخلاء المحيط بالحى فالجو كان خانقا ، وكنت أحس أننى فى حاجة إلى البعد عن قيود الكتب وأن أهم فى الفضاء .

وتجولت فى الطرقات أملاً صدرى بهواء ثقيل قد شلت حركته ، ولم ينجح السير فى أن يشرح صدرى فعدت إلى الدار فإذا بأبى ينتظرني فى الشرفة الواسعة التى كانت تقود إلى مدخل البيت ببضع درجات ، فما كان أبى ينام قبل أن يطمئن إلى أننا جميعا قد دلفنا إلى فرشنا . وطلب منى أن أصعد إلى شقتى من خلال شقته إلا أننى شكرته وأخبرته أننى سأصعد إليها من الباب الرئيسى .

وارتقيت فى الدرج مسرعا وأغلقت الباب خلفى وذهبت إلى السرير . وما إن وضعت رأسى على الوسادة حتى رن جرس الباب رنينا متصلا مفزعا فهبت أنا وزوجتى مرعوبين ، فهرولت وما إن فتحت الباب حتى سمعت من يصرخ فى وجهى

بأن ألى قد مات .

وانتابنى خور ودار رأسى وكدت أن أنهار ، وفى ذهول نزلت ورجلاى على وشك أن تعجزا عن حملى وأحشائى تتحرك واندفعت وأنا لا أكاد أعى شيئا مما حولى وإذا بالحقيقة تصدمنى . رأيت ألى ممددا فى فراش على الأرض وأمى تبكى أحر بكاء وجدنى قد جلست عند رأس ألى تمسح بمنديلها الدم الذى كان يسيل من فمه ونساء البيت يصرخن ، فإذا بنار تندلع فى أعماق تشوى كبدى وإذا بقوة هائلة تضغط على عنقى وإذا بى أصرخ صرخات ملتاعة وأرتمى على الأرض أضرب بلاط الشرفة التى كنا نتسامر فيها بكفى وأروى أرضها بدموعى .

نار .. نار ترعى فى كل حواسى ، سواد يجلل كل مشاعرى ، يأس قاتل يحتوينى ، فما كنت بقادر أن أصدق أن كل شيء قد انتهى ، فقدت ألى وصديقى وحبيبى ، فقدت الروح التى كانت تبعث فى الأمل والحياة ، لم تعد حياتى شيئا .. خواء .. خواء .. خواء .

وبكيت وبكيت فقد فقدت أئمن ما وهبتنى دنيائى ، وعاد أخى محمد وأحمد وفى رفقتهما طبيب كان له صديقا ، فما إن فحص الرجل عنه حتى بكى وانسل دون أن ينطق حرفا فموت ألى كان رزءا لكل من عرفه .

وجاء عمى محمد ودخل وهو واله حزين ، فما إن رأى جثمان ألى حتى وقف ينتحب ويلتدم كما تلتدم النساء . وقامت فى البيت مناحة ، الناس يتدفقون من كل صوب وحذب ليكون فما حدث كان صدمة مروعة لكل من وصل إليه النبأ الفاجع الأليم .

ولم يرقأ لى دمع طوال الليل ؛ كنت أرى إخوتى القصر وهم يكون فتفجر فى أعماق مشاعر الألم والحزن والإشفاق والرثاء ، فقد كنت أستشعر فداحة ما نزل بهم من خسارة بعد أن فقدوا ينبوع الحنان .

وانقضى الليل وجاء النهار وروحي مجللة بالسواد ويأس عميق قد استولى على وتحولت إحساساتى كلها إلى أعين تذرف العبرات ، وفاض وجدانى بالمرارة وخيل إلى فى تلك اللحظات أن دنيائى قد انتهت وأن لم يعد هناك معنى للحياة .



وراح أناس يأتون ويذهبون ويقيمون أمام الدار سرادقا كبيرا ، وجاء المعزون يشدون على أيدينا وأنا غائب عن كل ما حولي بمشاعر الحزن التي ضاق بها صدرى فراحت تفرى كبدي . وساد بيننا صمت مريب ، وسرعان ما تحول الصمت إلى صوات وصراخ وبكاء ، فخمنت أن الرجال يحملون الجثمان إلى نعشه فألهب ذلك عواطفى فرحت أجهش بالبكاء وأنا أحس أن روحى تكاد أن تفر من بين جنبى .

وخرج النعش من البيت فإذا بالرجال ييكون ، وانطلقت الجنازة فى الحر الشديد وقد أصر الرجال على أن يحملوا النعش على الأعناق من العباسية إلى الحسين مارين به على الدكان فى شارع سوق الجراية . وسرت وأنا أغسل وجهى بدموعى يزيد فى أساى أصوات النسوة التى كانت تنطلق من الشبايك على جانبى الطريق مشحونة بالحزن مجلجلة بالعويل .

ووصلنا إلى الحسين وقد امتزج عرق بدموعى ، وأدخل النعش للصلاة ووقفنا نتلقى العزاء فإذا بأكثر المعزين يأتون إلا أن ينطلقوا مع جثمان أبى حتى مقره الأخير .

كان الحر شديدا ولكن وفاءهم لأبى كان أشد ، فما إن خرج النعش من الحسين حتى استأنفت الجنازة سيرها إلى المدفن .

وحمل جثمان أبى ليدفن فإذا بى أنفجر بالبكاء ، وإذا برجال يجذبوننى بعيدا حتى لا أرى أبى وهم ينزلون به إلى مثواه الأخير . وما خفف ذلك من لوعتى فكل مشاعرى كانت قد تحولت إلى أعين ترى فداحة النكبة .

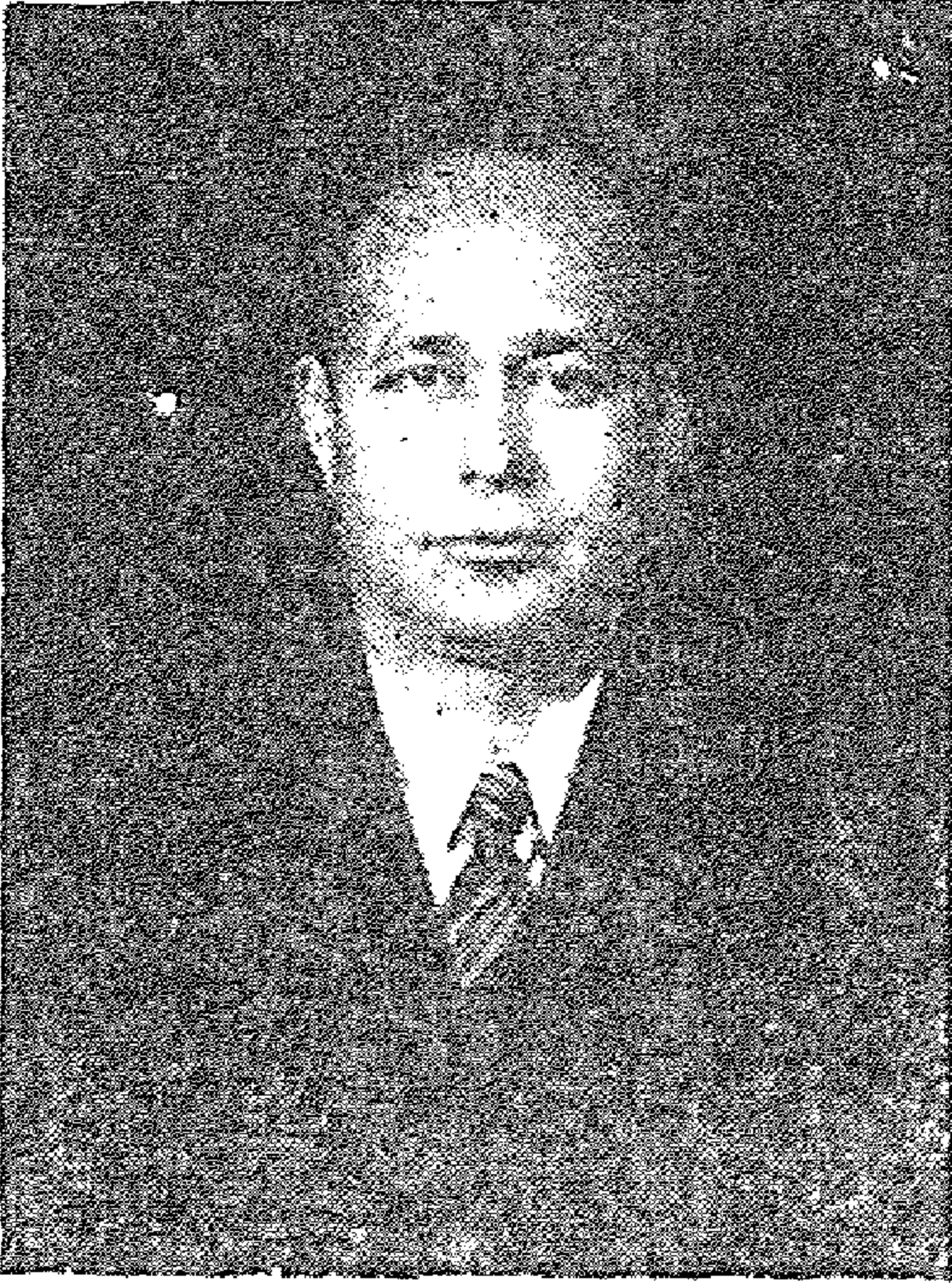
وعدنا إلى البيت بعد أن تركناه فى المدفن وحده وما كنا قد افترقنا عنه طوال حياتنا أبدا ، فجلست فى السرادق أبكى وإذا بصديق من أصدقاء أخى محمد يأتى إلى ويقول مواسيا :

— كفاية بقى ما فىش حاجة ح تتغير . البركة فى محمد ح يدفع لك كل حاجة !
وملأنى إحساس بحقارة الحياة وحقارة الناس . أيجسب أننى أبكى أبى لأنه تركنى بلا عائل ؟! أكل ما يربطنى بأبى تلك الجنيهاات التى ينفقها على وعلى زوجتى ؟
أيستطيع أحد أن يدرك مبلغ حبى لأبى وتعلقى به وأنه كل حياتى ؟ أيستطيع أحد أن يدرك أننى فقدت الصديق والناصح الأمين وحبى الكبير ؟ إننى أحس أن سفينة حياتى باتت بلا ربان وأنها قد صارت فى بحر عاصف تتلاطمها الأمواج ، ترى هل ترسو على شاطئ ؟!

٨٩

صبغت أمى بياضات كراسى غرفة الاستقبال والأرائك والملابس بالسواد ، وغطت كل المرايا بملاءات سوداء ، وحرمت طهو أصناف كثيرة من الطعام فما كان يتفق مع الحداد أكل السمك أو الحلوى أو تقديم أى من المشروبات غير القهوة السادة .
وما كان ذلك يثير فى نفوسنا أية دهشة فما كانت تقوم به أمى يعكس بعض ما فى نفوسنا من ظلام .

إننى عصر كل يوم كنت أسير فى الشارع الذى يقع فيه منزلنا حتى أصل إلى كوم الردم الذى يفصل بين الطريق الذى أقيم فيه مصنع الطرايش وبين مدفن أبى ،



فأصعد إلى قمته ثم أنحدر إلى المدفن الذى أغلقت أبوابه وأمسك حديد الشباك الخارجى بكلتا يدي وأقرأ الفاتحة ، ثم أطلق لدموعى العنان وأخذ فى مناجاة أبى مناجاة حارة . كنت أستشعر فى أغوارى أنه معى وأنه يسمعنى ، حتى إذا ما ازورت الشمس عن القبر ومالت للغروب درت على عقبى وعدت أرقى فى التل الصغير ثم أنحدر عنه إلى الطريق وأسير منكس الرأس والألم يحز فى روحي فلا يجد له منفسا إلا فى العبرات والزفرات والأنين .

وحان موعد امتحان البكالوريوس ، الامتحان الذى كنت أرقبه لأنهى مرحلة الدراسة وأبدأ مرحلة الكفاح وتحمل مسئولية بيتى ، فإذا بى أفكر فى أن أطلب تأجيله إلى الدور الثانى . وقد هممت بأن أفعل ذلك لولا أن بعض أصدقائى قد شجعنى على أن أجرب حظى فقد أنجح ، وإذا خائنتى حظى فى مادة أو مادتين فأمامى فرصة الدور الثانى . واقتنعت ودخلت الامتحان وما راجعت شيئا من دروسى . وكيف أقرأ وأستفيد مما قرأت فى جو متوتر غارق فى التعديد والدموع ، فما كانت جدتى تكف عن العويل وما كانت عمى تفعل شيئا غير البكاء وكانت أمى تسفح العبرات وزوجتى

وزوجات إخوتي قد جلسن وتسربلن في السواد وحملن رءوسهن على أكفهن .
ودخلت الامتحان ولم أستطع أن أخرج من الحالة النفسية التي استولت على .
كنت عصر كل يوم أخرج لأذهب إلى قبر أوى أناجيه وأبشه لواعج نفسي وكنت أحدثه
في أشياء ما كنت أجرو أن أفصح عنها لو كان على قيد الحياة !

ومرت أيام الامتحان وما كنت راضيا كل الرضا عن إجاباتي ؛ كان هم الممتحن
أن يعرف مدى حفظنا للكتب والمحاضرات التي بين أيدينا وكان ما حل بي كافيا لأن
يبدد كل ما حفظته طوال العام . ومرت الأيام وأنا عاكف في البيت أنتظر ظهور
النتيجة فما كنت أحب أن أذهب إلى سوق الجراية حيث أخى محمد وأخى أحمد . إننى
ذهبت إلى هناك بعد موت أوى فإذا بي أقف أمام الدكان وأنفجر بالبكاء . وجاء إلى
محمد وأحمد وأخذا يواسيانى ويطلبان منى أن أكف عن النشيج ، فجاء إلينا سى عبد
المجيد كاتب حسابات المحل وقال لهما :

— سيوه ، إذا كان مش ح يعيط عليه ح يعيط على مين ؟

واغرورقت عينا سى عبد المجيد بالدموع . إنه منذ ذلك اليوم الذى كشفت فيه عن
ضعفى أمام الملاء أثرت أن أبتعد عن المكان الذى كان كعبتى أيام أوى .
وظهرت النتيجة فإذا بي من الراسيين ؛ رسبت في المحاسبة . وذهبت إلى قبر أوى
وأفضيت إليه بنبا رسوبى ووعدته بأننى سأطوى حزنى وسأستعد للدور الثانى ، إن
هى إلا شهور وأنال البكالوريوس .

وفى أثناء عودتى إلى البيت ثار فى نفسى سؤال : ماذا سأفعل بعد أن أنال
البكالوريوس ؟ كان أوى قد وعدنى بشراء مصنع صابون فى الجمالية ليملكه لى .
أستطيع بعد أن أصبحت وحدى أن أقدم على مثل ذلك المشروع ؟ وتقاصرت
نفسى . إننى أعجز من أن أنهض بلا سند من أوى وخبرته بأى مشروع ، ماتت آمالى
بموت أوى .

كانت الأمة فى فرح لأن فاروقا قد بلغ سن الرشد وجلس على عرش إجداده وإن
الأمة لعل استعداد دائما لأن تشارك أى ملك جديد فى أفراحه ؛ فالشعب دائما يتلهف
على ظهور زعيم أو مصلح يقوده ويخرجه من الظلمات التى يعيش فيها وأن يحقق له

آماله . وقد نجحت أبواق الدعاية في أن تقنع الناس بأن فاروقا هو الأمل المرتجى ، وكانت وسامة الملك وشبابه سبيله إلى قلوب الجماهير .

ورحت أستعد لتأدية امتحان المحاسبة في الدور الثاني ، فلما خرجت من لجنة الامتحان كنت واثقا من نجاحي فرحت أفكر فيما سأفعله بعد ظهور النتيجة ، فلم أرمفرا من أن أصبح موظفا في الحكومة .

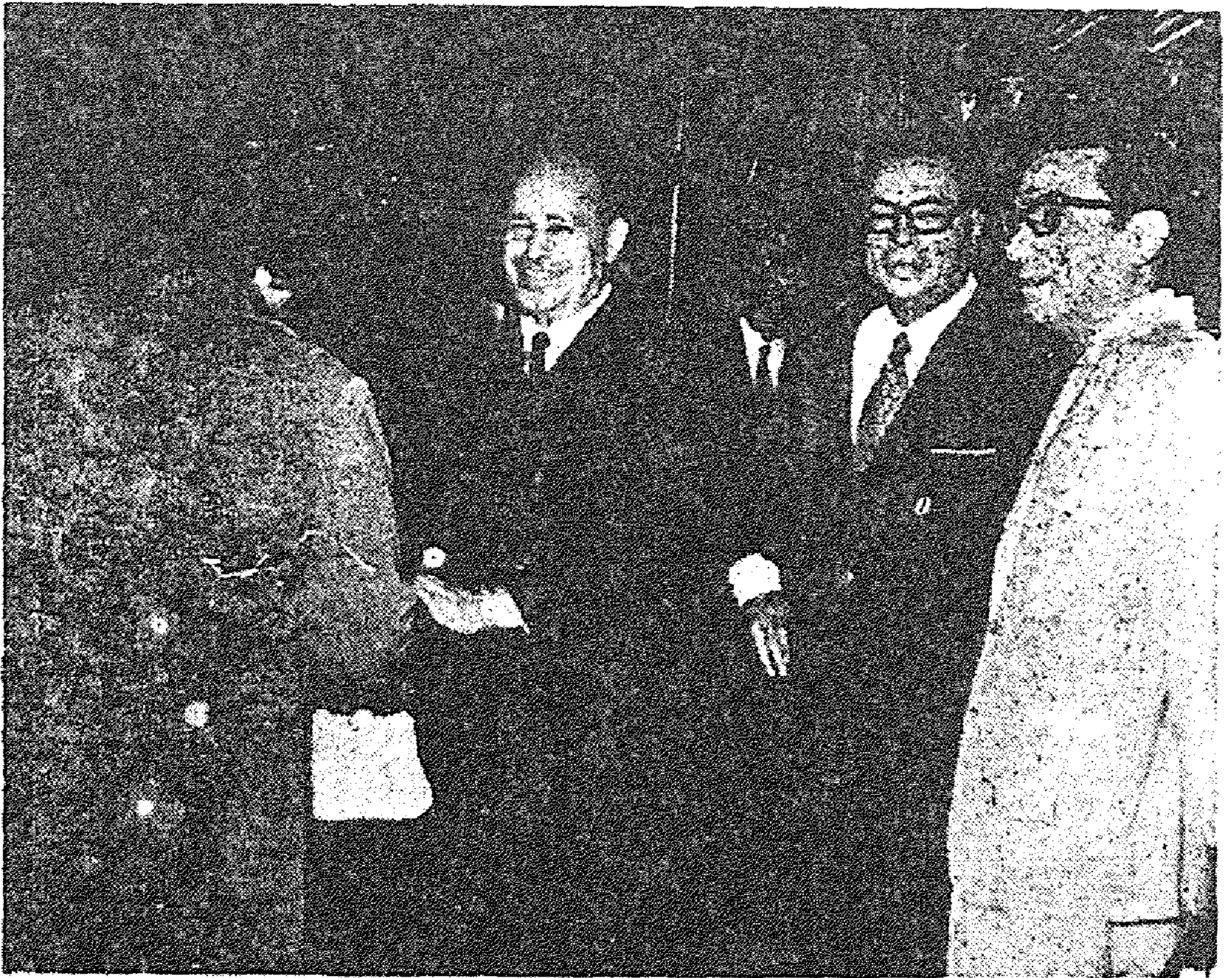
لم يعرف أحد من أسرتي من قبل طريق الوظائف ، فأهلى كلهم من التجار وطريق الحكومة يحتاج إلى وساطات وما كنا نعرف أحدا من ذوى النفوذ والسلطان ، كل ما تفتقت عنه دراساتنا وأبحاثنا أن نلجأ إلى عضو مجلس الأمة المنتخب عن دائرتنا فالرجل يعرفنا جيدا ولطالما سألنا العون في الانتخابات .

وظهرت نتيجة الدور الثاني وكنت من الناجحين ، فانطلقت أنا وأخى محمد إلى مكتب ممثل دائرتنا في البرلمان ؛ فلما فاتحه أخى في الموضوع أنكر الرجل رغبتى في التوظيف وأشار على أن أشق طريقى فى العمل الحر كما شقه أبى وجدى وكل أهلى .



وخرجنا من عند الرجل ورفضه أن يتوسط لى لأنال وظيفة فى الحكومة يصفعنا ، ولم يتسرب إلى نفسى اليأس فثقتى فى رى لم تتزعزع يوما ؛ كنت على يقين أن رزقى فى السماء و كنت قد روضت نفسى على أن أتكلم على الله فهو حسبى وأن أسلم له وجهى .

ومرت أيام وأخى محمد يبحث بين رجال النادى الرياضى الذى كان يؤمه كل يوم عن صاحب نفوذ فى الحكومة ، فوقع على موظف صغير زعم أن وكيل وزارة الحربية صديقه فاجتمعنا بالرجل فى قهوة تطل على ميدان الأزهار ، وراح الرجل يتحدث فى مواضيع متشعبة تافهة ، ظل يقص علينا كيف يختار قطعة اللحم التى يفضلها وكيف أنه يتركها فى الثلاجة خمسة عشر يوما حتى تنعم ، وكيف وكيف وأنا ضيق بحديثه فما



كنت أعرف شيئا عن الثلاجة في ذلك الوقت ، فهي نوع من الترف لا نعرفه ، إننا نأكل طعام يوم بيوم وما يفضل نضعه في الثمليّة !
وانتهت الجلسة بأن اتفقت معه على أن نلتقى في الصباح لنذهب إلى صديقه في وزارة الحربية .

وفي الميعاد التقينا وانطلقنا في تاكسي إلى وزارة الحربية ، فما استعمل أحد السيارة بعد موت أبي . كان الإضراب عن ركوبها لونا من الحداد وما كان أحد يفكر في أن يستعملها بعد أبي خوفا من غضبة أمي وثورتها .
واستأذن الرجل في الدخول على وكيل الوزارة فأذن له فأخذ بيدي ودخلنا ، وما إن جلسنا حتى راح الرجل يتسامر مع الوكيل وذكر له فيما ذكر موضوعي فإذا بالوكيل يكتب ورقة إلى مدير المستخدمين يطلب منه أن يلحقني بالعمل بالوزارة .
كانت معاهدة ١٩٣٦ قد وقعت وكانت الحكومة قد قررت تقوية الجيش ، ولما كانت اعتمادات الوظائف والسيارات هي أول ما يستخدم من الاعتمادات فقد نشطت الوزارة في تعيين الموظفين وكان من حظي أنني جئت في وقت زادت فيه الوظائف زيادة لم يكن لها سابقة من قبل .

وذهبت إلى إدارة المستخدمين فسرعان ما أعطوني كتابا أذهب به إلى القومسيون الطبي فأخذت الكتاب وتلكأت في الذهاب إلى القومسيون ، ومر يوم ويومان وأنا أتسكع أمام إدارة المستخدمين فإذا بموظف قديم يقبل عليّ وينصحني أن أسرع بالذهاب حتى أنهى مسوغات التعيين . وراح يقول لي في أسي أنني أضيع مستقبلي ، فكل دقيقة أتأخرها معناها إهدار لأقدميتي ، فالأقدمية في الحربية تحتسب بأقدمية تسجيل اسمك في الكشف الواحد . ولم أقتنع بمنطقه ورحت أسخر منه ومن الأقدميات جميعا ، ولطالما تذكرت نصيحة الرجل فيما بعد عندما حالت الأقدمية بيني وبين الترقية .
وأنتمت مسوغات تعييني وتسلمت كتابا إلى سلاح الجوى الملكي بالملاحظة ذكر به أنني قد عينت كاتبا به بالدرجة الثامنة الكتابية بمرتبة قدره ثمانية جنيهات ونصف ، وأخذت الكتاب وذهبت به إلى مكتب مدير سلاح الطيران بالوزارة فاستقبلني الرجل مرحبا وسألني عن مؤهلي ، ثم أصدر أمرا بأن يكتب للسلاح بأنني قد عينت مترجما .

وفي الليل التقيت أنا وأخي محمد والرجل الذي وظفني وإذا بأخي يخرج من جيبه ورقة مالية ويضعها في يد الرجل ، فلما انصرفنا عرفت أن الثمن الذي دفعته للحصول على وظيفتي كان خمسة جنيهات . أصبحت موظفا في الحكومة بخمسة جنيهات ويا له من ثمن !

هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزي زكي بطرس

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البجالة

Bibliotheca Alexandrina



0422591



التمن ♦

دار مصر للطباعة
سميد جودة السحار وشركاه